

كلية الآداب



المجلد الخامس والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٣

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٧





المجلد الخامس والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٣

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٧

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، فى مايو وديسمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم الأستاذ المساعد بقسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة ،

وثمن الجزء الواحد من اى مجلد ثلاثون قرشا مصريا

فهرس القسم العربى

صفحة

فى تاريخ الأديان (رؤوس أقلام)

ملخص محاضرات ألقاها الأستاذ الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي

الأستاذ بجامعة ماجل بمنتريال

فى كلية الآداب بجامعة القاهرة

المحاضرة السابعة :

مراجع دراستنا للعصر الموسوى ، هى نفس مراجع دراستنا للعصر الأبرهيمى.

خرج بنو إسرائيل من مصر عام ١٢٨٠ ودخلوا سيناء ومدين فانصهروا فى قبائلها وألفوا معهم « الحلف القبلى » . وكان للحلف القبلى هذا ايديولوجيا وقانون . أما القانون فكان القانون الحمورابى المشهور . ومعنى هذا أن الطابع العربى العراقى القديم كان محتفظا به . وأما الايديولوجيا فكانت الحنيفية متغلبة عليها . ودليل ذلك أن قوى الحلف لم تستطع دخول فلسطين من الجنوب حيث واجهت الفلسطينيين الكنعانيين ، بل تحولت إلى الشرق (أى شرقى الأردن) حيث التحمت وانصهرت مع مملكات التخوم بدون حرب أو عنف وتسللت مع رجال هذه المملكات إلى فلسطين شيئا فشيئا . ولو لم تكن النزعة الحنيفية غالبة لما نجحت فى الانصهار ولا فى التسلل إلى فلسطين . إلا أن الزعامة كانت للمهاجرين المصريين لا سيما أنهم كانوا مطرودين ، يبحثون عن مستقر لهم ، وغير راضين بمعيشة الصحراء بعد أن تعودوا الحياة فى مصر . فطبيعى أن كانوا استحثوا القبائل على الحركة والمغامرة فى سبيل مصير آخر أصلح .

ومضت ٢٨٠ سنة استطاع خلالها الحلف القبلى أن يبسط لواءه على ضفتى الأردن ما عدا شرق وجنوب البحر الميت والساحل البحرى . ففى الأول بقت مملكة أدوم متمنعة وفى الساحل تحصن الكنعانيون فى الشمال والفلسطينيون فى

الجنوب . ولم تدر إلا معارك قليلة فى الوسط الغربى والوسط الجنوبى . لقد كان التسلل مسالما وكل ما ذكرته التوراة من تخريب وقتل استئصال السكان كذب ، فهو انعكاس لروح العنصرية المتغالية فى العصور اللاحقة . وفى هذا الوقت اقتبس الحلف كثيرا . اقتبس لغة كنعان وفلسطين وهى العبرية (لهجة أرامية) واقتبس طقوس الدين من قربان وكهنوتية واقتبس الرزنامة والأعياد ولكنه أضفى عليها جميعا معنى خلاص المهاجرين من مصر على يد موسى وذلك لما كان لبنى اسرائيل من زعامة فى الحلف . أما الاله ، فبقى يهوه ، إله الجبل ، الذى كان يعبده المدينيون من قبل .

وجاء داود واستولى بمناوراته وبطولته ودهائه على عرش يهوذا وكانت مملكة صغيرة عاصمتها حبرون . وكان يحلم بامبراطورية كبيرة . عمل على توسيع الحلف القبلى تحت قيادته ، ونقل العاصمة إلى أورشليم ، التى احتلها سنة ٩٩٢ ، إرضاء لقبائل الشمال التى لم تستطب تولى يهودا على النظام الجديد . ولكى يرسى قواعد ملكه فى أورشليم ، أتى داود بالتابوت التورانى إلى أورشليم وأتى أيضا بكهنة التابوت وسدنته وعينهم أعضاء فى مجلس الدولة . فزوج بذلك الدين من الدولة . وراح كهنة داود ورجاله يختلقون النظريات لتثبيت الدولة . فقالوا أن الدولة الداودية وريثة الحلف القبلى ووريثة عهد يهوه لابراهيم . وقالوا أن يهوه اختار داود وعينه ملكا ليكون يده اليمنى فى الأرض . وأنه اختار أورشليم من دون بقاع الأرض ، سكنا خاصا له . وأنه ، أى يهوه ، قطع عهدا على نفسه بأن يجعل هذه المملكة أزلية ، تحكمها ذرية داود إلى الأبد . وأخذ بهم الهوس لدرجة الاعلان بأن يهوه لا يمكن أن يعبد إلا فى أورشليم .

لم تدم هذه المملكة سوى ٧٨ سنة ، انقسمت بعدها إلى شطرين متنازعين تحطم الأول سنة ٧٢٢ على يد الأشوريين وتحطم الثانى سنة ٥٨٦ على يد البابليين . ومنذ أن ابتدأت الأمور تتدهور ، أخذ الناس يتطلعون إلى من سيعيد البناء المتصدع ، ويخلص اليهود من الشقاء الذى نزل بهم . وهذا هو أصل المسيحية بمعنى messianism وفى منفى اليهود فى بابل ، بين ٥٨٦ و ٥٣٨ ، تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم وانبثقت منها الصهيونية بمعنى التطلع السياسى الدينى إلى العودة

إلى أرض الميعاد وتأسيس دولة داود فيها جغرافيا وسياسيا وماديا . أما عند ذوى النزعة الحنيفية ، فكان التطلع إلى مماكة روحانية ينعم العضو فيها بنعيم أزلى لكن روحى أخلاقى . وللنزعتين أنبياء . إلا أن العنصريين كانوا هم المتحكمين فطمسوا معظم آثار الحنيفيين إلى أن جاء عيسى بن مريم فأعاد الحق وبعث الحركة من جديد .

***

المحاضرة الثامنة :

كان التطلع إلى مملكة روحانية طاهرة ، والسعى اليها عن طريق تطهير الذات والعمل الخلق ، عقيدة الأسينيين فى القرنين السابقين للميلاد the Essenes ، وكانت عقيدة الأبيونين the Ebionites وهم « الفقراء اليه تعالى » فى القرن الأول للميلاد . فالمسيحية لها سابقة ومراجعها ليست الأناجيل المعروفة فحسب ، وإن كانت معروفة منذ سنة ٢٠٠ بعددها الكامل كما يقول ترتوليان . وأناجيل العهد الجديد هى فقط التى أقرتها الكنيسة لأنها متماشية مع عقيدتها . وشتان ما بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة .

لم يخلف لنا المسيح نصا مكتوبا ولا نصا محفوظا . وطبيعى أن ينشأ بعده تفهمات مختلفة للتعليم الجديد . بيد أن الجو كان حرا للجميع ، طالما أن الدولة لم تكن تسمح لأحد بالظهور العلنى بهذه التعاليم . فكانت كنائس عديدة لكل منها كيانها وتعاليمها . ولما جاءت سنة ٣٢٥ ، عقد مجلس كنسى فى نيقة لبحث العقيدة وكان مدار البحث دعوة أروس بانسانية المسيح التى انتشرت انتشارا كبيرا . فأمر قسطنطين بعقد المجلس لحل الخلاف ، فتقرر دحض الأريوسية وطرد أريوس وتأكيد ألوهية المسيح وصلبه وقيامه . وعندها أثير المسيحيون الموالون لهذه العقيدة فى كل مكان وغضب الآخرون . فالقرار قضى بأنهم غير مسيحيين .

وبعد ٥٦ سنة نزاع حول هذا الأمر ، دعا الامبراطور ثيودوسيوس إلى عقد مجلس كنسى آخر فى القسطنطينية للنظر فى أمر الكنائس التى لم تتقبل قرارات

نيقة . وهنا أول ما قرره هذا المجلس هو اعتبار المسيحية لا كأنها تعاليم المسيح فحسب بل كأنها الدين الذى تتفهمه الكنيسة المرضى عنها . وكأنها تقول · ليست المسيحية تعاليم المسيح أو دينه ، بل دينه كما أفهم أنا ويفهم رجالى . وطبعا اعتبر الآخرون أن القرار الثانى مجحفا أكثر من الأول واستمرت الاختلافات العقائدية . كلما حاولت الأرثوذكسية (أى العقيدة أوالكنيسة الحاكمةمدعية أن عقيدتها هى الصادقة) أن تقضى على نزعة ما ، ظهرت نزعة أخرى تتصدى لها .

فما هى المسيحية ؟ هل هى إيمان المنتصرين فى هذه الجلسات الكنسية والمنتصرين سياسيا فى التاريخ ؟ أم هل هى إيمان الآخرين الذين لم يوافهم الحظ ونسيهم التاريخ ؟ هنالك راى بأن نرجع إلى النصوص الدينية ونتلمس الحقيقة فيها كنصوص دينية — تاريخية . ولكن إن كانت الأناجيل مرجعنا ، حتى وإن أضفنا إليها الأناجيل المكتشفة وغير المقدسة ، فهى لن تعطينا فكرة واحدة بل مجموعة من الأفكار المتناقضة . فأى منها هى المسيحية ؟ فلو أخذنا مثلا الوعظ على جبل الزيتون بداية وقاعدة (إصحاح ٥ من إنجيل متى — أو الطوبيات) وتمسكنا بكل ما يتفق مع هذا المذهب ورفضنا مالا يتفق لخرجنا إلى مسيحية مغايرة للأرثوذكسية . لكن هذه لن تكون إلا رأيا من الآراء . فلو ابتدأنا من إصحاح أو وعظ آخر ، لتوصلنا إلى مسيحية أخرى . فلم نبدأ من هنا ولا نبدأ من هنالك ؟ لا بد إذا من الرجوع إلى التاريخ ، لا إلى النصوص الدينية المقدسة ونتبين نشأة الدين المسيحى فى مجرى التاريخ .

وفى رجوعنا إلى التاريخ نوقن أن المسيحية دين الله ونوقن أن المسيحية لم تأت فى فراغ ، بل ضمن أحوال وظروف تاريخية معينة . لأن الله ، أراد أن يبعث للبشر برسالة ، يبعث بها فى وعاء ، وهذا الوعاء هو التاريخ والواقع . ثم علينا أن نتقيد بمبدأ أن ما ندرسه يجب أن يتفق مع تاريخ الوحى . والأرثوذكسية تتقبل التاريخ لأنها تدعى أنه الممهد والمقدم للمسيح كما عرفته . وهذا هو المبدأ الذى تسميه تاريخ الخلاص Heilsgeschichte وطبيعى أن تاريخ الوحى يشير دائما إلى تدرج وارتقاء وزيادة لا إلى رجوع إلى الوراء أو تغيير فى إرادة الله . فماذا يقول تاريخ الأديان فى تاريخ المسيحية ؟

يتبين تاريخ الأديان خطين عريضين . منذ أن انتقل إلى عند الله : نشأ بين أتباع المسيح حزبان : حزب تفهم رسالته تفهما عقليا ، تاريخيا وآخر تفهمهما بشكل لا عقلى ، لا تاريخى . واستمر التياران يقويان ، يلتقيان أحيانا ويتصارعان غالبا . توسع الأول فى الشرق وتوسع الثانى فى الغرب ، مع أنها فى الأول لم تكن لهما حدود جغرافية . وبعد أن أصبحت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية توسع الثانى بسرعة هائلة وأخذ يطارد الحزب الآخر ويستأصله بالقوة . ولم « ينته » الحزب الأول إلا بعد أن جاء الاسلام ودخل معظم أعضائه فى الدين الجديد وبقى الشمشطائيون the Panlicians يتحصنون فى جبال أرمينيا والقوقاس حتى القرن التاسع إلى أن قضى عليهم فى مذبحة فظيعة . ولكن ، ما هى فحوى هذين الحزبين ؟ والحزبان هما : المسيحية العربية والمسيحية الغربية .

***

المحاضرة التاسعة :

انقسم الحزبان تبعا للأجوبة التى أجابوها على الأسئلة التالية . أولا : منهاجية التفهم . بينما قالت المسيحية العربية بالعقل ، قالت المسيحية الغربية بخرق العقل « بالمعجزية » . فقالت الغربية مع بولس ، (راجع رسالة بولس الأولى إلى كورنثس ١ : ٧ — ٢٠) ، ومع ترتوليان : « أرسطو الملعون الذى علمهم الفلسفة فن العمار والدمار . . . أين الشبه بين أثينا أورشليم ؟ . . . لنقذف بكل تفسير للمسيحية ، . . . ونكتفى بالمسيح المصلوب فلا نبحث بالأناجيل شيئا . وقالت العربية ، مع جوستين مارتير ومالكيون وغيرهما بأن المسيح هو العقل والعقل هو المسيح ولا بد لكل من آمن بالواحد أن يؤمن بالآخر . ثانيا : ماهية المسيح . فبينما قالت العربية ، على لسان الأبيونيين ، وهم الأسينيين الذين هداهم عيسى ابن مريم إلى دينه الجديد (وقد عرفوا بهذا الاسم فى حياة المسيح — والاسم يعنى « المفتقرين ») بأن المسيح بشر ورسول ، قالت الغربية ، على لسان ترتوليان وأثناسيوس وأوغسطين بأن المسيح هو الله فبست بالتوحيد ، وقالت بأنه بشر فبست بالعقلية متجهة نحو المعجزية . وقد حاولت العربية أن تتفاهم مع أختها فأخرجت

على لسان الغنوصيين مبدأ إشراق المسيح عن الله ، وحلول الله فى المسيح عن طريق التقوى والحكمة إلا أن الغربية رفضت هذه النظريات أيضا . ثالثا : مركز ملكوت الواقع . فبينما قالت العربية بخيريته وواجب تكميله على الانسان وتمثلت المسيح كزعيم هذا المبدأ ، راحت الغربية تقول بأن المسيح عادى الجسم وتنكر للحياة ، أن الخطيئة أو « الكبيرة » لازمة على البشر أجمع حتى الأطفال لأنها من طبيعة البشر وأن التخليص قد حصل بالفعل فلا واجب يقع على الانسان بتكميل العالم . وقع هذا الواجب لا على الانسان بل على الله وقام به بارسال ابنه المسيح ، على أكمل وجه . (راجع رسالة بولس الأولى إلى كورنتس ، ٧ : ١ — ١٠ ، ورسالته إلى أفسس ، ٢ و ٣) . رابعا : عالمية الرسالة . فبينما قالت العربية بأن رسالة المسيح إلى البشر أجمع ، قالت الغربية بأنها فقط لأصحاب الكبائر من الاسرائيليين فى حياة المسيح ، وأن خلاص المسيح لمن يؤمن به فقط بعد ذلك ، فتحول الايمان إلى ميزة وانفرادية جديدة . ولما تبنت الدولة الرومانية الدين ، شيدت انفراديتها على أساس الايمان بما تقوله كنيستها المرضى عنها .

ويقول تاريخ الأديان : إن الآباء الرسوليين فى القرن الأول ، تفهموا المسيحية كما تفهمها النزعة العربية . وكانوا قد أولو التوراة تأويلا مجازيا لجعلها مسايرة للدين الجديد . وبما أن الثقافة الغالبة كانت الفلسفة الأغريقية ، استخرجوا من التوراة ما سبقهم اليه الأسينيون والأبيونيون وقالوا بمملكة روحية تتفق على المبادىء الأربعة الرئيسية المؤلفة للنزعة العربية . فتفهمهم للمسيح ، كان تفهما تاريخيا . فاليهود ، فى عهد المسيح ، كانوا فريسيين وصدوقيين وكتبة . ووصفهم المسيح فى إنجيل متى ، أصحاح ٢٣ . فهناك أزمة روحية جاء المسيح ليعمل ضمنها على حلها . فتفهدوا المسيح كرسول مبدأ الأخوة البشرية ضد العنصرية السقيمة وصاحب القول بأن لا أب فى الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات . « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم . . . وعلموهم ما أوصيتكم به » .

ويقول التاريخ بأن المسيح حل قضية تمسك اليهود بحرفية القانون بقلب ميزان الأخلاق . فليس الأمر أن يأتى الانسان بظواهر الأشياء بل أن يصلح إرادته ويوجهها إلى الله تعالى . المطلوب هو ثورة داخلية . فالمسيح علم « تدخيل » الميزان

الأخلاقي أي جعله مناطا بالارادة والضمير الشخصي ، لا بالظواهر التي شرعها القانون . إذا ، يتبين تاريخ الأديان التوحيد الصحيح ، والعقلية وخبرية الواقع والعالمية في تفهم القرن الأول – لاسيما تفهم الآباء الرسوليين . ويتتبع تاريخ الأديان دفاع المسيحية الغربية فيرى أنها أولا : نقضت معنى الوحي السائد بتغييره من « هكذا تكلم الرب » كما هو في العهد القديم ، إلى « هكذا فعل الرب » . فالرسالة في نظرها ليست رسالة بل عملا قام به الآله . ثانيا : وتفسر هذا العمل الآلهي بأنه أصبح ضروريا عندما حاول الله جميع الطرق بما فيها الطوفان لتخليص البشر فلم يفلح ، وبهذا تنقض تاريخ الوحي . ثالثا : وتنسب إلى هذا العمل إتمام كل ما يقوم على البشر أجمع من التزامات وواجبات . فالتخليص fait accompli وكل ما على الانسان أن ينشر نبأ هذا العمل الالهي . بذلك تنقض معنى التاريخ كله .

ويرى تاريخ الأديان أن انتشار المسيحية الغربية في الغرب في وعاء مفاهيم الدين الأغريقي ، وانتشار المسيحية العربية في الشرق في وعاء مفاهيم الدين العربي القديم ، ليس صدفة .

***

المحاضرة العاشرة :

جاء الاسلام (العصر المحمدي) في الوقت الذي كانت فيه الحنيفية (في قالب المسيحية – العربية) على وشك الضياع . وانتشر بسرعة فائقة . ويرى تاريخ الأديان أن سرعة الانتشار هذه لها أسباب تاريخية ، أهمها حنيفية العقلية وفلسفة الحياة في الشرق العربي ، وإن كانت أغلبية سكانه مسيحيين . فالاسلام جاء تأكيدا لهذه الحنيفية المتأصلة في النفوس ، فكان أن نزعت عن نفسها قشور المسيحية الغربية وعادت إلى أصولها . وانتشر الاسلام بنفس السرعة الخاطفة في الأندلس لأنها ، إلى عهد قريب جدا منه ، كانت مسيحيتها أريوسية (سنة ٥٨٩) . وبقيت هذه النزعة قوية حتى في بيزنطة (لنذكرا أعمال ليو the isaurian فقد كان مسيحيا غربيا . ولم ينتشر الاسلام في قلب أوروبا – اليونان وروما وغيرها – لأن

عقليتهم لم تكن تتجاوب معه .. وكذلك لم ينتشر فى جنوب آسيا وشرقها إلا بعد أن تهند عن طريق التصوف .

وفى هذه الظروف التاريخية ، جاء الاسلام ، أولا ، مذكرا ومؤكدا لما جاء من عند الله من قبل ، ودافعا لافتراءات أهل الكتاب . « يا أهل الكتاب . قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب . . . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله . . . » الخ ، ثانيا : قاضيا بوضع حد لا للافتراء فحسب ، بل لسوء التفهم المخلص . لذلك ، جاء بكتاب تملى إملاء ، يكون نصه بمثابة الصخر الذى لا يتغير بتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخى لقداسة لغة القرآن وحروفه . فبحصر القرآن باللغة العربية ، حصرت مبادىء التفهم فلا خوف من تغريق أو ترويم وتفريس أو تهنيد أو تأنكلز أوتألمن أو تفرنس الدين ، وثالثا : معلنا أزلية ماهية الدين وجوهره فقط . أما كيفية التحقيق فيجب على الانسان أن يتبينها ويخططها لنفسه لأن الانسان بلغ مبلغ الرشد والعقل . صحيح أن الاسلام وضع شيئا من الكيفيات — ما نسميه بمقادير القرآن — إلا أنها وإن كانت قرآنية ، فهى ليست من جوهر الدين . ولا بد لنا من التمييز بين عدد من الطبقات فى القرآن . فليس كل ما فى القرآن على مستوى واحد ، وفيه ، لاهيرارشية من القيم فحسب ، بل ما هو قيموى وما هو وصفى ، ما هو إخبارى وما هو ناموسى .

ويتبين تاريخ الأديان فتوحات جديدة فى الدين والأخلاق جاء بها الاسلام ارتقاء وتقدما على ما سبقه من رسالات إلهية وأن اتفق معها فى جوهر الرسالة .

قام المسيح « بتدخيل » الميزان الأخلاقى . وجاء الاسلام يؤكد هذا التدخيل . إلا أنه قال إن على المرء ، بعد أن يحقق المبدأ المسيحى ، يجب عليه أن يدخل الزمكان فيحرك القوى الكامنة فيه ويوجهها إلى ما يكمل خيرية الملكوت الواقع . فهذا هو « تخريج » المبدأ الأخلاقى — لكنه ليس العودة إلى « خارجية » القانون اليهودى — الذى نقضه المسيح . هو بناء فوق بناء المسيح .

وقام المسيح بارساء العالمية على قاعدة « داخلية الضمير والارادة » . وهى عالمية لا شك فى قيمتها وإمكانيتها . وجاء الاسلام يطالب بعالمية مبنية على إجماع

ضميرى — وإرادى وفعلى . فقال الاسلام بالأمتية ، أى إجماع العالم الثلاثى هذا ، لأن تحقيق تكميل ملكوت الواقع لن يأتى إلا إذا كان جماعيا (الأمة مختبر الاكتشاف وحقل تحقيق الخير أو الارادة الالهية) وفعليا .

وجاء الاسلام يقول بالأخوة العالمية تحت القانون الأخلاقى العام ، أى أن على المسلم أن يحقق ، ضمن الاجماع الثلاثى والعمل الأمتى ، لا أخوة عالمية مبنية على نسبية الثقافات والهويات ، بل على قانون أخلاقى واحد . لا على تفهم نسبى لارادة الله ، بل على القانون الواحد . فالاسلام ذروة الروح التى حركت سومر وأكاد وسرجون وحمورابى وابراهيم وموسى .

ويقول تاريخ الأديان ، آخرا ، أن الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تكن مألوفة وإن كانت أصولها راسخة فى الروح العربية ، هى الدعوة اليه عن طريق تربية الأخ الأكبر لأخيه الأصغر ، وللتربية طريقان ، الكلمة والفعل المثلى .

البرتغاليون فى غرب إفريقيا

للدكتور ابراهيم على طرخان
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بجامعة القاهرة بالخرطوم

الاتصال القديم بين غرب أفريقية والعالم الخارجى ــ رحلات الكشف القديمة شهرة امبراطورية مالى الاسلامية وأثرها فى محاولة التعرف على قلب أفريقية ــ مدرسة ميورقة وما صدر عنها من خرائط ــ أوربا والاتجاه البحرى ــ عودة آنسلم ١٤١٣ وأثرها ــ هنرى الملاح (ت ١٤٦١) وجهوده ــ معهد ساجر Sagres البحرى (١٤١٩) ــ مشروع هنرى للكشف الجغرافى وأهدافه التجارية والاستعمارية والدينية ــ رحلات الكشف البرتغالية بعد الاستيلاء على سبتة (١٤١٥م) وصول أول شحنة من الذهب والعبيد إلى أوربا ١٤١٢ م ــ استمرار الكشوف البرتغالية على ساحل غربى أفريقية ــ الكشوف بعد وفاة هنرى ــ بناء القلاع والحصون ــ حصن المينا ــ (١٤٨١ ــ ١٤٨٦) ــ محاولات البرتغاليين للاتصال بالداخل وعوائقها ــ رحلات الأوربيين فى الداخل ــ مالفانت الجنوى فى توات ــ جيوفانى فى جنى ــ بند تودى الفلورنسى فى تمبكتو ــ أول محاولة للبرتغاليين (١٤٤٥) ــ ديجو جوميز (١٤٥٠) وكادا موسنو (١٤٤٥ ــ ١٤٥٧) والمعلومات عن الداخل ــ البرتغاليون يقبضون على أمير من الجاف (١٤٨١) ــ الدول الاسلامية المعاصرة فى غربى أفريقية ــ استغاثه مالى بالبرتغاليين ــ البعثات البرتغالية إلى بلاط مالى ــ البعثات البرتغالية إلى بلاط سنى على ملك صنغى الاسلامية (١٤٨٧) ــ عدم جدوى الاتصال بالموش Mosi ــ بناء المحطات التجارية البرتغالية فى الداخل وعلى الساحل بين غمبيا وبنين ــ الأسماء البرتغالية على معالم ساحل أفريقية الغربى ــ فتح أفريقية للاستعمار الأوربى الحديث .

الاتصال بين أفريقية ، جنوبي الصحراء ، وغربيها بصفة خاصة [1] وبين العالم الخارجي ، ظاهرة قديمة ومستمرة منذ الأزمنة السحيقة ، وقد دلت الآثار المكتشفة حديثا ، على أن غربي أفريقيا ، كان مركز نشاط ومدنية ، منذ أقدم العصور . بل هناك اعتقاد ، بأن أقدم الصناعات الأوربية التي ترد إلى العصر الحجري القديم ، وفدت من تلك البقعة ، عن طريق البر ، مذ كانت الصحراء خصبة مسكونة من نحو ٤٠ ألف سنة ، ودلت كذلك على أن صناعة الحديد قديمة في تلك البلاد [2] .

وتدلنا الكشوف الأثرية الحديثة أيضا على أن الأثر الشرقي عامة ، والمصري ، على وجه الخصوص ، كان بارزا في مدنية تلك البلاد منذ القدم ، فهناك حيوانات مستأنسة ونباتات وصناعات وفنون ، وصلت من مصر إلى غربي أفريقية [3] .

نشطت حركة المواصلات والتبادل التجاري بواسطة طرق القوافل التي تملأ الصحراء الكبرى ، على مر القرون ، وساهم الفينيقيون بقسط كبير في نقل منتجات وسط أفريقية وغيرها ، إلى بلاد البحر المتوسط وأوربا بعد أن تصل إلى موانئ شمالي أفريقية [4] .

ازدادت النقلة من وإلى بلاد السودان الغربي والأوسط ، على أثر دخول الجمل أفريقية ، إذ قلت أخطار الرحلات ، كما قلت المخاوف التي تكتنف السفر داخل الصحراء ، وهذا عامل نفسي هام ، ولوحظ هذا الازدياد وهذا النشاط منذ القرن الرابع الميلادي تقريبا [5] .

وبزيادة الاتصالات وسهولتها ، كثرت هجرات غربية من الشرق وشمالي أفريقية إلى بلاد السودان جنوبي الصحراء ، ولا سيما بعد ظهور الاسلام ؛ فبعد الفتح العربي الاسلامي لمصر عام ٢٠ هـ — ٦٤١ م وما تلاه من فتح شمالي أفريقية ، وصلت حملات اسلامية إلى منطقة كاوار Kawar قرب بحيرة تشاد حوالي عام ٤٦ هـ — ٦٦٦ م وإلى السنغال حوالي عام ١٠٢ هـ — ٧٢٠ م ، وأدت هذه التحركات إلى دفع المسلمين شمالا حتى الأندلس وفرنسا ، وجنوبا إلى قلب الصحراء [6] ، وأدت من ناحية أخرى إلى استقرار أعداد كبيرة منهم في بلاد السودان ، على حافة الصحراء الجنوبية ، وإلى اختلاط هؤلاء بالسكان الأصليين ،

مما كان له أكبر الأثر في تغير ألوان الزنوج ، عبر القرون ، في تلك المناطق ، حتى كان استخدام كلمة « أسود » للدلالة على سكان مناطق السافانا جنوبي الصحراء أدق من استخدام كلمة « زنجي » (٧) . ولكثرة الآثار الشرقية والاسلامية وتنوعها في العصر الإسلامي ، ظل العالم الأوربي لبضعة قرون ، يعتقد أن بلاد السودان والصحراء في شماليها ، ليست سوى جزء من البلاد الداخلة في نطاق العالم الاسلامي (٨) .

ومع هذه الاتصالات والآثار التي لم تنقطع في أي فترة من فترات التاريخ ، قامت محاولات قديمة ، قدم هذه الاتصالات ، للكشف الجغرافي والتعرف على أحوال تلك البلاد وغيرها .

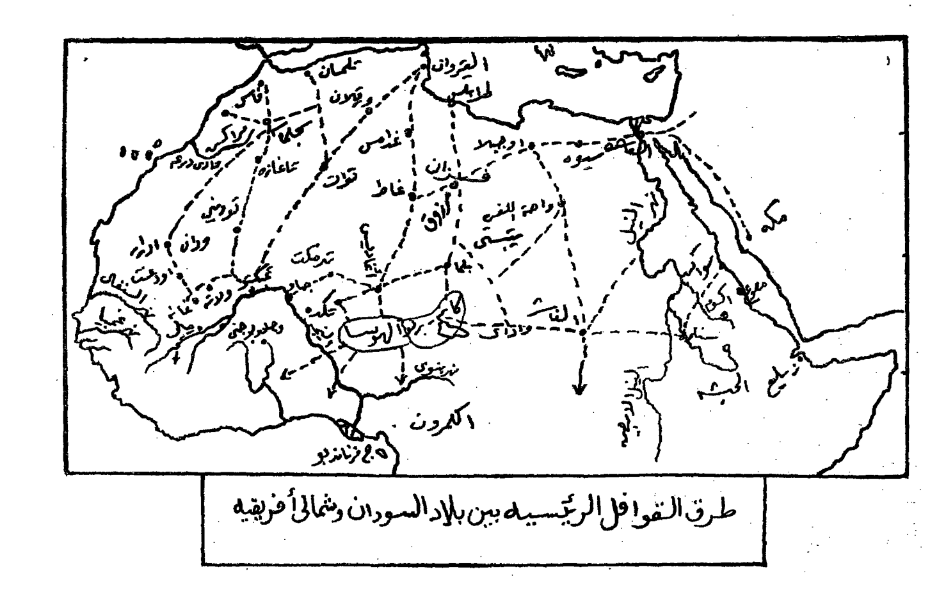
وقد أشار فريق الكتاب القدماء ، إلى بعض هذه المحاولات ، ومن هؤلاء الكتاب هيرودوت (ت حوالى ٤٥٠ ق . م) ، واسترابو (من حوالى ٦٤ ق . م. إلى ١٩م) ، وبليني الكبير (٢٣ – ٧٩ م)،وبطليموس (القرن الثاني الميلادي) . وأقدم رحلة قامت للطواف حول أفريقية تمت حوالى عام ٦٠٠ ق . م . ، بأمر من نخاو الثاني فرعون مصر ، إذ قال : أعتقد أنه من الممكن الابحار حول أفريقية ، أنظروا إذا أمكن ذلك . قامت الرحلة بقيادة قبطان فينيقي هو إيثوبال الصوري Ithobal of Tyre من سواحل شرقي أفريقية إلى جنوب القارة إلى غربها إلى البحر المتوسط إلى مصر . واستغرقت ثلاث سنوات ، ويقال إن أعضاء هذه الرحلة ، زرعوا وحصدوا على سواحل أفريقية خلال رحلتهم (٩) .

وقام الملك هانون Hannon القرطاجني برحلة على ساحل غربي أفريقية حوالى عام ٤٨٠ ق . م . ، خرج فيها على رأس ستين سفينة ، ووصل إلى منطقة السنغال ، وما هو غينية الحالية (١٠) . وهناك رحلة تنسب إلى نبيل فارس إسمه أسبامترس Aspamithrès ، فيقال إنه بعد أن أعدم الملك الفارسي المشهور إجزرسيس Xerxes عام ٤٦٥ ق . م . ، كفر عن فعلته بالطواف حول أفريقية (١١) . وفي زمن هانيبال Hannibal (ت حوالى ٤٠٦ ق . م) ، وجدت كميات كبيرة من العاج وعدد من الزنوج من الأفريقيين في إيطاليا وصقلية واليونان ، مما يدل على استمرار الإتصال والرحلات (١٢) .

ومن الرحلات التى تمت برا ، عبر الصحراء ، رحلة تنسب إلى خمسة شبان من النسامونيين Nasamones البربر ، خرجوا من قرب برقة ووصـلوا إلى النيجر إلى قرب تمبكتو . وفى العهد الرومانى ، فى شمالى أفريقية ، قام بعض قادة الرومان برحلات فى قلب الصحراء تجاه بلاد السودان ، ومن هؤلاء القادة : سويتونيوس بولينوس Suetonius Paulinus الذى توغل حوالى عام ٥٠ ق . م . حتى نهر جر Gir جنوبى سلسلة جبال أطلس ، وفى عام ١٩ ق . م . أرسل الرومان حملة وصلت إلى حدود السودان ، ويقال إن القائد الرومانى سبتيموس فلاكوس Septimus Flaccus قائد الحملة ، قام من جرمة Gèrma فى فزان ووصل إلى تلك البلاد فى رحلة استغرقت ثلاثة شهور ، ويقال كذلك إن الجمل استخدم فى تلك الحملة لأول مرة (١٣) .

أى أن محاولة التعرف والاتصال بغرب أفريقيا ، أمر قديم ومستمر ، وكلما ازداد الاتصال ، وازدادت المعرفة بثروات تلك البلاد ، كلما اشتدت الرغبة فى الاتصال المباشر . ومنذ القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا ، كانت أوربا جادة فى التعرف على قلب أفريقية ، والحصول على المزيد من منتجاتها ، بدليل أن ملوك النورمان فى صقلية وجنوبى إيطاليا ، كانوا يشجعون تجارهم على تنمية علاقاتهم الخارجية مع شمالى أفريقية ، فتاجر النورمان مع مسلمى الشمال الأفريقى ، وتبعهم أهل بيزا وجنوه والبندقية ، وكذلك البروفنسيون من جنوبى فرنسا ، وعقد هؤلاء جميعا معاهدات تجارية مع مسلمى شمال أفريقية ، ونشطت حركة التبادل التجارى بين شاطىء البحر المتوسط ، غير أنه لم يكن من الميسور على تجار أوربا المسيحيين وممثليهم ، أن يتصلوا بقلب أفريقية اتصالا مباشرا ، فلأسباب دينية وتجارية ، أصر المسلمون فى شمالى أفريقية على احتكارهم المطلق للقيام بدور الوسيط مع الأقاليم الداخلية فى أفريقية عبر الصحراء(١٤) . ولذلك اقتصر نشاط التجار المسيحيين على المنطقة الساحلية . وفى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى سمح لبعض جالياتهم وبعثاتهم الدينية التبشيرية بالاستقرار فى مراكش (١٥) .

من أجل هذا ، ظلت المعلومات عن قلب أفريقية وقفا على المسلمين وبعض اليهود الذين كانوا منذ القدم ، يكونون عنصرا هاما من سكان المغرب ، ومن



طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان وشمالي أفريقية

المغرب تسرب عدد كبير من اليهود إلى الواحات الصحراوية حتى بلاد السودان ، ويقال إن اليهود أسبق من البربر فى سكن واحات الصحراء الداخلية ولا سيا واحة توات Tuat [١٦] .

ثم إن شهرة امبراطورية مالى الاسلامية وعظمتها فى القرن الرابع عشر الميلادى ومن قبلها شهرة امبراطورية غانة بذهبها وتراثها ، قد بهرت أوربا [١٧]. بل إن عظمة مالى وحدها زمن السلطان كنكن موسى (٧١٢ — ٧٣٨ هـ/١٣١٢ — ١٣٣٧م) كانت من العوامل الهامة التى حفذت أوربا على ضرورة الاسراع فى محاولة الوصول إلى قلب إفريقية عن طريق غير الطريق الذى يتحكم فيه المسلمون ، ولا شك أن التجار الأوربيين المقيمين قرب ساحل أفريقيا الشمالى قد شهدوا موكب حج السلطان موسى ، وهو فى طريقه إلى الأرض المقدسة ، ورأوا فخامته وعظمته وما يحمل من ذهب ويصحب من أتباع [١٨]. والدليل على أهمية أخبار مالى وعظمتها وحادث موكب حج السلطان موسى ، فى محاولة الأوربيين للوصول إلى بلاد الذهب ، أن صورة هذا السلطان وموضع امبراطوريته والطرق المؤدية اليها ، قد ظهرت فى معظم خرائط العالم Mappae Mundi التى صدرت عن علماء مدرسة ميورقة ، وغيرهم من علماء أوربا فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، بل وفى بعض خرائط القرن السادس عشر [١٩] .

جاءت الخطوة العملية الهامة فى سبيل التعرف على قلب أفريقية والوصول إليه ، فيما سهمت به مدرسة ميورقة ، وما قدمه علماؤها من خرائط جغرافية . ومع أن هـذه الخرائط لا تمثـل سوى مرحلة متواضعة من التقدم [فى المعلومات الجغرافية ، وأن أهدافها الكبرى كانت تجارية ، ولا تخلو من ركاكة وغموض فضلا عن قلة أهميتها من الناحية الطبوغرافية ، إلا أنها أزالت ، على كل حال ، بعض الغموض المحيط بطرق الوصول إلى قلب أفريقية ، كما أنها كشفت عن حقائق تتعلق ببعض المدن الأفريقية التى ازدهرت وذاعت شهرتها فى أوربا الوسيطة وفى العالم الاسلامى ، مثل تمبكتو ومالى وجاو ، ثم هى من ناحية أخرى أفادت فى تقدم علم رسم الخرائط Cartography فى أوربا ولا سيا فى ايطاليا ، ومن ثم ظهرت خرائط أخرى أكثر دقة بددت الظلام المحيط ببلاد السودان فيما وراء الصحراء [٢٠] .

كانت جزيرة ميورقة ، وهى أكبر جزر البليار ، خاضعة لسيادة المرابطين ، وقد زالت هذه السيادة على يد جاك الأول ملك أرغونة عام ١٢٢٩ م ، ومن بقى من المسلمين فيها تحت حكم المسيحية الجديد ، طرد نهائيا منها فى عام ١٢٨٧ م على يد الفونسوا الأول ملك أرغونة (٢١) .

أما اليهود الذين كانوا فى طاعة المسلمين بالجزيرة ، فقد قبلوا الدخول فى طاعة المسيحيين ، وظلوا بالجزيرة إلى أن طردوا منها آخر الأمر أواخر القرن الخامس عشر الميلادى زمن فرديناند (ت ١٥١٦ م) وإيزابلا ، (تزوجا منذ عام ١٤٦٩ م) ، فهاجر هؤلاء اليهود وعبروا إلى أفريقية ، وتوغل الكثير منهم فى قلب الصحراء ، ومنهم من وصل إلى بلاد السودان (٢٢) .

اشتهر يهود ميورقة باجادتهم لفن رسم الخرائط ، بل كادوا يحتكرون هذا العمل ، واستفادوا من المعلومات التى أمدهم بها أشقاؤهم عبر الزقاق ، وفى ذلك الوقت كانت تجارة ميورقة مع أفريقية مزدهرة بسبب علاقات الود التى دعمتها المعاهدات التجارية القائمة بين أرغونة وبلاد شمالى أفريقية (٢٣) ، اعتمدوا كذلك على المعلومات الجغرافية التى أوردها الجغرافيون والرحالة المسلمون عن الصحراء والنيجر وطرق القوافل أمثال المهلبى (القرن العاشر الميلادى) ، والبكرى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، والبيرونى (القرن الحادى عشر الميلادى) والادريسى (القرن الثالث عشر) ، وابن سعيد وابن فاطمة (القرن الثالث عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر) وغيرهم (٢٤) ، كذلك برع اليهود فى صنع الساعات وبعض الآلات البحرية والمزاول (٢٥) .

وخلال القرن الرابع عشر الميلادى ، أقام اليهود فى ميورقة ، مدرسة لفن رسم الخرائط ، ومن أشهر رسامى الخرائط من يهود ميورقة آل كرسك Cresques، وأول من برز فيهم أبراهام كرسك Abraham Cresques (ت ١٣٨٧ م) الذى كان يشغل وظيفة منجم فى قصر ولى عهد مملكة أرغونة ، وهو حنا الطفل Jean ، وذلك فى برشلونة ، وقد نجا إبراهام من المذبحة التى حلت باليهود المشتغلين بالدراسات الوثنية فى برشلونة (٢٦) .

أقام آل كرسك مدرسة لرسم الخرائط فى جزيرة ميورقة ، وأقدم خريطة ظهرت فى ذلك الوقت لعلماء ميورقة ، خريطة العالم أنجلينو دلكرت Angelino Dulcert عام ١٣٣٩ م ، وأشارت هذه الخريطة إلى قلب أفريقية ، وأظهرت ملك مالى Rex Melly جالسا على عرشه ، والمهم أن هذه الخريطة أشارت إلى الطرق الموصلة إلى بلاد مالى ، بلاد الذهب ، أو بلاد مانسا موسى ، كما أوضحت جبال أطلس يقطعها وادى السوس المؤدى إلى بلاد الزنج (٢٧) .

ثم ظهرت خريطة العالم البندقى بيزيانى Pizzigani فى عام ١٣٦٧ م ، وظهرت فيها كذلك جبال أطلس ووادى السوس الذى يقطعها ، وأوضحت كيف تتدفق السلع من مالى عن طريق هذا الوادى (٢٨) .

ومن أهم الخرائط التى ظهرت عن يهود ميورقة ، خريطة أبراهام كرسك التى ظهرت حوالى عام ١٣٧٥ م ، وهى المشهورة باسم « الخريطة القطالونية » أو « الأطلس القطالونى » catalan Map or Catalan Atlas أوضحت هذه الخريطة قلب الصحراء ، وفيها ملك مالى أو موسى مالى Musa Mali « سيد زنوج غينية » Lord of the Negroes of Guinea ، وعليها عبارات تدل على وفرة الذهب فى بلاده . كذلك ظهر فى هذه الخريطة جبال أطلس والوادى الذى يخترقها ويسلكه التجار الذاهبون إلى بلاد السودان ، وليس هذا الوادى سوى طريق القوافل الغربى العظيم المار من سجلماسة إلى الجنوب عبر الصحراء ، وهو أكثر الطرق استخداما من قبل سكان شمالى أفريقية منذ أقدم العصور (٢٩) .

ومما أثار دهشة الأوربيين ، ظهور بعض المدن التاريخية الأفريقية المشهورة على هذه الخريطة مثل : تغازه Tagaza وتنبكت Tenbuch ومالى Ciutat de Mali وجاو Gegeu ، مما أدى إلى زيادة المعروف عن العالم ، وكشف حقائق جديدة وتأييد معلومات كانت لا تزال محل شك ، وقد امتد أثر هذه الخريطة إلى نحو قرن بعد ذلك (٣٠) .

ومن الخرائط التى صدرت فى القرن الخامس عشر عن مدرسة ميورقة خريطة العالم م . فيلادست Mercia de Villadestes ، صدرت عام ١٤١٣م ، وأشارت إلى قلب أفريقية ومملكة مالى ، كما أشارت إلى تلك البلاد خريطة أخرى لعالم بندقى

صدرت عام ١٤٣٣ م . ومن آل فيلادست ، عالم ميورقى آخر ، هو جبرائيل فيلادست Gabriel de Villadestes ، أصدر خريطة مشابهة عام ١٩٣٩ ، وأشارت فيما أشارت اليه من البلاد الأفريقية إلى ملك كانم ومملكة كانم Rex Organa ومملكة صنغى ، فضلا عن مملكة مالى (٣١) .

أفادت كل هذه المعلومات التى تجمعت ، فى إلمام أهل أوربا عامة وأوربا الجنوبية بصفة خاصة ، ببعض أخبار ومعالم أفريقية وثرواتها ولا سيما الذهب .

وكانت الحاجة إلى مزيد من التجارة الخارجية فى أوربا ، قد صارت ملحة منذ مطلع القرن الخامس عشر ، لحل مشاكل القارة الاقتصادية ، إذ استنفدت الحروب الطويلة ما لديها من الاحتياطى من المعادن الثمينة ، ولذلك احتاجت إلى الذهب لدفع أثمان السلع المستوردة من الهند والصين وجزر البهار .

تركز اتجاه أوربا فى قلب أفريقية ، لما سمعه الأوربيون ورأوه ، ومما رواه الرحالة المسلمون والمغامرون ، ومما أظهرته الخرائط الجغرافية من الاشارة إلى الذهب ووفرته فى قلب القارة .

وتقرر بعد ذلك أن يكون طريق البحر هو الطريق الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه بسبب تحكم المسلمين فى طرق القوافل . ورغم أن بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) لم يكشف بعد ، فقد كان هناك احتمال كبير فى نجاح الطريق البحرى للوصول إلى قلب أفريقية ، ويقول الفرنسيون « إن فريقا من النورمان الفرنسيين ، خرج خلال الفترة بين ١٣٦٤ ، ١٤١٠ م ، وقام برحلة بحرية من مدينتى دييب Dieppe وروان Rouen ، وكشف هذا الفريق ساحل غينية ، وينسبون اليه أنه هو الذى أطلق كلمة « الرأس الأخضر » على المكان المعروف بهذا الاسم ، وأن أفراد هذا الفريق استقروا فى جزيرة جورى gorée ، وأسسوا الشركات وأقاموا الحصون على ساحل غينية ، كما تبادلوا السلع مع الأفريقيين ، ويضيف الفرنسيون ، أن حرب المائة عام هى التى أوقفت النشاط الفرنسى فى الكشف والاستعمار (٣٢) .

ومما زاد فى التصميم الجاد واتخاذ الطريق البحرى ، عودة الرحالة الفرنسى أنسلم الزالجى Anselm D'Isalgiuer عام ١٤١٣ م إلى مرسيليا فجأة بعد غيبة إحدى عشرة سنة ، والمعروف عنه ، أنه كان قد جمع نفرا من المغامرين من ضواحى مدينة تولوز ، مسقط رأسه ، ونزل بهم إلى ساحل أفريقية ، ويحتمل أنه قام بمغامرته هذه لينضم إلى البعثة النورمانية التى خرجت بقيادة حنا بتينكور J. de Béthencourt النورمانى لفتح جزر كنارى (٣٣) .

وأيا كانت الطريقة التى أوصلت أنسلم إلى مدينة جاو عاصمة امبراطورية صنغى الاسلامية النامية فى ذلك الوقت ، والتى كانت حديثة عهد بالاستقلال عن مالى (٣٤) ، فانه أمضى فى جاو بضع سنوات (٣٥) ؛ تزوج خلالها بأميرة صنغية ، وعاد بصحبة زوجته الأفريقية ، ومعه ثروة كبيرة من الذهب والجواهر ، فضلا عن ثلاثة خصيان وثلاث جوارى ، وكان أحد الخصيان يعمل طبيبا له ، ونجح هذا الطبيب الأفريقى فى علاج ولى عهد فرنسا ، واشتهر أمره حتى غطت شهرته على شهرة أطباء فرنسا مما أثار حقد الأطباء الفرنسيين فرموا مواطنيهم بالجهل والسذاجة لالتفافهم حول ساحر دجال (٣٦) .

أثارت عودة أنسلم الرغبة إلى ضرورة العمل على الوصول إلى بلاد الذهب ، إذ أن مشكلة الحاجة إلى الذهب ظلت قائمة فى أوربا دون حل ، كما ازدادت الحاجة إلى معرفة منابعة ، وذلك فى الوقت الذى تجمعت فيه معلومات لا بأس بها عن داخل القارة .

جاءت المحاولات الناجحة المنظمة ذات الآثار بعيدة المدى ، بفضل شخصية تاريخية معروفة ، تلك هى شخصية هنرى الملقب بالملاح Henry the Navigator (ت ١٤٦١ م) ، وهو أصغر أبناء حنا الأول Don Joao I ملك البرتغال (١٣٨٥ — ١٤٣٣ م) (٣٧)

تمتع الأمير هنرى بسعة المعرفة والاطلاع على معارف عصره الجغرافية ، كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريقة دراسة الكتب التى غنمها من المكتبات العربية فى البرتغال وقشتالة (٣٨) ، وجمع حوله طائفة من البحارة المهرة المدربين ،



هنرى الملاح عام ١٤٥٣

كذلك عاونه أخوه دون بطرس Don Pedro الذى اشتهر بكثرة رحلاته ، وقد حصل بطرس وهو فى البندقية عام ١٤٢٨ م ، على نسخة من رحلات ماركوبولو البندقى ، وقدمها إلى أخيه هنرى ، وكانت رحلات ماركوبولو فى آسيا قد نشرت منذ عام ١٢٢٩ م ، أى فى سنة استيلاء أرغونة على جزيرة ميورقة من المسلمين ، ولها أثرها الكبير فى تنبيه أوربا إلى ميدان الكشوف عامة (٣٩) . كذلك استفاد هنرى من جميع الجهود والمعلومات السابقة ، ولا سيما جهود الجنويين والقطلانيين وأهل ميورقة ، بجانب المعلومات الهامة التى أوردها الرحالة العرب أمثال المسعودى (القرن العاشر) والادريسى (القرن الثانى عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر) (٤٠) .

أنشأ هنرى الملاح معهدا بحريا فى مدينة ساجر Sagres بالبرتغال عام ١٤١٩ كما أنشأ بها دار صناعة (٤١) ، ووضع مشروعا عاما لحركة الكشف الجغرافى ، أوقف حياته وجهوده على تحقيقة ، ويرمى من وراء هذا المشروع الوصول إلى هدفين أساسيين :

أولهما : تعقب المسلمين فى شمالى أفريقية ، ونقل الحروب الصليبية إلى بلادهم ، والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ، أن أصول هذا التكوين لم يكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها فى الشرق الأوسط ، وفى أسبانيا الاسلامية فى وقت معا ، خلال القرن الثانى عشر ، فيذكر عن البرتغاليين أنهم انتهزوا فرصة مرور حملة صليبية متوجهة إلى الشرق ، لتنضم إلى جموع الحملة الصليبية الثانية التى أعدتها أوربا على أثر سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ م ، أغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبى المار ببلادهم ، بأن البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولا داعى للرحلة الطويلة الشاقة إلى الشرق ، وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين Flemings والفرزيين Frisii والفلاندرز Flanders والسكندنافيين والألمان والانجليز ؛ وافق البعض وتردد البعض ، وأخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال فى حروبها ضد المسلمين فى بلادهم ، واستطاعوا انتزاع مدينة الأشبونة (لشبونة) الاسلامية ، بعد حصار دام أربعة شهور عام ١١٤٧ م ، وذبحوا حاميتها

الاسلامية بعد أن أمنوها ، وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين إلى الشرق ، ولكن أغلبهم بقى فى البرتغال . وإلى هذا الحادث يرجع التحالف الطويل الأمد بين البرتغال والانجليز (٤٢) .

إذن فالفكرة الصليبية ، فى مشروع هنرى الملاح للكشف والاستعمار واضحة ، وإن لم تكن الفكرة الاساسية أو الهامة .

والهدف الثانى : الوصول إلى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلى الطريق البحرى وإلى موانى المحيط الأطلسى بدلا من موانى البحر المتوسط . على أن هنرى أعلن بعد ذلك ، أنه يريد فتح طريق بحرى إلى الهند وإماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا Prester Johannes (٤٣) وتحويل الوثنيين إلى المسيحية (٤٤) .

تحقق الهدف الأول باستيلاء البرتغاليين على سبتة Ceuta عام ١٤١٥ م ، ثم طنجة وتطوان ، غير أن محاولة التوسع فى شمال أفريقية الاسلامى قد فشلت بسبب وعورة الطرق وعناد المراكشيين ووقوفهم فى وجه البرتغاليين (٤٥) .

أما الأهداف الأخرى ، فقد بدأها هنرى بجد من بعد عام ١٤١٥ م ، ولا سيما وأنه خلال ذلك العام ، سمع الكثير عن كميات الذهب الخيالية التى تحملها القوافل عبر الصحراء ، من بلاد السودان (٤٦) .

وحركة الكشف البرتغالى فى غربى أفريقية وغيرها ، هى التى خلدت اسم هنرى فى التاريخ ، وفتحت أفريقيا للاستعمار الأوربى الحديث .

بدأت الكشوف ببطء فى أول الأمر ، ويؤرخ لأول رحلة زمن هنرى بعام ١٤١٨ م (٤٧) ، ثم كانت رحلة عام ١٤٣٤ م بقيادة جيل إينز Gil Eannes التى وصلت إلى جنوبى رأس بوجادور Bojador ، وهذا الرأس معروف للايطاليين والنورمان من قبل ، نجحت رحلة إينز فى جمع معلومات هامة عن الداخل ، ولذلك اعتبرت نقطة تحول فى تاريخ الكشف الجغرافى ، إذ أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، أن جميع مخاوف أوربا من بحر الظلمات لا أساس لها ،

كوجود شياطين فى هذا البحر أو ضباب أو ظلام دامس ، أو مياه تغلى جنوبى ذلك الرأس (٤٨) .

ثم بعد ذلك كشف الرأس الأبيض Cape Blanco فى الفترة ما بين ١٤٤١ ، ١٤٤٢ م ، بقيادة نونو ترستاو Nuno Tristao وأنطونيو كونسالفير Antonio Consalvez ، وفى عودة هذه الرحلة ، قبض رجالها على بعض الطوارق من صنهاجة واستولوا على ما معهم من تبر الذهب ، كما أسروا عددا من الزنوج الأفريقيين ، قرب شاطىء ما أسموه نهر الذهب Rio do Ouro ، ويرى المؤرخ البرتغالى باروس Barros أن نهر الذهب عرف كذلك ، لأن أول كمية من تراب الذهب من غربى أفريقية ، جاءت من هذا المكان ، ويحتمل أنه يعنى بذلك نهر السنغال ، بالرغم من أن الخرائط المعاصرة ، ولا سيما خرائط ميورقة ، أوضحت مكان نهر الذهب ، فى موضع يبعد كثيرا شمالى نهر السنغال ، ومن باب التحديد وضعته جنوبى رأس بوجادور وشمالى الرأس الأبيض ، وربما كان اطلاق اسم نهر الذهب على هذه المنطقة تسمية مجازية . اعتقد الأوربيون أن التجارة الصامتة كانت تتم فى هذا المكان ، وبمقتضاها يستبدل الذهب الأفريقى بالسلع الشمالية (٤٩) ، وربما شهدها البرتغاليون وقبضوا على من استطاعوا القبض عليه من الطوارق الذين يستبدلون سلعهم بذهب السودان ، ومن الزنوج الذين جاءوا بذهبهم للتبادل (٥٠) .

والمهم أن أول شحنة من الذهب والعبيد ، على قلنها ، وصلت أوربا من ريودو أرو عام ١٤٤٢ (٥١) . وقد أرسل هنرى الملاح عددا من الرقيق هدية منه إلى البابا (٥٢) ، وباع الباقى فى أسواق لشبونة ، حصل البرتغاليون بعد ذلك فى عام ١٤٥٤ م على موافقة البابوية على منح البرتغال حق امتلاك جميع ما يفتحونه بين الرأس الأبيض وبين الهند (٥٣) ، مما أدى إلى نتائج بعيدة الأثر فى مستقبل أفريقية ، إذ نشب الصراع والتنافس حول تقسيم أفريقية واستعمارها بين الدول الأوربية فى القرون التالية (٥٤) .

ومنذ ذلك الوقت كثرت رحلات الكشف وتوالت فى أزمنة متقاربة ، كما كثرت المغامرات من جانب طلاب الثراء العاجل ، وتدفق المتطوعون

للاشتراك فى هذه الرحلات ، حتى أن هنرى كان يختار من بينهم العدد اللازم فقط ، ومن ناحية أخرى ازداد عدد القرصان الذين يعملون لحسابهم دون نظر إلى معلومات جغرافية أو أى هدف بعيد ، فقد انفتح أمامهم باب الثراء على مصراعيه ، عن طريق اقتناص الأفريقيين وبيعهم فى أسواق أوربا دون واسطة ، حتى يظفروا بجميع الأرباح ، وهذا ما دعا هنرى إلى أن يحث رجاله على مراعاة مصلحة بلادهم وإلى أن يحذرهم من العمل لحسابهم . وفى نفس الوقت ، أعلن هنرى أنه يعمل على استرقاق الكفرة ، مما يسر له موافقة البابوية على مطامع البرتغال(٥٥) .

استمرت رحلات الكشف البرتغالية ، ووصلت فى عام ١٤٤٣ م إلى جزيرة أرجوين Arguin المقابلة للرأس الأبيض ، وبنوا فيها أول حصن لهم ، والمعروف أن القرطاجانيين كانوا قد وصلوا إلى هذه الجزيرة من قبل .

وفى عام ١٤٤٥ م ، نجح القائد البحرى البرتغالى نونو ترستاو » فى الوصول إلى الأرض الخصبة جنوبى الصحراء ، فيما وراء رأس مريك C. Mirik من الداخل ، ومعنى هذا أن للصحراء نهاية يمكن الوصول اليها (٥٦) ، وقد نجح البرتغاليون فى هذه الرحلة ،فى الوصول إلى نهر السنغال وكشفوا نهر لاكازمانس La Casmance ، كما كشفوا غمبيا وبامبوك Bambuk فى الداخل ، حيث وجدوا مناجم الذهب ؛ وبامبوك إحدى منابع الذهب فى أرض ونقاره Wangara (٥٧) ، وأضحت جزيرة جورى Gorée مخزنا تجاريا كبيرا (٥٨) . وفى نفس العام سافر القائد البرتغالى حنا فرنانديز J. Ferdandez فى الداخل نحو سبعة أشهر (٥٩) .

وصل نونوترستاو فى عام ١٤٤٦ م إلى مصب السنغال ، وقد ظنه نهر النيجر الذى أشار اليه هيرودوت وغيره ، واعتبره فرعا غربيا للنيل ، وسجل المكتشفون على جذوع بعض الأشجار الضخمة عبارات تمجيد لهنرى الملاح ، مؤداها أنه لم يحدث فى التاريخ من عهد الاسكندر المقدونى وقيصر أن وصلت فتوح أمير إلى ما وصلت اليه فتوح أميرهم هنرى ، كذلك حفروا على الشجر صورا

لأسلحتهم ولشعار هنرى[٦٠] ، وأطلق البرتغاليون اسم « غينية » Guinea على المنطقة جنوبي نهر السنغال [٦١] .

وبكشف السنغال ؛ يكون البرتغاليون قد وصلوا بلاد السودان ؛ وقد أثار هذا المدخل الذى وصلوه ، فى نفوس البرتغاليين الرغبة الجامحة فى التغلغل نحو الداخل للسيطرة على تجارة القوافل البرية [٦٢].

وفى نفس العام (١٤٤٦ م) ، وصل دينيز دياز Diniz Diaz إلى السنغال والرأس الأخضر ، وحال دون توغل البرتغاليين فى الداخل ، وجود مملكتى مالى والولوف الاسلاميتين ، واشتهرت الأخيرة ، بصفة خاصة بفرسانها المهرة .

ولم يأت عام ١٤٤٨ م ، حتى كان ساحل غربى أفريقية حتى غمبيا قد كشف ، وبذلك يكون البرتغاليون قد كشفوا أرض المسلمين السود Black Moors ، تمييزا لهم عن مسلمى الصحراء السمر Brown Skinned Tawny Moors [٦٣].

وفى الفترة ما بين ١٤٥٥ ، ١٤٥٧ م ، وصل الرحالة ا . كادا موستو Alvise Cadamosto ، وهو رحالة بندقى يعمل فى خدمة البرتغال ، وصل إلى الرأس الأخضر ؛ ومعه الرحالة الجنوى أوزى مارل Usi di Marl ، وزارا معا جزر الرأس الأخضر والسنغال وشبه جزيرة غمبيا وجزر بيساجوس Bissagos ، وعادا بمعلومات كثيرة عن الداخل وعن تمبكتو وعن تجارة الذهب والعاج على الساحل . وكادا موستو أول رحالة أوربى وصل إلى نهر غمبيا ، كذلك وصل البرتغاليون إلى سيراليون عام ١٤٦٠ م [٦٤] .

جاءت وفاة هنرى الملاح عام ١٤٦١ م ، لكن مشروعات الكشف لم تقف من بعده ، فبعد وفاته بنحو سنة ، أى عام ١٤٦٢ م ، وصل القائد البرتغالى بطرس سنترا Pedro de Cintra إلى رأس بالماس Palmas فى ليبريا الحالية [٦٥] ، وفى عام ١٤٧٠ م أطلق القائد البرتغالى ديجو جوميز Diego Gomez على سيراليون Sera Leoa هذه التسمية . أطلقها على شبه الجزيرة التى تقع عليها مدينة فريتون الحالية ، اشتقاقا من منظر جبالها المرعب ، نتيجة لأن جبالها تبدو للقادم من جهة البحر كأنها صورة أسد Lion Mountains ، وذلك نتيجة لكثرة عمليات التحات

والتعرية ، والأرجح أن هذه التسمية جاءت نتيجة لأن العواصف الرعدية الشديدة التى تهب على هذه المنطقة ، تحدث أصواتا تشبه زئير الأسد(٦٦) .

وفى عام ١٤٧١ م ، كان ساحل غانة كله قد كشف ، وعبر البرتغاليون مصب النيجر إلى الجنوب حتى نهر أجو Agowe . وحصلوا على كميات كبيرة من الذهب ، واستمرت الكشوف البرتغالية ، فدار بارثلميو دياز Partholomio Diaz de Novaes حول أفريقية ، وهو الذى أطلق اسم « رأس العواصف » Cabo Tormentoso أو Cabo Tormento فى عام ١٤٨٨ م على منطقة الرأس ، غير أن حنا الثانى Joao II ملك البرتغال أطلق عليه اسم « رأس الرجاء الصالح » تفاؤلا بقرب الوصول إلى الهند(٦٧) .

وهكذا سارت الكشوف البرتغالية ، ومعها الاستعمار البرتغالى فى غربى أفريقية ، وفى شرقها ، وقد استعان فاسكوداجاما ١٤٩٧ م بالعرب فى الوصول إلى الهند ، وانتزع البرتغاليون المشيخات الاسلامية القائمة على ساحل أفريقية الشرقى ، مثل سوفالا التى استولى عليها بطرس أنهايا Pedro de Anhaya عام ١٥٠٥ م ثم كلوه وغيرها ، من سوفالا جنوبا حتى مقديشيو شمالا(٦٨) .

وما أن اشتهر أمر البرتغال والمستعمرات البرتغالية فى أفريقية ، حتى دخلت الدول الأوربية الأخرى ميدان الكشف والاستعمار ، وأولها الأسبان(٦٩) .

وخلال حركة الكشف البرتغالى ، بنى البرتغاليون القلاع والحصون على السواحل التى كشفوها واستعمروها ، كما أطلقوا أسماء برتغالية على بعض معالم ساحل غربى أفريقية .

وأول حصن بناه البرتغاليون ، كان فى عام ١٤٤٨ م ، على خليج أرجوين جنوبى الرأس الأبيض ، وذلك بإرشاد هنرى الملاح ، ثم تأسست شركة تجارية برتغالية بعد ذلك ببضع سنوات ، ومهمتها التجارة مع ساحل غانة فى الذهب والرقيق ، وقد ضمت أول شحنة أرسلتها هذه الشركة إلى البرتغال : ٢٠٠ عبد زنجى ، نمت بعد ذلك تجارة الرقيق بسرعة ، ويعلق بعض كتاب الاستعمار على تجارة الرقيق ، بأن البرتغاليين قد خلصوا الزنوج من وقوعهم طعاما للقبائل المتوحشة فقد انتقلوا إلى حياة مريحة فى البرتغال الجميلة ، حيث عملوا خدما فى المنازل(٧٠)

ومن أهم الحصون التى أنشأها البرتغاليون على ساحل أفريقية الغربى ، حصن المينا Elmina ، على ساحل « جمهورية غانة الحالية » أقاموا هذا الحصن عام ١٤٨١ م ، وزادوا فيه خلال السنوات ١٤٨٢ ، ١٤٨٦ م ، وكان يعرف باسم حصن القديس جورج Sao Jorge de Mina أسسه دون دييجو Don Diego ، ويقال إن الأخشاب التى استخدمت فى هذا الحصن صنعت فى البرتغال ثم نقلت إلى أفريقية . وكان مع هذا القائد نحو سبعمائة عامل ، وبنوا كنيسة فى الحصن(٧١) ، وهو أشبه بالمبنى المجمع . ويقول الفرنسيون ، أن النورمان الذين خرجوا من دييب فى القرن الرابع عشر ، هم الذين أسسوا هذا الحصن وأطلقوا عليه اسم « منجم الذهب » .La Mine d'or ، ثم تحرف إلى المينا (٧٢) .

امتدت حصون البرتغاليين ومراكز التجارة على ساحل غربى أفريقية ، بين غمبيا وخليج بنين Benin مثل حصن أكسيم Axim وأكرا Accra وغيرهما(٧٣).

وكان الحاكم البرتغالى العام يقيم فى قلعة المينا ، ويعمل على جمع الثروة له . ولذا لم يكن يعين فى هذا المنصب سوى المقربين للملك ، وبتطور الأحوال وازدياد جشع الاستعمار البرتغالى ، وتهافت الطامعين ، صار الحاكم العام يعين من بين طوائف الداعرين الفاسدين ، حتى أن الزنوج لم يحتملوا وطأتهم ، فقاموا بثورة ضد وحشية البرتغاليين عام ١٥٨٧ م ، وهاجموا حصن أكرا ، وفى تلك الأثناء ، انتهز الفرنسيون الفرصة للتدخل وللتمكين لأنفسهم (٧٤) .

أما محاولات البرتغاليين للتوغل فى الداخل ، فقد بدأت منذ وطئت أقدامهم شاطىء أفريقية الغربى ، خلال حركة الكشوف ، وهدفهم الأقصى هو السيطرة على الطرق الصحراوية ، بعد أن تحققت سيطرتهم على الطريق البحرى ، وكانت معلومات البرتغاليين عن الداخل لم تزل قليلة ، بسبب وحشيتهم مع السكان الأصليين الذين أصابهم الذعر والفزع من اقتناص البرتغاليين لهم ، فحال هذا العمل دون إقامة علاقات ودية مع الوطنيين . كتب ريتشارد جوبسون K, Jobson بأن قبائل الماندنجو كانت تخشى من اقتراب أية سفينة من الساحل لأن الكثير من أفرادها قد وقع فى قبضة القناصة وحمل فى تلك السفن (٧٥). يضاف إلى ذلك

العوائق الطبيعية ، مثل الأحوال الصحية غير الملائمة ، وانتشار الملاريا ، فضلا عن وعورة المسالك داخل الغابات الكثيفة المطيرة وكثرة المستنقعات .

ومحاولات الوصول إلى الداخل ، أمر شغل البرتغاليين وغير البرتغاليين من الأوربيين (٧٦) ، ومن هذه المحاولات تلك الرحلات التى قام بها الأوربيون إلى قلب الصحراء ، وأشهرها رحلة التاجر الجنوى أنطونيو مالفانت Antonio Malfante عام ١٤٤٧ م . نجح أنطونيو فى التوغل برا فى قلب الصحراء حتى توات Tuat ، بحثا عن الذهب ومنابعه ، وكانت المعلومات التى جمعها ذات قيمة ، فقد جاء فى التقرير الذى بعث به وهو فى توات ، كثير من المعلومات الجغرافية المفيدة عن داخل أفريقية ، وذكر أنه سأل عجوزا من المواطنين فى توات ، من الذين يعرفون بلاد السودان ، عن منابع الذهب ، فكانت إجابة ذلك الشيخ أنه قضى ما يقرب من ربع قرن فى بلاد السودان ، لم يستطع خلاله أن يحصل على أدنى المعلومات من أى زنجى عن هذه المنابع (٧٧) .

وتوجد رسالة بعث بها مالفانت إلى رحالة إيطالى آخر هو جيوفانى ماريونو Giovanni Mariono مؤرخة بنفس العام ؛ وكان جيوفانى قد وصل إلى جنى ، كتبها له مالفانت من توات ، ووضح فى هذه الرسالة معلومات عن بلاد السودان الغربى ، وفيها كذلك أن أغلب سكان السودان الغربى فى ذلك الوقت من المسلمين (٧٨) .

وهناك رحلة أخرى قام بها التاجر الفلورنسى بندتودى Benedetto Dei الذى وصل إلى تمبكتو عام ١٤٧٠ م ، وعاد إلى بلاده بعد ذلك . وكانت فلورنسه قد مدت نشاطها التجارى إلى ساحل أفريقية الشمالى وظفرت بامتيازات تجارية لرعاياها ، حتى أنه سمح لها فى تونس بالتجارة مع الداخل ، مما يفسر إقامة بندتودى فى مدينة تمبكتو ، حيث كان يقوم باستبدال السلع الأوربية من إنتاج لمبارديا بصفة خاصة من ملابس وغيرها من المصنوعات ، بالسلع الأفريقية ، وربما كان وصول بندتو إلى تمبكتو أول وصول مدون لأحد الأوربيين ، ومن المحتمل أن الرحلة إلى بلاد السودان فى ذلك الوقت صارت أمرا مألوفا ، وكذلك يحتمل أن أوربيين آخرين سبقوا بندتو فى الوصول إلى تلك البلاد (٧٩) .

أما أول من أرسله البرتغاليون لكشف الداخل من الساحل ، فهو حنا فرنانديز J. Fernandez عام ١٤٤٥ م ، وقد نجح هذا المكتشف فى ارتياد بعض مناطق الصحراء الداخلية ، حتى منطقة ريودو أورو ، ثم تلاه آخرون[٨٠]، وحوالى عام ١٤٥٠ م ، علم المكتشف البرتغالى ديجوميز ، عن طريق الجلف (الولوف) المقيمين قرب ساحل غمبيا ، أن جميع البلاد الداخلية ، خاضعة لنفوذ « بورمالى » ، وكلمة بور Bour معناها : دنسا أو ملك بلغة الولوف ، وقالوا له ، إن عاصمة مالى هى مدينة كيوكيا Kiokia أو كيوكوم Kiokoum وربما كانت هذه العاصمة تحريفا لكلمة كوكيا Kaukiya . أفهمه الجلف كذلك أن الطريق إلى مالى وعر ليس من السهل اجتيازه ، لأن المرور فيه يستدعى الاحتكاك بقبائل لا يؤمن شرها مثل قبائل سوماندو Somandu وكونبرتا Kounberta والسراكول Sarakoli [٨١].

غير أن المعلومات الأكثر وضوحا ودقة عن الداخل ، هى التى حصل عليها المكتشف كادا موستو ، فقد قام برحلة فى الفترة ما بين ١٤٥٥ ، ١٤٥٧م ، وكان مرسلا من قبل الأمير هنرى الملاح لكشف نهر غمبيا ، إذ كان البرتغاليون يظنون أن منطقة نهر غمبيا غنية بالذهب ، حقيقة كشف كادا موستو النهر ، لكنه لم يكتشف الذهب [٨٢].

كان كادا موستو على عكس قادة البرتغاليين السابقين ، فقد أدرك بثاقب نظره أهمية الود والصداقة مع الوطنيين الأفريقيين ، وهذا ما ساعده على جمع المعلومات التى فشل سابقوه فى الحصول عليها ، عرف كادا موستو أن التجارة الصامتة فى الذهب لا تزال قائمة بمكان ما فى الداخل ، وأن الذهب فى التجارة يستبدل بالملح وغيره من السلع ، وعرف كذلك أن الملح يأتى من تمبكتو الخاضعة يومئذ للطوارق [٨٣] ، أما أين توجد حقول الذهب ؟ فلم يستطع أن يظفر بشىء عنها [٨٤]، لكن كادا موستو وصف مالى فى ذلك الوقت بأنها دولة عظيمة ومزدهرة تجاريا [٨٥].

وبعد أن بنى البرتغاليون حصن الميناء عام ١٤٨١ م ، أخذوا معهم أميرا من الجلف (الولوف) Oulof المقيمين جنوبى السنغال[٨٦]، واسم هذا الأمير

بيموى Bemoi or Bemay ، وكان مطرودا عن العرش على يد أخيه . حمله البرتغاليون معهم إلى لشبونة حيث احتفل به حنا الثانى ملك البرتغال ، وعمده على المسيحية ، وظفر منه بكثير من المعلومات الدقيقة عن بلاده وجيرانها ؛ ثم أمده البرتغاليون بحملة حربية لتساعده على استرجاع عرشه السليب ، وليكون عونا لهم وعميلا — غير أن الأميرال البرتغالى فاز داكونها Vas d'Acunha قائد الحملة ، أمر بقتل الأمير الأفريقى؟ ، بتهمة الخيانة وخداع البرتغاليين ، وصار البرتغاليون سادة فى السنغال [٨٧] .

وعلى قلة المعلومات التى حصل عليها البرتغاليون عن الداخل ، فانها أفادتهم كثيرا عما يجرى وراء الساحل ، وتتابعت حملاتهم فى الداخل ، فكشف دييجو جام Diego Gam فى عام ١٤٨٢ م مصب الكنغو وأبحر فيه حتى مدينة بوما Boma ، وقام بعد ذلك بثلاث سنوات وسار فى نهر الكنغو حتى مصب نهر مبوزو Mpozo ومساقط يلالا Yellala [٨٨] .

فى ذلك الوقت ، وهو النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت امبراطورية مالى الاسلامية ، فى طور الذبول والتدهور بسبب الأخطار التى تواصت بها من كل جانب : من جانب الطوارق [٨٩] ، وقبائل موشى Mossi [٩٠] ، والفولانيين والتكارزة [٩١] ، على أن الخطر الأكبر كان من ناحية امبراطورية صنغى الاسلامية النامية زمن سنى على (٨٩٦—٨٩٨هـ / ١٤٦٤—١٤٩٢ م) ، الذى استطاع أن يحطم الطوارق والموش ، وأن ينتزع معظم أملاك مالى ، بل صارت مالى خاضعة له ، وأضحى السيد المطلق فى جميع ولايات النيجر الأوسط ، واشتهر اسمه خارج السودان الغربى حتى أشار الأوربيون اليه باسم « سن على سيد تمبكتو » ، كما نعته مسلموا الشمال الأفريقى بأنه « أقوى ملك فى غربى أفريقية » ، وإن حمل عليه السعدى وصاحب الفتاش حملة عنيفة بسبب قسوته وفجوره وجبروته [٩٢] .

شعر مانسا مالى[٩٣] بالخطر المحدق به ، فاستعان بالبرتغاليين ، بعد أن فشلت مساعيه فى طلب المساعدة من العثمانيين بشمالى أفريقية ، ويقول المؤرخ البرتغالى حنا بازوس Joao de Barros [٩٤] أن ملك البرتغال رحب باستغاثة

مالى ، لأنه كان يخشى ازدياد نفوذ العثمانيين المسلمين فى شمالى أفريقية وامتداده إلى قلب أفريقية ، فضلا عن رغبة البرتغاليين فى التعرف على الداخل للسيطرة عليه ، ولذلك أسرع بالاستجابة (٩٥) .

بعث ملك البرتغال بسفارتين إلى بلاد مالى : إحداهما عن طريق نهر غمبيا وتتكون من ثلاثة أعضاء هم : رود ريجيز رابلو Rodriguez Rabello وبطرس رينل Pero Reynel ،وحنا كولاساو Joao Collaçao ،ولكن لم يعرف شيء عن خبر هذه السفارة ؛ ويؤرخ للسفارة الثانية بحوالى عام ١٤٨٣ م ، وتتكون من ثمانية أعضاء ، وهذه توجهت عن طريق قلعة المينا ، ووصلت إلى مدينة سونجو Songo عاصمة مالى يومئذ ، أو هكذا سماها البرتغاليون ، فليست كلمة سونجوسوى تسمية أخرى لمدينة مالى أونيانى عاصمة مالى ، ولم يعد من هذه السفارة سوى شخص واحد هو بطرس رينل الذى كان عضوا فى السفارة السابقة، وله خبرة بالسفر فى الداخل ، وقد وصف بطرس رينل عاصمة مالى فى ذلك الوقت ، بأنها مزدهرة ومزدحمة بالسكان ، وحمل بطرس فى عودته رسالة من بورمالى(٩٦) ، السلطان محمود الأول فى ذلك الوقت ، وتتضمن هذه الرسالة مدى دهشة ملك مالى مما سمعه عن قوة ملك البرتغال وشهرته ، ولم يفت ملك مالى الحديث عن مملكته وعظمتها وقوتها ، ومما جاء فيها : أن بلاده لم يسبق لها أن استقبلت سفارة أو رسالة من قبل ملك مسيحى طوال عهود الأربعة آلاف وأربعمائة سلطان الذين سبقوه فى حكم البلاد (٩٧) .

لم تكن لهذه البعثة نتيجة فيما يتعلق بمساندة البرتغال لمالى ، وإن أدت إلى ازدياد معرفة البرتغاليين بالداخل وأحواله وبعض طرقه ، إذا كانت أهداف البرتغاليين أبعد من مجرد الاستجابة إلى استغاثات مالى ، بل يرجح أنهم رفضوا مساعدة مالى (٩٨) .

وهناك سفارة ثالثة أرسلها البرتغال إلى بلاط مالى حوالى عام ١٥٣٤ م ، وكان من بين أهدافها بحث مسائل تجارية مع « مانسا المانديى » (٩٩).

ولما كانت انتصارات سنى على ، ملك صنغى ، متلاحقة ضد مالى وغيرها ، حاول البرتغاليون الاتصال به ، وبعثوا بسفارة من أرجوين إلى تمبكتو عام ١٤٨٧م

وعلى رأسها القائدان: بطرس إيفورا Pero d' Evora وجونسا لفيز إينيز Goncalvez Eannes ، والهدف منها كسب صداقة سنى على ، واستئذانه فى بناء محطة تجارية فى منطقة ودان Wadan الواقعة قرب حدود مالى ، وعلى مقربة من الرأس الأبيض ، لم يعد إلى أرجوين من هذه البعثة سوى شخص واحد ، وهناك شك حول وصولها إلى تمبكتو ، ويحتمل أنها وصلت إلى جنى فقط (١٠٠).

وبالمثل حاول البرتغاليون الاتصال بسلطان موشى Mosi ليأذن لهم بالتجارة على الساحل الجنوبى ، غير أن موشى فى ذلك الوقت كانوا قد تدهوروا وانحطت قوتهم منذ انتصار سنى عليهم عام ١٤٨٠ م وطردهم نحو الجنوب (١٠١).

على أن البرتغاليين بنوا المحطة التجارية التى كانوا يسعون اليها ، ووصلوا فى توغلهم إلى الداخل حتى أدرار Adrar ، إلا أن هذه المحطة هجرت فيما بعد ، وإن أدت إلى ازدياد المعلومات عما يجرى وراء الساحل (١٠٢).

بنى البرتغاليون عددا من المحطات التجارية على طول ساحل أفريقية الغربى بين غمبيا وخليج بنين Benin ، ولكنهم عموما ، لم يبلغوا فى توغلهم فى الداخل إلى ما كانوا يتوقون اليه بسبب تلك العوائق فضلا عن سوء معاملتهم للوطنيين .

* * *

وهناك كثير من الأسماء البرتغالية التى أطلقها البرتغاليون على بعض معالم ساحل غربى أفريقية ، لا تزال باقية إلى اليوم ، منها :

— ريو دو أورو Rio do Oro أى نهر الذهب ، ويطلق هذا الاسم على المنطقة الواقعة شمالى الرأس الأبيض .

سيراليون Serra Leoa أو Serra Lyoa بمعنى زئير الأسد ، وقد أطلق هذه التسمية المكتشف البرتغالى ديجو جوميز عام ١٤٧٠ م .

رأس بالماس C. Palmas أى رأس شجر النخيل ، لكثرة وجود أشجار النخيل قرب هذه المنطقة ، ويقع هذا الرأس عند حدود ليبريا الجنوبية .

لاجوس Lagos فى نيجريا الشرقية بمعنى البحيرات ، ومنها نهر البحيرات Rio do Lagos

كالابارا Calabarra في نيجريا الشرقية ، بمعنى السد الصامت أو العائق الساكن ، وهو فجوة ساحلية أمينة لرسو السفن ، وتقع عليها مدينة كالابار Calabar الحالية .

الكمرون Camaroes بمعنى الجمبرى ، وكذلك نهر الكمرون Rio dos Camaroes

كورسكو Corisco بمعنى البرق ، وهى جزيرة صغيرة قرب ساحل جابون ، رؤيت لأول مرة خلال عاصفة رعدية .

ساو تومى Saoe Thômé أى جزيرة القديس توماس ، وهى جزيرة صغيرة قرب خط الاستواء فى خليج غانة .

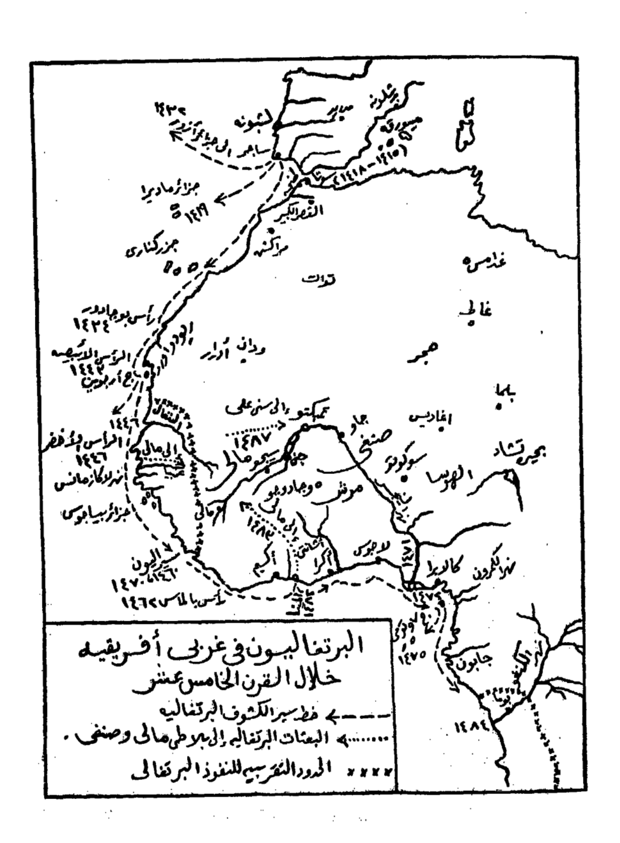
جابون Gabôn بمعنى العباءة الساترة ، اشتقاقا من شكل مصب النهر .

رأس العواصف Cobo Tormento ، أطلق هذه التسمية المكتشف بارثلوميودياز عام ١٤٨٨ م ، ولكن ملك البرتغال حنا الثانى Joao II استبدل هذه التسمية بكلمة : رأس الرجاء الصالح .

كلمة ريو Rio بمعنى نهر ، أطلقت على كثير من الأنهار والمناطق (١٠٣) .

* * *

وبقدر ما كانت معلومات البرتغاليين ، ومعلومات أوربا غامضة وقليلة عن سواحل غربى أفريقية والمناطق المجاورة لها من الداخل ، قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، بقدر ما وضحت تلك المعلومات وكثرت فى نهاية ذلك القرن ، وجاء كشف طريق الرأس والوصول إلى الهند ، ثم كشف أمريكا ، مؤديا إلى قيام المشروعات الامبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار ، مما صرف الجهود بعض الوقت ، وبصفة مؤقتة عن أفريقية وداخل أفريقية (١٠٤) ، إلى أن اصطدمت المصالح الاستعمارية الأوربية فى هذه القارة بعد ذلك . وتاريخ الاستعمار الأوربى لأفريقية منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها ، ملىء بالمآسى ، كما أنه ملىء بالبطولات القومية الفذه ، وهى التى خلدها التاريخ ، خلال مراحل الكفاح الوطنى .


البرتغاليون في غربي أفريقيه
خلال القرن الخامس عشر
خط سير الكشوف البرتغاليه
البعثات البرتغاليه إلى بلاطي مالي وصنغي .
الحدود التقريبيه للنفوذ البرتغالي
لشبونه
جزائر ماديرا
١٤١٩
جزر كناري
مراكش
توات
غدامس
غات
تمبكتو
١٤٨٧
جاو
صنغي
سوكوتو
الهوسا
بحيرة تشاد
مرش
أكرا
لاجوس
نهر الكمرون
كالابار
جابون
١٤٧٥
١٤٨٤
١٤٣٤
١٤٤٦
١٤٧٠

المراجع والحواشى

(١) المقصود بغرب أفريقية ، جغرافيا ، بلاد السودان الأوسط والغربى ، وتمتد هذه البلاد من بحيرة تشاد فى الشرق إلى ساحل المحيط الأطلسى فى الغرب ، وتقع بين خطى عرض ٩ و ١٧ شمالا . كذلك تعرف هذه المنطقة ، فيما أسماه كتاب أوربا فى العصور الوسطى ، باسم « نجرشيا » Nigritia نسبة إلى نهر النيجر .

(٢) Johnston, H. H., A History of the Colonization of Africa, by Allien Races, Cambr., 1913, P. 15.

(٣) من المحقق أن أول تيارات الحضارة من زراعة وحيوانات مستأنسة، استقبلتها أفريقيا الزنجية جنوبى الصحراء ، جاء من مصر ، مثل الثور ، وأصله أسيوى . والغنم والماعز والحمار النوبى المستأنس والدجاج المستأنس ، كذلك وصلت نباتات وحبوب مثل الذرة والقرع والفول والبسلا والبطاطس والقلقاس والذرة العويجة أو الدخن . ومن الصناعات المصرية : بناء القوارب ، وبناء الأكواخ ، واستعمال الطوب النىء ، وهى مرحلة متقدمة فى فن العمارة ، انتشرت فى تلك البلاد ، ومن الأدوات المنزلية : الكراسى والوسائد ، وكذلك بعض الآلات الموسيقية مثل الطبول وأنواع من القيثارة ، بل وألعاب رياضية مثل الأرجوحة ، والأسلحة مثل الدروع والأقواس والرماح والبلط .

(Johnston, op. cit. P. 19—20).

(٤) اشتهر الفينيقيون منذ القدم بالنشاط التجارى ، والاسم الوطنى لهذا الشعب هو كسنا Xnâ أو خنا Khna أو كنا Kinah أو كنانى Kinahni أى كنعان Kanaan . والأغريق هم الذين أطلقوا عليهم كلمة الفينيقيين Phoinike أو Phoinikes بمعنى « أحمر » Red . وفى اللاتينية يعرف الفينيقيون باسم بونيكا أو بوينى أو بونى Puni — Poeni — Pûnica من الكلمة فوينكس Phoinix بمعنى أحمر . ويرجع هذا إلى أن الفينيقيين بدوا للاغريق والرومان البيض ، وهم يتميزون بلون يميل إلى الحمرة .

ونظرا لعلاقة الفينيقيين القديمة بالرومان ، استخدم الرومان كلمة « فينيقى » Poenus (فى صيغة المفرد والجمع Poeni) ، للدلالة على الغدر ونقض العهود ، كما استخدمت أوربا فى العصور الوسطى كلمة « وندلة » Vandalism للدلالة على التخريب والتدمير ، نسبة إلى ما اشتهر من مثل هذه الأعمال عن الوندال الجرمان ولا سيما ما ارتكبوه من فظائع فى اضطهادهم للمخالفين لمذهبهم الدينى ، ويبدو أن الفينيقيين هم الذين أطلقوا كلمة « أفريقية Africa » التى صارت علما على هذه القارة . وهذه الكلمة مشتقة أصلا من اسم قبيلة بربرية تسمى « أفارق » Afarik أو « أوريغة » Awarigha أو أوراغن Awuraghen ، وكانت هذه القبيلة تنتشر فى المنطقة الساحلية بشمالى أفريقية من ناحية تونس ، وذلك قبل احتلال الرومان لتلك البلاد ، ثم تقهقرت هذه القبيلة مع غيرها من قبائل البربر إلى الداخل ، وهى التى اشتهرت بعد ذلك باسم « الطوارق » ولا يزال إلى اليوم هذا الاسم يطلق على القبيلة التى تقيم غربى غاط .

(أنظر : السعدى : تاريخ السودان — باريس ١٨٩٨ ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ — شمال أفريقية الوندال للمؤلف — المجلة التاريخية م ١١ سنة ١٩٦٣ ص ١٢٤ .

وأشار جونستون إلى مرجع تعرض لشرح هذه النقطة ، هو :

Piquet, V., Les Civilisations de l'Afrique du Nord, Paris, 1909

انظر كذلك : Blyden, W., Christianity, Islam and the Negro Racu, Lond.,1881, P. ,6

أنظر خريطة طرق القوافل .

(٥) يقال إن الجمل دخل مصر لأول مرة على يد الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الاسكندر المقدونى استخدم الجمل فى حملته على سيوه ، بعد فتحه مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وأن يوليوس قيصر استولى على ٤٦ جملا من منطقة غربى سيوه ، ومن بعد قيصر أكثر الرومان من استخدام الجمل ، ويقال كذلك أن الحملة التى قادها سبتيموس فلاكوس Septimus Flaccus من شمالى أفريقية ووصلت إلى حدود بلاد السودان جنوبى الصحراء الكبرى حوالى عام ١٩ ق . م . ، استخدمت الجمل واعتمدت عليه فى تحركاتها ، وفى القرن الأول الميلادى ، كانت الفرقة الرومانية المعروفة فى الجيش الرومانى باسم « فرقة أوجستا الثالثة Legio III Augusta تعتمد على الجمال ، وحدث فى عام ٣٦٣ م أن مواطنى منطقة لبده Lepcis Magna قد استغاثوا بحاكم أفريقية الرومانى لمساعدتهم ضد غزوات قبائل الأستريان Austuriani وهم فرع من الطوارق المقيمين فى سنيسيوس Synesius، فأجابهم الحاكم الرومانى بأنه لا يستطيع أن يصل إلى بلاد الطوارق لقمعهم ما لم يقدموا له ٤٠٠ جمل ليتمكن من نقل رجاله .

Bovill, F. W., The Golden Trade of the Moors, Lopnd.,1962, PP. 41—43, 48—49, 51 ; Johnston, P.P. 46—48 ; Fage, J., -An Atlas of African History, Camb., 1958, P.P. 17—18 ; Wiedner, D. L., A History of Africa, South of the Sahara, N. York, 1962, P.P.27—28 ; Okafor, A., History of West Africa (In «The New West Africa, P. 26).

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — مصر ١٩٦١ ص ٢٦٠ — ٢٧٤ ،

Blyden, op. cit. P. 6 ; Le Chatelier, A., L'Islam Dans l'Afrique Occidentale, Parsi, 1899, P. 127; Gouilly, A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentales Française, Paris, 1952, P. 40 ; Hogben, S. J., The Muhammadan Emirates of Nigeria, Lond., 1930, P. 15 ; L. Lugard, F. L. Shaw, A Tropical Dependency, Lond., 1905, P.P. 83—84.

(٧) راجع الأصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم — القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك (تحقيق الحينى ومراجعة غربال — مصر ١٩٦١ (— ص ٣٤ — ٣٥ ، ياقوت (أبو عبد الله ت ١٢٢٩م) معجم البلدان — مصر ١٩٠٦ ، ج ٢ ص ٣٨

(٨) Johnston, op. cit., P.P. 15—20, Davidson, B., Old Africa Rediscovered, Lond., 1959, P.P. 70—73.

(٩) Johnston, P. 296, Reeve, H. F., The Gambia, Its History, Ancient, Medieval and Modern, Lond.,1912, P. 5 ; Reindore, Rev. C.C., History of the Gold Coast and Asanté Basel, 1892, P. 1.

(١٠) Reeve, op. cit. P. 8 ; Johnston, op. cit. P.P. 35—38 ; Kup, P. A History of Siera Leone (1400—1787), Cambr., 1961, P.P. 28—29 ; Reindore, loc. cit. P. 2 ; Gsell, S., Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Par is, 1921, T.I., P.P. 468—469 ; Ward, W.E.F, A Histoy of the Gold Coast, Lond. 1948, P. 30; Maspero, G., Histoire Ancienne Des Peuples De L'Orient, Paris, 1917, P.P. 471, 493.

(١١) Reeve, loc. cit., P. 7,Bury, J., History of Greece, Lond., 1931, P. 269 s.qq., 335 ; Maspero, loc. cit., P.P. 720—722.

(١٢) Hogben, loc. cit., P.P. 13—15.

(١٣) Johnston, loc. cit., P.P. 46—48, 296—300 ; Hogben, P. 15 ; Reeve, P.P.3—4 ; Reindore, P.P. 1—2 ; Ward, P. 30 ; Kup, P.P. 28—29 ; Spitz, G., L'Ouest Africain Français Paris, 1947, P. 68 ; Pedlar, F. J., West Africa, Straid., Eng., 1959, P. 61 ; Vandeleur, S., Campaigning in the Upper Nile and Niger, Lond., 1899, P. 149 ; Sharaf, T., A short Hist. of Geographical Discovery, Alex., 1963, P.P.89—148.

(١٤) Davidson, P. 76.

(١٥) سمح فى عام ١٢١٩ م لخمسة من الرهبان الفرنسسكان ، بالاستقرار فى مراكش ، وبعد ذلك بسنوات قليلة ، جعل البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) مدينة مراكش أسقفية ، وظلت على ذلك حتى عام ١٦٣٩ م .

(راجع .Bovill, P. 111)

(١٦) Johnston P.P. 39—40.

عن اليهود راجع :

Nahum Slouch, Etudes Sur l'Histoire des Juifs au Maroc, Paris, 1905 ;

أنظر كذلك :

De La Roncière, Ch., Les Découvertes de l'Afrique au Moyen ge, Le Caire, 1925, T. I., P.P.102—108.

(١٧) امبراطورية غانة الاسلامية فى العصور الوسطى للمؤلف (وزارة الثقافة— فى المطبعة) .

(١٨) عن حج السلطان كنكن موسى وأخبار موكبه وذهبه راجع ؛ السعدى ص ٧ ، كعت (محمود كعت) : تاريخ الفتاش — باريس ١٩١٣ ، ص ٣٣ ، العمرى (شهاب الدين أحمد ت ١٣٤٨م) : مسالك الأبصار — مصور ج ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٤ — ٥٠٧ ، ابن خلدون (عبد الرحمن ت ١٤٠٥م) : تاريخه ج ٥ ص ٤٣٤ ، ج ٦ ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ١٤٤١ م) : الذهب المسبوك — نشر الشيال — مصر ١٩٥٥ ص ١١٢ ؛

Davidson, P. 94 ; Viedner, P. 75 ; Hogben, P. 31 ; L. Lugard, P.P. 124—125 ; Bovill, P.P. 87—89.

(١٩) أنظر ما يلى وراجع .Davidson, P. 76, Bovill, P.91 دولة مالى الاسلامية للمؤلف (وزارة الثقافة — فى المطبعة) .

(٢٠) Davidson, P. 77 ; Bovill, P.P. 114—115 ; De La Ronciere, loc. cit., T. I., P. 157, Johnston, P.P. 78—91 ; Okafor, P. 26 ; Brown, L.A., The Story of Maps, Lond., 1951, P.P. 73, 108, 111, 205, 243, 301, 305—306 ; Tooley, R.V., Maps and Map Makers, Lond., 1949, P.P. 96—102, Gov. of Nigeria, The NigeriaHandbook, Lond., 1956, P. 23 ; Ward, P.P.29—30.

(٢١) De La Roncière, T. I, P. 121.

(٢٢) De La Roncière, T. I, P. 157.

(٢٣) Bovill, P.P. 112—114.

(٢٤) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى — مصر ١٩٤٥ ص ٤٤ — ٤٥ — ٥٤ — ٦٧ ، ١٢١ — ١٢٥ ، ١٣٦ — ١٧١ ؛

De La Roncière, T. I, PP.. 12 s.qq., 45—48, 129.

(٢٥) Bovill, P. 114.

(٢٦) De La Roncière, T. I, P.P. 123, 125.

(٢٧) Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P. 79.

(٢٨) Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P.P. 64—65, 69, 115, 122, 131.

(٢٩) Davidson, P. 70 ; De La Roncière, T. I, P.P. 122—129.

(٣٠) من رسامي الخرائط في ميورقة من اليهود من تحول إلى المسيحية أمثال : (١٣٩١)
Antonius Sober, Johnston Oliva (Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P.P. 128—129, 131).

(٣١) امتدت شهرة مالى وعظمتها إلى القرون التالية ، وظلت تظهر فى خرائط أوربا ، ففى مطلع القرن السادس عشر مثلا ، صدرت خريطة ستراسبورج (١٥١٣) وعليها نقش يتعلق بمملكة مالى وسيدها موسى : «Regnum Musa Mali de Ginovia».

وكذلك أصدر العالم الألمانى فالدسيمولر Waldseemuller خريطة فى عام ١٥١٨ ، وعليها اسم مانسا موسى ، ويبدو أن هذه الخريطة قد ذبلت أهميتها وقيمتها تحت ضوء المعلومات الجديدة المحققة حينئذ ، وهى التى أوضحتها الكشوف الجغرافية التى تمت ، فضلا عن الضوء الذى ألقاه حسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقى) المتوفى حوالى ١٥٤٠ م ، بمؤلفه الشهير عن وصف أفريقية .
(De La Roncière, T. I, P.P. 17—25, a127—128 ; Bovill, P.P. 91—92, 115—133, Tooley, op. cit., P.P. 96—102, Brown, op. cit., P.P. 301—305—306 ; Oliver nad Fage, P. 90 ; L. lug. op. cit., P. 152).

(٣٢) Ward, P. 58 ; De La Roncière, T. II, P.P. 10, 25, 33 ; Spity, P. 6 & ;] L. lug, P. 333 ; Reeve, P.P. 27—30 ; Church, R.G.H. West Africa, A Study of the Environment and Mans' Use of It., Lond., 1961, P. XXIV ; Reindore, P. 13 ; Rrown, P.110 ; Boville, P. 117, N. 2

(٣٣) De La Roncière, T. II, P.P. 17—25 ; Bovuill, P. 115.

(٣٤) خضعت صنغى لمملكة مالى عام ١٣٢٥ م زمن السلطان المالى كنكن موسى ، ثم خرجت زمن مغان الأول بن مانسا موسى (١٣٣٧ — ١٣٤١ م) ، عندما فر الرهائن من أمراء صنغى وهما : على كولن وأخوه سليمان نار ولدا زا ياسبى ، وأعلن على كولن استقلاله بصنغى وانفصاله عن مالى . (السعدى ص٦—٧)
Hogben, P.P. 31—33 ; Davidson, P. 91 ; Bovill, P. 89 ; Okafor, P. 29 ; Murdock, G.P., Africa, Its Peoples a Cultural History, N. York, 1959, P. 138 ; Fage, J. An Introduction to the History of West Af4rica, Cambr., 1959, P. 27 ; L. Lug., P.P. 120, 146, 162—164 ; Rouch, J., Les Songhay, Paris, 1954, P.P. 9, 193 ; Le Chatelier, A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentale, Paris, 1899, P.P. 81, 87 ;

امبراطورية صنغى للمؤلف) .

(٣٥) Spitz, P.P. 70—71.

(٣٦) الملك الفرنسى المعاصر فى عام ١٤١٣ م هو شارل السادس من أسرة فالوا Valois (١٣٨٠ — ١٤٢٢ م) . وآل فالوا فرع من آل كابى Capets ، وولى عهده هو شارل الذى تولى العرش باسم شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١ م)

(راجع : Lodge, R., The Close of the Middle Ages, Lond., 1924.)

(٣٧) نواة مملكة البرتغال ، مقاطعة غاليسيا Galicia الواردة فى الكتب العربية باسم جليقية ، وهى تابعة لقشتالة ، إحدى الممالك المسيحية الصغيرة فى أسبانيا الاسلامية ، وأول أمير فى البرتغال ، مغامر فرنسى اسمه هنرى البرجندى Huneric of Burgundy من أمراء آل كابى الحاكين فى فرنسا المعاصرة ، خرج هذا الأمير مغامرا من فرنسا واتجه إلى أسبانيا ، حيث ساهم فى الحرب الصليبية الدائرة ضد مسلمى أسبانيا ، وتزوج من ابنة غير شرعية لألفونسو السادس ملك قشتالة ، وكافأه ملك قشتالة على خدماته بمنحه كونتية البرتغال اقطاعا له ، على النحو الاقطاعى المعروف فى أوربا يومئذ ، والمعروف أن الفونسو السادس هذا هو الذى لقى الهزيمة النكراء على يد يوسف بن تاشفين المرابط فى وقعة الزلاقة المشهورة عام ١٠٨٦ م .

ومن هنرى وسلالته تكونت أول أسرة مالكة فى البرتغال فى العصور الوسطى ، ويطلق المسلمون على هنرى هذا اسم « أريك » وعلى ابنه الفونسو الأول اسم : « ابن أريك » .

كره هنرى وأبناؤه من بعده سيادة قشتالة ، وبمساعدة أتباعهم الاقطاعيين من نبلاء فرنسا ، حاول الاستقلال بالبرتغال ، بعد أن وسع حدودها على حساب أملاك المسلمين المجاورة ، ونجح ابن أريك ، وهو الفونسو هنريك Alfonso Henry كونت البرتغال فى الاستقلال بكونتيته ، وتفاوض مع البابوية فى منحه لقب « ملك » نظير ما أداه من خدمات فى الحرب ضد المسلمين .

والمحتمل أن ابن إريك ، أخذ لقب ملك عام ١١٤٣ م ، قبل وصول الفرع الصليبى إلى البرتغال وهو الفرع الذى وصل عام ١١٤٧ م ، وكان متجها إلى الشرق على أثر سقوط امارة الرها الصليبية ١٤٤٤ ، على يد عماد الدين زنكى ، ليشترك فى الحملة الصليبية الثانية ، وقد ساعد هذا الفرع البرتغاليين على انتزاع لشبونة من المسلمين عام ١١٤٧ م وسلمها للبرتغالين لتصبح عاصمة لهم .

ومن المقول كذلك ، أن أحد أحفاد ابن اريك ، فى القرن الثالث عشر ، هو أول من أخذ لقب « ملك البرتغال » وهذا الحفيد هو الفونسو الثالث . وسواء قامت مملكة البرتغال المستقلة فى القرن الثانى عشر أم فى القرن الثالث عشر ، فان الخطوة الهامة فى سياستها ، بعد ذلك ، هى تعقب المسلمين الفارين أو الجافلين إلى شمال أفريقيا ، ونقل الحرب الصليبية إلى بلادهم .

والمعروف أن عنصر القوط الجرمان ، يكثر فى شمالى البرتغال ، كما يوجد عدد كبير من السويف Suevi (الجلالقة) ، وتمتاز سلالة السويف بطول القامة والشعر الأحمر والعيون الزرق حتى العصر الحاضر ، وصفهم صاحب الروض المعطار بأنهم « أهل غدر ودناءة ، وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مفرجة ، تبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم ، وفيهم بأس شديد ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه » .

والبرتغال لغة خاصة ، هى اللغة البرتغالية ، وهى لهجة لاتينية محلية . واشتهرت البرتغال باقتران أسماء ملوكها وأمرائها عادة بكلمة « دون» Don أو « دوم » Dom . وهذا المصطلح اختصار من الكلمة اللاتينية Dominus بمعنى « سيد » Lord or Master ، وكانت العادة قد جرت فى العصور الوسطى أن تلحق كلمة « دوم » Dom بأسماء كبار رجال الدين من باب التشريف والتعظيم ، ولا سيما كبار الرهبان من فرقتى : البندكتية ، والكارثوذية . وتنسب الفرقة البندكتية إلى مؤسسها القديس بندكت الايطالى Benedict/ (٤٨٠ — ٥٤٠م) ، وأما الكارثوذية فتنسب إلى مدينة

كارتوزيا Cartusia الفرنسية – شارترو الحالية Chartreux – قرب جرنوبل حيث نشأت هذه الفرقة على يد القديس برونو Bruno الكرلونى عام ١٠٨٤

(الحميرى (أبو عبد الله محمد) : صفة جزيرة الأندلس ، وهو منتخب من كتاب الروض المعطار فى خبر الأمصار – نشر ليفى بروفنسال ، مصر ١٩٣٧ ص ١٦ ، ; Kup, P. 32

Wiedner, P. 37 ; Johnston, P.P. 76—77 ; Runciman, S., Hist. of the Crusades, Cambr., 1954, Vol. II, P.P. 258—259 ; Brooke, Z. N., A Hist. of Europe (911—1198), Lond., 1947 P.P. 108, 341—345 ; Chew, H. M., and Latham, L. C. Europe in the Middle Ages, Lond., 1936, P.P. 108—112, 118—119).

(٣٨) Wiedner, P. 38.

(٣٩) Bovill, P. 117.

(٤٠) Johnston, P.P. 28, 196—197 ; Tooley, P.P. 3—8 ; Wiedner, P. 38 ; L. lug., P. 323.

(٤١) De La Roncière, T. II, P.P. 25, 33 Sqq.

(٤٢) Runciman, loc. cit., P.P. 158—159.

(٤٣) كلمة برستر Prester بمعنى القديس Priest ، والقديس يوحنا شخصية خرافية ، كان أهل أوربا يعتقدون بوجودها ، وأنه يحكم امبراطورية واسعة فى آسيا ، غير أن أهل أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى ، رأوا أن المقصود بهذه الشخصية هى ملك الحبشة المسيحى وفيما قاله أهل أوربا إن شهرة مانسا موسى ملك مالى لا تقل عن شهرة القديس يوحنا الأسطورية .

(Bovill, P.P. 92, 117 ; De La Roncière, T. II, P.P. 57—60).

(٤٤) Wiedner, P. 38 ; Brown, P. 159 ; Johnston, P.P. 77—78 ,83 ; Bovill, P. 117 ; De La Roncière, T. I, P. 57, T. II, P. 85 ; Niven, C.R., The Land and people of west Africa, Lond., 1958, P. 24.

(٤٥) لم تقف محاولات البرتغاليين الملحة طوال القرن الخامس عشر ، حتى لقوا الهزيمة الكبرى المذلة أمام المغاربة المسلمين فى وقعة القصر الكبير Alcazar المشهورة عام ١٥٧٨ م ، شمال غربى مدينة فاس ، عند شاطىء نهر لوكوس Lukkus قرب ميناء العرايش ، وكان المراكشيون بقيادة مولاى عبد الملك الذى قتل فى هذه الوقعة ، وهو الذى خلفه الذهبى فاتح امبراطورية صنغى . وكان البرتغاليون بقيادة ملكهم الشاب دون ساستيان Don Sebastian ولهذه الكارثة التى نزلت بالبرتغاليين ، أثرها البالغ فى سوء معاملة البرتغاليين للأفريقيين خلال حركات كشوفهم ، ويقال إن المغاربة أسروا فى هذه الوقعة نحو ٢٦ ألف برتغالى غير القتلى والفارين .

Bovill, P. 135 ; Johnston, P.P. 65—68, 77—78 ; Wiedner, P. 38.

(٤٦) Bovill, P. 117.

(٤٧) Wiedner, P. 38.

(٤٨) Kup, P. 29 ; Johnston, P. 78 ; Bovill, P. 118.

(٤٩) عن التجارة الصامتة Silent Trade or Dumb-Barter or Commerce Muet.

راجع : المسعودى (أبو الحسن على ت ٩٥٦ م) : أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب

البلدان (مخطوط فى مجلد رقم ٨٧٩ بدار الكتب المصرية) ورقة ٣٨ ب ، ٣٩ ا ، الغرناطى (أبو حامد محمد بن عبد الرحيم ت ١١٧٠ م) : كتاب تحفة الألباب – باريس ١٩٢٥ ، ص ٤١ – ٤٢ ،
Gautier, E. F., Le Passé de l'Afriqus du Nord, Paris, 1937, P.P. 48—58, De La Roncière, T. I, P.P. 94—99, Bovill, P.P. 82—83, Fage, op. cit., P.P. 20—21 ; Gsell, loc. cit. I, PP. 468—469 ; Shinnie, M., Ancient African Kingdoms, Lond.، 1965, P.P. 44—46.
بحث Ivor Wilks عن A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Gu'na
من بحوث مؤتمر الدراسات الأفريقية الذى عقد بلندن عام ١٩٦١) .

(٥٠) Brown, P.P. 110—111 ; Johnston, P. 78 ; Bovill, P. 117, N. I, De La Roncière, T. I, P.P. 49, 134, T. II, P.P. 45, 47—48.

(٥١) Ward, P. 59 ; The Nigeria Handbook, P. 23 بحث A.F.C. Ryder عن :
البرتغاليين فى غرب أفريقية – من بحوث مؤتمر الدراسات الأفريقية الذى عقد فى لندن عام ١٩٦١)

(٥٢) البابا المعاصر فى عام ١٤٤٢ م هو أيوجين الرابع Eugenus IV البندق (١٤٣١ –١٤٤٧م

(٥٣) Johnston, P.P. 78—79.

(٥٤) عقدت معاهدة توردسلاس Tordesillas فى ٧ يونية عام ١٤٩٤ م ، وبمقتضاها ظفر البرتغاليون بامتلاك كل ما يكشف شرق خط وهمى يسير عبر المحيط الأطلسى من الشمال إلى الجنوب ، ويبعد عن الرأس الأخضر بنحو ٣٧٠ ميلا . (Church, P. 215, Bovill, P. 118).

(٥٥) Bovill, P. 118 ; L. lug·, P. 323.

(٥٦) Ward, P. 59 ; De La Roncière, T. II, P.P. 45, 57—48.

(٥٧) يقول الأدريسى عن منطقة ونقاره ، بأنها « بلا د التبر المذكورة الموصوفة كثرة وطيبا » وفى موضع آخر يقول « وشرقى غانة أرض ونقاره أرض التبر » . وتشمل منطقة ونقاره الواقعة فى أعالى نهر النيجر ونهر السنغال ، أربعة أقاليم من بينها اقليم بامبوك . ويقول المكتشف دنهام M. D. Denham « تطلق كلمة ونقاره على جميع مناطق الذهب وعلى الناس القادمين منها » .
(أنظر : الأدريسى : نزهة المشتاق ص ١٣ – ١٤ ،
(Bovill, P·P. 191—193, 202 ; Davidson, P. 84).

(٥٨) Spitz, P.P. 68—69 ; Ward, P. 59 ; Bovill, P. 118.

(٥٩) Johnston, P. 79 ; De La Roncière, T. II, P. 47.

(٦٠) Church, P. 272 ; Bovill, P. 119.

(٦١) عرفت كلمة غينية فى المغرب قبل عهد هنرى ، كما ظهرت على الخريطة التى رسمها العالم الجنوى جيو فانى كارنيانو Giovanni Carignano عام ١٣٢٠ م ، وكان قد حصل على بعض المعلومات عن أفريقية من أحد سكان سجلماسة ، كذلك ظهر هذا الاسم على الخريطة القطالونية ١٣٧٥ م ، Ginyia . وتدل المعلومات التى أوردها ليو الأفريقى ، على أن اسم غينية ، تحريف لكلمة جنى Jenne لاشتهار هذه المدينة فى المغرب ، باعتبارها مركزا ثقافيا اسلاميا مزدهرا وسوقا تجارية رائجة فى النيجر ، وليس صحيحا ما قيل إن غينية تحريف لكلمة « غانة » القديمة ، والراجح أنها تحريف لكلمة « أجويناو » (Aguinaou) وهى التسمية البربرية للزنوج ، فقد كان فى مدينة مراكش ، التى بناها المرابطون عام ٤٥٤ هـ – ١٠٦٢ م على يد يوسف بن تاشفين ، باب يعرف

باسم «باب أجويناو أو بوابة الزنوج « Gate of the Negro » والتسمية الحديثة لساحل غينية ترجع إلى عام ١٤٨١ ، وهو العام الذى بنى فيه البرتغاليون حصن المينا ، وقد أخذ ملك البرتغال حنا الثانى ، باذن من البابا ، لقب « سيد غينية » «Lord of Giunea» وبقى هذا اللقب حتى زوال الملكية البرتغالية فى العصور الحديثة ، وعرف الجنيه الانجليزى بهذا الاسم Giunea ، لأنه ضرب لأول مرة عام ١٦٦٢ م من ذهب جىء به من هذه المنطقة أو من غرب أفريقية بواسطة الشركة الأفريقية لتجار لندن .

(راجع Bovill, P.P. 119, N. I, 272 ; Church, P. 215 ; Johnston, P. 79 ; Ce La Roncière, T. I, P.P. 49, 97, 146, 160 ; T. II, P.P. 26—27—29, 37, 42, 50—52, 66 ; Hobbey, L. F. Early Explorers, Lond., 1961, P.P. 59—61 ;

ولنفس المؤلف السابق :

Opening Africa, Lond.' 1962, P.P. 10—12. Bourret, F. M., Ghana, Th~ Road to Ind - pendence, Lond., 1960, P. 12. Monteil, Ch., Les Empires du Mali, Paris, 1930, P.145.

(٦٢) Bovill' P' 119.

(٦٣) Ibid.

(٦٤) Church, P. 215 ; Monteil, P. 145 ; Johnston, P. 79 ; Early Explores, P.P' 59—61 ; Opening Afrkca, P.P. 10—12 ; De La Roncière, T. I, P.P. 49, 97, 116, 160, T' II, P.P. 26—27, 29, 37—42, 50, 60 ; Bovill, P.P. 83—84 ; 120, 195—196.

(٦٥) Church, P. 300 ; Fyfe, T. I, Robertson, G.A., Notes on Africa, Lond., 1819, P. 47.

(٦٦) De La Roncière, T, I, P. 93, T. II, P.P. 11—12—16—54—55—60, 67 · Johnston, P. 79 ; L. ɲug., P. 176, Rup, P. 30.

(٦٧) Fage, An Atlas ..., P.P. 26—27 ; De La Roncière, T. II, P.P. 75—76, T. III P. 24 ; Johnston' P.P. 80—81, 99 بحث : Ivor Wilks. الذى سبقت الاشارة اليه فى حاشية رقم ٤٨ ، بحث T. Fage عن : Some Remarks on Beads and Trade in Lower Guinea in the 16th and 17th Centuries.

من بحوث مؤتمر الدراسات الأفريقية الذى عقد بلندن عام ١٩٦١) .

(٦٨) تشمل هذه المشيخات : سفالة وموزمبيق وكلوه وزنزبار وبمبا وممبسا ومالندى ولامو وبراقا ومقديشيو (راجع : مشيخات الساحل الاسلامية للمؤلف فى : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى — مجلة الجمعية التاريخية (١٩٥٩) ص ٤١ — ٤٤ ؛

أنظر : Johnston, P.P. 82—115, 300—301.

(٦٩) بدأ الأسبان رحلاتهم للكشف والاستعمار ، من القرن الخامس عشر ، وتلاهم الانجليز فى القرن السادس عشر ، حين سافر هوكنز T. Hawkins وكان رحالة مغامرا ، ونزل عام ١٥٦٢م فى سيراليون واقتنص نحو ٣٠٠ زنجى أفريقى وعادبهم ، وكان قد اتفق مع أصحاب رؤوس الأموال فى انجلترا فأمدوه بالسفن ، إذ اكتشف أن تجارة الرقيق سلعة رائجة فى أوربا وأسبانيا بصفة خاصة ، وقد أفادت الملكية الانجليزية من الأرباح ، وتبعه رحالة آخرون منهم : دريك Drake الذى كان أكثر شفقة من سلفه ؛ وأول قانون منح لشركة انجليزية المتاجرة فى ساحل غينية ، منحه الملك جيمس الثانى عام ١٦١٩ م . وأما الفرنسيون ، فأول رحلات كشوفهم كانت فى القرن الرابع عشر ، كما يقولون ،

ثم دخل الهولنديون ميدان الكشف والاستعمار فى أفريقية أواخر القرن السادس عشر ، واستعانوا بالمشروبات الروحية ، واشتد التنافس الدينى والتجارى .

(أنظر L. lug., P.P. 326—332 ; Vandeleur, P.P. 245—267 ; Hallet, R., The European Exproration' (1780—1830) ; Johnston, P.P. 116 Sqq., 196 Sqq., 301—302...).

(٧٠) Johnston, P. 80, Pedler, P.P. 65—78.

(٧١) Hogben, P. 64, Ward, P.P. 62—63 ; Reindore, P. 14, Church, P. XXIV ; L. lug., P. 176, Bovill, P. 119, Kup, P. 62 ; The Nigeria Handbook, P. 24.

(٧٢) Wiedner, P.P.38—39 ; Reindore, P. 11, Kup, P. 62 ; Johnston, P. 80.

(٧٣) أنظر خريطة البرتغاليين فى غرب أفريقية . L. lug., P. 323 ; Bovill' P. 120.

(٧٤) كان الفرنسيون فى ذلك الوقت ، يمتلكون شريطا ضيقا على ساحل غينية ، فعملوا على التدخل وتوسيع نفوذهم ، وأسسوا شركة السنغال ، وهى التى عرفت فى القرن السابع عشر باسم « الشركة الفرنسية المركزية فى غرب أفريقية » وأخذوا بعد ذلك يتوغلون فى الداخل تدريجيا (راجع L. lug., P. 325.)

(٧٥) Bovill, P. 119.

(٧٦) Hogben, P. 64.

(٧٧) Johnston, P.P. 302—303.

(٧٨) هذه الرسالة مكتوبة باللغة اللاتينية ومصورة بالزنكرغراف ، ولا تزال باقية إلى اليوم بقسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس ، ولها ترجمة فرنسية . (راجع De La Roncière, T. I, حيث توجد الرسالة وترجمتها P.P. 145—158.)

(٧٩) De La Roncière, T. I, P.P. 161—166 ; Bovill, P.P. 116.—117

(٨٠) Johnston, P.P. 302—303.

(٨١) السراكول هم السوننك Soninké/ أحد فروع الماند ، وكانوا العنصر الأساسى الذى كون امبراطورية غانة ، ومعنى السراكول بلغة الولوف : الناس الحمر Red Men ، ولعل ذلك لاختلاط دمائهم بدماء البيض من العرب والبربر .

(راجع : Le chatelier. P. P. 55, 76-79, 88-95, 101-110 ; spitz, P. 61 ; De la Ranciere, T, I, P. 48 ; B aumann, H., and westermann, D, les Peuples et les civilisations de l'Affique. Paris, 1948, P. 453 ; Urvoy, Y. Petit Atlas, Ethno- Demographique du Soudan Paris, 1942' P. P. 22 29 ; Mc. Cullock, Ethnography survey of Africa, Part II, (Landon), P. P. 1-4 ; Triminghann. J. S., Islam in west Africa, Oxf., 1959, P. 13 N. 2.)

(٨٢) راجع ما سبق .

(٨٣) استولى الطوارق على تمبكتو عام ٨٣٧ هـ — ١٤٣٣ م ، وخربوا ونهبوا ، وقد عجزت مالى عن استرجاعها ، فظل الطوارق بها حتى طردهم سنى على ملك صنغى عام ٨٧٣ هـ — ١٤٦٨ م .

(راجع : السعدى : تاريخ السودان ص ٢٢ ، ٢٥ — ٢٦ ، ٦٥ ، كعت : تاريخ الفتاش ص ٤٨ Le Chatelier, P. 82 ; Davidson, P. 89 ; Bouill, P. P. 103-104 ; Gouily, P. P. 16-17 ; Montei', Pè 41 ; Charch, P. 203 L. Lug. P. P. 140-147 O kafor- P. P. 30-31).

(٨٤) Bovill, P. 120 ; Le chatelier, P. 82.

(٨٥) O Kafor, P. 29. 1

(٨٦) التسمية العربية لقبائل الولوف هي « جلف » يقول السعدي عن بلاد فوت Futa إنها «أرض قرب البحر المالح لسلطان جلف» (تاريخه ص ٧٧) . وكان للولوف امبراطورية كبرى ، امتدت من السنغال إلى غمبيا وتتكون من خمس ممالك أو خمسة أقاليم . ودخل الاسلام بلاد الولوف في القرن الخامس عشر . (Pedler, P. 32 ; Trimingham, op. cit. P. 13 ; Spitz, P. 61).

(٨٧) Le Chatelier, P. 65.

(٨٨) عثرت بعثة كشف سويدية في عام ١٩٠٦ م على كتابة برتغالية على صخرة قرب نهر مبوزو موقع عليها باسم ديجو جام Cao وأسماء آخرين (Johnston, P. 80.)

(٨٩) راجع حاشية ٨٢

(٩٠) التسمية العربية « موش » Mossi عن السعدي (ص ٧٤) ، والفتاش (ص ٧١) ، وعن أخبار هذه القبائل وممالكها ومقاومتها للاسلام ، ثم اعتناقها له أخيرا راجع :

Triningham, P. 15 ; Johnston' P. P. 178-179, 209, 255-257 ; le chatelier, P.P. 120-122 ; Hogben, P. P. 29, 53 ; Gouilly, P. P. 51-53, Monteil, P. 143, Urvoy, P. 28; Delafosse, M., Traditions Historiques et legendaires du Soudan Occidentale' Paris, 1913, P. P. b-18).

(٩١) عن الفولانيين Fulani أو الفلاتا Fellata والتكاررة Tucolors راجع : (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٠ ،

Urvoy, P. P. 29-31. L. lug. P. 115 ; Délafosse, Takrur (Encycl. of Islam, vol. II. P. b 33 ; Gouilly, P. P. 186, 209 ; le chatelier, P. 79-107-120, Trimningham, P. P. 11-13 ; Bovill, P. y 84-224-232 ; Fage, An Introduction P ... ; P. 146, Johnston P. P. 12 13 ; Burns, A.S., HistorP. of Nigeria, Land ; 1955 , P. P. 23-50 ; Mélanges ethnologiques, P. P. 23-29 ; Suddan government, Memorandum, P. b-7, 18.

الفولانيون للمؤلف (تحت الطبع) .

(٩٢) السعدي ص ٢ — ٦ ، الفتاش ص ٤٢ — ٤٥ ،

Gouilley, P. 58 ; Spitz, P. 64, Rouch, op. cit. P. 9 ; L. lug., P. 175.

امبراطورية صنغي الاسلامية للمؤلف (تحت الطبع) .

(٩٣) مانسا Mansa أو ماسا Massa بمعنى ملك عند قبائل الماندنجو (صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٢ ،

Montail, P. P. 20-22, 145, 151 ; Labouret, H., Mali, Mandingeo (Encycl. of Islm) Vol. III, Mali, Mandingo (Encycl. of Islam) vol. III, P. 242).

(٩٤) أنظر Bovill, P. 117 N. I.

(٩٥) Labouret, P. 241 ; Fage, An Introduction P. 27

(٩٦) بورمالي Bour Mali أي ملك مالي بلغة الولوف

(٩٧) Fage, op. cit. P. 27 ; Monteil, P. 146 ; Labouret. P. P. 203-204.

دولة مالي الاسلامية للمؤلف (وزارة الثقافة في المطبعة) .

(٩٨) Bovill, P. 104.

(٩٩) Fage, P. 27 ; Labouret, P. 241 ' Monteil' P. 147 ; Bovill, P. 104.

(١٠٠) تقع مدينة جنى Jenne or Dienne على النيجر ، وقد استولى عليها سنى على ملك صنغى في عام ١٤٧٧ م ، وكانت مالى زمن عظمتها قد عجزت عن فتحها والاستيلاء عليها ، وجنى عاصمة مملكة جنى الاسلامية التي اشتهرت بكثرة علمائها وعظمتها وازدهارها .

(راجع : السعدى ص ١٢ – ١٣ ؛ Bouill. P. 120., ؛ Johnston, P. P. 300-300.

(١٠١) L. lug., P. 178-179.

(١٠٢) أنظر مراجع حاشية ٨٩ ، وراجع :

Bovil P. 120. L. lug., P. 177, Monteil .P. 145.

(١٠٣) Church, P. 300, Fyfe, P, I ; Fage, An Atlas, P. P. 26-27 c Johnston P. P. 80-81, 99, De la Ronciere. II, P. P. 11-12. 16-145، 55، 60-65.

(١٠٤) Bovill. P. 120

الموارد البشرية : مقوماتها ووسائل تنميتها

للدكتور الفاروق زكى يونس
مدرس بكلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ فرع الخرطوم

من الواضح أن بحوث التنمية الاقتصادية قد اتجهت فى الحقبة الأخيرة نحو الاهتمام المتزايد بما يمكن أن تقوم به العوامل غير الاقتصادية من دور فى عملية التنمية . فقد درج المفكرون على أن يأخذوا على رجال الاقتصاد تعبيرهم عن متطلبات التنمية الاقتصادية فى حدود ضيقة كل الضيق تكاد تقتصر على التغيرات فى رأس المال والعمل والتكنولوجيا لأن هذه العوامل، وإن كانت تمثل العناصر المباشرة للنمو الاقتصادى ، فإن وراءها ولا شك مجموعة من التغيرات المركبة تتناول مظاهر السلوك البشرى والعلاقات الانسانية والمنظمات التى تحكم هذا السلوك وتنظم تلك العلاقات، أو بمعنى آخر إن الفروض التى تربط بين التقدم الاقتصادى وبين طبيعة توزيع الدخل أو الحجم النسبى للمدخرات أو مدى ما يمارسه التضخم من ضغط أو حالة ميزان المدفوعات هذه الفروض تحتوى على علاقات سببية واضحة إلى حد كبير بحيث يمكن تتبعها والتحقق منها بطريق مباشر وبدرجة كبيرة من الدقة . غير أن هذه العوامل وحدها تقصر عن تمثيل كل المتغيرات التى تدخل فى عملية التنمية . لأن هناك من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والانسانية والسيكولوجية ما يؤثر فى تنمية الاقتصاد القومى بطريقة أو بأخرى . غير أن الفكر الانسانى لم يصل بعد إلى الربط بين مختلف هذه العوامل فى نظرية واحدة تحقق الشمول والتماسك كما تحقق التكامل النظرى . فالعلاقة بين المتغيرات الاقتصادية وعملية التنمية قد لا يعوزها الوضوح أو التحديد ولكن أثر العوامل غير الاقتصادية على هذه العملية ما زال مبهما يكتنفه الغموض نظرا لعدم تطويعه بعد للتحديد الدقيق . وقد بذل بعض المحللين الاجتماعيين عدة محاولات فى الآونة

الأخيرة لتحديد العلاقة بين العوامل الاجتماعية والثقافية وبين التنمية الاقتصادية نذكر منها على سبيل المثال دراسة برت هوسلتز عن «الجوانب الاجتماعية للنمو الاقتصادي»[1]، ولكن هذه المحاولات في جملتها ما زالت محاولات مبدئية لم تخرج بعد إلى حيز الفروض العلمية . وبطبيعة الحال لا يستطيع رجل الاقتصاد وحده أن يتحمل هذا العبء ويتوافر على تحليل عملية التنمية من جميع جوانبها بل لابد وأن يشترك معه المشتغلون بالدراسات الاجتماعية عامة . وهنا تبرز الحاجة إلى العمل الفكري المشترك وإلى ضرورة التعاون العلمي بين رجال الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس . فمن الأمور المسلم بها في علم الاجتماع أن التغيير الذي يطرأ على نظام من أنظمة المجتمع يؤثر في النظم الأخرى السائدة في هذا المجتمع حسب طبيعة العلاقات التي تربط بين مختلف هذه النظم . فكيف ينطبق ذلك على عملية التنمية ؟ هل يعني أن يكون طريق التنمية طريقا كليا متكاملا يأخذفي الاعتبار كل النظم في المجتمع . قد يكون ذلك هو الوضع الأمثل . ولكن نظرا لما تتصف به الحياة الانسانية من تعقيد ، ولما تتطلبه عملية التنمية من تخصصات تتصل بجوانبها المتعددة فان عملية التنمية قد تستمر بناء على القطاعات المتخصصة ولتكن هذه اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية مع الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن تخلفه التنمية في قطاع معين من أثر على القطاعات الأخرى .

وفي هذا الاطار ستكون هذه الدراسة للموارد البشرية وعلى الأخص من ناحية مقوماتها ووسائل تنميتها والدور الذي تساهم به في تنمية الاقتصاد القومي بصفة عامة . والموارد البشرية تعتبر دون شك إحدى موضوعات الساعة التي استحوذت على اهتمام كثير من المفكرين الاقتصاديين ورجال التخطيط في السنوات الأخيرة لارتباطها الوثيق بخطط التنمية . ونظرا لما تلعبه التنمية من دور حيوي في الدول النامية أو الآخذة بأسباب النمو فسوف تحرص هذه الدراسة على الاستعانة بالأمثلة التطبيقية من مثل هذه الدول . على أنه لما كانت العناية بالموارد البشرية ليست بظاهرة حديثة بل تمتد بجذورها في الماضي فقد رأينا من الأفضل التمهيد لهذه الدراسة باستعراض مفهوم الموارد البشرية خلال التاريخ الاقتصادي مع العناية بالكشف عما تتميز به النظرة الحديثة لهذا المفهوم . وإلى جانب ذلك ستعنى

(1) Bert Hoselitz: Sociological Aspects of Economic Growth (Illinois, The Free Press, 1960).

هذه الدراسة عناية خاصة بجانب هام من هذا الموضوع وهو المتعلق بالاستثمارات البشرية لما لذلك من أثر على التنمية الاقتصادية وعلى الأخص بالنسبة للدول النامية.

التعريف بمفهوم الموارد البشرية :

إن مفهوم الموارد البشرية أو الثروة البشرية كما يستخدمها البعض لا يمثل مفهوما جديدا فى المجال الاقتصادى وإن كانت النظرة اليه فى السنوات الأخيرة تختلف عنها فيما مضى . حقيقة إن كثيرا من رجال الاقتصاد القدامى لم يولوا موضوع الموارد البشرية مايستحقه من عناية واهتمام ، ولكن هناك من الدراسات مايؤكد وجود هذا الاهتمام بشكل أو بآخر . ومن الأدلة على ذلك دراسات آدم سمث نفسه . فقد تضمنت هذه الدراسات إشارات عدة إلى مفهوم الثروة البشرية وإن لم يعالجها بطبيعة الحال بنفس الاتجاه السائد فى الوقت الحاضر أو على نفس الأسس الحديثة . ذهب آدم سمث إلى أن صالح الأمة يقتضى مساعدة كل شخص على تنمية إمكانياته وقدراته وعلى كفالة حريته فى استخدام هذه الامكانيات وتلك المقدرات . ولا شك أن النظرة المتعمقة لدراسة سمث الشهيرة فى كتابة « ثروة الأمم » تحملنا على الاعتقاد بأن سمث كان يرى أن السبيل إلى تنمية ثروة الأمة يقوم على الخبرة والمهارة وحسن التقدير فى استخدام العمل بصفة عامة علاوة على ما أكده سمث من أهمية التعليم بالنسبة لأفراد الأمة حين ذهب إلى أن المجتمع لا بد وأن يضمن لكل فرد من أفراده فرصة الحصول على قسط من التعليم يساعده على مواجهة مطالب الحياة . جملة القول أن آدم سمث قد نظر إلى أفراد المجتمع باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من ثروة هذا المجتمع وإن لم يعالج مفهوم الثروة البشرية بنفس الطريقة التى عالج بها مفهوم رأس المال وهنا يظهر الاختلاف بينه وبين الاتجاه الحديث . هذا وقد أشار مفكرون اقتصاديون آخرون إشارات عابرة إلى جانب أو أكثر من جوانب الموارد البشرية خلال كتاباتهم وتحليلاتهم الاقتصادية مثل آثر التعليم أو المهارات أو الأجور أو ما يتصل بها من العوامل على التقدم الاقتصادى . وهنا ينبغى الاشارة إلى ما ذهب اليه جون ستيوارت مل فى دراسته للمهارات من أن الناس حيث يوجهون الاستثمارات نحو أنفسهم فانهم بذلك يزيدون من فرص العمل أمامهم مما يسهم فى زيادة رفاهيتهم فى الحياة وهذا بدوره يزيد من

الرفاهية الاجتماعية . وعلى نفس المنوال سار جورج مارشال وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة . رأى جورج مارشال أن توجيه الاستثمارات نحو الفرد ذاته عن طريق التدريب المهنى واكتساب المهارات إنما يمثل استثمارا مجزيا بالنسبة للمجتمع ، ومن شأن ذلك أن يؤدى فى المدى الطويل إلى تنمية موارد الأمة . ومن هنا جاء اهتمام مارشال بموضوع العمال غير الفنيين فنادى بضرورة تدريبهم وتوجيههم التوجيه المهنى الذى يساعدهم على شق طريقهم فى الحياة وفى نفس الوقت يمكنهم من المساهمة فى نهضة المجتمع . ومن ثم أصبح مارشال من أكبر الدعاة إلى تطوير نظم التعليم لتكون أكثر عمقا وفاعلية ولتساهم فى دعم الخلق وتنمية الطاقة البشرية .

وهكذا نرى أن مفهوم الثروة البشرية قد ظهر بصورة أو بأخرى خلال التاريخ الاقتصادى إلا أنه لم يتبلور ولم يتقدم نحو الوضوح النظرى إلا فى الدراسات الاقتصادية الحديثة . وإذا كان الأمر كذلك فما هو وجه الاختلاف بين النظرتين القديمة والحديثة بالنسبة لمفهوم الموارد البشرية . وهنا يمكن القول بأن الفارق الأساسى بينهما يكمن فى أن الموارد البشرية أصبحت جزءا لا يتجزأ من الثروة القومية مثلها فى ذلك مثل الطبيعة ورأس المال . وبناء عليه فان الاستثمارات يمكن أن توجه إلى الناس أنفسهم كما يمكن أن توجه إلى عوامل الانتاج المختلفة والاستثمار البشرى لا يقل أهمية عن الاستثمارات الأخرى . هذا الاتجاه الحديث فى فهم الموارد البشرية بدأ يجد له أنصارا كثيرين فى الحقبة الأخيرة ومن أشهر هؤلاء الاقتصادى الأمريكى تيودور شولتز لدرجة أن فكرة الاستثمار البشرى تكاد تكون مقرونة باسمه . وقد قدم شولتز فى هذا الموضوع بحوثا عدة نذكر منها « رأى اقتصادى فى توجيه الاستثمار نحو الانسان » وقد نشر بمجلة الخدمة الاجتماعية الأمريكية فى يونيه سنة ١٩٥٨ و « استثمار رأس المال البشرى » ونشر بالمجلة الاقتصادية الأمريكية فى مارس سنة ١٩٦١ .

يفرق شولتز بين نوعين من رأس المال ، رأس المال البشرى ورأس المال الطبيعى ، وإن كان المفهوم الأول لم يصل بعد إلى درجة الوضوح والدقة التى وصل اليها الثانى . وهو يشرح ما يقصده برأس المال البشرى فى قوله : « من الواضح أن الناس يكتسبون خبرات ومعارف نافعة على أنه ليس بنفس الوضوح أن هذه

الخبرات وتلك المعارف تعتبر شكلا من أشكال رأس المال الذى تكون إلى حد كبير نتيجة لاستثمارات موجهة . بل إن هذا النوع من رأس المال قد نما فى المجتمعات الغربية بدرجة أسرع من نمو رأس المال المتعارف عليه (غير الانسانى) وقد أصبح هذا النمو من أبرز معالم النظام الاقتصادى» (١).

وهكذا يذهب الاتجاه الحديث إلى النظر لأفراد الأمة باعتبارهم جزءا هاما من ثروة هذه الأمة . أضف إلى ذلك أن الاستثمارات البشرية تزيد من الثروة القومية لدرجة أنه فى بعض الدول الغربية ساهمت الثروة البشرية فى الانتاج مساهمة فعالة لا تقل عن مساهمة عوامل الانتاج الأخرى . ولكن هذا الفهم للثروة البشرية على الرغم من أهميته لم يدخل ضمن مفهوم الثروة القومية نظراً للنزعة التقليدية نحو قصر المفهوم الأخير على الطبيعة ورأس المال . ومن ثم يمكن تلخيص الأسباب التى تفسر ذلك الإعراض عن النظر إلى الثروة البشرية للأمة باعتبارها جزءا من رأس المال فيما يلى :

١ — القيم الاجتماعية والمعتقدات التى حرمت النظر إلى الناس باعتبارهم نوعا من الاستثمار إلا فى حالة الرق وهى ظاهرة انقرضت فى المجتمعات الحديثة، ومن هنا قد يبدو أن دراسة الناس باعتبارهم شكلا من أشكال الثروة يتعارض مع القيم التى تسود المجتمع الانسانى إذ قد تفسر هذه النزعة على أنها تنزل بهؤلاء الناس إلى مرتبة الثروة المادية وهى صورة ترتبط بنظام الرق ونظام الاقطاع .

٢ — النظرة الاقتصادية التقليدية لعوامل الانتاج والتى تتألف من الطبيعة ورأس المال والعمل، علاوة على أن الفهم التقليدى للعمل باعتباره إحدى عوامل الانتاج لم يعنى عناية كافية بمحتوياته من رأس المال مما أدى إلى النظر إلى العمل فى أغلب الأحيان على أنه كل متجانس . وبطبيعة الحال قد لا يصدق هذا الفهم فى كل الأحيان إذ أن عدد ساعات العمل التى يقدمها الشخص لا يمكن أن تكون مقياسا دقيقا للعمل باعتباره عاملا من عوامل الانتاج . وقد أوضح شولتز ذلك حين أشار إلى أننا إذا أضفنا ساعة عمل لمهندس إلكترونى إلى ساعة عمل لأحد

---

(١) Theodore Schultz «Investment in Human Capital» American Economic Review, March 1961.

عمال التراحيل الزراعيين فاننا بذلك نضيف ساعات من العمل غير متجانسة أو متكافئة على الاطلاق لأن الاستثمار فى كل حالة يختلف بدرجة ملحوظة . وهو يشبه ذلك بحالة ما إذا أضفنا فدانا من أرض فقيرة جرداء إلى فدان من أرض خصبة وفيرة الانتاج نتيجة لما استثمر فيها من رأس المال كما لو كان هناك وجه للمقارنة بينهما من الناحية الانتاجية [1] .

٣ — ومن الأسباب ذات الصبغة الاقتصادية كذلك أن مفهوم رأس المال قد اقتصر على أشكال الثروة التى يمكن أن تباع وتشترى فى السوق ، وبطبيعة الحال لا تسمح هذه النظرة بالاعتراف بالثروة البشرية على أنها نوع من رأس المال .

٤ — الاختلاف بين طبيعة رأس المال البشرى ورأس المال المادى فى مدى خضوع كل منهما للقياس الكمى . إذ لا شك أن سهولة القياس الكمى لرأس المال المادى وإمكان التعبير عن العلاقة بين رأس المال وبين العائد من استثماراته بصورة كمية كانت من بين الأسباب التى صرفت علماء الاقتصاد عن الاهتمام بدور الموارد البشرية فى التنمية الاقتصادية .

ومهما كانت الأسباب التى حالت دون فهم الثروة البشرية على أنها رأس المال للأمة فان هذا الفهم الجديد قد بدأ ينمو فى السنوات الأخيرة ويجد له كثيرا من المؤيدين نتيجة لعدة عوامل أهمها عاملان : العامل الأول يتعلق بالدول المتقدمة وعلى الأخص فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لوحظ أن الانتاج القومى قد زاد بنسبة أكبر من الزيادة فى الأرض ورأس المال المنتج وساعات العمل التى أنفقت فى الانتاج . وهكذا ذهب البعض إلى أن استثمارات رأس المال البشرى يعتبر أفضل تفسير لهذا الاختلاف .

أما العامل الثانى فيتعلق بالدول النامية ذات الموارد المحدودة عادة وبالتالى تظهر حاجة هذه الدول إلى توزيع هذه الموارد التوزيع الأمثل الذى يعود عليها بأقصى فائدة ممكنة . ويقتضى ذلك النظر إلى رأس المال باعتباره متضمنا لكل من الثروة البشرية وغير البشرية ، بل قد تكون الحاجة ماسة إلى هذا الفهم الجديد

---

(١) Theodore Schultz « Investment in Man : An Economist's view » Social Service Review, June 1959, 111—112.

فى الدول النامية نظرا لتخلف مواردها البشرية إذا قورنت بالدول المتقدمة صناعيا . وهنا تجدر الاشارة إلى أن الرخاء فى الولايات المتحدة الأمريكية يرجع حقيقة إلى وفرة الموارد الطبيعية وإلى التقدم التكنولوجى والقدرة التنظيمية العالية ولكن ذلك لا يمنع من وجود عوامل أخرى يسلم بوجودها وعلى الأخص القوة العاملة التى تتوافر لها وسائل التعليم والصحة والرعاية . وليس الحال كذلك فى معظم الدول النامية والتى ما زالت تعانى من انتشار الأمية والمرض وسوء التغذية . ومن ثم فالتنمية فى مثل هذه الدول لا بد وأن تراعى توجيه الاستثمار إلى كلتا الناحيتين إلى الموارد البشرية وغير البشرية، بمعنى أن يكون الاستثمار فى بناء المصانع وإنشاء الطرق والمرافق العامة وفى نفس الوقت يوجه جانب من الاستثمارات إلى التعليم والتدريب الفنى والمهنى ورفع المستوى الصحى والغذائى للجماهير التى ستتولى تعبيد الطرق وبناء المنشآت وتشغيل الآلات ، وهذه ولا شك مهمة شاقة تواجهها كثير من الدول النامية نظرا لمواردها المحدودة فى فترة زادت فيها تطلعات الشعوب نحو حياة أفضل بعد قرون من التخلف والجمود نتيجة التحكم الاستعمارى أو التسلط الاقطاعى مما يؤكد أهمية الاستثمارات الموجهة نحو الثروة البشرية فى هذه الدول .

وإذا كان للاستثمار البشرى مثل هذه الأهمية ينبغى التعرف إذن على المقصود بالموارد البشرية بصفة عامة ومقومات الاستثمار البشرى بصفة خاصة . فما هو المقصود إذن بالموارد البشرية . لا شك أنه من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق لهذا المفهوم على الأقل فى الوقت الحاضر نظرا لحداثة العهد به ولعدم الاتفاق على ماهيته ومقوماته . ومن الطبيعى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لمفهوم جديد يتعلق بالجوانب البشرية لعملية التنمية كما يرتبط بنظرتنا إلى الاستثمارات البشرية بصفة عامة . إن للموارد البشرية أبعادا بعضها أبعاد كمية وبعضها أبعاد نوعية . وتنصرف الأبعاد الكمية إلى عدد الأفراد فى المجتمع ونسبة من يقوم منهم بعمل منتج وعدد ساعات العمل وما إلى ذلك من الخصائص الكمية لهؤلاء الأفراد . على أن الاتجاه الغالب لا يعنى كثيرا بالأبعاد الكمية للموارد البشرية أو على الأقل

لا يقتصر عليها إذ لو اعتمدنا على هذا المعيار وحده لتفوقت الدول النامية وخاصة المكتظة منها بالسكان على غيرها من الدول على أساس النسبة العددية وليس ذلك هو كل ما تنصرف اليه الموارد البشرية . إن التفهم السليم للموارد البشرية يقوم أساسا على الأبعاد النوعية لهذه الموارد . وهكذا لا ينصرف المعيار إلى عدد أفراد المجتمع وإنما إلى خصائص هؤلاء الأفراد من الناحية الانتاجية . ومن هنا نرى أن تيودور شولتز قد أكد فى تعريفه للموارد البشرية المقومات النوعية لها مثل «المهارة والمعرفة والصفات المماثلة التى تؤثر على القدرات البشرية الموجهة نحو العمل المنتج » (١) وبناء على هذا التعريف فالاستثمارات التى تؤدى إلى تنمية هذه القدرات تعتبر فى الغالب استثمارات بشرية .

أما فردريك هاربيسون الذى عنى بالجانب التعليمى فى تنمية الموارد البشرية فقد وجه اهتمامه فى تحديده لهذه الموارد أو لرأس المال البشرى إلى النشاط المهنى والمستويات التعليمية لأفراد المجتمع ، إذ يمكن فى نظره قياس حصيلة الدولة من الموارد البشرية ذات المستوى العالى بحصر عدد الأفراد الذين أتموا تعليمهم الثانوى أو العالى . وقد أدرك هاربيسون أن نسبة من هؤلاء الأفراد قد لا يستخدمون بالفعل فى وظائف ذات أهمية اجتماعية مثل ربات البيوت والعاطلين والمتقاعدين والمرضى ولكنه يرى أن المجموع الكلى لهؤلاء الأفراد الذين وصلوا إلى ذلك المستوى التعليمى يدل بالتقريب على حجم الوعاء الذى تستمد منه الدولة ما يلزمها من الأفراد لشغل الوظائف الاستراتيجية فى المجتمع (٢) . ولا شك أن هذا الاتجاه فى التعريف بالموارد البشرية يعكس الاهتمامات الخاصة لصاحبه إذ أن هاربيسون يعد من الاقتصاديين القلائل الذين عنوا بالتحليل الاقتصادى للاستثمارات الموجهة نحو التربية والتعليم .

جملة القول أن التعريف بالموارد البشرية لدولة من الدول لا يقتصر على عدد سكان هذه الدولة ونسبة الفئات المنتجة فيها وعدد ساعات العمل وإنما ينصرف

---

(١) Theodore Schultz « Investment in Human Capital » op. cit.

(٢) Frederick Harbison and Charles Myers, Education, Manpower and Economic Growth, McGraw Hill, New York, 1964. Chapter II.

بصفة خاصة إلى خصائص هؤلاء السكان ذات الصلة الوثيقة بالانتاج . على أن ذلك لا ينبغي بأية حال أن ينفى أهمية الجانب الكمى للموارد البشرية على أن يرتبط ذلك بالجانب النوعى لهذه الموارد بطبيعة الحال . وإذا كان الأمر كذلك فما هى تلك الخصائص النوعية والتى يمكن اتخاذها معيارا لقياس الجانب الكيفي للموارد البشرية . الاتجاه الغالب هنا هو تعداد مختلف القدرات البشرية التى يمكن أن تؤثر على الطاقة الانتاجية بطريقة أو بأخرى . وإن كان الاتفاق على تحديد هذه القدرات أو وضع قائمة شاملة لها ما يزال صعب المنال . ولكن ذلك لا يمنع من ذكر بعض هذه القدرات البشرية على سبيل المثال لا الحصر وهنا تجدر الاشارة إلى : المعرفة والمهارة ، الكفاءة الفنية ، المبادرة ، الأمان والثقة بالمستقبل ، الحيوية والاقبال على العمل والكفاح فيه ، الأمانة فى العمل والثقة المتبادلة ، روح الابتكار ، تحكيم العقل ، القدرة على التنظيم ، النظرة التقدمية ، الطموح والمثابرة فى تحقيق الهدف ، هذه هى نماذج من القدرات البشرية التى تمثل الجانب النوعى للموارد البشرية . وهى تلك القدرات التى تعمل الاستثمارات البشرية على تدعيمها وتنميتها . وبناء عليه فقد اتجهت بعض الجهود الفكرية نحو الاهتمام بفكرة الاستثمار البشرى من ناحية ماهيته ومقوماته . ونشير فى هذا الصدد إلى إحدى وثائق الأمم المتحدة التى حاولت تعريف الاستثمار البشرى على أنه « ذلك الاستثمار الموجه نحو المشروعات الاجتماعية اللازمة للنمو الاقتصادى »(١) ولكن الوثيقة عادت فنوهت بأن هذا التعريف ما زال تعريفا مبدئيا يفتقر إلى كثير من الدقة والوضوح النظرى . أضف إلى ذلك أننا لا يمكن أن نتوقع بطبيعة الحال أن تساهم كل الاستثمارات الاجتماعية فى تنمية القدرات البشرية . ليس ذلك فحسب بل إن العلاقة بين الاستثمارات الاجتماعية والقدرات ما زالت علاقة يكتنفها الكثير من الغموض بمعنى أننا لا نستطيع أن نحدد أى شكل من أشكال الاستثمار يؤدى إلى تنمية أى نوع من القدرات ، أو ما هو أثر استثمارات بعينها على هذه أو تلك من القدرات البشرية .

(١) United Nations, Report on the World Social Situation ; New York, 1961.

ومن ثم نجد الاستثمار من الناحية الفعلية ينحصر في الانفاق في ميادين معينة كالتعليم والصحة والاسكان والتدريب والرعاية الاجتماعية وما إلى ذلك .

ولا شك أنه مما يزيد الأمر صعوبة في محاولة تعريف الاستثمار البشري تعريفا أدق علاوة على كونه مفهوما جديدا ، هي مشكلة التفرقة بين الاستثمار والاستهلاك والتفرقة بين الاستثمار البشري واستثمار رأس المال . أما فيما يتعلق بالمشكلة الأولى نلاحظ أن من الصعاب التي يصادفها المفكرون في معالجة مفهوم الاستثمار البشري هي كيفية التفرقة بين الانفاق من أجل الاستثمار والانفاق في وجوه الاستهلاك المختلفة . فبينما نستطيع تقدير الاستثمار الموجه نحو إنتاج السلع المادية عن طريق حجم الانفاق اللازم لانتاج هذه السلع نجد أن كثيرا من أوجه الانفاق على أفراد المجتمع سواء قام بذلك الأفراد أنفسهم أو السلطات العامة يمكن أن تكون استثمارا من ناحية واستهلاكا من ناحية أخرى . مثال ذلك الصحة الجيدة تعتبر متعة في ذاتها وفي نفس الوقت فالارتفاع بالمستوى الصحي يمكن أن يعد شكلا من أشكال الاستثمار موجه نحو تنمية قدرات الأفراد باعتبارهم عنصرا هاما من عناصر الانتاج . والأمر كذلك بالنسبة للتعليم فاذا كانت بعض البرامج التعليمية تعتبر استثمارا أكثر منها استهلاكا فالبعض الآخر يتخذ موقفا وسطا ، مثال ذلك أنه إذا اتجه التعليم نحو التكنولوجيا والتدريب الفني عد في هذه الحالة استثمارا ، أما إذا دار التعليم حول المجردات والموضوعات الأدبية فانه يميل أكثر إلى جانب الاستهلاك . على أن هذا الفصل لا يمكن بأية حال أن يكون فصلا تاما إذ أن كل استثمار على هذا النحو ستكون له جوانب إنتاجية وأخرى استهلاكية وهي جوانب متصلة بعضها بالبعض بحيث أن الفصل بينهما ينطوي على الكثير من التعسف . فاذا نظرنا إلى الاستثمار البشري في ضوء التنمية الاقتصادية لمجتمع ما فلا شك أن بعض الاستثمارات ستعطي نتائج مباشرة والبعض نتائج غير مباشرة ، والبعض الآخر لا يؤثر تأثيرا ملموسا على التنمية الاقتصادية . وبناء عليه فلا بد أن تخضع الاستثمارات البشرية لنظام دقيق للأولويات يأخذ في الاعتبار متطلبات الموقف وظروف المجتمع وهذه هي إحدى الوظائف الأساسية لخطة التنمية في الدول

التى أخذت بالتخطيط القومى كمنهاج لتحقيق التقدم الاقتصادى والرفاهية الاجتماعية .

ننتقل بعد ذلك إلى المشكلة الثانية التى تصادفنا فى تحليلنا المبدئى لمفهوم الاستثمار البشرى وهى تلك المتعلقة بالتفرقة بين الاستثمار البشرى واستثمار رأس المال ، إذ كثيرا ما يدور النقاش حول منطقية تحويل جانب من الاستثمارات من الموارد الطبيعية والمادية إلى الموارد البشرية. قد يعتقد البعض أن الطريق إلى النمو الاقتصادى هو فى زيادة استثمار رؤوس الأموال فى المشروعات الاقتصادية وتخفيض الانفاق الاجتماعى، أى فى زيادة استثمار رأس المال المادى وتخفيض الاستثمار البشرى على أساس أن الأول يعتبر استثمارا منتجا فى حين أن الثانى يعتبر أقل إنتاجا أوغير منتج على الاطلاق، هذا الاتجاه لا شك ينظر إلى التنمية من جانب واحد ويغفل الجوانب العديدة التى تتضمنها تلك العملية . وفى ذلك يرى تيودور شولتز « إن الانسان الذى يخترع الآلة ويصونها ويديرها والمؤسسات الاجتماعية التى ترعى هذا النشاط وتشجعه ليست أقل أهمية من الآلة نفسها فى سبيل الانتاج »[1] بمعنى أن النمو الاقتصادى لا يمكن أن يقوم على استثمار رأس المال مغفلا الاستثمار البشرى . حقيقة قد يحقق الاقتصاد تقدما مطردا فى هذه الحالة ولكن هذا الطريق لا يقدم من الضمانات ما يحول دون نشوء الأزمات أو ما يسمى بمشاكل عنق الزجاجة فى المستقبل وعلى الأخص فى الدول النامية التى تفتقر إلى متطلبات الاقتصاد النامى من موارد بشرية ذات مستوى عال من الكفاءة والخبرة . بل إن أهمية الاستثمار البشرى لا تقتصر فى الواقع على الدول النامية بل تمتد كذلك لتشمل الدول المتقدمة وإن اختلف اتجاه الاستثمار البشرى فى كل منها . يؤكد ذلك المفكر الاقتصادى جون جالبريث فى تحليله الدقيق لظاهرة الفقر فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى يعتبرها سبة فى جبين هذا المجتمع الثرى . وينتهى جالبريث من هذا التحليل إلى أن « المشكلة ليست فى معرفتنا بما يجب عمله وإنما ترجع إلى الفشل الذريع فى توجيه الاستثمارات نحو الناس »[2] ومن ثم نادى

(١) Theodore Schultz, op. cit. p. 9.

(٢) John Galbraith, The Affluent Society, Houghton and Mifflin Co., Boston, 1958 pp. « 331—332 ».

جالبريث بزيادة الاستثمارات البشرية وعلى الأخص بين الطبقات الفقيرة وبين الأطفال الفقراء لأن زيادة الانفاق فى وجوه التعليم والتغذية والصحة والترويح من شأنه أن يخلق من هؤلاء الأطفال الفقراء رجالا على جانب كبير من القدرة والكفاية الانتاجية .

فالاستثمار البشرى إذن واستثمار رأس المال يكمل بعضهما البعض . على أنه ينبغى الاشارة هنا إلى أنه لا يوجد حتى الآن معيار دقيق يمكن اتخاذه أساسا لتوزيع الموارد بين الاستثمارات البشرية واستثمارات رؤوس الأموال إذ يعتمد ذلك بطبيعة الحال على ظروف الزمان والمكان وعلى ظروف كل دولة وطبيعة المرحلة التى تمر بها . بل إنه مما يزيد الأمر تعقيدا أن أى قرار فى هذا الشأن قد لا يبنى على اعتبارات اقتصادية أو علمية بحتة إذ قد تتدخل العوامل الاجتماعية والسياسية فى تشكيل هذا القرار وتوجيه مضمونه وجهة دون أخرى . على أنه مما لا شك فيه أن الاستثمار المادى والبشرى لا بد أن يكمل بعضهما البعض فى خطة التنمية والتى ينبغى أن تتولى فى نفس الوقت إقامة نظام للأولويات على أساس متين . وفى ذلك يشير الميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة إلى «أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وإنسانية لكى تحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية» (الباب السادس) . وفى هذا الاطار ننتقل إلى استعراض مختلف أشكال الاستثمارات البشرية ، تلك الاستثمارات التى من شأنها تنمية الموارد البشرية من ناحية والمساهمة فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى من ناحية أخرى . ونظرا لتعدد هذه الأشكال ولأهمية بعضها بالنسبة لمجتمع عنها بالنسبة لمجتمع آخر فسنقتصر على استعراض الأشكال الرئيسية للاستثمار البشرى وبالنسبة للدول النامية بصفة خاصة . ومن هذه الناحية نناقش ثلاثة أشكال للاستثمار البشرى هى : التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية .

التعليم : إلى أى حد تؤدى استثمارات التعليم إلى تنمية القدرات البشرية وبالتالى إلى المساهمة فى تنمية الثروة القومية ؟ لقد كان التعليم وما زال استثمارا مجزيا بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع كذلك ، ونظرة سريعة إلى مختلف الدول

تؤكد لنا أن النمو الاقتصادى والاجتماعى كان مصحوبا دائما بارتفاع المستوى التعليمى ، فالدول المتقدمة صناعيا هى الدول التى حققت تقدما فائقا فى المستوى التعليمى وبالعكس نجد الدول النامية ما زالت تعانى من انتشار الأمية بين غالبية شعبها . وقد توصلت بعض الدراسات التى أجريت فى هذا الشأن إلى الكشف عن الارتباط الوثيق بين انتشار التعليم وبين ما وصلت إليه الدولة من نمو اقتصادى ومن تصنيع . وباستخدام وسيلة التحليل الارتباطى وجدت إحدى هذه الدراسات أن التصنيع والتعليم سنة ١٩٥٠ يرتبطان ارتباطا قويا بمعامل ارتباط قدره ٨٧,٠ (١) (انظر الجدول) . وتعليل ذلك أن التعليم لا يعتبر عنصرا ضروريا لممارسة الزراعة التقليدية وما يتصل بها من حرف يدوية إذ يمكن اكتساب الخبرات اللازمة لهذه الحرف عن طريق الملاحظة والتقليد فى الحقل أو فى العمل ، كما تنتقل المبادىء الأساسية لكل حرفة شفاهة من الكبار إلى الصغار دون ما حاجة إلى إجادة القراءة والكتابة على الأقل ، وبالتالى لا يكتسب التعليم قيمة كبرى فى هذا النوع من المجتمعات التقليدية . على أنه مما ينمى سلبية الأفراد تجاه التعليم فى مثل هذه المجتمعات قصور الموارد الحكومية عن تهيئة فرص التعليم للأفراد أو تقاعسها عن نشره . وكلما اتجه المجتمع نحو التصنيع كلما اتسع مجال العمل أمام الأفراد وانتقلوا من الزراعة إلى الصناعة وبالتالى يزيد الدافع لديهم نحو تعليم أنفسهم أو أولادهم على الأقل ، وكلما أصبح التعليم قيمة فى ذاته ووسيلة للحراك الاجتماعى الرأسى .

ولا شك أن الثورة الصناعية قد ارتبطت بانتشار التعليم فى الدول التى سبقت فى المضمار الصناعى ويرجع ذلك فيما يرجع إلى المتطلبات التكنولوجية الحديثة والحاجة إلى فتح آفاق جديدة للتدريب الفنى للطبقات العاملة وقيام هذا التدريب على أساس من العلوم مما استلزم توجيه جانب كبير من الانفاق نحو البرامج التعليمية والتدريبية ، وقد أدى ذلك بدوره إلى زيادة متوسط سنى الدراسة وإلى زيادة مطردة فى عدد الأفراد الذين يقضون سنوات أطول فى المعاهد التعليمية بمختلف أنواعها . أضف إلى ذلك ما لوحظ من الارتباط بين انتشار التعليم وبين

---

(١) Hilda Hertz Golden « Literacy and social change in underdeveloped countries ».

Underdeveloped Areas, Lyle Shannon (ed.) New York 1957 pp. 108—109.

حصول مختلف طبقات المجتمع على حقوقها السياسية . فازدياد نسبة التعليم بين أفراد جماعة ما من شأنه أن يهيىء هذه الجماعة للمطالبة بحقوقها السياسية إن لم تكن قد حصلت عليها وبالتالى يكفل لها وسيلة المشاركة فى العمل السياسى فى المجتمع . ومن ناحية أخرى فان حصول جماعة ما على حقوقها السياسية يمهد لها السبيل للعمل على رفع المستوى التعليمى لأفرادها كما وكيفا ومن ثم يساعدها على المشاركة فى العمل السياسى فى سبيل التقدم القومى.

نسبة الأمية فى الدول المتقدمة والنامية

التقسيم الجغرافى	النسبة المئوية لعدد الأميين بين السكان ابتداء من سن ١٠ سنوات فأكثر		
	كل الدول	الدول المتقدمة	الدول النامية
العالم	٤٧	٦	٧٠
أمريكا الشمالية	٢	٢	—
أوروبا	٨	٣	٢٠
الأوقيانوسية	١١	١	٨٨
روسيا	١١	١١	—
أمريكا الجنوبية	٤٢	١٧	٥١
أمريكا الوسطى	٤٨	٢٠	٥٢
آسيا	٧٠	٢	٧٥
أفريقيا	٨٨	٥٥	٩١

المصدر :

H. Golden «Literacy and social change in underdeveloped countries» Underdeveloped Areas, L. Shannon (ed.) New York, 1957 p. 109.

جملة القول إن التعليم فى الدول النامية يرتبط ارتباطا قويا بزيادة حركة التصنيع والتحضر . وبطبيعة الحال فالتلازم بين المتغيرات لا يعنى وجود علاقة سببية بينها أو بمعنى آخر إن التعليم وحده قد لا يحقق مستوى عاليا من التقدم الاقتصادى والاجتماعى، أى أن التعليم يعتبر شرطا ضروريا للتنمية ولكنه لا يمكن بأية حال أن يكون شرطا

كافيا . وبناء عليه يصبح التعليم شكلا من أشكال الاستثمار البشرى لأنه يؤدى للاقتصاد خدمات إنتاجية من ناحية كما يساهم من ناحية أخرى فى زيادة الدخل القومى على أساس ما يحققه من إضافات إلى رأس المال البشرى ومن ثم تؤدى الاستثمارات الموجهة نحو التعليم إلى زيادة الانتاج . وإذا كان الأمر كذلك فان البرامج التعليمية التى تؤدى بصفة مباشرة إلى زيادة الانتاج فى الدول النامية تستحق التوسع فيها على أساس أن ما ينفق على هذه البرامج من أموال يعتبر استثمارا لرأس المال تماما كالأموال التى تنفق على الزراعة والصناعة والرى . ومما يؤيد أهمية التعليم فى تنمية القدرة الانتاجية للأفراد ما لوحظ من تفاوت فى الدخول بين البيض والزنوج فى المنطقة الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية نتيجة للتفاوت فى القدرة الاقتصادية بين البيض والزنوج مع اتفاقهم فى مستويات السن والتعليم ، وتعليل ذلك يبنى على اختلاف نوعية التعليم الذى يتلقاه أفراد كل من الفئتين ، ويرجع هذا الاختلاف إلى أن استثمارات التعليم أقل عند الزنوج منها عند البيض مما يوثر على قدرتهم الاقتصادية وبالتالى يقل دخل الزنجى عن الأبيض فى هذه الولايات بالرغم من الاتفاق فى السن والتساوى فى عدد سنى الدراسة [1]. وغنى عن الذكر أن هذا الفهم للتعليم باعتباره استثمارا بشريا يثير بعض المشاكل من الناحية التطبيقية مما يدعو إلى تضافر الجهود من جانب رجال الاقتصاد والاجتماع لحلها . مثال ذلك وسائل تقدير رأس المال البشرى بشقيه الاجمالى والصافى وكيفية قياس نسبة الزيادة فى الدخل القومى المترتبة على التعليم ونسبة العائد من استثمارات التعليم وكيفية التفرقة بين التعليم للاستهلاك والتعليم للاستثمار . ولا شك أن الدقة فى توجيه استثمارات التعليم تتطلب المبادرة بتمحيص هذه المسائل فالمجال ما زال بكرا أمام الباحثين .

وقد لخص فردريك هاربيسون فى دراسته للعلاقة بين استثمارات التعليم والنمو الاقتصادى الأساليب المتبعة فى التحليل الاقتصادى لاستثمارات التعليم فى أربع طرق رئيسية :

---

(1) Gary Becker. The Economics of Discrimination. Chicago, University of Chicago Press, 1957, pp. 91—92.

(ا) قياس العلاقة بين الانفاق على التعليم ومقدار النمو فى الدخل أو فى تكوين رأس المال المادى فى مجتمع معين وفى فترة زمنية محددة .

(ب) حساب معدل العائد من الانفاق على التعليم .

(جـ) طريقة الباقى لقياس مدى مساهمة التربية فى إجمالى الدخل القومى .

(د) حساب معاملات الارتباط بين البلاد من حيث نسب القيد بمعاهد التعليم المختلفة وإجمالى الدخل القومى .

غير أنه عاد فنوه بأنه من الناحية العملية فانه من الصعب إن لم يكن من المستحيل قياس العائد الاقتصادى من أى برنامج تعليمى بنفس الطريقة أو على نفس المستوى من الدقة التى يقاس بها العائد من أحد المصانع أو السدود بسبب صعوبة التفرقة بين ما يعتبر استهلاكا من هذا البرنامج وما يدخل منه فى نطاق الاستثمار . وبناء عليه انتهى هاربيسون إلى تقديم مقياس مركب لمستويات تنمية المواد البشرية يقوم على أساس المجموع لنسبتين : الأولى هى النسبة المئوية للمقيدين فى المرحلة الثانية من التعليم (المرحلة الثانوية) فى فئة السن ١٥–١٩ بشرط تعديل هذه النسبة لتأخذ فى الاعتبار الاختلاف فى طول هذه المرحلة من دولة لأخرى . والثانية هى النسبة المئوية للمقيدين فى المرحلة الثالثة من التعليم (الجامعى والعالى) فى فئات السن لهذه المرحلة مضروبا فى وزن قدره خمسة لأن التعليم العالى فى نظره ينبغى أن يأخذ وزنا أكبر من غيره من المراحل التى تسبقه .

وبناء على هذا المقياس قام هاربيسون بتقسيم دول العالم التى شملها البحث (٧٤ دولة) إلى أربع مستويات من ناحية مدى ما بلغته الموارد البشرية من نمو وهى : بلاد متخلفة — بلاد نامية جزئيا — بلاد شبه متقدمة — بلاد متقدمة .

وفى مقابل مقياس الموارد البشرية استخدم هاربيسون لقياس النمو الاقتصادى مقياسا مركبا من عنصرين : الأول هو نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى مقدرا بالدولارات الأمريكية ، والثانى عبارة عن النسبة المئوية للسكان الذين يعملون بالزراعة .

وقد انتهى هاربيسون من تحليلاته للمستويات الأربع السابق الاشارة إليها إلى الارتباط الوثيق بين انتشار التعليم والنمو الاقتصادى حيث كشفت الاحصائيات عن العلاقة القوية بين نسب القيد فى مراحل التعليم المختلفة وبين نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى . أضف إلى ذلك أن معامل الارتباط بين نسب القيد فى المرحلتين الثانوية والعالية (مقياس الموارد البشرية) وبين نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى (مقياس النمو الاقتصادى) قد وصل إلى ۰٫۸۸۸ مما يؤكد دور الاستثمارات البشرية الموجهة نحو التعليم فى زيادة الدخل القومى وفى رفع مستوى دخول الأفراد ، وإن لم نصل إلى الدقة المطلوبة فى القياس وفى حل كل المشاكل المتعلقة بالقياس الكمى لاستثمارات التعليم[١] .

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن بأية حال أن نغفل دور التعليم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق ما يؤدى اليه التعليم من زيادة القدرة الانتاجية وتنمية الخبرات المهنية وزيادة الكفاءة فى البحث والابتكار وتهيئة الجو السياسى والاجتماعى المناسب للتنمية . وبطبيعة الحال يرتبط دور التعليم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية بأيديولوجية المجتمع والقيم التى تغرسها وتؤكدها النظم التعليمية فهناك فارق لا شك بين نظام تعليمى يحرص على أوضاع قديمة بالية ويحافظ على قيم تقليدية لم تعد تناسب روح العصر الذى يعيش فيه المجتمع أو تنجسم مع تطلعات هذا المجتمع نحو حياة أفضل وبين نظام تعليمى متحرر يذكى همة الطالب فى التحرى والبحث والاستقصاء والسعى وراء آفاق جديدة فى سبيل تحسين مركز الفرد وتوسيع مداركه والمساهمة فى التنمية القومية ، أو بعبارة أخرى إن نظام التعليم الذى يحافظ على الاستاتيكية أو يقدس الأوضاع التقليدية المتخلفة لن يؤدى خدمة اقتصادية تذكر إذا قيس بالتعليم ذا الصبغة الديناميكية الذى يتجه نحو التغيير فى سبيل حل مشاكل المجتمع وتحقيق الرفاهية الاجتماعية . ويؤكد الميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة هذا الفهم الثورى لنظام التعليم فى قوله : « أن التعليم لم تعد غايته إخراج موظفين للعمل فى مكاتب الحكومة ومن هنا فان مناهج التعليم

(١) Frederick Harbison and Charles Myers, op. cit. chapter III and VIII.

في جميع الفروع ينبغى أن تعاد دراستها ثوريا لكى يكون هدفها هو تمكين الانسان الفرد من القدرة على إعادة تشكيل الحياة » (الباب الخامس) .

الصحة : إن النظرة العامة للظروف الصحية فى العالم اليوم وعلى الأخص فى الدول النامية لتكشف عن التقدم الكبير فى المستوى الصحى للشعوب، ومن مظاهر هذا التقدم بصفة عامة الزيادة المطردة فى عدد السكان وانخفاض معدل الوفيات عامة ووفيات الأطفال بصفة خاصة وزيادة متوسط عمر الفرد . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الاكتشافات العلمية الحديثة وإلى ما تبذله الهيئات الصحية الوطنية والدولية من جهود متصلة فى هذا السبيل، ولكن ذلك لا يعنى بطبيعة الحال أن المشاكل الصحية قد أمكن التغلب عليها . فالمستوى الصحى فى كثير من الدول النامية ما زال فى حاجة إلى مزيد من التقدم وما زالت الحاجة ماسة إلى استثمارات كبيرة للقضاء على الأمراض وللوقاية منها ولتحسين الأحوال الصحية بصفة عامة . وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك من الوسائل ما يمكن بها قياس النتائج المترتبة على هذا النوع من الاستثمار بالنسبة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ؟ الواقع أن البحث فى هذا المجال لم يصل بعد إلى الكشف الدقيق عن العلاقات المباشرة بين ارتفاع المستوى الصحى وبين التقدم الاقتصادى والاجتماعى أو تقدير العائد من الاستثمارات فى البرامج الصحية ، وإن كان ذلك لا يمنع من تسجيل بعض الملاحظات التى قد تلقى الضوء على هذه العلاقة وتمهد الطريق للكشف عنها ، فالمجال ما زال فى حاجة إلى مزيد من البحث . إن الحيوية والطاقة البدنية التى يبذلها الفرد فى الانتاج ترتبط إلى حد كبير بحالته الصحية . فالأمراض المتوطنة كالبلهارسيا مثلا تسلب جزءا من طاقة الجسم يمكن أن تستغل فى العمل المنتج ، فقد قدر البعض أن البلهارسيا الى عهد قريب كانت تسلب من الفلاحين فى الريف المصرى ما يقرب من ٣٠٪ من طاقتهم الانتاجية ، علاوة على ما يترتب على اعتلال الصحة من التغيب عن العمل والحد من الطاقة الانتاجية . وبالرغم من الصعوبة فى تقدير العائد الاقتصادى للانفاق على البرامج الصحية فان الاستثمارات فى هذا الحقل تساهم ولا شك فى تنمية الثروة البشرية كما وكيفا ، فتحسين الأحوال الصحية يحد من الخسارة الاقتصادية الناتجة عن وفاة الأطفال فى سن مبكرة قبل

أن يصلوا إلى السن التى تؤهلهم للمساهمة فى الانتاج ، أضف إلى ذلك ما تؤدى اليه هذه الاستثمارات من إطالة فترة الحياة الانتاجية للفرد ، ومن ناحية أخرى فالتقدم الصحى كفيل بزيادة الطاقة الانتاجية للفرد وبالتالى زيادة الانتاج القومى ومن هنا تبدو أهمية الرعاية الصحية لأفراد المجتمع بحيث، تمتد هذه الرعاية لتشمل جميع الفئات — وقد أكد ميثاق الجمهورية العربية المتحدة « حق كل مواطن فى الرعاية الصحية بحيث لا تصبح هذه الرعاية علاجا ودواء مجرد سلعة تباع وتشترى وإنما تصبح حقا مكفولا غير مشروط بثمن مادى ولا بد أن تكون هذه الرعاية فى متناول كل مواطن فى كل ركن من الوطن فى ظروف ميسرة وقادرة على الخدمة ولا بد من التوسع فى التأمين الصحى حتى يظل بحمايته كل جموع المواطنين » .

على أن الميثاق لم يقتصر على تأكيد هذا الحق بل أكد إلى جانبه حق المواطن فى التعليم والعمل والرعاية الاجتماعية لأن استثمارات الصحة وحدها لا تجلب الرخاء والتقدم إذا لم تصحبها استثمارات فى المجالات الانسانية الأخرى . بل إن التقدم الصحى وحده دون التقدم فى النواحى الأخرى قد يكون سببا فى إثارة المشاكل التى تعترض طريق النمو الاقتصادى إذ قد يترتب عليه زيادة مطردة فى عدد السكان لا تتناسب مع الموارد الاقتصادية للدولة . وفى ذلك يشير أحد الباحثين فى هذا الصدد إلى أنه لا يمكن إغفال التوازن الحساس بين القوى التى تسود المجتمع ، فالتقدم الصحى لا بد وأن يصاحبه تقدم فى النواحى الأخرى إذ بدون التعليم مثلا أو بدون زيادة إنتاج المواد الغذائية وتحسين نوعها فلن يؤدى ذلك التقدم إلا إلى زيادة سكانية على مستوى ضئيل من الكفاية ، ومن ناحية أخرى فاذا لم يتوافر لهؤلاء الصحة والحيوية فسوف تنقصهم القدرة على مواجهة مشاكلهم ناهيك عن العمل على علاجها [1] .

الرعاية الاجتماعية : دون الدخول فى تحليل دقيق لمفهوم الرعاية الاجتماعية نكتفى باستخدام هذا المفهوم ، فى نطاق هذه الدراسة ، للدلالة على مختلف البرامج الحكومية والأهلية اللازمة لسد الاحتياجات الاجتماعية العامة أو الخاصة لأفراد

---

(١) Donald Faris, To Plow With Hope. New York, Harper and Bros. 1958, p. 30.

المجتمع . وقد تغيرت النظرة الحديثة لبرامج الرعاية الاجتماعية عن النظرة التقليدية التي صبغت تلك الرعاية بصبغة الاحسان واعتبرتها نوعا من المساعدة الوقتية للفئات المحتاجة من المجتمع والتي تزول بزوال أسبابها . أصبحت الرعاية الاجتماعية نظاما مقررا من نظم المجتمع يكفل حق الأفراد في رعاية المجتمع وقت الشدة وفي المساعدة المستمرة على تحقيق حياة أفضل من خلال البرامج المختلفة التي يقدمها المجتمع لأفراده، بل إن من أبرز القيم التي تلتزم بها الرعاية الاجتماعية الحديثة والتي تؤكدها الخدمة الاجتماعية باعتبارها من أحدث المهن الانسانية التي تمارس نشاطها المهنى في هذا المجال تلك القيم التي توجه المجتمع نحو خلق الضمانات الكفيلة بتحقيق الشروط الانسانية الآتية :

(ا) حد أدنى من الرعاية الاجتماعية لأفراده .

(ب) تكافؤ الفرص أمام جميع الأفراد .

(ج) عدم استغلال الانسان لأخيه الانسان .

(د) المساواة الجنسية والعنصرية .

(هـ) تنمية روح الجوار والتعاون بين الأفراد والجماعات .

ويمكن تلخيص أهم برامج الرعاية الاجتماعية ذات الصلة الوثيقة بالموارد البشرية في المجتمعات الحديثة فيما يلي :

١ – المساعدات المادية العامة : وتشمل مختلف الخدمات الاجتماعية للفئات العاجزة عن الكسب والتي تعاني من ضائقة اقتصادية كالاعانات التي تصرف للمحتاجين من كبار السن والعجزة عجزا كليا وفاقدي البصر والأرامل ذوى الأطفال والأطفال الذين لا عائل لهم ومن أمثلتها برنامج الضمان الاجتماعي بالجمهورية العربية المتحدة ومن أمثلتها كذلك الخدمات المؤسسية للمحتاجين من كبار السن وفاقدي البصر والعجزة وغيرهم من الأشخاص المعوقين الذين لا تسمح حالاتهم بالمعيشة بالمنزل .

٢ – التأمينات الاجتماعية : وتشمل الخدمات التي تقدم للفئات العاملة في المجتمع وعائلاتهم من الذين يشملهم قانون التأمين والغرض منها حماية هؤلاء العاملين

في حالات انقطاع مصدر الدخل نتيجة لكبر السن أو البطالة أو حوادث العمل وأمراض المهنة أو الوفاة لرب الأسرة . وقد جاءت برامج التأمينات الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة معبرة عما أكده الميثاق الوطني من « أن التأمينات ضد الشيخوخة وضد المرض لابد من توسيع نطاقها بحيث تصبح مظلة واقية للذين أدوا دورهم في النضال الوطني وجاء الوقت الذي يجب أن يضمنوا فيه حقهم في الراحة المكفولة بالضمان » .

٣ – رعاية الأسرة : وتشمل التوجيه والارشاد ومختلف الخدمات الاجتماعية التي تساند الأسرة وتساعدها على تحقيق وظائفها الاجتماعية، ومثال تلك الخدمات الموجهة نحو حل المشاكل الأسرية سواء كانت مشاكل شخصية أو مشاكل تنبعث في مجال العلاقات الأسرية كما تشمل رعاية الأفراد الذين يعيشون بعيدا عن أسرهم . والميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة يؤكد أهمية هذا النوع من الرعاية الاجتماعية في قوله « إن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع ولا بد أن تتوافر لها كل أسباب الحماية التي تمكنها من أن تكون حافظة للتقليد الوطني مجددة لنسيجه متحركة بالمجتمع ومعه إلى غايات النضال الوطني » .

٤ – رعاية الشباب : وتشمل مختلف الخدمات والمؤسسات التي تهدف إلى تنمية الشباب جسمانيا وعقليا وروحيا حتى تهيء للمجتمع أجيالا متجددة من القيادة الواعية بمسئوليتها نحو المجتمع ،ومن أمثلتها مراكز رعاية الشباب والمحلات الاجتماعية والساحات الشعبية والأندية والكشافة والجوالة ومعسكرات العمل ومعسكرات إعداد القادة وغيرها .

٥ – رعاية الطفولة : وتتحقق هذه الرعاية عن طريق الخدمات الاجتماعية للأطفال بصفة عامة كالخدمات الوقائية والعلاجية في مجال السلوك الانساني والتكيف الاجتماعي والخدمات الصحية للأطفال الرضع والخدمات الاجتماعية المدرسية ومراقبة تشغيل الأحداث ، كما تتحقق في الخدمات المقدمة للأطفال الأسوياء الذين لا عائل لهم أو الذين لا تتهيء لهم أسباب النمو السوي في محيطهم العائلي ومن ثم يحتاجون إلى رعاية من نوع خاص كالأسر البديلة ودور الحضانة ونظم التبني ، وتتحقق كذلك عن طريق الخدمات الاجتماعية للأطفال المنحرفين أو الجانحين مثل

مؤسسات رعاية الأحداث الجانحين والخدمات الاجتماعية فى محاكم الأحداث ». وغنى عن البيان ما لهذا النمط من الرعاية الاجتماعية من أهمية بالغة فى تنشئة الأطفال وفى تشكيل مستقبل الموارد البشرية للمجتمع وفى تنمية هذه الموارد على الوجه الذى يخدم صالح هذا المجتمع ويحقق الرفاهية الاجتماعية . ويؤكد الميثاق الوطنى هذا المعنى فى قوله « إن الطفولة هى صانعة المستقبل ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح». وإلى جانب هذه البرامج الرئيسية توجد أنواع أخرى من الخدمات الاجتماعية تختلف أهميتها باختلاف المجتمعات .

ويعتقد البعض أن مثل هذه البرامج لاتكاد تساهم بشيء يذكر فى التنمية الاقتصادية ، بل يذهب البعض الآخر إلى أن توجيه الأموال إلى مثل هذه البرامج يشكل عبئا على الاقتصاد القومى نظرا لأنها تحول جزءا من الحصيلة المالية للدولة إلى فئات لا تضيف إلى الانتاج القومى بدلا من إنفاقه فى أغراض إنتاجية . وبغض النظر عما فى هذا الاتجاه من تنكر للقيم الإنسانية يبدو أن الحرص على عائد اقتصادى سريع يؤدى إلى الغفلة عن دور هذه الاستثمارات البشرية بالرغم من أن مساهمتها فى التنمية قد تتم بشكل غير مباشر ولا تظهر آثارها إلا فى المدى البعيد . مثال ذلك شعور العامل بالأمن فى عمله والأمان على مستقبله عن طريق برامج التأمينات الاجتماعية لا شك يحفزه إلى التفانى فى العمل وإلى مزيد من الانتاج . كما أن برامج التوجيه المهنى والتأهيل المهنى تدرب جماعات خاصة على العمل المنتج وإلا ظلوا عاطلين أو عالة على الجماعات المنتجة . كما أن حماية المجتمع من الانحرافات السلوكية وجناح بعض فئاته يساهم فى توفير الاستقرار اللازم لعملية التنمية . فالرعاية الاجتماعية لا شك تقوم بدور هام وإن كان دورا تكميليا فى التنمية الاقتصادية إلى جانب دورها فى معالجة المشاكل الاجتماعية التى تصاحب التصنيع والتقدم الاقتصادى عادة . على أنه لكى تكون هذه البرامج أكثر فاعلية فانها لا بد وأن تخطط فى ضوء الظروف السائدة فى كل مجتمع ولا بد أن تنبع من طبيعة هذا المجتمع وتترجم عن تراثه وتطلعاته . وهذا أمر من الأهمية بمكان وعلى الأخص بالنسبة للدول النامية نظرا لميل بعض هذه الدول إلى استعارة البرامج الاجتماعية

من الدول المتقدمة صناعيا تلك البرامج التى لا تتفق فى أغلب الأحيان مع البناء الاجتماعى للدول النامية ومن ثم فلا تحقق النتائج التى تحققها فى الدول المتقدمة . مثال ذلك أن الرعاية الاجتماعية فى الدول الغربية المتقدمة ترتبط بنظام اقتصادى وسياسى واجتماعى معين وهى لاشك أنظمة تختلف عما يسود الدول النامية والتى ما زال يغلب عليها الطابع الزراعى التقليدى . فمشاكل كبار السن مثلا وما تتركه من أثر على العلاقات الاجتماعية تعتبر من المشاكل المعقدة فى الدول الصناعية الكبرى مع أنها ليست كذلك فى الدول النامية حيث يختلف المركز الاجتماعى لكبار السن من مجتمع إلى آخر . وهكذا لا بد أن تبنى برامج الرعاية الاجتماعية على الاحتياجات المحلية ولابد أن ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى للدولة . وفى ذلك ينص الميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة على « أن التسليم بوجود قوانين طبيعية للعمل الاجتماعى ليس معناه القبول بالنظريات الجاهزة والاستغناء بها عن التجربة الوطنية . إن الحلول الحقيقية لمشاكل أى شعب لا يمكن استيرادها من تجارب شعب آخر » .

بعد أن قدمنا هذه الأنماط من الاستثمارات البشرية على سبيل المثال لا الحصر اتضح لنا من خلال هذا التحليل الصعوبات المنهجية التى تعترض تقدير العائد الاقتصادى للاستثمار البشرى . والواقع أن جانبا من هذه الصعوبة يأتى من أن معظم هذه الاستثمارات البشرية لا تخطط أساسا لتحقيق غرض اقتصادى علاوة على خطورة البحث عن تفسير اقتصادى لكل برنامج اجتماعى . على أنه من ناحية أخرى قد تبين من هذا التحليل كذلك أن العلاقة بين البرامج الاجتماعية والتنمية الاقتصادية ليست بعلاقة بسيطة مباشرة بل أنها علاقة ما زالت فى حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والدراسة المشتركة بين رجال الاقتصاد والاجتماع . على أن ذلك لا ينكر أهمية الاستثمارات البشرية وما تقوم به من دور فى التنمية القومية بالرغم من عدم تحديد العلاقة بينهما تحديدا دقيقا أو الوصول إلى نظرية متكاملة لتفسير العلاقات المركبة بين الموارد البشرية والمادية ودور كل منهما فى عملية

التنمية . لقد دار الجدل طويلا حول ما إذا كانت الثروة المادية هى التى تحقق النمو الاقتصادى والاجتماعى أو أن مقدرة الناس على خلق هذه الثروة هى التى تأخذ مكان الصدارة . لا شك أن كلا العاملين ضرورى للتنمية ولا بد أن يسيرا جنبا إلى جنب . أما عن كيفية المحافظة على هذا التوازن ورسم السياسة التى تحققه فتعتمد على الظروف المحلية لكل دولة وأهداف خطة التنمية ، ولكن وجه الخطورة يكمن فى ربط التنمية بالناحية المادية وحدها . فالمصنع قد يكون رمزا للنمو وعنوانا على التقدم ولكن الثروة البشرية التى تقوم على تشغيل هذا المصنع ليست بأقل أهمية . قد تستطيع الدولة استيراد المصانع ولكنها لا تستطيع استيراد قوة بشرية على مستوى عال من التعليم والمهارة .

مطبعة بولاق فى عهدها الثالث

١٨٨٢ — ١٩٢٣

للدكتور خليل صابات

تعطل دولاب العمل فى المطبعة بعض الوقت أثناء القتال الذى دارت رحاه بين القوات المصرية بقيادة عرابى والجيش الانجليزى . وكان عدد كبير من الأجانب قد عاد إلى بلاده منذ انفجار الثورة العرابية ، وكان من بين هؤلاء بعض عمال المطبعة الفنيين . ولما استولى الانجليز على القاهرة واحتلوا البلاد ، عاد الأجانب إلى مصر ليستأنفوا نشاطهم فى حمى المحتل . ودار دولاب العمل من جديد ، وتسلم الفنيون الأجانب أعمالهم فى مطبعة بولاق بعد أن فتحت أبوابها فى أواخر سبتمبر من سنة ١٨٨٢ . وعاد كذلك العمال المصريون .

كانت المطبعة فى أواخر عهد اسماعيل فى حالة لا تحسد عليها بسبب الأزمة المالية . وذادت الحالة سوءا فى بداية عهد توفيق نظرا لزيادة التدخل الأجنبى . غير أن ليمونجللى فى كتابه يرجع أسباب اضمحلال المطبعة فى تلك الحقبة إلى النزاع الذى شجر بين رؤساء الأقسام من المصريين ولكنه لا يذكر أسبابه (١) . وفى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٢ أبعد على جودت بك من نظارة المطبعة ليتولى أمرها حسين حسنى من جديد . وفى عهده تقدمت المطبعة تقدما ملحوظا ، إذ بدأت تستبدل وسائلها القديمة بوسائل حديثة لتساير الزمن . وكانت المطبعة كما رأينا تقوم بتجليد سجلات المصالح الحكومية ودفاترها بالجلد الفاخر ، فوافق حسين حسنى على الاستغناء عن الجلد فى مثل هذه الأحوال والاكتفاء بالتيل . وقد نتج عن هذا الاجراء وفر كبير (٢) .

---

(١) S. Limongelli, l'Arte italiana nella stamperia nazionale d'Egitto, Cairo 1911, p. 23.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤

وزاد عدد العمال الايطاليين زيادة كبرى . وهم من فئة الطباعين وصفافى الأحرف والمجلدين . وقد ألحقوا جميعا لطبع كتاب عن الاحصاء العام ، وهو كتاب على جانب عظيم من الأهمية تم طبعه بالفرنسية والعربية . وأنجزت المطبعة فى تلك الفترة جميع الأشغال التى كلفتها بها المصالح الحكومية المختلفة كالأوامر والميزانيات والتقارير والسجلات . وقد استقدم من تورينو بايطاليا حفار ماهر يدعى موسكا G. Mosca وهو أخصائى فى الطبع على الحجر .

غير أن هذا النشاط الذى سرى فى المطبعة لم يدم طويلا ، فقد خيم على مصر فى سنة ١٨٨٣ شبح الكوليرا المخيف وأخذت مناجل هذا الوباء تحصد الناس حصدا . وأظهر عمال المطبعة شجاعة وصبرا وجلدا خلال تلك المحنة القاسية ، فظلوا يعملون غير هيابين بالمرض الوبيل الذى بلغت ضحاياه الآلاف . وكان العمال يبيتون فى المطبعة لانجاز المطبوعات الخاصة بنظارة المالية وكانت فى مسيس الحاجة اليها و « لسان العرب » وهو معجم ضخم يتكون من عشرين مجلدا ، وكانت المطبعة قد أخطرت المكتبات والأوساط العلمية عن قرب موعد الانتهاء من طبعه . ولما زال الوباء ، أبدى الخديو توفيق رغبته فى زيارة المطبعة ، وقد تمت هذه الزيارة ، وأظهر الخديو إعجابه بنظام المطبعة الدقيق (١) . وكان رؤساء أقسامها جيانوزى Gianuzzi وموسكا Mosca وليمونجللى Limongelli الذى قام بشرح أدق دقائق المطبعة ونظام العمل فيها . وقد أنعم على حسين حسنى بك بعد زيارة الخديو للمطبعة برتبة الميرميران (٢) ، وكان ذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ١٣٠٠ ه الموافق ٤ أكتوبر سنة ١٨٨٣ . وظل حسنى بك ناظرا لمطبعة بولاق إلى أول مايو سنة ١٨٨٥ عندما أنزلت درجته وأصبح ناظرا للقسم الأدبى . ولكن رتبه ظل على ما هو عليه وبقى حسين حسنى باشا فى وظيفته الجديدة إلى أن توفى فى ١٩ مارس سنة ١٨٨٦ (٣) . وكان حسين حسنى يعرف العربية والفارسية والتركية والانجليزية (٤) .

---

(١) S. Limongelli ; op. cit., 25.

(٢) محفوظات القلعة ، دفاتر استحقاقات المطبعة من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٩٦

(٣) المصدر السابق .

(٤) توفيق اسكاروس ، تاريخ الطباعة فى وادى النيل ، مجلة الهلال ، السنة الثانية والعشرون ، مارس سنة ١٩١٤

وكانت ميزانية مطبعة بولاق مستقلة عن سائر ميزانيات النظارات إلى سنة ١٨٨٤ . وكان على رأس المطبعة مدير إدارى ومدير فنى ووكيل ، كان يقوم أيضا بأعمال التصوير ، ومعاون ورئيس للكتبة ورئيس للمحاسبين وثمانية عشر مستخدما بين كاتب ومترجم ومعاون وثلاثة مستخدمين هم الصراف وأمين المخزن ومعاون . أما الخدم السائرة فكان عددهم أحد عشر .

وكان فى قسم التصحيح العربى ستة عشر مستخدما . وكان يرأس ورشة الجمع العربى مصرى وورشة الجمع الأفرنجى أوروبى يتقاضى مرتبا سنويا قدره ٢٠٤ جنيهات مصرية ، فى حين أن زميله المصرى لم يكن مرتبه يزيد على ١٣٨ جنيها مصريا . وكان على رأس ورشتى الطبع والتجليد أجنبيان أما عدد الطابعين والمجلدين فكان يبلغ الثمانية ؛ هذا إن تركنا جانبا العمال الذين كانوا يشتغلون بطريق الالتزام .

وقدرت ميزانية سنة ١٨٨٣ دخلا للمطبعة قدره ٢٩٣٤٤ جنيها مصريا . أما المصروفات فقدرت بـ ٢٥٠٧٧ جنيها مصريا (١) .

واعتبارا من سنة ١٨٨٤ صار درج مطبعة بولاق فى ميزانية الحكومة العامة . وهكذا سرت على المطبعة ابتداء من هذا التاريخ جميع الأحكام المتعلقة بتأدية اللوازم بين مصالح الحكومة وبعضها . ولما كانت كافة المصروفات التى تجريها المطبعة جاريا احتسابها من أصل الاعتمادات الواردة لها بالميزانية فصار يخصم على الجهات قيمة الأصناف التى تصرف لها من المطبعة بل تضيف الجهات تلك الأصناف بحساباتها بالوجه ، وأصبح لزاما على الجهات أن تحرر طلبات صرف الأصناف بدقة وأن تعطى إيصالا بما يسلم لها (٢) .

ولما كانت المطبعة ستكلف بانجاز كافة مطبوعات الحكومة المصرية بما فى ذلك نشر الوقائع المصرية Le Moniteur Officiel فقد رفع اعتمادها ٣٢٥٥

(١) Budget du Gouvernement Egyptien pour l'exercice 1883, Le Caire. Imprimerie Nationale de Boulaq, p. 188 et 139.

(٢) المنشورات والقرارات والمعاهدات الصادرة فى سنة ١٨٨٤ أفرنكية ص ١٧٧ ، طبعت بالمطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٣ هـ ، تحريرا فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٤

جنيها مصريا ، فأصبحت الميزانية ثلاثين ألفا . ويلاحظ أن التنظيم الجديد لمطبعة بولاق قد حقق وفرا كبيرا في باب تموين الشون والمخازن [١] .

وفي عام ١٨٨٤ استقدمت الحكومة المصرية المسيو إدمون بانجيه Banget من مطبعة Chaix بباريس ليقوم بالتفتيش على المطبعة فنيا وإداريا . وقد أبدى بانجيه إعجابه بمقدرة رؤساء الأقسام جميعا ، واقترح إجراء بعض التغييرات في الادارة وفي معدات المطبعة . كما أشار بأن تتخلص المطبعة من حروفها القديمة ومن الآلات البالية التي تخلفت عن المطابع الرسمية الملغاة [٢] . وبعد أن قام بانجيه بتقديم تقريره لنظارة المالية ، صدر قرار في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٥ بتعيينه مديرا لمطبعة بولاق « ليصلح نظامها ويدير حركتها »[٣] . أما حسين حسني باشا فقد نقل مديرا للقسم الأدبي كما رأينا بينما فصل أنطوان موريس وتقاضى عن فصله تعويضا محترما . وابتداء من تعيين بانجيه على رأس المطبعة أطلق عليها رسميا اسم المطبعة الأهلية وبالفرنسية Jmprimerie Nationale [٤] وفي الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٨٥ صدر قرار من مجلس النظار بترتيب هيئة المطبعة الأهلية كما يأتي[٥] : المسيو ادمون بانجيه مدير والمسيو نعمة الله بيطار وكيل قسم الادارة والمسيو فيلكس بورك مصحح بدرجة اكنجي قلم والمسيو لوى كامو كاتب درجة أولى ويعقوب أفندي نخلة مترجم بدرجة كاتب أول وحسنين أفندي محمد كاتب درجة أولى ومحمد أفندي عباسي صراف يقابل درجة ثالثة وقسطندي أفندي حنا كاتب درجة ثالثة ، وعلي أفندي عزت كاتب درجة رابعة والخواجة جان رولاندا كاتب درجة رابعة وجريس أفندي مسيحة كاتب درجة رابعة وعبد الفتاح أفندي حسين كاتب درجة رابعة وحسن أفندي عبد الكريم مساعد مخزنجي يقابل كاتب درجة رابعة .

---

(١) Commission de révision des budgets de l'Etat, ministère des finances, 1884.

(٢) S. Limongelli ; op. cit., p. 27.

(٣) مجموعة القرارات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات في سنة ١٨٨٥ ، بولاق ص ١٥

(٤) المصدر السابق .

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٦٩ ، يوم السبت ١٣ يونيه سنة ١٨٨٥

أما قسم التشغيل فيتكون من الخواجة لوى جرو رئيس الطباعين يقابل كاتب درجة أولى ، والخواجا جايتانو جانوس رئيس الجماعين الأفرنجى يقابل كاتب درجة أولى والخواجا ليمونجللى رئيس المجلدين يقابل كاتب درجة أولى ،والخواجة جونى أكولينا مهندس يقابل كاتب درجة أولى . وكانت المطبعة فى حاجة إلى أسطا سباكين الحروف بدرجة كاتب درجة أولى وأسطا صب الكليشيه بدرجة كاتب درجة أولى . أما حسن أفندى أبوزيد فكان رئيس الجماعين العربى بدرجة كاتب درجة ثانية .

ويعترف ليمونجللى على الرغم من تحمسه لكل ما هو إيطالى بمهارة بانجيه الفنية وبحسن إدارته ويقول إن المطبعة فى عهده أصابها الكثير من التقدم والتجديد . ويضيف إلى ذلك أن بانجيه أثناء إدارته للمطبعة حاول أن يزيد فى عدد العمال الفرنسيين . ولكن عددا قليلا من هؤلاء استطاع أن يندمج فى الحياة المصرية .

وكان لا بد ، لانتظام سير العمل وتقدمه ، من تعيين عدد آخر من العمال . وكان بانجيه يلحق كل من يتقدم اليه ولو أنه كان يفضل الايطاليين ، فقد عين فى عهده الحفار الايطالى المعروف داميلانو G. Damilano الذى استقدمه من مدينة تورينو .

وإلى العمال الايطاليين يعود فضل إعادة طريقة الطبع بالفورم المصبوبة والمعروفة فنيا باسم stéréotypie والترسيب الكهربائى المعروف باسم Galvanoplastie والحفر على الزنك المعروف باسم photozincotypie وأحضر بانجيه خصيصا من إيطاليا أحد الخبراء للاشراف على آلات السبك ويستدل ليمونجللى على حاجة المطبعة إلى الايطاليين ، بأنه فى مقابل ٢٦٠ أو ٣٠٠ عامل مصرى ، كان يوجد حوالى ستين عامل أوروبى منهم أربعون أو خمسة وأربعون إيطالى (١).

وكانت مطبعة بولاق أو المطبعة الأهلية موضع اهتمام الصحافة الأجنبية فى مصر ، فكتبت صحيفة البوسفور أجيسيان Le Bosphore Egyptien فى عددها الصادر فى ٢ يوليه سنة ١٨٨٥ مقالا عنوانه « إصلاح حروف الطباعة العربية والتركية والفارسية » ، ذكرت فيه أن محمد حسن أفندى قد نشر كراسة باللغتين العربية والفرنسية يقترح فيها إصلاح حروف المطبعة العربية تسهيلا لمهمة طبع

---

(١) S. Limongelli ; op. cit., p. 28 et 29.

الحركات . وتضيف الصحيفة أن الحروف الثمانية والعشرين للأبجدية العربية تختلف أشكالها باختلاف أوضاعها مما يجعل عددها حاليا تسعمائة حرفا . وهنا قرر محمد حسن أفندى إلغاء حروف التعليق والاحتفاظ بشكل الحرف الأصيل . وهكذا خفض عدد حروف الطباعة من تسعمائة إلى ٢٨ فأصبح طبع الحركات من السهولة بمكان . وترى الصحيفة إن الكتابة العربية لم تتغير على الرغم من تبسيطها وأن الكتب المطبوعة وفق الطريقة الجديدة أى بالحركات والحروف سوف تتكلف نصف أو ثلث ما كانت تتكلفه الكتب التى كانت تطبع بالحروف فقط . هذا من الناحية الاقتصادية ، أما من الناحية الأدبية فان تأثير إصلاح الحروف العربية سيكون عظيما لأنه سيتيح للطبقة الفقيرة من المجتمع فرصة تعلم لغة الآباء والأجداد(١). ولا شك فى أن مثل هذه المقالة وغيرها من المقالات التى كتبت عن إصلاح حروف الطباعة العربية هى التى دفعت الحكومة المصرية آخر الأمر إلى تشكيل لجنة تبحث مشكلة الحروف العربية وتصف لها حلا .

وإذا انتقلنا إلى سنة ١٨٨٦ وجدنا أن الميزانية اعتبرت مطبعة نظارة المالية جزءا من المطبعة الأهلية ، وقد اعتمد لها مبلغ أربعمائة وستة وخمسون جنيها مصريا خصصت للموظفين. ويلاحظ على تلك الميزانية أنها . خفضت عدد موظفى المطبعتين من ٧٥ موظفا فى عام ١٨٨٥ إلى ٤٤ فى عام ١٨٨٦ ، كذلك انخفض الاعتماد من ثلاثين ألف جنيها فى سنة ١٨٨٥ إلى اثنين وعشرين ألفا وأربعمائة وستة جنيهات فى سنة ١٨٨٦ (٢).

وفى شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ زار بعض مهندسى نظارة الأشغال العمومية مبنى المطبعة الأهلية ببولاق ومبنى مطبعة نظارة المالية لدراسة الاجراءات التى يجب أن تتخذ لضم المطبعتين فى مقر واحد . وكانت اللجنة التى شكلت لهذا الغرض قد اقترحت ضم المطبعتين الرسميتين ووقع اختيارها على المبنى الكبير الذى كان فيما مضى اسطبلا للخيل وهو يشغل الدور الأرضى من نظارة المالية . وكان أولو

---

(١) Le Bosphore Egyptien ; Jeudi 2 Juillet 1885 No. 1106, huitième année.

(٢) Budget provisoire du gouvernement egyptien l'exercice 1886, Le Caire, Imprimerie Nationale, section des finances, 1886.

الأمر قد قرروا إجراء الاصلاحات اللازمة لاعداد المقر الجديد لاستقبال المطبعتين في أواخر سنة ١٨٨٧ . غير أنه عدل عن هذا القرار في اللحظة الأخيرة . وفكرت نظارة المالية في الوقت نفسه في إعادة النظر في عدد موظفي وعمال المطبعتين المنضمتين إلى بعضهما [١] . وكان المسيو أورنشتين رئيس مكتب المستشار المالي قد قدم إلى نظارة المالية مشروع ضم المطبعتين ، كما خفضت ميزانية المطبعة لسنة ١٨٨٨ بمقدار ألفين من الجنيهات ، تخصم من أجور العمال . وحددت مواعيد العمل في المطبعة فأصبحت تبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحا وتنتهي في الساعة الرابعة والنصف مساء . أي أصبح العامل يشتغل تسع ساعات يوميا بدلا من سبع ساعات[٢] . وبعد أخذ ورد داما أكثر من نصف سنة تم نقل مطبعة نظارة المالية في ١٣ يناير سنة ١٨٨٨ [٣] إلى المطبعة الأهلية ببولاق .

وكتبت صحيفة البوسفور أجبسيان في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٨٨ نقلا عن صحيفة تصدر بالاسكندرية ، تقول : « بلغت ميزانية المطبعة الأهلية عن سنة ١٨٨٨ مبلغا وقدره ٢٧٥٦٥ جنيها مصريا خصص ٦٠١٢ جنيها منه لمصروفات الادارة . ولما ضمت مطبعة نظارة المالية إلى المطبعة الأهلية ، أصبحت الميزانية نتيجة لهذا الاجراء ٣٥٣٦٥ جنيها مصريا ، خصص ٤٤٥٨ جنيها منها للأعمال الادارية والمصلحية .

« إن المطبعة الأهلية مؤسسة واسعة عظيمة ، وعلى الرغم من ذلك ، فان الناس يجهلونها كما لو أنها تعمل على ضفاف البحر الأصفر . . . »

وتستطرد الجريدة قائلة إنه « يعمل في هذه المؤسسة ٢٨٦ عاملا باليومية . ومتوسط أجر كل منهم في العام ما يساوي ألف فرنك » (أي حوالي أربعين جنيها) .

« وإن عدد الطلبات التي تتقدم بها مصالح الدولة المختلفة يصل إلى حوالي خمسة عشر مليون نسخة ، وإلى حوالي ثمانين ألف سجل أو دفتر .

---

(١) Le Bosphore Egyptien, Lundi et Mardi 15 et 16 Août 1887.

(٢) Le Bosphore Egyptien, No. 1821, Dixième année, dimanche 4 décembre 1887, p. 1, col. 2.

(٣) المصدر السابق عدد رقم ١٨٥٥ ، في السنة العاشرة ، الجمعة ١٣ يناير سنة ١٨٨٨

« وتتطلب هذه الأشغال الهائلة استخدام ٢٥٠٠٠ كيلو جراما من الورق و ٢٥٠٠٠ كيلو جراما من الكرتون وحوالى ٢٠٠٠٠ متر من القماش . وفى المطبعة ٣٧ آلة طباعة تعمل عملا متواصلا ، يدار خمس وعشرون منها بقوة البخار. أما الباقى فيدار باليد »[1] .

وكانت إدارة المطبعة قد قامت بفصل عدد من الموظفين اعتبارا من أول مارس سنة ١٨٨٨ تمشيا مع سياسة الوفر التى استنتها نظارة المالية فى ذاك الوقت[2] غير أنه تبين بعد ذلك بعام واحد أن ميزانية المطبعة ما زالت فى حاجة إلى ضغط . فقد زارها فى أكتوبر سنة ١٨٨٩ رياض باشا وطلب الاطلاع على ميزانيتها وعلى كشف مستخدميها ، وبعد أن عكف رئيس النظار على دراسة تلك الأوراق قرر الغاء قلم الحسابات فى المطبعة وفصل موظفيه اعتبارا من أول نوفمبر سنة ١٨٨٩[3]. ومن ضمن الوظائف التى ألغيت فى تلك الحركة وظيفة وكيل قسم الادارة[4] .

وفى ٥ يناير سنة ١٨٨٩ زار الخديو توفيق المطبعة الأهلية واستقبله مديرها بانجيه بك ومعه رؤساء مصالح المطبعة وقد طاف الخديو بمسبك الحروف العربية والأفرنجية والقاعة التى تطبع فيها الجريدة الرسمية الفرنسية . وقسم جمع الحروف الأفرنجية والعربية وقسم المطابع الحجرية والبخارية واليدوية ومعمل الحفر على الحجر . وقد قدم إليه فى هذا القسم أقدم عامل من عمال دار الطباعة وهو ابراهيم الشبراوى[5]، وكان قد مضى على خدمته فيها ٤٨ سنة . وقد عاين الخديو بعد ذلك قسم التجليد وشاهد آلات التنمير والقص ثم انتقل بعد ذلك إلى قسم التوضيب[6].

---

(١) Le Bosphore Egyptien, No. 2064, onzième année, dimanche, 16 septembre 1888, p. 1, col. 2.

(٢) مجموعة القرارات والمنشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات من أول شهر مارس إلى ٣١ منه سنة ١٨٨٨

(٣) Le Bosphore Egyptien, No. 2064, onzième année, dimanche, 16 Octobre 1889.

(٤) مجموعة القرارات والمنشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات اعتبارا من أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ إلى ٣١ منه .

(٥) هو العامل الذى استعان به البير جيس فى كتابة تاريخ مطبعة بولاق .

(٦) الوقائع المصرية فى ٧ يناير سنة ١٨٨٩

وكانت المطبعة فى عهد بانجيه بك مقسمة إلى ورشة الجمع الأفرنجى برئاسة جيانوزى الايطالى ، وورشة الجمع العربى برئاسة حسن أفندى أبو زيد المصرى ، وورشة الطباعة بالحروف المتفرقة ويرأسها المسيو جرو Gros الفرنسى وورشة الطباعة بالحجر ويشرف عليها الايطالى سايا Saya وورشة الحفر على الحجر تحت إدارة داميلانو الايطالى وورشة التصوير والحفر على الزنك برئاسة سيبيلا الايطالى وورشة التجليد برئاسة ليمونجللى والمسباك تحت إشراف كاتيلو الفرنسى والكليشيهات برئاسة مونتوبيو الايطالى (١) .

وعلى الرغم من أن المطبعة الأهلية كان فى استطاعتها القيام بانجاز كل ما يطلب اليها من مطبوعات ، فان بعض الجهات الحكومية كانت تؤثر عليها مطبعة إحدى الصحف مما أثار حفيظة (البوسفور أجبسيان) التى كتبت تقول « عندما أسست الحكومة المطبعة الأهلية احتكرت صناعة كان يعيش عليها عدد من الناس(٢). وليس لنا اليوم أن نعود إلى مناقشة أمر قد تم ، ولكن نجد من حقنا أن نبدى دهشتنا من أن الحكومة ، بعد أن تكبدت نفقات كبيرة لتأسيس مطبعتها ، فاننا نجد الشرطة لا تزال تؤجر مطبوعاتها لمطبعة المقطم دون إجراء مناقصة وتدفع فى ذلك أسعارا جنونية . ويؤكد البعض أن صاحب نفوذ كبير له دخل فى الموضوع وهكذا اكتشفت طريقة جديدة ، على حساب مصر ، لزيادة مكافأة تلك الصحيفة العربية التى تعمل جاهدة لخدمة الانجليز (٣) .

وحدث أن اتهمت بعض الصحف المحلية المطبعة الأهلية بأنها تقوم بطبع كتب منافية للآداب ومخالفة للدين . وتهتم نظارة المالية بالأمر وتحيل وكيل المطبعة حسن بك حسنى إلى مجلس تأديب (٤) الذى يقرر أن المذكور « خال من المسئولية مطلقا » وقد برئت ساحته مما نسب إليه وصدر قرار بذلك من ناظر المالية فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٢ (٥) .

---

(١) S. Limongelli ; L'arte italiana ... op. cit., p. 29.

(٢) لا شك فى أن الصحيفة تقصد اعادة تنظيم المطبعة لا تأسيسها .

(٣) Le Bosphore Egyptien, No. 3369, quinzième année, samedi 10 Décembre 1892, p. 2 col. 6.

(٤) المصدر السابق ، ١٤ يناير سنة ١٨٩٣

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٣ ، السنة الثانية والستون ، يوم السبت ٧ يناير سنة ١٨٩٣

ولأول مرة فى تاريخ المطبعة الأهلية يلحق بها قسم الفوتوتيبى [1] ، ويقوم الماركيز دى رفيرسو وكيل الحكومة الفرنسية وقنصلها العام فى مصر بزيارة المطبعة فى هذه المناسبة ويبدى إعجابه الشديد بها [2] . وعلى الرغم من إدخال تلك الطريقة الجديدة فى فن الصور وطبعها ، فقد ظلت مطبعة بولاق محتفظة بطباعة الحجر وقد اتجهت النية أخيرا إلى إحلال طباعة الأوفست أو الطباعة الملساء محلها أسوة بالمطابع الحديثة .

ونستطيع أن نؤكد أن عهد بانجيه بك كان عهدا ذهبيا للمطبعة . فقد جددت فيه آلاتها وأعيد تنظيمها وأدخلت وسائل جديدة فى الطباعة لم تكن تعرفها المطبعة الأهلية واستقدم خبراء أجانب علموا العمال المصريين فن الطباعة على أصوله فغدا الطابع المصرى اليوم فى مقدمة عمال الطباعة لا فى الشرق العربى فحسب بل فى أوروبا وأمريكا .

وقد اعتلت صحة بانجيه بك فى آخر عهده ومنح عدة أجازات . ورأت نظارة المالية فى سنة ١٨٩٤ أن تنتدب شيلو بك مؤقتا لادارة المطبعة . والمدير المنتدب مهندس مدنى كان يعمل رئيس حسابات الأشغال العمومية بنظارة المالية ولما اشتد المرض على بانجيه بك اضطرت الحكومة المصرية أن تحيله نهائيا إلى المعاش . وقد توفى بعد ذلك بقليل بمدينة باريس [3] .

تولى شيلو بك إدارة المطبعة إذن فى سنة ١٨٩٤ . ولم يكن مديرا لمطبعة بولاق فحسب ، بل كان مديرا للجرائد الرسمية أيضا وهى الوقائع المصرية والجريدة الرسمية التى تصدر باللغة الفرنسية . والمتصفح لأعداد الوقائع فى ذلك العهد يلاحظ أن شيلو بك كان يمهرها باسمه وقد أردف به صفة مدير المطبعة وجرائد الدولة الرسمية . كان شيلو بك من خيرة من ولى أمر هذه المؤسسة إذ تشهد تقاريره بمحفوظات وزارة المالية بكفايته وامتيازه سواء فى خدمة المطبعة أو الجريدتين

---

(١) طريقة فى الطباعة بالحبر الدهنى بالجيلاتين المحتوى على البيكرومات والمعرض للشمس .

(٢) Le Bosphore Egyptien, No. 3509, quinzième année, mercredi 24 Mai 1893, p. 2, col. 5.

(٣) S. Limongelli ; L'arte italiana ..., op. cit., p. 30.

الرسميتين [1] . وكان شيلو بك يمتاز بالحزم والنشاط وحسن الادارة . لقد كان مهندسا ناجحا ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن فن الطباعة . ورغما عن ذلك ، فقد حاول إعادة تنظيم المطبعة من الناحية الادارية والتقدم بها نحو الكمال ولم يكن شيلو بك فى حاجة إلى بذل مجهود كبير فى هذا المضمار ، فقد وجد عند تعيينه أن كل شىء قد أعد الاعداد اللازم ، فلم يكن أمامه إلا السير على الطريق الذى مهد له ولغيره من الأجانب الذين تولوا إدارة المطبعة من بعده .

أمر المدير الجديد بهدم قاعات المطبعة القديمة وبناء قاعات جديدة بدلا منها ، وفق آخر مستحدثات الفن المعمارى المعمول بها فى أوروبا . وركزت الجهود على القاعات التى ركبت فيها آلات الطباعة ، فقد كانت متمشية تماما مع الغرض الذى بنيت من أجله . ولم يقتصر جهد شيلو على المبانى فحسب بل تعداها إلى استحضار مختلف الآلات اللازمة لورش المطبعة . وكان له فضل إدخال أنواع حديثة من معدات المطبعة لم تكن معروفة فى مصر خلال ذلك العهد . وكان شيلو يجمع رؤساء الأقسام ويطلب منهم أن يدلوا له برأيهم فى شئون المطبعة المختلفة [2].

ولما كان هذا المدير جاهلا بأصول الطباعة فقد سافر عدة مرات إلى فرنسا وانجلترا وألمانيا . وكان هدفه من تلك الأسفار زيارة أكبر المطابع سواء كانت مطابع حروف أو مطابع حجر . وقد تعلم خلال تلك الجولات خصائص الفن المطبعى . وفى أثناء غيابه ، كان يقوم بادارة المطبعة وكيلها محمد حسنى بك [3] .

وفى عام ١٨٩٩ طلب المدير إلى رئيس ورشة التجليد أن يصحبه إلى باريس لكى يتعلم طرق التجليد الجديدة بواسطة آلة الخياطة بالسلك أو بالخيط المصنوع من الكتان وآلات طى الورق وغيرها من الآلات التى استحدثت فى ذلك العهد لتسهيل تجليد الكتب . وقد تبين لشيلو بك خلال رحلاته تلك عظم فائدة آلات الطبع التى تطبع الفرخ على الوجهين فى آن واحد ، كما لمس أيضا نجاح آلات

(١) أرشيف وزارة المالية المصرية لسنة ١٨٩٧ ، محفوظات المطبعة الأميرية .

(٢) S. Limongelli ; op. cit., p. 31.

(٣) مجموعة القرارات والمنشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات من أول يونيه إلى ٣٠ منه سنة ١٨٩٨ ص ٢٠٩ ومن أول أغسطس إلى ٣١ منه سنة ١٩٠٠ ص ٤٥٢

تنضيد الحروف المعروفة باسم مونوتيب Monotype . وقد أرسل فى طلب هذه الآلات وركبت حال وصولها [1] .

وفى عهد شيلو بك وعلى وجه التحديد فى سنة ۱۸۹۷ وضعت تعريفة للمطبوعات خفضت فى سنة ۱۹۰۲ بمقدار ۱۰ ٪ وابتداء من ١٤ مارس سنة ۱۹۰۸ أضيف إلى التخفيض السابق ٥ ٪ [2] .

وقد أقبل العمال يقدمون طلبات الالتحاق بالمطبعة الأهلية ، ويظهر أن عدد لطلبات فى ذلك الوقت كان كبيرا مما حدا بالمهيمنين على شؤونها إلى نشر إعلان بالبنط العريض فى عدد الوقائع الصادر فى ٢٤ فبراير سنة ۱۸۹۷ يذكرون فيه أن ورش المطبعة « مستوفية من جميع أنواع العمال ، وفى هذه الحالة غير ممكن قبول طلبات من أى أحد كان للاستخدام بها . ولذا لزم الاعلان ليكون معلوما » .

ولندع البير جيس يصف لنا المطبعة الأهلية فى عهد إدارة شيلو بك فى المؤلف الذى وضعه فى أوائل القرن العشرين والذى لم يوفق إلى نشره [3] . يقول جيس إن شيلو بك ظل يعمل على رأس المطبعة الأهلية إلى أن أحيل على المعاش لبلوغه السن القانونية فى سنة ۱۹۱۱ . وقد اعترفت الحكومتان المصرية والفرنسية بفضله فمنحته الأولى رتبة الباشوية قبل إحالته إلى المعاش ، بينما نال من الثانية وسام جوقة الشرف برتبة فارس . وكان شيلو بك قبل تعيينه فى الحكومة المصرية كبير مهندسى السودان المصرى وعضو جمعية المهندسين المدنيين فى فرنسا . وقد ألف كتابا عن النيل والسودان ومصر فى سنة ۱۸۹۱ طبع بفرنسا [4] .

وقد أمر شيلو بك سنة ۱۹۰۰ بهدم باب المطبعة القديم ، وقد حل محله مدخل واسع وضع فى أعلاه اللوحة التذكارية التى كتبت بالتركية سنة وضع الحجر

---

(۱) S. Limongelli ; op. cit., p. 32.

(۲) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ۷۱ — ٤٥ / ۱ خطاب من مدير المطبعة إلى وزير المالية فى ٩ نوفبر سنة ۱۹۰۸

(۳) هذا المؤلف واسمه :
L'histoire de l'imprimerie en Egypte-suite-Epoque contemporaine.
لم ينشر وهو محفوظ فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بحى المنيرة بالقاهرة .

(٤) هذا الكتاب محفوظ فى مكتبة المطبعة الأميرية ببولاق .

الأساسى للمطبعة وعمل المدير على فصل الورش بفناء يتوسطها ، وقام بزرع حديقة صغيرة وعمل نافورة ماء . وكان يحد البناء من الجنوب حديقة المدير ومسكنه (١) .

وكان عبد الرحمن رشدى بك قد كلف أنطوان موريس فى حوالى سنة ١٨٦٣ بشراء آلات طبع ماركة ألوزيه فاستبدلها شيلو بك بآلات أخرى حديثة الصنع من نفس الماركة . وقد أضحت المطبعة الأهلية فى مطلع القرن العشرين مصنعاً كبيرا بكل معنى الكلمة . وكانت تستهلك ما لا يقل عن مليون فرخ ورق شهرياً . وأصبح فى المطبعة سنة ١٩١٠ ثمانى آلات للسبك ماركة فوشيه الفرنسية وآلتان لتنضيد الحروف ماركة مونوتيب وآلة طبع ماركة دوبلكس وخمس آلات طبع مجوز ماركة ألوزيه ، وعشرون آلة طبع عادية ، منها اثنتان ماركة جوليان واثنتان ماركة مارينونى وست عشرة ماركة ألوزيه . وأربع آلات طبع تدار بالقدم اثنتان ماركة فنيكس واثنتان ماركة دوليتر ، وآلتان ماركة هاريس لطبع الأظرف . وكان فى قسم الطباعة الحجرية أربع آلات طبع ماركة فيشتر وآلتا طبع ماركة فوازان وآلة واحدة للحفر على الحجر وآلة لعمل التمغة . وكان فى قسم التجليد أربع آلات لطى الورق ماركة برمر ، وآلة واحدة لجمع الورق وآلة واحدة للتلميع ماركة فورنيفال الانجليزية ومكبسان للتذهيب وثمانى آلات للضبط ، وآلتان لقص الورق ماركة هاريلدز اوآلتان لقص الورق ماركة رافاس وآلة للتصميغ .

ويقوم على إدارة تلك الآلات ثلاثة محركات ماركة أوتو قوة عشرين حصانا يشرف عليها مهندس فرنسى يدعى أدمون ايفوا . وكان يعمل فى المطبعة خلال عهد شيلو بك حوالى الأربعمائة والعشرين عاملا . وابتداء من ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٦ عينت وزارة المالية المستر وارن تريلونى وكيلا للمطبعة الأهلية ثم رقى مديرا لها فى ٢٩ يونيه سنة ١٩١١ وأمضى بضع سنوات فى إدارتها ثم عين فى وظيفة مساعد وكيل نظارة المالية إلى أن أحيل إلى المعاش فى ١٦ أبريل سنة ١٩٢٣ (٢) .

وكان يشرف على القسم الادارى فى المطبعة خلال عهد شيلو بك موظف يدعى خليل أفندى . أما القسم االفنى فكان يرأسه المسيو فرنان موريس الابن

(١) استقينا هذه المعلومات من مخطوط جيس المحفوظ بمطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالمنيرة .
(٢) أرشيف وزارة المالية المصرية ، دوسيه رقم م ٥٧ — ٤ / ١٦

الأكبر لانطوان موريس الذى كان يقوم إلى جانب هذا العمل ، بادارة ورشة الجمع الأفرنجى [1] .

وكان المسيو بوانسو الذى تدرب على فنون الطباعة فى المطبعة الأهلية بباريس يقوم بالاشراف على ورشة الطباعة بالحروف وورشة الطباعة الحجرية . وقد منحت الحكومة الفرنسية المسيو فرنان موريس والمسيو بوانسو نيشان الأوفيسيه داكاديمى « مكافأة لهما على ما بذلاه من جهود فى سبيل رفع شأن الفن المطبعى الفرنسى فى مصر » [2] . ويصح أن نعتبر تلك الحقبة من تاريخ المطبعة بأنها حقبة الفرنسيين .

وكانت الرسائل الخاصة بالجريدة الرسمية ترسل إلى مدير المطبعة الأميرية ببولاق . أما الرسائل الخاصة بآداب اللغة العربية فكانت ترسل إلى وكيله [3] . وكان فى المطبعة معمل لفحص وتحليل الورق للحكومة والأهالى [4] . وكانت تعرف المطبعة فى ذلك العهد باسم « المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية [5] .

ولاحظ المهيمنون على شؤون مطبعة بولاق أن حروفها العربية لم تعد تجارى العصر وأنه لابد من التفكير فى ابتكار قاعدة جديدة تحل محل القاعدة القديمة المعقدة . فلما زار الخديو عباس باشا الثانى المطبعة فى ١٢ مارس سنة ١٩٠٢ ليفتتح المبانى التى أنشئت فيها أثناء إدارة شيلو بك [6] استحسن من الاصلاحات المطلوبة صنع حروف جديدة واختصار الحروف وتغيير القاعدة [7] . وفى ٢٧ صفر سنة ١٣٢٠ الموافق ٤ يونية سنة ١٩٠٢ تكونت لجنة من الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بنظارة المعارف وشيلو بك مدير المطبعة الأهلية وأحمد زكى بك سكرتير

---

(١) مخطوط البير جيس ص ١٨ ، ١٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

(٣) تقويم سنة ١٣٢٠ هـ ، عمل بادارة عموم المساحة ، بولاق سنة ١٩٠٢ م ، ص ٣٣

(٤) المصدر السابق .

(٥) راجع مجموعة الوقائع المصرية سنة ١٩٠٢

(٦) La Bourse Egyptienne, Jeudi 13 Mars 1902.

(٧) توفيق اسكاروس ، تاريخ الطباعة فى وادى النيل ، مجلة الهلال ، السنة الثانية والعشرون مارس سنة ١٩١٤

ثانى مجلس النظار وأمين سامى بك ناظر مدرسة الناصرية . ورأس هذه اللجنة إبراهيم باشا نجيب وكيل نظارة الداخلية . وكان أحمد مظلوم باشا ناظر المالية قد أمر بتشكيل تلك اللجنة لبحث « عيوب حروف المطبعة وأشكالها وتركيبها وللدلالة على الوسائل التى يترتب على اعتماد العمل بها تقليل عدد الحروف المستعملة مع المحافظة على جودة الخط وترقيها ترقية تناسب احتياج العصر الحالى . . . »[1]. وكان للجنة الحق فى الاستعانة بالخبراء إن دعت الحاجة إلى ذلك [2]. ثم رأت اللجنة أن تبعث شياو بك وأحمد زكى بك إلى الخارج لدراسة تقدم صناعة الحروف المطبعية . وقد زارا أشهر المطابع والمسابك بالآستانة وفينا وليبزج وبرلين وليدن واكسفورد وباريس . وقدم كل من العضوين تقريرا وافيا عن زياراته وعرضا بعض المقترحات وافقت عليها اللجنة باجماع الآراء .

واهتم عضو اللجنة أحمد زكى باختصار صندوق الطباعة والعمل على تسهيل جمع الحروف . وتمكن بعد جهد من تقليل عدد الحروف اللازمة للطباعة إلى ١١٢ حرفا وكانت الحروف المستعملة فى مطبعة أكسفورد العربية تبلغ ٢٨٢ حرفا وقد أجرى أحمد زكى عدة تجارب فى مطبعة بولاق ، وبعد ثلاثة شهور من العمل المتواصل تمكن من اكتشاف قاعدة جديدة أتاحت له جمع أية كلمة عربية أو تركية أو فارسية [3].

وكانت الطريقة القديمة المستعملة فى مطبعة بولاق تقتضى من الجماعين معرفة ١٥٧٧ شكلا للحروف . أما الطريقة الجديدة فهى لا تطلب منهم أكثر من معرفتهم لمائة وخمسة وأربعين حرفا أو شكلا [4].

وكانت قاعدة مطبعة اكسفورد العربية تتكون من ٢٨٢ حرفا كما رأينا بينما تصل قاعدة مطبعة ليبزج إلى ٩٣ حرفا وبرلين إلى ٥٠١ والآستانة إلى ٦٣٨

---

(١) أمين سامى باشا ، التعليم فى مصر ، هامش ص ١٠٧

(٢) جريدة الأهرام فى ٥ يونية سنة ١٩٠٢

(٣) أحمد زكى بك ، خلاصة وجيزة على مباحث وأعمال لجنة اصلاح وتحسين الحروف العربية بمطبعة بولاق سنة ١٩٠٣ ، ص ٥

(٤) المصدر السابق ، ص ٦

وفينا إلى ٦٦٠ وباريس إلى ٨٠٠ . وكانت قاعدة مطبعة بولاق تتكون من ٩٠٠ حرف وهى نفس القاعدة التى كانت مستعملة فى عهد محمد على .

أما قاعدة بولاق الجديدة فانها انخفضت بهذا العدد إلى ١٧٨ حرفا .

وقد أضاف أحمد زكى إلى حروفه علامات الرسم والاملاء المستعملة فى اللغات الأوروبية . وهى علامات الوقف ، ثم الوقف القابل ثم الوقف المتوسط ، ثم التفسير والبيان ثم الاستفهام ثم التعجب أو النداء أو القسم أو التحذير أو الاستغاثة وأشكالها كالآتى : . ، ؛ : ؟ ! . ولم ينس أحمد زكى الأقواس فى المشروع الذى تقدم به ؛ كذلك قرر أن يبقى بعض التراكيب مجموعة جاهز مثل « الله » .

وقد خفضت الطريقة الجديدة عدد أدوات الطباعة والجهد والتكاليف وقللت مدة الطبع فضلا عن أنها حسنت شكل الطباعة العربية وجعلت الكتب فى متناول الجميع بعد أن أنزلت سعرها . ويمكن استخدام الحروف الجديدة فى الطبع بست لغات ، وهى العربية والتركية والفارسية والهندية والجاوية والماليزية [1] .

وقد صدقت اللجنة على المذكرة المقدمة من أحمد زكى بك فى جلستها المنعقدة فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٢ واعتمدت العمل بموجبها .

وتنتقد مجلة (المقتطف) [2] المذكرة التفصيلية التى وضعها أحمد زكى بك لاختصار حروف مطبعة بولاق ؛ وهى ترى أن مقدم المذكرة ليست له خبرة كافية بالطباعة العربية التى لا تستغنى عن بعض الحروف الممدودة مثل ـــنـــ ، ـــكـــ ، ى. وهى حروف تستعمل لاكمال السطور الناقصة حتى لا يضطر العامل الذى يقوم بالجمع إلى تقسيم الكلمة الواحدة إلى قسمين فى آخر السطر كما يفعل الأوربيون . وترى (المقتطف) أيضا ضرورة «جمع الشدة مع الضمة وتنوين الضم وجمع الشدة مع الفتحة وتنوين الفتح» ؛ وفى رأى تلك المجلة

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٢) حروف الطبع العربية ، مجلة المقتطف ، الجزء الرابع ، المجلد الثامن والعشرون ، فى أول أبريل سنة ١٩٠٣ ص ٢٨٥ وما بعدها .

أنه لا بد « من سبك الحروف والأرقام العددية على درجات مختلفة من الارتفاع حتى يمكن ترتيب الصور الحسابية والكميات الجبرية إذا أريد إبقاء علم الحساب والجبر فى العربية » . وتعتقد المقتطف فى ضرورة تجويف كل الحروف من طرفين أو من الأطراف الأربعة حتى يمكن وضع الحركات فيها ؛ ولا بد أيضا من أنواع مختلفة من الفروق . فاذا تم هذا كله زاد عدد الأشكال مائة أو مائتين هذا بصرف النظر عن العلامات الاملائية كالفصلة والنقطة والأقواس وعلامات التعجب والاستفهام الخ . .

وترد المقتطف على قول أحمد زكى بأن مشروعه الجديد سيخفض تكاليف الطبع بمقدار ٢٥ ٪ ، بأن أجر ترتيب الحروف وتفريقها لا يزيد على ٢٠ ٪ من نفقات الطبع ، فيكون الوفر الحقيقى ٢ ٪ لا ٢٥ ٪ ، وهو وفر بسيط جدا . وتخلص المجلة إلى القول بأن « الاصلاح الذى أشارت به اللجنة يصلح مطبعة بولاق حتما ولو لم تفق به بعض مطابع العاصمة ولا بلغت به مطابع بيروت . . . » [1] . ولا شك أن فيما تقوله المقتطف شيئا كثيرا من التحيز سببه فى رأينا أن المشرفين على مطبعة بولاق لم يستعينوا بخبرة أصحاب هذه المجلة فى فنون الطباعة حينما فكروا فى إصلاح قاعدة حروفها على نحو ما رأينا .

ويأخذ جورجى زيدان على الحكومة المصرية عدم استعانتها بفن الشيخ براهيم اليازجى وخبرته « لأنه أقدر من يستطيع ذلك بالدقة والرونق ولو فوضت اليه هذا العمل لأحسنت صنعا واستثمرت قريحته ثمرا نافعا للغة العربية على الاجمال » [2] .

وقد قام جعفر بك بكتابة خط القاعدة الجديدة . ومهما يقل فى تلك القاعدة ، فان حروفها تعد من خيرة الحروف العربية لجمال خطها وحسن تركيبها وسهولة جمعها . وأول عدد من الوقائع صدر بالحروف الجديدة ، هو العدد رقم ١٢٤ الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٦ . ويلاحظ أن الحروف الجديدة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٦

(٢) جرجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٢٢ ، ص ١١٨

قد أدخلت بالتدريج . وابتداء من العدد الصادر فى أول يناير سنة ١٩٠٧ أصبحت الوقائع تطبع كلها بالقاعدة الجديدة . ويلاحظ أن ملحق العدد المذكور قد جمعت حروفه بالقاعدة القديمة .

وفى مستهل القرن العشرين بدأت المطبعة الأهلية تستورد بعض ورقها من مصانع كروكسلى الانجليزية [١] ، وهى من مصانع الورق الأوروبية الشهيرة .

وبلغت ايرادات المطبعة فى سنة ١٩٠٧ ٥٢,١٦٤,٠٨٥ جنيها مصريا بينما لم تتعد مصروفاتها ال ٤٤,٨٧٨,٣٤٥ جنيها مصريا فزادت الايرادات على المصروفات بمقدار ٧,٢٨٥,٧٤٠ جنيها مصريا . وقد اقترح شيلو بك فى خطابه إلى وكيل المالية أن يصرف الفائض على أعمال السكرتارية والحسابات العمومية وطبع ورق تمغة وشراء مطبعة حجرية بستمائة جنيها . أما الرصيد الباقى فيمكن صرفه على أعمال تحسين الحروف العربية وعلى تشييد مساكن للعمال وتوسيع مبانى المطبعة وعلى بناء منازل اقتصادية لصغار مستخدمى المطبعة [٢] .

ويلاحظ أحمد مظلوم باشا وزير المالية أن إيرادات المطبعة تزيد على مصروفاتها زيادة كبيرة . ويخلص من ذلك إلى أن تعريفة الطبع فى المطبعة غالية ، وأنه يجب تخفيضها بحيث لا تتجاوز الايرادات المصروفات كثيرا . لأن هذه الزيادة تتحملها المصالح الحكومية المختلفة التى تطبع مطبوعاتها فى المطبعة الأميرية . ويطلب وزير المالية من مدير المطبعة أن يتخذ ابتداء من عام ١٩٠٩ الاجراءات الكفيلة بتخفيض تعريفة المطبعة [٣] .

وقد ازدادت الأعمال فى المطبعة منذ نهاية ديسمبر سنة ١٩٠٧ زيادة كبيرة نتج عنها ارتباك العمل وتأخير طلبات المصالح الحكومية المختلفة . وقد قرر مدير المطبعة فى ١٥ يناير سنة ١٩٠٨ — لتخفيف ذلك الضغط — أن تطبع مطبوعات

---

(١) محمد أمين بهجت ، تقرير من معرض الطباعة بمدينة ليبزج ، بولاق سنة ١٩٣٢ ص ٤٤

(٢) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ٧١ — ٤٥ / ١ ، من شيلو بك إلى وكيل المالية فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٠٨

(٣) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ٧١ — ٤٥ / ١ من وزير المالية إلى مدير المطبعة الأميرية فى أول أغسطس سنة ١٩٠٨

مصلحة البريد التى تمثل ١٥ ٪ تقريبا من مجموع أشغال المطبعة ، فى المطابع الأهلية (١).

وقرر شيلو بك فى ٢٠ يناير سنة ١٩٠٨ تحديد ساعات العمل اليومى بثمانى ساعات ، على أن يتقاضى العامل عن الساعات الاضافية نفس الأجر الذى يتقاضاه عن ساعات العمل العادية (٢).

ويبدو أن شكاوى المصالح الحكومية من بطء المطبعة فى إنجاز مطبوعاتها قد زادت عن الحد المعقول . وكانت تلك المصالح ترسل شكاواها من هذا البطء إلى وزارة المالية . وطلب شيلو بك من وكيل الوزارة الانجليزى أن يحول له تلك الشكاوى لينظر فيها بنفسه ويجيب عليها ، إذ أن الخطأ فى غالب الأحيان يكون خطأ المصالح التى تتأخر فى إرسال طلباتها إلى المطبعة وتتباطأ فى تصحيح التجارب وإعادتها إلى المطبعة .

ويرد وكيل المالية الانجليزى على طلب شيلو بك بأن تحول الشكاوى اليه ، فوزارة المالية هى المسئولة أولا وأخيرا عن المطبعة ، وأنه ، أى وكيل المالية ، سوف يحول إلى المطبعة الشكاوى التى يرى تحويلها (٣).

ويفهم من الخطابات التى تبودلت بين وكيل وزارة المالية الانجليزى ومدير المطبعة الأميرية الفرنسى ، أن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ؛ ففى الخطاب المؤرخ فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ والصادر من مدير المطبعة إلى وكيل المالية المذكور يكتب شيلو بك عن المطبعة أنها «لم تنس قط أنها خادمة لغيرها من المصالح . وأنه وإن بولغ فى كمية الطلبات المرسلة اليها فانها لا تشكو أبدا . . . »(٤) . بيد أن وكيل الوزارة الانجليزى كان يهدف من وراء ذلك إلى حد سلطة المدير الفرنسى . وقد تم له ما أراد حين قام بتعيين تريلونى الانجليزى وكيلا للمطبعة .

---

(١) محفوظات وزارة المالية دوسيه ع ٧١ — ٤٥ / ٦

(٢) خطاب من شيلو بك إلى وكيل وزارة المالية ، محفوظات وزارة المالية دوسيه ع ٧١ — ٤٥/٦

(٣) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، جزء أول دوسيه ع ٧١ — ٤٥ / ٦ خطاب من وكيل وزارة المالية إلى مدير المطبعة فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٨

(٤) محفوظات وزارة المالية دوسيه ع ٧١ — ٤٥ / ٦ فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٨

وفي عشرين أكتوبر سنة ١٩٠٨ أرسلت وزارة المالية المستر مدلتون ليفتش على المطبعة(١). وقد وضع ذلك المفتش تقريرا لاحظ فيه أن ثلث عدد آلات الطباعة يظل معطلا على مدار السنة . واقترح عدم تشغيل بعض المطبوعات الحكومية في المطابع الأهلية ، خاصة وأنه قد تم استيراد آلتين للطباعة للقيام بأعمال مصلحة البريد . ويلفت النظر أخيرا إلى أن هناك آلات تعمل من سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٥ و سنة ١٨٨٨ ويرى ضرورة استبدالها بآلات جديدة وسريعة .

وكانت المطبعة الأهلية إلى ما قبل سنة ١٩٠٩ ، تقوم بطبع نتائج ونقاويم غاية في الأناقة والفخامة وتوزعها بالمجان ؛ إلا أن وزارة المالية قررت في ١٨ مارس سنة ١٩٠٩ أن تتوخى المطبعة الاقتصاد في طبع تلك النتائج والتقاويم ولا تعطيها إلا بالثمن(٢). ويمكن أن نعتبر تلك السنة الحد الفاصل بين الاسراف والاقتصاد . فقد كانت المطبعة تقوم بتوريد بعض أصناف المطبوعات بالمجان إلى مختلف المصالح ثم ما لبثت أن قصرت تلك المجانية على مطبوعات الخديو(٣) .

أصبح تريلوني مسئولا عن المطبعة ومشرفا على الصحف الرسمية ابتداء من سنة ١٩١١ . وبقي يشغل هذا المنصب بصفة جدية حتى سنة ١٩١٧ (٤) واعتبارا من سنة ١٩١١ تقرر مسك حسابات المطبعة الأميرية بمعرفتها وقد قطعت ادارة الخزينة العمومية بواقي حسابات التسوية الخاصة بالمطبعة لغاية ٣١ ينايرسنة ١٩١١ ، وسددت للمطبعة ما يلزم سداده وخصمت عليها ما يلزم خصمه من الأمانات والعهد وخلافه من باقي حسابات التسوية . وعند تقفيل حسابات شهر يناير سنة ١٩١١ أرسلت إدارة الخزينة العمومية إلى المطبعة كشفا بايراداتها ومصروفاتها في الشهر المذكور(٥) .

---

(١) محفوظات وزارة المالية دوسيه ع ٧١ – ٤٥ / ١ ؛ تنظيم المطبعة الأميرية

(٢) محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ٧١ – ٤٥ / ٦ من اللورد سيسل وكيل المالية إلى مدير المطبعة شيلو بك في ١٨ مارس سنة ١٩٠٩

(٣) محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ٧١ – ٤٥ / ٦ من مدير المطبعة إلى وكيل المالية في ٢٣ مارس ١٩٠٩

(٤) ابراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١١٠ ، بولاق سنة ١٩٤٢

(٥) من نظارة المالية ، ادارة عموم الحسابات المصرية إلى ادارة الخزينة العمومية ، محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ع ٧١ – ٤٥ / ٦

وكانت ترد للمطبعة الأميرية طلبات غير مصحوبة بالتعليمات والتفصيلات اللازمة فيتسبب عن هذا النقص غلطات يترتب عليها خسارة في الوقت والمال . فمنعا لذلك وضعت المطبعة كتيبا صغيرا وزعته على جميع المصالح الحكومية حاويا لجميع التعليمات الواجب اتباعها [1] .

ويصف لنا جرجى زيدان [2] المطبعة الأهلية قبيل الحرب العالمية الأولى فيقول إنها « أكبر مطبعة عربية فى العالم لأنها عبارة عن إدارة كبيرة تقسم إلى عدة ورش أو معامل للطبع والسبك والحفر والتجليد وغير ذلك » . وكان يوجد فيها ٣٩ آلة للطباعة من مختلف الحجوم والقوى تبلغ سرعة بعضها أربعة آلاف دورة فى الساعة . وبين آلاتها توجد واحدة لطبع الظروف تدور ستة آلاف دورة . ويبلغ عدد آلات المسبك ٣٣ آلة بين مكابس وقوالب وأفران لسبك الحروف ونقش الصور أو الرسوم وصنع الأمهات . وإلى جانب هذا القسم توجد ورشة خاصة لصب الملازم (الفورم). أما فى ورشة التجليد فتوجد ثمانى وستون آلة بين مكابس وسكاكين ومعدات التخريم والتوضيب والحبك والحزم والخياطة والتذهيب والتصميغ والدهان والكبس . وتنقسم ورشة الجمع إلى شعبة للحروف العربية وأخرى للحروف الأفرنجية ويحتوى هذا القسم آلات لتنضيد الحروف الأفرنجية . وتتولى أربعة محركات كهربائية مجموع قوتها ١٤٠ حصانا إدارة آلات المطبعة جميعا . وهناك ورشة للبرادة والحدادة والنجارة تتبع القسم الفنى من المطبعة . ويعرج جرجى زيدان بعد ذلك على قسم الادارة فى المطبعة فيجده متألفا من عدة مكاتب للادارة والنشر والحسابات وغيرها . وكان يعمل فى بولاق فى التاريخ الذى كتب فيه زيدان كتابه ، ستمائة عامل منهم مائة موظف داخل الهيئة وخمسمائة عامل بالأجرة اليومية .

وفى مارس سنة ١٩١٤ اعتمد وكيل نظارة المالية د. ث . لندسى لائحة الطباعة المصححة بدلا من اللائحة الواردة فى القسم التاسع عشر من الجزء الأول للائحة المخازن . وتنص المادة الأولى من تلك اللائحة على قيام المطبعة الأميرية بطبع وتجليد

(١) قواعد عمومية لطلب تشغيل المطبوعات ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩١١

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ اللغة العربية ، ص ٤٩ ، ٥٠ القاهرة سنة ١٩٣٧

جميع استمارات الحكومة ودفاترها وتقاريرها وغير ذلك من مطبوعاتها . وتحتم المادة نفسها على مصالح الحكومة ألا تطبع أى عمل فى غير المطبعة الأميرية باستثناء مصلحة الآثار المرخص لها بطبع «كتالوج الأنتيكات المصرية» ومحاضرها السنوية فى غير المطبعة الأميرية . وتستثنى المادة الثانية المصالح المخول لها إيجاد مطابع خاصة بها وهى : مصلحة عموم السكك الحديدية لطبع كل الأعمال المتعلقة بها ومصلحة عموم المساحة لطبع الخرائط ونظارة الحربية لطبع الأعمال السرية وغيرها . أما المطابع الأخرى الصغيرة المرخصة من نظارة المالية فى بعض المصالح ، وهى : مطبعة نظارة الداخلية ومطبعة محافظة القاهرة ومطبعة نظارة المعارف العمومية ومطبعة مصلحة عموم خفر السواحل بالاسكندرية ومطبعة محافظة الاسكندرية ، فانه مخول لها أن تطبع ما يلزمها من الأعمال مع ملاحظة اتباع تعليمات الحكومة فيما يختص بالطباعة وللمطبعة الأميرية التفتيش عليها . وكل ما يلزم للمطابع المذكورة من الأدوات والأثاث تحصل عليه من المطبعة الأميرية [1] .

وتنص المادة ٢٢ فقرة (ب) من هذه اللائحة ، على أن المطبعة الأميرية هى المصلحة الوحيدة المخول لها نشر الصور الحقيقية الرسمية للقوانين والأوامر العالية [2] . وتنص المادة ٢٩ فقرة (١) على أن « الأصول يلزم أن تكون على وجه واحد من الورق ، ويجب أن تكتب بالمداد أو آلة الكتابة (التايب رايتر) فالمطبعة الأميرية لا يمكنها قبول أصول مكتوبة بالقلم الرصاص .. [3] وتنص المادة ٤١ على أنه « بعد مضى خمسة عشر يوما من تسليم المطبوع تفك حروفه إذا لم يصل للمطبعة طلب من المصلحة ذات الشأن بحفظها مرصوصة » [4] .

[ ] وبعد تولى المستر تريلونى إدارة المطبعة عين أحمد صادق بك وكيلا لها فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٢ ثم تم اختياره ملاحظا لها فى ٣٠ أبريل سنة ١٩١٩ بمقتضى أمر وزارى صدر بهذه الترقية ، ولم يطل عهده لادارتها إذ رقى فى أول أبريل سنة

---

(١) لائحة الطباعة ، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، ص ١ ، ٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٩

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥

١٩٢٠ مديرا للمكتبة السلطانية [١] . وكانت المطبعة الأميرية فى عهد المستر تريلونى وأحمد صادق بك تابعة لمراقبة مطبوعات الحكومة بوزارة المالية [٢].

ولما اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى ، قل ورود الورق وأدوات الطباعة المختلفة من أوروبا وقد عانت المطبعة الأميرية وغيرها من المطابع المصرية الشىء الكثير من جراء تلك الحرب . ولكن المطبعة الأميرية استطاعت أن تشق طريقها على الرغم من جميع العقبات التى اعترضتها ومضت قدما بفضل سهر المعنيين بأمرها من رجال وزارة المالية .

لم يمكث أحمد صادق بك ملاحظا للمطبعة مدة طويلة فحل محله المستر نيوتن الذى كان فى أول الأمر كبيرا للمصححين الأفرنجى وقد عين فى وظيفته الجديدة بقرار من مجلس النظار صدر فى ٧ مايو سنة ١٩١١ ثم رقى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ رئيساً لورشة المطبعة ووقع عليه الاختيار فى سنة ١٩١٧ ليعمل فى القسم الحربى الخاص بنشر المطبوعات وظل فى تلك الوظيفة قرابة الثلاث سنين ثم عين فى أول أبريل سنة ١٩٢٠ ملاحظا للمطبعة الأميريةوكانت أكبر وظيفة فى المطبعة . وقد اعتزل المستر نيوتن خدمة الحكومة المصرية فى ١٧ يناير سنة١٩٢٤[٣].

وقد أنشأ المستر جورج نيوتن فى الفترة التى تولى خلالها شئون المطبعة الأميرية ، مدرسة لتعليم فن الطباعة علميا وعمليا . وكان يعلم فى تلك المدرسة المستر راندل Randal وهو انجليزى كان يعمل رئيسا لورشة الجمع الأفرنجى ، وكان أحمد صادق عفيفى يعلم الحساب والهندسة واللغة الانجليزية بالاضافة إلى قيامه بأعمال السكرتارية الخاصة بملاحظ المطبعة .

وقد أعلنت المطبعة عن افتتاح تلك المدرسة فى الصحف المصرية ، واشترطت فى تلاميذها أن يكونوا حاصلين على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية . وعلى الرغم من نشر الاعلان عدة مرات فان تلميذا واحدا لم يتقدم للامتحان بالمدرسة . فاضطر ملاحظ المطبعة إلى اختيار عاملين فى المطبعة أحدهما يحمل الشهادة الابتدائية والآخر

(١) آرشيف وزارة المالية المصرية ، ملف رقم م ٧١ — ١٥ / ١٠
(٢) ابراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١١١ ، بولاق سنة ١٩٤٢
(٣) أرشيف وزارة المالية المصرية ، ملف رقم م ٧١ — ٢٦ / ١٠

من حملة شهادة مدرسة الصنائع . وترغيبا فى الالتحاق بتلك المدرسة ، أعلن الملاحظ أنه عازم على إنشاء فرقة كشافة للتلاميذ ، فتقدم أربعة فقط فى الأسبوع الأول وخمسة فى الأسبوع الثانى . وهكذا إضطر الملاحظ إلى العدول عن انشاء فريق الكشافة لقلة عدد التلاميذ .

وكان اليوم الدراسى موزعا على النحو الآتى : من السابعة صباحا إلى الحادية عشرة إلا الربع دراسة نظرية . ومن الحادية عشرة إلى الثانية بعد الظهر دراسة فى الورش . وبعد اعتزال المستر نيوتن الخدمة سنة ١٩٢٤ ، أغلقت المدرسة ووزع تلاميذها على مختلف ورش المطبعة كرؤساء فرق . وابتداء من تلك السنة ، فكرت المطبعة فى إرسال بعثات من هؤلاء التلاميذ ليدرسوا مختلف فنون الطباعة فى أوروبا [١] . وقد أنعم على جورج نيوتن بنيشان النيل الرابع ومنح رتبة البكوية .

خطت مطبعة بولاق منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٢٣ خطوات واسعة إلى الأمام . فقد جددت مبانيها ووضعت لحروفها قاعدة جديدة. وجلبت لها آلات المونوتيب لتنضيد الحروف الأفرنجية والطابعات السريعة التى تطبع وجهى الورقة فى آن واحد . وأصبحت آلاتها تدار بالكهرباء وأعيد تنظيم حساباتها وأقسامها فغدت أكبر مطبعة فى الشرق العربى . واشتهرت مطبوعاتها بالدقة والأناقة .

---

(١) حديث مع السيد / زكى خليل مدير مطبعة جامعة القاهرة سابقا .

من وثائق دير سانت كاترين :

ثلاث وثائق فقهية

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم
أستاذ الوثائق المساعد

إن مجموعة الوثائق التاريخية الموجودة بمكتبة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، تعتبر من التراث التاريخي البالغ الأهمية لما تتضمنه من معلومات وحقائق جديدة ، لم ترد في كثير من المصادر الروائية التي كتبها المؤرخون سواء في العصر الوسيط أو العهد العثماني في مصر .

وهذه المجموعة من الوثائق التي يحتفظ بها الدير — ضمن كنوزه ومخلفاته الأثرية المختلفة — ظلت مهملة لمدة طويلة ، حتى تنبه إليها عدد من العلماء في مصر والخارج في السنوات الأخيرة ، فاصبحت موضع عناية رهبان الدير ، فضلا عن اهتمام كثير من المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية والفنون[1] ، وفي مقدمتهم — بصفة خاصة — قلة من الباحثين في علم الدبلوماتيك في جميع انحاء العالم .

* * *

وتحتل الوثائق الفقهية أو الحجج الشرعية Deeds بين مجموعة الوثائق العربية التي

---

(١) Atiya, A. S., The Arabic Treasures of the convent of Mt. Sinai (Proceedings of the Egyptian Society of Historical Studies vol.II.) pp. 5 — 26.
أحمد محمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء (المجلة التاريخية المصرية مجلد ٥ سنة ١٩٥٦) ص ١٠٥ — ١٢٤ .
د . سامي شنوده : الصور المقدسة بدير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ١٤ سنة ١٩٦٠) ص ١٩١ — ٢٠٠ .

يبلغ عددها ١٠٧٢ وثيقة [١] مكانا مرموقا فى نظر الوثائقيين من حيث عددها ، وأهميتها بالنسبة لدراسة التاريخ وخاصة تاريخ القانون ، هذا بالاضافة إلى أن جل ما نشر — من الوثائق العربية بدير سانت كاترين — فى مصر أو خارجها هى عبارة عن عهود أو مراسيم Decrees من العصور الوسطى أو فرمانات Firmans وأوامر إدارية Administrative orders من العهد العثمانى [٢] .

ومن ثم فان القيام على دراسة ونشر وتحقيق الوثائق الدبلوماتية — وأعنى بالذات الوثائق القانونية الخاصة — باعتبارها موضوعا أصيلا وأساسيا فى علم الوثائق — يعتبر من الأعمال الانشائية فى ميدان الدراسات الوثائقية العربية التى لم تحظ بعناية كبيرة بعد فى مصر والعالم العربى .

* * *

وبعد — فهذا البحث يتضمن ثلاث وثائق فقهية جديدة من مجموعة الوثائق العربية بدير سانت كاترين — وكلها ترجع إلى العصر الوسيط من عهد المماليك الجراكسة فى القرن التاسع الهجرى ، وهى فيما أعتقد تنشر اليوم لأول مرة .

(١) د . مراد كامل : فهرست مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ادارة احياء التراث العربى) جزءان القاهرة ١٩٥١

Atiya, A. S.,The Arabic Manuscripts of Mount Sinai, Publications of the A. F. S. M. Beltimore 1955.

(٢) Hans Ernst : Die Mamlukichen Sultansurkunden des sinai-Klosters, weisbaden 1960.

د. جوزيف نسيم : دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد ١٨ سنة ١٩٦٤) ص ١٧٩ — ٢٠٨ .

د. محمد محمود السروجى : دير سانت كاترين — دراسة فى تاريخه الحديث. (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد ١٨ سنة ١٩٦٤) ص ١١٧ — ١٥٥ .

الوثيقة الأولى

رقم الوثيقة : ٢٧٧

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : بيع

المتصرف فيه : نصف دار ببندر الطور

المتصرف : (ا) المشترى : المعلم سالم بن بشارة بن عامر النصرانى الملكى المعروف بابن عوينه المتسبب ببندر الطور .

(ب) البائع : المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف النصرانى الملكى المعروف بابن الحصين المقيم ببند الطور .

تاريخ الوثيقة : ٢ جماد آخر ٨٦٧ هـ

أبعاد الوثيقة : ٢٧٫٥ × ٢٦ سم

مادة الكتابة : ورق

١ — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على جميع الانبيا والمرسلين [١]

٢ — اشترى [٢] المعلم سالم بن بشاره بن عامر النصرانى الملكى المعروف بابى عوينه المتسبب ببندر الطور [٣] المبارك بماله لنفسه من المعلم موسى بن نصر الله

٣ — بن يوسف النصرانى الملكى المعروف بابن الحصين المقيم ببندر الطور المبارك جميع الحصه التى مبلغها النصف اثنى عشر سهماً من اصل اربعة وعشرين

٤ — سهماً شايعا [٤] ذلك فى جميع [٥] الدار الكاينة ببندر الطور المبارك المعروفة قديماً بدار بن كامل الكيال فى الغلال [٦] المشتمله على باب

٥ — مربع [٧] يدخل منه الى ساحه بها مخزنين مسقفان بالخشب النخل والقصب الفارسى على كل منهما باب خشب مربع الجميع مبنيين

٦ — بالطوب اللبن محيط بذلك ولذلك منافع ومرافق وحقوق [٨] وحدود الجارى ذلك بيد البايع المذكور وملكه وتصرفه ما هو ستة اسهم من اصل

٧ — اربعة وعشرين سهماً من الدار المذكورة اعلاه منتقل اليه بالارث الشرعى من قبل والده نصر الله الهالك قبل تاريخه وما هو ستة اسهم من اصل

٨ — اربعة وعشرين سهماً من الدار المذكورة بقية الحصة المذكورة منتقل اليه بالشرا الشرعى واحضر من يده كتاب [٩] ورق بلدى [١٠] مشترا يدل

٩ — على صحة ملكه لذلك وخصم منها بذلك ما ينبغى خصمه بفصل موافق لتاريخه ولشهوده وتسلمها البايع المذكور بمعاينه شهوده ولذلك

١٠ — حدود اربعة الحد القبلى ينتهى [١١] الى دار حلاوه العبياتى والحد البحرى ينتهى الى ارض خالد بن يوسف السليمانى والى ارض احمد بن

١١ — ابو راجح السليمانى والحد الشرقى ينتهى الى ملك سالم بن السمين النصرانى الملكى المعروف الان بملك الدين والحد الغربى ينتهى

١٢ — الى الطريق المسلوك وفيه الباب بحد ذلك كله وحدوده وحقوقه وعامره ودامره وكل حق للحصة المذكورة داخل فيها وخارج

١٣— عنها وما يعرف بها وينسب اليها وما استجد بها من بنا وغير ذلك المعلوم ذلك
جميعه عندها العلم الشرعى النافى للجهاله [١٢] شرا

١٤— صحيحا شرعيا [١٣] بثمن [١٤] جملته من الذهب[١٥] الاشرفى والظاهرى[١٦]
الطيب الوازن الخالص من الغش [١٧] المتعامل به يوميذ بالديار المصرية

١٥— عشرون دينارا ذهبا نصف ذلك عشرة دنانير ذهبا زنة كل دينار منها بصنج
الفضه درهم وقيراطان [١٨] الجميع على حكم الحلول مقبوضا

١٦— بيد البايع المذكور بمعاينة شهوده وباعترافه [١٩] بذلك لشهوده ولم
يتاخر له من ذلك شى قل ولا جل واعترف المشترى المذكور فيه

١٧— بتسلم [٢٠] جميع ما اشتراه فيه لنفسه تسلما شرعيا بعد النظر
والمعرفة والمعاقدة الشرعية والتقليب[٢١] الشرعى والاحاطة بذلك

كتب ذلك ببندر الطور المبارك

١٨— علما وخبرا نافيين للجهالة واسقط [٢٢] كل منهما حقه من الغبن فى ذلك
والدعوى به الاسقاط الشرعى وضمن البايع المذكور فى

١٩— ذمته وماله درك صحة المبيع فى الحصة المذكورة للمشترى المذكور الضمان
الشرعى بالاذن الشرعى واقرانه ملى بما ضمنه

٢٠— قادر عليه عارف بمعنى الضمان والمضمون له وما يترتب عليه شرعا ووكلا فى
ثبوت ذلك وسوال الاشهاد وطلب

٢١— الحكم وابدا الدافع والمطعن ونفيه التوكيل الشرعى [٢٣] وبه شهد بتاريخ
ثانى شهر جمادى الاخرة سنة سبع وستين وثمان مايه [٢٤]

٢٢ـ شهد عليهما
٢٣ـ بما نسب اليهما فيه فى تاريخه
٢٤ـ و كتبه(٢٥) عبد الله بن
احمد بن محمد
٢٥ـ الزواعى الخطيب بجامع
الطور
٢٦ـ

شهد عليهما بما نسب
اليهما فيه فى تاريخه
و كتب عبد الكريم
ابن على المعايدى

شهد عليهما بما نسب
اليهما فيه فى تاريخه
و كتب محمد ابن عمر ابن احمد
الاطفيحى عفا الله عنهم

شهد عليهما بما نسب اليهما
فيه فى تاريخه و كتبه ابراهيم
من ابى بكر الشهير بالقويضى
المنسوب الى فيه صحيح على
ما نص وشرح اعلاه
و كتبه موسى بن نصر الله (٢٦)

الوثيقة الثانية

رقم الوثيقة : ٢٨٥

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : اشهاد على وقف

المتصرف فيه : جميع الدار القائمة البناء الكائنة ببندر الطور

المتصرف : الواقف غنيم بن سالم بن الياس النصرانى الملكى الشوبكى

تاريخ الوثيقة : ١١ ربيع آخر ٨٨٢هـ

ابعاد الوثيقة : ٣٧ × ٥ر٢٧ سم

مادة الكتابة : ورق

اللهم صل على اشرف الخلايق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

١ — بسم الله الرحمن الرحيم

٢ — حضر الى شهوده يوم تاريخه كل من الحضرة السامية خليل بن المعلم بدر بن ظريف والحضرة خلف بن القسيس مخلوف بن صدقة

٣ — والمعلم يوسف بن نصر الله بن يوسف والحضرة خليل بن ابرهيم بن سابا النصارى الملكية المقيمين يوميذ ببندر الطور المعمور وهم معروفون (٣٨) واشهد

٤ — عليهم شهوده اشهادا شرعيا معتبرا مرضيا من غير اكراه ولا اجبار (٣٩) ان غنيم بن سالم بن الياس النصرانى الملكى الشوبكى ببندر الطور المعمور

٥ — وقف وحبس (٣٠) وابد وسبل وحرم وتصدق جميع الدار القايمة البنا الكاينة بالطور المعمور بجميع حقوقها

٦ — ومعالمها ومرافقها وما يعرف بها وينسب اليها علوا وسفلا (٣١) ولها حدود اربعة القبلى الى دار بيد غنيم الواقف المذكور والشرقى

٧ — الى الشارع وفيه الباب والبحرى الى دار تعرف بسالم بن السمين والغربى الى بيت سالم ابو عوينه النصرانى (٣٢) بحد ذلك

٨ — وحدوده فى سنه خمس وخمسين وثمانماية (٣٣) المعلوم عنده العلم الشرعى على مصالح دير طور سينا (٣٤) وقفا صحيحا شرعيا لا يباع ولا

٩ ـــ يوهب ولا يرهن ولا يتناقل به بطريق من الطرق ولا بسبب من الاسـباب ولا بوجه من الوجوه المخالفة للشرع قايما على

١٠ـــ اصوله فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم (٣٥) ووقع اجر هذا للواقف المذكور على الله سبحانه وتعالى يوم

١١ـــ يجزى المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين فمن عدل عن ذلك فالله طليبه وحسيبه ومواخذه بعمله ومجازيه بفعله ومن

١٢ـــ اعان على امضايه ثبت الله مضجعه ولقى الله وهو عليه راض غير غضبان عليه (٣٦) لقوله تعالى ليجزى الذين اساوا بما عملوا

١٣ـــ ويجزى الذين احسنوا بالحسنى (٣٧) ووقع الاشـهاد عليهم بذلك فى حادى عشر شهر ربيع الاخرة المبارك سنه اثنين وثمانين وثمانمايه وحسبنا الله ونعم الوكيل (٣٨).

كتبه محمد بن محمد بن عبد... الخطيب
عـ نسب الرحم فيه
شهد على المذكور بن

١٤—	شهدت على المذكورين	المنسوب الى فيه صحيح	المنموب الى فيه صحيح	المنسوب الى فيه صحيح	شهد على المذكورين فيه
١٥—	كتبه على بن على الغزى الحنفى	وكتبه خليل بن بدر ابن ظريف	وكتبه خلف بن القسيس	وكتبه يوسف بن نصر الله	ابراهيم بن محمد الحسينى
١٦—		المنسوب الى فيه صحيح			
١٧—		كتبه خليل بن ابراهيم بن سابا			

الوثيقة الثالثة

(١) الوثيقة الام :

رقم الوثيقة : ٣٠٦

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : بيع

المتصرف فيه : حانوت ومخزن ببندر الطور

المتصرف : (١) المشترى : خليل بن يوسف بن نصير النصرانى الملكى عرف بابن الحداد

(ب) بائع : سلمان بن عيسى بن جوده النصرانى الملكى

تاريخ الوثيقة : ٢٧ جماد آخر ٨٦٥ هـ

أبعاد الوثيقة : ١٢٢٫٥ × ٣٨ سم

مادة الكتابة : رق

(ب) الوثيقة الهامشية :

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : بيع

المتصرف فيه : نفس العين المذكورة فى الوثيقه الأم

المتصرف : (١) المشترى : القسيس مقارى بن مسلم بن شبرى النصرانى الملكى

(ب) البائع : خليل بن يوسف بن نصير النصرانى الملكى عرف بابن الحداد وهو المشترى فى الوثيقة الأم .

تاريخ الوثيقة : ٢٦ جماد آخر سنة ٨٩٢ هـ

(١) الوثيقة الأم :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم   اللهم صلى على جميع الانبيا والمرسلين

٢ — اشترى خليل بن يوسف بن نصير النصرانى الملكى عرف بابن الحداد
وهو معروف بماله لنفسه من سلمان بن عيسى بن جودة

٣ — النصرانى الملكى عرف بجدة جميع الحانوت والمخزن الاتى ذكر ذلك
ووصفه وتحديده فية الجارى ذلك بيد البايع

٤ — المذكور فيه وملكه وتصرفه واحضر من يده مكتوب رق[٣٩] مؤرخ باطنه[٤٠]
بالتاسع من شهر تاريخه يشهد له بذلك وخصم

٥ — المذكور فيه بقضية هذا التبايع المذكور فيه فى تاريخه بشهادة شهوده
وهذه الحانوت والمخزن المبيعان فيه ببندر

٦ — الطور المبارك ومن صفتهما على ما دل [عليه[٤١] باطن المكتوب المذكور فيه
وهو ان الحانوت المذكورة تشتمل على مسطبه[٤٢] وباب يغلق عليه

٧ — زوجا باب ويحيط بذلك حدود اربعة القبلى الى ملك عبد الله بن حلاوة[٤٣]
والبحرى الى الطريق وفيه باب

٨ — الحانوت المذكورة والشرقى الى حانوت محمد الحريرى والغربى الى المخزن
المذكور اعلاه ويشتمل المخزن المذكور فيه على باب

٩ — مسقف غشيما ويحيط بذلك حدود اربعة القبلى الى مخزن سرور والبحرى
الى دكان الرهبان ودكان

١٠ — محمد حلاوة والشرقى الى الشارع وفيه الباب والغربى الى الدكان المذكورة
فيه بحد كل من ذلك وحدوده

١١— رحقوقه وما يعرف به وينسب اليه المعلوم ذلك عند المتبايعين
المذكورين اعلاه العلم الشرعى النافى للجهاله اشترا

١٢— شرعيا تاما بما مبلغه عن ذلك من الذهب الظاهرى والاشرفى الجيد
المتعامل به يوميذ بالديار المصرية حماها الله تعالى

١٣— اربعون دينارا نصفها عشرون دينارا الجميع على حكم الحلول اقر
البايع المذكور فيه بقبض جميع الثمن المعين فيه على

١٤— التمام والكمال ولم يتاخر له بسبب ذلك مطالبة واعترف المشترى المذكور
فيه بتسلم ما ابتاعه فيه تسلما شرعيا بعد النظر

١٥— والمعرفة والتخلية (٤٤) وصدر بين المتبايعين المذكورين اعلاه فى ذلك معاقدة
شرعيه بالايجاب والقبول (٤٥) وتصادقا على ذلك

١٦— التصادق الشرعى ووكلا فى ثبوت ذلك وطلب الحكم به التوكيل الشرعى
وهما فى صحة وسلامة وطوع واختيار (٤٦) فى اليوم

١٧— السابع والعشرين فى جمادى الاخرة سنة خمس وستين وثمانمايه
حسبنا الله ونعم الوكيل

١٨— شهد عليهما بذلك شهد عليهما بذلك شهد عليهما بذلك

١٩— عبد الرحمن احمد الحسامى محمد بن على المنوفى عمر بن حسن النووى

(ب) الوثيقة الهامشية :

١ — الحمد لله رب العالمين ن [٤٧]

٢ — الحمد لله وحده

٣ — جرى ذلك [٤٨]

٤ — بمجلس الحكم العزيز الشافعي بخط وكالة قوصون [٤٩]

٥ — بين يدى سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ

٦ — الامام العالم العلامة سراج الدين شرف العلمآ

٧ — اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى حفص عمر النووى [٥٠]

٨ — الشافعى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية

٩ — ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه اشترى

١٠ — القسيس مقارى بن مسلم بن شبرى النصرانى الملكى المعروف باسمه

١١ — وهو معروف بما له لنفسه من خليل المشترى المذكور قرينه

١٢ — وهو معروف جميع الحانوت والمخزن الموصوف

١٣ — كذلك المحدود قرينه ويستغنى بوصف ذلك وتحديده

١٤ — قرينه عن الاعادة ها هنا المعلوم ذلك عند المتبايعين

١٥ — المذكورين اعلاه العلم الشرعى النافى للجهالة اشترى

١٦ — صحيحا شرعيا بثمن جملته من الذهب الموصوف قرينه

١٧ — اربعون دينارا نصف ذلك عشرون دينارا

١٨ — الجميع على حكم الحلول اقر البايع المذكور فيه

١٩ — بقبض جميع الثمن المعين فيه على التمام

٢٠ — والكمال ولم يتاخر له بسبب ذلك مطالبة واعترف

٢١ — المشترى المذكور فيه بتسلم ما ابتاعه فيه تسلما شرعيا

٢٢ — بالتخلية الشرعية بعد النظر والمعرفة والتقليب الشرعى

٢٣ — والمعاقدة الشرعية بالايجاب والقبول الشرعيين

٢٤ — وتصادقا على ذلك التصادق الشرعى ولما تكامل ذلك

٢٥ — وتم الاشهاد به عليهما وهما فى صحة وسلامة وطوع واختيار

٢٦ — حكم[٥١] سيدنا الحاكم المشار اليه اعلاه

٢٧ — ادام الله تعالى شرفه وعلاه لكل منهما على الاخر بموجب ما اشهد به على نفسه اعلاه على ما نص وشرح اعلاه حكما صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسيولا

٢٨ — فى ذلك مستوفيا شرايطة الشرعية[٥٢] واشهد على نفسه[٥٣] الكريمة بذلك فى اليوم المبارك السادس والعشرين من جمدى الاخرة سنة اثنين وتسعين وثمانى مايه وحسبنا الله ونعم الوكيل

٢٩ — شهد عليهم[٥٤] بذلك

٣٠ — محمد بن محمد بن عمر النووى[٥٥]

شهد عليهم بذلك

محمد بن عمر النووى

التعليقات العلمية

١ ــ هذه هى افتتاحية الوثيقــة ، وقد وردت ــ بعدالبسملة ــ الصــلاة على جميع الأنبياء والمرسلين ، وهى مناسبة فى هذه الوثيقة حيث أن المتعاقدين (البائع والمشترى) من النصارى ، ولم ترد الصلاة على النبى محمد فقط كمــا فى الوثيقة رقم ٢٥٨ .

وقــد جاءت البســملة وتوابعهــا فى ســـطر مســـتقل ، وعلى ذلك درج كتاب بعض الواثائق القانونية الخاصة بالنصــارى فى مدينة الطور . أنظر الوثيقة رقم ٣٠٦ .

وعن البسملة وتوابعها أنظر القلقشندى: صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢١٩ــ٢٢٩ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « البسملة » .

٢ ــ ورد الفعــل القانونى الدال على موضــوع التصرف فى بداية الوثيقة بصيغة الماضى ، لأنه أدل على انشاء العقد وتكوينه ، وهذه الصيغة دليل أكيــد على تمام الارادة . ابن رشد : بداية المجتهد جـ ٢ ص ١٣٩ .

٣ ــ كانت مدينة الطور فى تلك الآونة وحتى اكتشاف طــريق رأس الرجاء الصــالح ميناء صالحا لاســتقبال السفن ، ويظهر أن المماليك قد بنوا بها قلعة للحراسة وديوانا (جمرك) لتحصيل الضرائب من القوافل البحــرية التجارية . وكانت مينــاء الطور ترتبط بعدة طــرق تجارية بكل من جدة والفرما والقلزم والقاهرة بريا وبحريا Enc. Isl. art. AL Tur.

ولا شك أن ميناء الطــور قد احتلت المكانة التجــارية لميناء عيــذاب بعــد سنة ١٣٧٨م ــ بسبب اضمحلال شأنها ــ مما جعل بندر الطور ميناء تجاريا هاما.
Heyd : Histoire du Commerce du levant au moyen ages. T. 2. p. 444.

٤ ــ المبيع أو المحل هو النصف مشاعا من جميع الدار ببندر الطور ، فالحصة اذن شائعة فى كل المال (جميــع الدار) ولا تتركز فى جانب منها بالذات ، وهــذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المفرزة ؛ والشىء المملوك فى الشيوع لا يملكه الشركاء مجتمعين ، بل يملك كل شريك أو مشتاع Copropriétaire حصة فيه ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المشتركة .

د. أنور سلطان : العقود المسماه ص ٤١٢ .

ومن المعروف أن المالك فى الشيوع له أن يتصرف فى حصته الشائعة بكافة أنواع التصرفات القانونية ومنها البيع ، دون حاجة الى موافقة باقى المشتاعين ، وبحيث لا يلحق الضرر بهم ٠

وهذا البيع صحيح جائز لأن المالك يبيع ما يملك ، ويحل المشترى محله ويصبح مالكا على الشيوع بنسبة الجزء الذى اشتراه فقط ٠

د٠ محمد كامل مرسى : العقود المسماه جـ ٦ (عقد البيع) ص ٥١٢ ــ ٥١٦ وما بعدها ٠

أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ ٠

٥ ــ لا زالة الوهم بقدر الامكان احتياطا ومنعا لما عساه يحصل من النزاع بين المتعاقدين أو غيرهم ، تكتب فى وثيقة البيع كلمة « جميع » قبل لفظ الدار أو الشىء المبيع ٠

قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٢

٦ ــ هذه اشارة الى حرفة أحد سكان بندر الطور وهى « كيل الغلال » ، وكانت قوافل السفن التجارية تصل الى ميناء الطور من الشرق بأحمال البهار والتوابل والفلفل والقرفة وغيرها مما تغله بلاد الهند والشرق ٠

٧ ــ الباب المربع فى مصطلح رجال المعمار فى ذلك العصر ، هو الباب ذو العتب المستقيم ، أى ليس مقنطرا ٠

٨ ــ المنافع والمرافق والحقوق هى ما تبع للمبيع ولا بد له منه ، ولا يقصد الا لأجله كالطريق والشرب للأرض ، وحقوق الارتفاق وهى حق الشرب ويتبعه حق المجرى ، وحق المسيل وحق الجوار ٠

ولا شك أن مثل هذه العبارة تدل على أن المحرر أو الكاتب للوثيقة كان يحترز فى كتابة عقد البيع عن ذكر ما يترتب عليه فساد التصرف الذى كتبت الوثيقة به ٠

الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٦ ص ١٨٨ وما بعدها ٠ السيواسى : فتح القدير جـ ٥ ص ٥٠٥ ٠

الزيلعي : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٤ ص ٩ وما بعدها .

ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار جـ ٤ ص ٣٥ .

قراعة : نفس المرجع ص ٢٤ ـ ٢٥ . مجموعة يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٧١ ـ ١٨٥ .

٩ ـ يقصد بذلك أن البائع يملك الشيء المبيع ، وأنه جار بيده وملكه وتصرفه حال صدور البيع ، بدليل أنه أحضر كتاب أو مكتوب ذلك ـ مستند الملكية الشرعي ـ ومن ثم فتصرف البائع صحيح ، لأنه تصرف فيما يملك وقت البيع ، ولأنه لنفاذ البيع يجب أن يكون البائع مالكا حتى يمكن نقل ملكية المبيع الى المشترى ، ولأن بيع ما ليس مملوكا للبائع لا ينعقد .

السنهوري : البيع ص ٢٦٨ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ١٦٥ ، ١٦٧ .

هذا وقد انتقلت الى البائع ملكية المبيع وقدره نصف الدار (١٢ سهما) بطريقتين :

أولهما : بالارث الشرعي (ستة أسهم) عن والده نصر الله المتوفى .

ثانيهما : بالشراء الشرعي (ستة أسهم) بعقد بيع Titre de Vente ، ولأن البيع أحد أسباب الملك التام .

ولا شك أن البائع قدم سند الملكية Titre de propriété كدليل مادي Preuve matérielle على حقه في ملكية المبيع الذي تصرف فيه بالبيع ، لا ينازعه فيه أحد حتى تاريخ البيع .

محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ١٨٥ ، ٢٠٠ .

وهذا الكتاب دليل خطي ثابت بالكتابة ، وهو مستند محرر وموثق Piéce Justificative فيما نعتقد ، ولا بد من أن يؤخذ به بعد التحقق من صحته . ويظهر أن البائع كان عليه تقديم المستندات اللازمة ـ وخاصة تلك التي تثبت ملكيته ـ للمشترى عند التعاقد ، كما هو الحال في عصرنا الحاضر .

عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ١٤١ ، السنهوري : البيع ص ٥٩١ .

١٠ ــ هذه اشارة الى احدى مواد الكتابة المستعملة فى ذلك العصر ، ويظهر أن الورق بأنواعه كان ذائع الاستعمال بدليــل ورود ذكره فى كثير من الوثائق المملوكية ، وأغلبها من دروج الورق الشامى أو الحموى الأوصال والمطوية على هيئة الملف .(roll).

والورق الشامى على نوعين : نوع يعرف بالحموى وهو دون القطع البغدادى .

ودونه فى القدر وهو المعروف بالشامى ، وقطعه دون قطع الحموى ، ودونهما فى الرتبة الورق المصرى وهو أيضا على قطعتين : القطع المنصورى وقطع العادة ــ ولعله البلدى كما ورد فى احدى الوثائق ــ والمنصورى أكبر قطعا ، وقلما يصقل وجهاه جميعا . أما العــادة فانه فيه ما يصــقل وجهاه ويسمى فى عرف الوراقين المصلوح . القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٢ ص ٤٨٧ ، جـ ٦ ص ١٩١ .
Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 24—25, 46—48, 53—56.

١١ ــ لا بد عند كتابة الوثيقة من ذكر الحدود الأربعة للعقار المتصرف فيه ، وعلى ذلك درج كتاب الوثائق الخاصة (البيع ــ الايجار ــ الوقف والاستبدال ــ والوصية ــ الهبة) فى العصر الوســيط ، وان كان قد روى عن أبى يوسف أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفى أراء أخرى بثلاثة حــدود ، الا أن زفر قال : انه لا يحصل الا بذكر الحدود الأربعة .

وهذه الوثيقة كتبت على أحوط الوجوه ، وتحرز فيها الكاتب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة حتى يكون التعريف حاصلا على جميع الأقوال .

والقول بأن حدها القبلى ينتهى الى كذا ، أفضل وأدق من القول بأن حدها القبلى كذا ، لأنه على احدى الروايتين عن أبى يوسف يدخل الحد مع المحــدود فى البيع .

ولما كان المبيع فى حالتنـــا مشاعا فانه يكتفى بتحديد الكل الذى منه هــذا الجزء ، لكونه ليس له حدود خاصة ، فجعل تحديد ما اشتمل عليه تحديدا له .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٧ ــ ١٩ ، ٢٤ .

١٢ ــ لا يعتبر المشترى راضيا رضا صحيحا الا اذا كان عالما بالمبيع علما كافيا بنفسه ، والعلم الكافى هو العلم النافى للجهالة شرعا ، فيصير العقد لازما .

أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، الزيلعى : نفس المصدر والجزء ص ٢٨ ، الكاسانى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .

ومعنى هذا أن المبيع معين تعينا نافيا للجهالة الفاحشة ، وأحكام العلم بالمبيع مأخوذة عن أحكام خيار الرؤية التى يقصد بها رفع الجهالة اليسيرة لا الجهالة الفاحشة .

محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ١٤٧ ــ ١٤٨ عن مرشد الحيران مادة ٢٠٩

ويقول الفقهاء ان الوصف يغنى عن الرؤية ، والبيع على الوصف جائز شرعا ، وليس للمشترى عند ذلك خيار الرؤية ، لأن الوصف يجعل اقرار المشترى أنه عالم بالمبيع بمثابة الرؤية . ولا شك أن المشترى يجب أن يكون عالما بالمبيع علما كافيا ــ وعلى ماجاء فى الوثيقة العلم الشرعى النافى للجهالة ــ ويعتبر العلم كافيا اذا اشتمل العقد على بيان المبيع وموقعه وأوصافه وحدوده الأساسية بيانا يمكن من تعرفه مما يجعل المبيع مميزا عن غيره ، واضحا فى ذهن المشترى ، لأن الوصف الدقيق يقوم مقام الرؤية الحقيقية . الزيلعى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٨ .

ومهما يكن من أمر فقد تحقق فى وثيقة البيع التى ندرسها الأمور التالية :

(أ) وصف المبيع مشاعا سطر ٤ ــ ٦ ، ١٠ ــ ١٢ .

(ب) اقرار المشترى بالعلم سطر ١٣ ــ ١٤ .

(جـ) الرؤية والنظر عند التسلم سطر ١٦ ــ ١٨ .

وهذا كله يجعل الوثيقة صحيحة ولازمة لاستيفائها جميع الشروط الشرعية أو القانونية الواجب توافرها والتى نص عليها الفقهاء ، وهو ما يعرف عند الوثائقيين بكمال الشكل الدبلوماتى للوثيقة La forme Diplomatique الذى لا يدع مجالا للنزاع أو الخصام مستقبلا .

قراءة : نفس المرجع ص ١٥ ــ ٣١ .

١٣ ــ لا بد أن تشتمل الوثيقة على ذكر ما يفيد صحة التصرف القانونى L'acte juridique الذى كتبت من أجله ، ونفاذه ولزومه وخلوه مما يفسده ولهذا كان أبو زيد الشروطى وبعض من بعده من أهل الشروط ، يكتبون فى وثيقة البيع ما يأتى : « شراء صحيحا باتا بتاتا لا شرط فيه ولا خيار ولا فساد ... » وكذلك كانوا يكتبون : «شراء صحيحا» لأن هذا هو الغرض ، وكتابه عبارة « شراء صحيحا شرعيا » أو « اشتراء شرعيا » فيها اقرار من المشترى بصحة البيع وملكية لبائع للمبيع . قراءة : مذكرة التوثيقات ص ٢٦ ــ ٢٧ .

١٤ ــ الثمن Le Prix ركن أساسى من أركان البيع ، وهو يميز البيع عن الهبة التى تقوم على الاعطاء دون مقابل ، واذا انعدم الثمن بطل البيع. وتسمية الثمن وتعريفه تعريفا مانعا من الجهالة عند البيع أمر لازم ، فلو حدث البيع بدون تسمية الثمن أو تعريفه كان البيع فاسدا أو باطلا .

عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ٩٠ ، قراءة : نفس المرجع ص ١٩ــ٢٠

ويلزم لتوافر ركن الثمن ، وبالتالى لقيام البيع وانعقاده ، تحقق الشروط التالين فى الثمن وهى أن يكون :

١ ــ نقديا أى مبلغا من النقود Une somme d'argent.

٢ ــ حقيقيا جديا Prix réel, serieux وليس صوريا Prix ficitif, simule

٣ ــ محددا أو مقدرا Prix determine ومعينا فى عقد البيع .

السنهورى : البيع ص ٢٦٤ ــ ٣٧٠ ، ٣٨٣ ــ ٣٩٠ وما بعدها .

محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٢٠٧ ــ ٢٦٩ ، ٢١٦ ــ ٢١٧ .

عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ٩١ ــ ٩٩ .

١٥ ــ لما كان محل الالتزام (الثمن) فى عقد البيع نقودا ، فانه يجب أن تكون معينة بنوعها ومقدارها . وفى الوثيقة نلاحظ أن الثمن مقدر بالذهب (بالدنانير الذهبية) حسب الزمان والمكان . ويظهر أن البائع قد اشترط استيفاء حقه ذهبا ، وهذا ما يسمى بشرط الذهب Clause d'or ، فيكون الثمن فى هذه

الحالة واجب الوفاء بالذهب payable en or ، لا بما يعـادل قيمة الذهب من السكة السـائدة فى ذلك العصر وهى الفلوس النحاسية ، حيث كانت القاعـدة النقدية السائدة فىعصر المماليك الجراكسة هى قاعدة النحاس copper standard وذلك لأن الذهب هو وحدة العملة الثابتة التى لها قوة الابراء غير المحدودة ، أو بسبب توفره فى بندر الطور ذلك الميناء التجارى الثرى آنذاك •

١٦ ــ الدينار الأشرفى ينسب الى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباى الدقماقى (٨٢٥ ــ ٨٤١هـ) ، وكان وزنه يتراوح بين ٣٫٣٨ ــ ٣٫٤١ جم ، وهو من أجود الدنانير التى ضربت فى العصر الجركسى •

Lavoix : Cat. de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, T. III, pp. 419—425, pl. IX.

Lane poole : Cat. of the collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, p. 269.
— Cat. of Oriental Coins in the British Museum (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 204, pl. VIII.

وقد عمل برسباى على اصلاح السكة الذهبية ، واحلال الأشرفية البرسبيهية محل الدنانير الأفرنجية المشخصة •

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٨ رقم ٣٨ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « برسباى » ، ابن اياس بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٣ ، المقريزى : السلوك (خط) جـ ١١ ص ٣٧١ ــ ٣٧٦ ، ٣٩٢ ــ ٣٩٩ ، ٤٠٤ ــ ٤٠٦ •

Gennep : Le ducat Vénitien en Egypt, p. 18.

أما الدينـار الظاهرى فينسب الى السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق (٨٤٢ ــ ٨٥٧هـ) وكان وزنه يتراوح بين ٣٫٣٧ ــ ٣٫٤٢ جم •

Lavoix : op. cit. pp. 429—440, pl. IX.
Lane poole : Cat. of the collection of arabic Coins, pp. 270—271.
— Cat. of Oriental coins (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 206, pl. VIII.

وقد سار جقمق على سياسة برسباى فى تمصير الدنانير الافلورية واصلاح السكة الذهبية • وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٢٦ ، وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص محكمة ١٠٥ •

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٧١ رقم ٢٨٧ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « جقمق » •

١٧ ــ تشترط الوثيقة أن تكون الدنانير من الذهب الطيب أو الجيد العيار ، الوازن الخــالص من الغش ، المتعامل به بالديار المصرية ؛ فى ذلك الوقت الذى غمرت فيه النقود الردئية والزغل والزيوف الأسواق المصرية ، مما أضعف الثقة فى السكة الذهبية المملوكية المنخفضة الوزن والعيار على السواء ، وحل محلها النقد الذهبى الفرنجى من الدنانير الافلورية أو الافرنتية والدوكات البندقية •

وثيقة جوهر اللالا محكمة ٨٩ ، وثيقة السيفى قرابغا أوقاف ١١٨٩ ، وثيقة الزينى خشقدم محكمة ٩٠ ، وثيقة طراباى من على باى محكمة ٢٦٥ •

ويمكننا أن نرجع فساد السكة الذهبية الچركسية ــ وزنا وعيارا ــ بصفة عامة الى قلة تدفق الذهب الأوربى وقلة انتــاج المناجم فى مصر ، ونظام المقايضة فى التجارة •

توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط (مجلة الجمعية التاريخيةم ٦ سنة ١٩٥٧) ، صبحى لبيب : التجــارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى (مجلة الجمعية التاريخية م ٤ عدد مايو ١٩٥٢) •

١٨ ــ من المعروف أن صنج السكة كانت تصنع من الزجاج حتى لا تستحيل الى زيادة أو نقصان •

أنظر د• عبد الرحمن فهمى : صنج السكة فى مجر الاسلام (القاهرة ١٩٥٧) ص ١ ــ ٦ وما بها من مصادر •

ثم ظهرت الصنج المعدنية بعد ذلك ، وكان تحقيق أوزانها عن طريق المحتسب ودار العيار ، ولعل صنج الفضة هذه التى تشير اليها الوثيقة هى الصنج الطيارة التى تعير عليها الصنج المعدنية •

الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (نشر العرينى) ص ١٩ حاشية ٥ •

وقد ورد مثل هذا النص فى كثير من الوثائق المعاصرة للوثيقة موضوع بحثنا ومنها :

وثيقة الجمالى يوسف محكمـــة ١٠٥ ، وثيقة الظاهر بيبرس محكمـــة ١٢٦ بتاريخ ٨٦٥هـ ، وثيقة محمد تغرى برمش محكمة ٢٦١ •

ومن هـــذا النص يتضح لنا أن وزن الدينار الأشرفى يعادل وزن الدينـــار الظاهرى ، فكل منهما يزن درهما وقيراطان أو درهما وثمن تقريبا بصنج الفضة أى ما يوازى ٥١ر٣ جم باعتبار وزن الدرهم ١٢ر٣ جم والقيراط أو الخـــروبة ١٩٤و• ـــ ١٩٦و• جم • د• عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع ص ٣٧ـــ ٣٩ •

١٩ ـــ اعترف البـــائع المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف النصرانى بقبض الثمن المذكور واستيفائه بتمامه وكماله من مال المشترى ، أى أن القبض قد تم بوصول الثمن اليه ، وأنه لم يتأخر له من الثمن شىء قل ولا جل • وقـــد ورد اعتراف البائع واقراره بقبض الثمن بصيغة الفعل الماضى ، وهكذا أبرأ البـــائع المشترى من الثمن المذكور فى وثيقة البيع بعد أن قبضه بيده وبشهادة الشهود وباعترافه بذلك لهم •

ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ١٩٩ وما بعـــدها ، عيسى : نفس المرجع ص ٤٦٣ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٢٥١ •

٢٠ ـــ اعترف المشترى المعلم سالم بن بشارة بن عامر النصرانى بتسلم جميع ما اشتراه تسلما شرعيا ، ومن المعروف أن العقد الملزم للجانبين ينشىء التزامات متقابلة فى ذمة كل من المتعاقدين • وفى حالتنا هذه الزمت الوثيقة (عقد البيع) البائع بنقل ملكية المبيع فى مقابل التزام المشترى بدفع الثمن • والظاهرة الجوهرية فى عقد البيع هو التقابل القائم ما بين التزامات أحـــد الطرفين والتزامات الطرف الآخر •

السنهورى : الوسيط ـــ نظرية الالتزام ص ١٥٨ •

وتسليم المبيع Delivrance الى المشترى من أهم التزامات البائع ، وهذا الالتزام فرع من التزامه بنقل ملكية المبيع ، وعقد البيع يلزم البائع بتسليم العين الى المشترى بالحالة التى كانت عليها وقت البيع وبالوصف والمقـــدار الذى عين فى العقد وبالملحقات التى تتبعها •

السنهورى : البيع ص ٥٥٦ ــ ٥٥٨ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ١٧٦ ــ ١٧٧ •

ولما كانت الغاية الأساسية من عقد البيع بالنسبة للمشترى هى نقل ملكيــة المبيــع اليــه ، فان التخلية تعتبر لازمة لصــحة التســليم • عيسى : شرح البيع ص ٤٠١ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص ١٩٠ •

والتسليم هو أن يخــلى البائع بين المبيع وبين المشــترى ، على وجه يتمكن المشترى من قبضه أو تسلمه من غير حائل ولا مانع •

الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٥ ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٤٤ ــ ٤٥ •

مرسى : العقود المسماه جـ ٦ ص ٢٢٥ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٤٥٠ •

ولا بد للمشــترى من القبض أو تســلم المبيع قبــل أن يتصرف فيه ، وهذا يؤكد وجوب التخلية وهو التزام يقوم البائع باجرائه •

السنهورى : البيع ص ٤٢٣ حاشية ١ ، ٨٤٥ •

٢١ ــ يتضح لنا من هذه الصيغة القانونية أن انتقال الملكية Transfert de la propriété من البائع الى المشترى قد تم بتسليم فعلى ، وليس تسليما صوريا أو حكميا ــ كما يرد فى كثير من الوثائق ــ بتراضى الطرفين ، أى أن التســليم فى هذه الحالة هو عمل مادى •

السنهورى : البيع ص ٥٩٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣١٦ •

والدليل على أن تسلم المبيع قد تم ماديا ، اعتراف المشترى بتسلم ما اشتراه تسلما شرعيا بعد النظر والمعرفة والتقليب الشرعى والاحــاطة بذلك كما ورد فى سطر ١٧ من الوثيقة •

٢٢ ، ٢٣ ــ هذه هى الفقرات الختامية وهى عبــارة عن صــيغ قانونيــة (بالامتناع ــ والالتزام ــ والتوثيق) تأتى بعد موضــوع التصرف الوارد فى الوثيقة ، وترمى هذه الفقرات الى تنفيذ العقد وضمان البيع ، بضــمان حقوق

معينة لما ورد فى التصرف القانونى ، واعلان الصفة الرسمية للوثيقة والاجراءات التى اتخذت فى سبيل جعلها صحيحة ونافذة ، ويتضح لنا ذلك فيما يلى :

(ا) أقر كل من الطرفين أنه ليس مغبونا ، وأسقط حقه من الغبن والدعوى به ، أى أن هذه الفقرة (فقرة امتناع) تمنع البائع والمشترى على سواء من الطعن فى الوثيقة أو اتخاذ أية وسيلة قانونية يمكن أن تبطل أو تعطل تنفيذ العقد .

(ب) ضمن البائع والتزم فى الفقرة الثانية — وهى فقرة التزام جزائية — فى ذمته وماله درك صحة المبيع للمشترى ضمانا شرعيا ، وأقر أنه عارف بما ضمنه قادر عليه . وقد لجأ المشترى الى النص على هذه الصيغة لضمان حقه .

وعن ضمان الدرك فى البيع أنظر قراءة : مذكرة التوثيقات ص ٣٥ ، ٣٦

(جـ) وآخر هذه الفقرات الختامية هى فقرة التوثيق الاثباتية التى حوت الاعلان بطرق التوثيق والاجراءات المطلوبة ، ومنها التوكيل فى ثبوت التصرف والاشهاد عليه وطلب الحكم به وابداء الدافع والمطعن ونفيه حتى تصبح الوثيقة كاملة من الناحية القانونية ، صحيحة لها قوة اثباتية لا يمكن الطعن فيها (وهى ضمانات متعلقة بالفعل القانونى) وهذه الفقرة الأخيرة تدرس مع البرتوكول الختامى عادة .

٢٤ — هذا هو تاريخ التصرف القانونى وقد ورد فى موضعه الطبيعى فى نهاية البرتوكول الختامى للوثيقة . والتاريخ لا غنية عنه لأنه يكسب الوثيقة الصحة من الناحية الزمنية ، وقد أثبت فيه اليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجرى لتتحق فائدته ، ذلك أن التفصيل فى ذكر التاريخ ضرورى لصلاحية الوثيقة وسريان مفعولها وتأكيد قيمتها كسند قانونى .

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢ .

وقد ورد فى هذه الوثيقة الخاصة (عقد البيع) ذكر المكان الذى دونت فيه — وهذا أمر نادر — وهو بندر الطور وفى ذلك تأكيد لاجتماع الشهود اذ جاء على الهامش الأيمن بين سطر ١٦ — ١٩ « كتب ذلك ببندر الطور المبارك » .

٢٥ ـ شهد فى نهاية الوثيقة أربعة شهود عدول ، من بينهم عبد الله بن أحمد ابن محمــد الزواعى الخطيب بجــامع الطور ، وصـيغ الشهادة جميعا متطابقة لفظا ومعنا مستقيمة منتظمة ونصها Témoignages uniformes « شهد عليهما بما نسب اليهما فيه فى تاريخه وكتب » •

ويبدأ نص الشهادة بلفظ «شهد» بصيغة الفعل الماضى ، لأن الشاهد شهد على ما رأى وعرف وسمع ، وهى شهادة على ما صــدر من التصرف الذى كتبت به وثيقة البيع ، وعلى طرفى العقد وهما المشترى والبائع بجميع ما نسب اليهما فى عقد البيع •

قارنة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٨ ـ ٢٩ •

بحثنا : التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٠٧ ـ ٣١٠ وما بها من مصادر •

أما كلمة «وكتبه أو وكتب» الواردة فى نهاية صيغ الشهادة فانها تدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده ، بعد أن قام بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى نطق بها ، وهذا يقطع فى الدلالة على أنه متعلم عارف بالكتابة ، ومن ناحيــة أخرى ـ كما يتضح من الدراسة الباليوجرافية لخط الشهود ـ أن الوثيقة أصل وليست صورة •

٢٦ ـ شهد البائع كذلك على ذلك بنفسه ، وكتب بخط يده « المنسوب الى فيه صحيح على ما نص وشرح أعلاه وكتبه موسى بن نصر الله » وهذه أيضا من الحالات النادرة ، ذلك أننا لم نجد فى جل الوثائق الخاصة التى أطلعنا عليها فى مختلف المحفوظات توقيعا للمتعاقدين ، ويظهر أن عقود البيع الصــادرة على يد شهود عدول أمام السلطة الدينية ـ كانت طبقا للعرف الذى كان سائدا وقتئذ ـ بغير توقيع من البائع والمشترى ، وكانت تعتبر صحيحة اذا تبين أن العقد نفذ عقب حصوله ، واستولى المشترى على المبيع • حلمى عيسى : شرح البيع ص ٣٣ •

٢٧ ـ نلاحظ فى افتتاحية هذه الوثيقة أن الكاتب قد أتبع البسملة بالصلاة على سيدنا محمــد وآله وصحبه والتــابعين ليس غير ، بالرغم من أن المتصرف الواقف ـ وبعض الشهود ـ من النصارى الملكية ، على عكس افتتاحية الوثيقة

رقم ٢٧٧ التى ورد فيها « وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين » والوثيقة رقم ٣٠٦ التى جاء فيها « اللهم صلى على جميع الأنبياء والمرسلين » .

وهناك أمثلة كثيرة فى افتتاحيات وثائق دير سانت كاترين الخاصة بالتصرفات القانونية للنصارى تدلنا على عدم الاستقرار فى كتابة توابع البسملة .

٢٨ ــ الشهود الأربعة الواردة أسماؤهم فى بداية متن الوثيقة ــ من النصارى الملكية المقيمين يومئذ ببندر الطور ــ هم شهود على الفعل القانونى (الوقف) الذى صدر عن المتصرف الواقف قبل ذلك بسبعة وعشرين عاما أى فى سنة ٨٥٥ هـ (أنظر سطر ٨) ، وهو تاريخ سابق على تاريخ التحرير المدون فى الوثيقة التى بين أيدينا ، وقد قبلت شهادتهم عند حضورهم يوم كتابة هذه الوثيقة بتاريخ ١١ ربيع آخر ٨٨٢ هـ لأنهم معرفون ، وذلك بعد أن قام العدول بتزكيهم عند الشهادة على هذا التصرف القانونى ، لأن القاضى يستعين بالعدول فى مجلس الحكم على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده ، ولا يحكم الا بالبينة المزكاة « وأشهد عليهم شهوده اشهادا شرعيا ... » .

وهؤلاء الشهود الأربعة من النصارى ، قاموا بالشهادة فى نهاية الوثيقة بما نصه : « المنسوب الى فيه صحيح وكتبه » ثم وقع كل منهم بخط يده .

أما العدول من المسلمين فهم ثلاثة ، وقد شهدوا على الشهود الأربعة المذكورين . بما نسب اليهم ــ أعنى شهادتهم على المتصرف الواقف غنيم بن سالم ابن الياس النصرانى الملكى الشوبكى بندر الطور فيما تصرف فيه .

وعن العدالة والعدول انظر المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦ حاشية ٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ ــ ٣٤٩ السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ٦٣ ــ ٦٤ .

عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٣١ ــ ١٣٥ ، اسدرستم : مصطلح التاريخ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ . ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢ ــ ٣١٣ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٦ .

وربما كان الداعى الى صدور هذا الاشهاد على الوقف سبب محتمل من الأسباب التالية :

(ا) أن يكون الواقف قد رجع عن وقفه أو أخل به بطريقة ما ، مما جعل هؤلاء الشهود الأربعة النصارى ــ الذين ربما كانوا من المنتفعين أو المستحقين فى ريع الوقف ــ حيث أن الواقف وقف ما وقف على مصالح دير طور سيناء ــ يلجأون الى استخراج هذا الاشهاد الشرعى الخاص بالوقف .

(ب) أن يكون الواقف قد طلب استخراج هذا الاشهاد بعد أن فقد وثيقة الوقف ــ ان كانت قد كتبت فى سنة ٨٥٥هـ ــ وهو أمر لم تشير اليه الوثيقة التى بين أيدينا من قريب أو بعيد كما لاحظنا فى بعض الوثائق بالأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف .

(جـ) أن يكون الواقف قد تصرف بالوقف أمام الشهود الأربعة فى سنة٨٥٥هـ ولم يدون أو يكتب ذلك فى وثيقة أو مستند شرعى . ومن المعروف أن الوقف تصرف قانونى يصدر من جانب واحد وفيه اسقاط للملكية ، والشكلية ركن واضح فيه ، بمعنى أنه لا يصح الا اذا صدر به اشهاد شرعى (محرر رسمى Acte authentique) لدى القاضى .

مرسى : شرح القانون المدنى الجديد ــ شهر التصرفات القانونية ــ العقد كسبب لكسب الملكية ص ٧٨ ، ١١٣ ــ ١١٤ .

٢٩ ــ هذه الصيغة القانونية وما فى معناها ، اصطلح عليها كتاب البرديات القانونية والوثائق العربية فى العصور الوسطى للدلالة على صحة التصرف القانونى .

انظر جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ١ الوثائق الفقهية ــ بيوع رقم ٥٣ ــ ٧٢ ص ١٢٩ وما بعدها .

أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧) ص ٤٩٢ ــ ٤٩٧ .

زيد : مباحث الوقف ص ١٧ ــ ١٨ .

ولا بد من النص صراحة فى الوثيقة على أن المتصرف كامل الأهلية (أهلية الوجوب وأهلية الأداء) .

أحمد ابراهيم : الأهلية وعوارضها ص ٢ ــ ٤٤ ، السنهورى : الوسيط ص ٢٦٦ ــ ٢٦٨

عبد الحى حجازى : النظرية العامة للالتزام ص ٣٧ ، محمد سامى مدكور : نظرية الحق ص ٨١ .

وأنه قد صدر منه التصرف فى حال صحة بدنه وكمال عقله وانه غير مجبر ولا مكره ولا مضطهد بل حصل بطوعه واختياره ورضاه ، وانه لا علم به من مرض ولا غيره تمنع صحة ونفاذ التصرف .

قماعه : مذكرة التوثيقات ص ٢٧ ــ ٢٨ .

٣٠ ــ وقف وحبس كلمتان مترادفتان بمعنى واحد ، غير أن الأولى شاع استعمالها فى وثائق المشرق العربى والثانية فى وثائق الغرب الاسلامى .

وهذا اللفظ هو الدال على موضوع الوثيقة (الفعل القانونى) .

وعن الوقف انظر عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عهد الغورى (تحت الطبع) حيث تجد دراسة وافية لموضوع الوقف ومصادره .

٣١ ــ ذكر فى وقف الدار علوها وسفلها ازالة للوهم ، فربما يكون السفل أو العلو ملك لرجل غير الواقف ، وقد يكون تحت الدار سرداب ملك لغيره لأنه اذا لم يذكر السفل والعلو فى الوثيقة (التصرف) ثم ظهر أنهما أو أحدهما ملك غير الواقف لأدى هذا الى فساد التصرف . ومنعا لهذا الوهم يكتب العلو والسفل فى الوثيقة ، وكذلك يراعى الشرط المذكور فى كل وثيقة تكتب بتصرف من التصرفات .

قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٢ .

٣٢ ــ سالم أبو عوينه هذا هو المشترى فى الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ ، وهو المعلم سالم بن بشاره بن عامر النصرانى الملكى المعروف بأبى عوينه المتسبب ببندر الطور ــ انظر الوثيقة رقم ٢٧٧ سطر ٢ .

٣٣ ــ هذا هو تاريخ التصرف الذى وقف فيه الواقف غنيم بن سالم بن الياس النصرانى الملكى الشوبكى ، الدار ببندر الطور ، وهو سابق على تاريخ كتابة هذه الوثيقة التى بين أيدينا • انظر التحقيق رقم ٢٨ فى هذه التعليقات •

٣٤ ــ درج الناس فى العصر الوسيط ــ وهو عصر دين ــ المسيحيون منهم والمسلمون على السواء ، على وقف أملاكهم أو بعضها على الرهبان فى الأديرة ، والصوفية فى الخوانق • والواقف غنيم بن سالم بن الياس لنصرانى الملكى ــ فى هذه الوثيقة ــ وقف الدار المتصرف فيها على مصالح دير طور سيناء ، لتيسير سبل العيش للرهبان الناسكين وللمترددين على الدير من الزوار المسيحين والمسلمين لكى يتمكنوا من الاقامة الآمنة فى هذه البقاع النائية •

٣٥ ــ قرآن كريم ــ سورة البقرة (مدنية) آية ١٨١

٣٦ ــ هذه الصيغة الجزائية وأمثالها تواتر كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى على كتابتها ضمن الفقرات الختامية فى وثائق الوقف بالذات ، وهى ذات أسلوب دينى مناسب لروح العصر ، وقد وردت فيها صيغ للنهى والعقاب وأخرى للترغيب والثواب (سطر ١١ ، ١٢) •

٣٧ ــ قرآن كريم ــ سورة النجم (مكية) آية ٣١ •

٣٨ ــ الحسبلة هنا بمثابة الدعاء الختامى فى نهاية الوثيقة ، وقبل شهادة الشهود والعدول مباشرة • وهناك اختلاف فى صيغ الدعاء الختامى فى الوثائق ، وان اتفقت جميعا فى ذكر الحسبلة التى ترد غالبا بلفظ الجمع « حسبنا » القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ •

وقد ترد الحسبلة « وحسبنا الله ونعم الوكيل » بمفردها ، وقد يسبقها أحيانا أو يلحق بها الصلاة على النبى محمد وآله وصحبه •

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧ •

٣٩ ــ هذه اشارة ثانية الى مادة أخرى من مواد الكتابة وهى الرق ، كما ان الوثيقة التى بين أيدينا مكتوبة على دروج من الرقوق المخيطة كذلك ، ويظهر ذلك بوضوح فى اللوحتين رقم ٣ ، ٤ فيما بين السطرين ١٢ ، ١٣ • وعن الرق

كمـادة للكتـابة انظر القلقشـندى : صـبح الاعشى جـ ٢ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٨ ،
ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ • ابن النديم : الفهرست ص ٣١
Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 24—25,

٤٠ ـ لفظ « باطن » فى مصـطلح الوثائق العربية يقصـد به وجه الوثيقة Recto ، أما لفظ « ظاهر » فيعنى Verso •

٤١ ـ ما بين الحـاصرتين سـقطة من كاتب الوثيقـة ، وقد أوردهـا بين السـطرين ٥ ، ٦ فوق الكلمة السابقة عليها •

٤٢ ـ كان لبعض الحوانيت فى العصور الوسطى مصـاطب أمامها ، وتبعا لذلك كانت أرضية الحانوت ترتفع عن مستوى أرضـية الشارع بمقـدار متر تقريبا ، وتمتد خارج باب الحانوت نفسه كمصطبة لعرض البضائع عليها ، وخاصة فى الشوارع التجارية الرئيسية والأسواق فى المدن ابان العصر الوسيط فى القاهرة وغيرها •

الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (نشر العرينى) ص ١١ حاشية ٢ • وقد تكون المصـطبة عبارة عن عدة مجـاديل من الحجر أو الرخام محمولة على كباش أو حرمدانات بارزة ، أو قد تبنى بالآجر أو بالحجر وتبلط •

وثيقة فرج بن برقوق محكمة ٦٦ ، وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٢٦ ، وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ٧٦٧ •

وكان المحتسب براعى نظافة المصـاطب ، ويأمر بعـدم خروجها عن الحدود وتنظيم الشوارع حتى لا تضر بالمار أو الجار على قول بعض الوثائق • وقد هدمت كثير من هذه المصاحب أيام الحملة الفرنسية على مصر •

الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦١ •

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية جـ ٢ ص ١٤٠ •

٤٣ ـ لعل عبد الله بن حلاوة هذا هو ابن حلاوة العبياتى الوارد اسـمه فى الوثيقة رقم ٢٧٧ سطر ١٠ •

٤٤ ـ انظر التحقيق رقم ٢٠ فى بحثنا هذا •

٤٥ ــ لكى يتم العقد ويكون معتبرا صحيحا شرعيا لازما مرعيا ، يجب أن تتحقق أركانه وشروطه التى لابد منها ، ومن هــذه الشروط ما يتعلق بالأركان نفسها (الايجــاب والقبول) ومنها ما يتعلق بموضــوع العقد ، ومنها ما يتعلق بالعاقد ، وهكذا تكون المعاقدة الشرعية •

والعقد هو ربط بين كلامين أو عبارتين صادر كل منهما عن طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرفى عقد البيع تعتبر ايجابا ، وأن تسميه أحداهما ايجابا والأخرى قبولا ليست الا تسمية اصطلاحية فقط لا واقعية • أحمــد أبو فتح : المعاملات ص ٢٢٨ ــ ٢٣٣ •

ولكى ينتج ركنــا العقــد وهمــا الايجــاب والقبــول أثرهما ، ويكون للعقد وجود معتبر شرعا ، يجب أن يتوافر فيهما ثلاثة شروط :

(ا) أن يكون كل منهما صــادرا من شخص مميز عاقل ، يدرك ما يقــول ويعنيه حقا ، وبهذا يكون تعبيره معبرا حقا عن ارادته •

(ب) أن يتوافق الايجــاب والقبــول على شىء واحد ، أى على محل العقد بعنيه أعنى المبيع والثمن •

(جـ) اتصال القبول بالايجاب فى مجلس العقد ان كان الطرفان حاضران معا • محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٢٥٤ ــ ٢٥٧ •

ولا شك انه يجب لتكوين عقد البيع ــ وسائر العقود ــ وهو عقد رضائى contrat consensuel حصول الرضا consentiment الصحيح المجرد عن الاكراه أو الاجبــار بين المتعاقدين ، وهو تقابل الايجاب والقبــول وتطابقهما ، ويشــترط فى الرضــا وهو ركن من أركان البيع ، أن يكون شاملا كل الشروط اللازمة لتكوين العقد • كما يجب ان يكون رضاء أحد طرفى العقد مطابقا لرضا الطرف الآخر تمام المطابقة ، وان يتصل القبول بالايجاب فى مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الايجاب offre والقبــول acceptation ، أو توافق الارادتين الصحيحتين المتطابقتين accord des Volontés ، أما كان طريق التعبــير عن الارادة ومظهره •

السنهورى : عقــد البيع ص ٤١ ــ ٤٥ ، ٥٠ ، الوســيط ــ نظرية الالتزام ص ١٧٠ ــ ١٧٢ ، ٢٠٥ ــ ٢١٧ وما بعدها ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢٥٧ •

محمــد كامل مرسى : العقود المســماة جـ ٦ (عقد البيــع) ص ٣٣ ــ ٣٧ وما بعدها •

عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ١٦ ، ٢٩ ــ ٣٠ •

أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ٧٧ ، ١١٤ ــ ١١٥ •

على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ٦٨ ــ ٧٤ ، ١٦١ •

٤٦ ــ انظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٩ وكذلك بحثنا •

ــ وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٢ حاشية ٢ •

ــ وثيقة بيع ص ١٨٦ تحقيق رقم ٤٠ •

٤٧ ــ يلاحظ وجــود حرف « ن » بعــد كلمة العالمين ، وهى علامة وقف stop sign ، وقد اصطلح كتاب الوثائق على كتابة حرف « هـ » كذلك كنوع من الاختزال فى الكتابة بمعنى « انتهى » •

Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 91-93.

٤٨ ــ هذه هى علامة القاضى الموثق سراج الدين أبو حفص عمر النووى الشافعى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، وقد كتبها بخط يده بقلم جليل •

وقد اصطلح الكتاب على الابتداء بالحمد له فى كثير مما يكتبونه ، أما القضاة الموثوق فقد كان لكل منهم صيغة معينة من الحمدلة باعتبارها علامته التى يكتبها بخطه فى سطر مستقل ، أو فى نفس سطر البسملة بقلم جليــل • وقد كان لكل قاض علامته الخاصة المميزة التى ينفرد بها دون غيره من القضاة الموثقين فى عصره ، وكان يفتتح بها الاشهاد فى ظهور الوثائق ــ غالبا ــ التى تعرض عليه لتوثيقها ، وهى ترد فى الأسجال التوثيقى الحكمى والتنفيذى على السواء •

والحمدلة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيقى (الموثق) ، كما كانت تعنى عن التوقيع والختم •

ابن الأثير : المثل السائر ص ٤٠٩ ٠

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٦ ، جـ ١٤ ص ٣٤٢ــ٣٤٩ ،
دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحمدلة » ٠

أما هذه الصيغة بالذات « الحمد لله وحده جرى ذلك » فقد لاحظنا من دراسة كثيرة من الوثائق ، أنها تكتب عادة فى بداية الوثيقة التى يرد فيها الحكم بصحة التصرف ــ أى الاسجال الحكمى التوثيقى ــ الوارد فيها فى آن واحد ، كما هو الحال فى وثيقة البيع الواردة على الهامش الأيمن من الوثيقة رقم ٣٠٦ ٠

٤٩ ــ هذه الوكالة ــ وهى فى معنى الفندق أو الخان على حد قول المقريزى ــ كان ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب ونحو ذلك ، وموضعها بالقاهرة فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء ، بناها الأمير قوصون وجعلها فندقا كبيرا الى الغاية وبدائره عدة مخازن ، وكان يعلوها رباع تشتمل على ٣٦٠ بيتا يسكنها نحو ٤٠٠٠ نفس ، وقد بدأ خرابها مع محن سنة ٨٠٦ هـ ٠

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٣ ٠

٥٠ ــ هو الشيخ عمر بن حسن بن عمر بن عبد العزيز بن عمر السراج النووى ، ثم القاهرى الشافعى ، ولد بعد سنة ٨٢٠ هـ بقرية نوى بمحافظة القليوبية ، ثم قدم القاهرة ودرس على شيوخها الفقه وأصوله والفرائض والحساب والحديث والعربية (النحو والصرف) والمنطق ، وقد تكسب بالشهادة على خير واستقامة ، ثم ولى القضاء خليفة للحكم العزيز الشافعى بالديار المصرية ــ أعنى نائبا لقاضى قضاة الشافعية ٠

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٨٠ رقم ٢٧٣ ٠

٥١ ــ الحكم بمعنى قضاء القاضى عبارة عن قطع الحاكم (القاضى) المخاصمة أو المنازعة وحسمه اياها ، والحكم فى هذه الحالة يكون ملزما أو قطعيا، لأنه حكم يصدر من القاضى لافادة لزوم الحق ، وتمكين أهل الحقوق من حقوقهم ٠

جعيط : الطريقة المرضية ص ٢١٤ ــ ٢١٦ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

قراءة : الأصول القضائية ص ٢٨١ .

كما أن الحكم لا يمكن التعرض لنقضه ، ويمتنع على أى حاكم آخر ابطاله ما دام موافقا للشرع ، لأن حكم القاضى يرفع الخلاف .

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ١ ص ٢٧ ، ١٧٤ ، جعيط : نفس المرجع ص ٢١٦ ــ ٢٢٢ ، ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

ومهما يكن من أمر فان حكم القاضى الموثق ــ فى المحكمة المملوكية فى العصر الوسيط (مجلس الشرع الشريف) ــ كان حكما قضائيا واداريا ملزما وواجب التنفيذ فى آن واحد ، لأنه لم يكن هناك فصل بين الولاية القضاية (الحكم) والادارية (التوثيق) للمحكمة آنذاك . انظر بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩١ ــ ٣٩٢ .

وجدير بالذكر أن هذه الوثيقة (عقد البيع) قد تضمنت الى جانب التصرف القانونى ، حكم القاضى الموثق (الاسجال الحكمى التوثيقى) فى آن واحد .

٥٢ ــ من المعروف أن هناك صلة قوية بين علم الوثائق والقانون ، وبين الوثائق العربية فى العصور الوسطى والشريعة الاسلامية ــ وهى الشريعة السائدة فى تلك العصور ، بدليل أن جميع المواطنون فى مصر بما فيهم النصارى كانت تصرفاتهم القانونية الخاصة كالبيع والوقف وغيرها تنظر أمام القضاء الاسلامى .

ومن ثم فان كل محرر يكتب acte écrit, written deed سواء أكان من جانبين acte juridique bilateral أو من جانب واحد acte juridique unilatéral لابد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية فيه ، ليكون وثيقة شرعية دبلوماتيه acte diplomatique بمعناها العلمى الدقيق الذى اصطلح عليه الوثائقيون .

ولكى تكون الوثيقة شرعية فلابد من أن تكتب بشكل قانونى لا يدع مجالا للنزاع أو الخصام .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣ ــ ٤ ، ١٥ ــ ٣١ .

وهذا الشكل هو ما يعرف باسم الشكل الدبلوماتى للوثيقة La forme diplomatique وذلك بمراعاة الشروط الشرعية أو القانونية اللازمة التى نص عليها الفقهاء والموثقين عند كتابة الوثيقة ـ أيا كان نوعها ـ ، ومن حيث الصياغة القانونية لها rédaction technique والواجب توافرها فيها بوضوح تام •

٥٣ ـ يقصد بذلك أن القاضى الموثق الشيخ عمر النووى الشافعى ، قد اشهد على نفسه جميع العدول الذين حضروا مجلس حكمل وقضائه ، بما نسب اليه من الحكم بصحة التصرف القانونى الوارد فى الوثيقة ولزومه ، فشهدوا عليه بذلك • ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ •

٥٤ ـ شهادة الشاهد هنا تنسحب على كل من البائع والمشترى والقاضى الموثق ، ولذلك وردت الشهادة بصيغة الجمع « شهد عليهم بذلك » ، فالشاهد هنا شهد على المتصرفين فى الفعل القانونى وهما البائع والمشترى ، كما شهد على القاضى الموثق فى الفعل التوثيقى بعد أن حكم بصحة التصرف ، وذلك لأن التصرف القانونى والحكم التوثيقى وردا فى نفس متن الوثيقة •

٥٥ ـ الشاهد محمد بن محمد بن عمر النووى هو كاتب الوثيقة ، وهو ابن الشاهد الثانى ، وكلاهما من أسرة القاضى الموثق أبو حفص عمر النووى الشافعى • فقد كان لكل قاض موثق فى مجلس حكمه مجموعة من أعيان الموقعين وكتاب الحكم من الشهود العدول ، وكان بعضهم من أسرته وذوى قرباه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يصل الى منصب القضاء أحيانا • وهؤلاء الشهود العدول هم أشبه شىء بمساعدى القضاة juges suppléants والموثقين •

ابن قاضى سماوه : نفس المرجع جـ ٢ ص ٣٢٦ •

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٩ •

وقد لاحظنا وجود عدد من الشهود العدول من أقارب القضاة الموثقين فى كثير من الوثائق العربية الخاصة (بيع ـ وقف •••) عند الشهادة فى التوثيقات الحكمية أو التنفيذية ومثال لذلك أنظر وثيقة قايتباى محكمة ١٦٨ محفظة ٢٥ وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٢ ، ٨٨٣ •

وبعد ، فانه يمكن أن نخرج من دراستنا لهذه الوثائق ــ بعد نشرها وتحقيق نصه ، والتعليق العلمي عليها ــ بعدة ملاحظات هامة منها :

١ ــ ان طريقة اخــراج الوثيقتين الأولى والثانية رقم ٢٧٧ ، ٢٨٥ تمثــل مدرسة اقليمية ، فقد صــدرت كل منهما وكتبت فى مدينــة الطور بشبه جزيرة سيناء ، وهى مدرســة متخلفة بلا شــك عن مدرسة القــاهرة بتاريخها الطويل وطريقتها فى اخراج الوثائق المثيلة والمعاصرة •

٢ ــ الوثيقة الثــالثة رقم ٣٠٦ درج كاتبها على نمط اخــراج بعض وثائق البيع فى القاهرة ابان القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى ، ولا شك أنها قد كتبت وصــدرت بمجلس الحــكم العزيز الشافعى بخط وكالة قوصون بالقاهرة •

٣ ــ كاتب الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ ــ ولعله عبد الله بن أحمد بن محمــد الزواعى الخطيب بجامع الطور ــ غير متمرس على كتابة الوثائق ، فقــد شطب على بعض الألفاظ فى المتن ، انظر لوحة رقم ١ سطر ٤ كلمة « بملك » و «مخزنين» وسطر ١١ كلمة « البحرى » اذ ضرب على هذه الكلمات بقلمه دون أن يشــير الى ذلك فى نهاية الوثيقة •

كما وقع نفس الكاتب فى خطأ لغوى فيما نصه « بها مخزنين مسقفان غشيما » سطر ٥ •

٤ ــ من حيث الدراسة الباليوجرافية كتبت هذه الوثائق بخط سريع ، وبعض الألفاظ يصعب على البعض قراءتها بسهولة ويسر ، فقد درج كاتبها على وصــل حروف الكلمات بعضها ببعض أو اهمال بعضها أحيانا كما نجد فى كلمة «جمدى» سطر ٢٨ فى الوثيقة الثالثة رقم ٣٠٦ (لوحة رقم ٤) •

٥ ــ ورد الحكم بصحة التصرف فى متن الوثيقة مع الفعل القانونى (البيع) فى آن واحد فى الوثيقة الثالثة رقم ٣٠٦ (النص الهامشى) •

٦ ــ جاء فى الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ ذكر مكان تدوينها على الهامش الأيمن فيما بين السطرين ١٦ ــ ١٩ ونصه « كتب ذلك ببندر الطور المبارك » ، وذكر

المكان له أهميته عند البحث فى تاريخ الوثيقة ودراستها دراسة دبلوماتية نقدية كما هو معروف عند الوثائقيين •

٧ ــ نجد فى نهاية الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ فى السطرين ٢٥ ــ ٢٦ توقيـع البائع المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف النصرانى الملكى المعروف بابن الحصين بما نصه :

« المنســوب الى فيه صــحيح على ما نص وشرح اعلاه وكتبــه موسى بن نصر الله » •

وكذلك وردت شهادة الشهود الأربعة على الفعل القانونى فى نهاية الوثيقة رقم ٢٨٥ اذ وقع كل منهم باسمه وبخط يده بعد عبارة « المنسوب الى فيه صحيح وكتبه » •

والا شك أن توقيع المتصرف والشهود على الوثيقة أمر له أهميته فى اثبــات صحتها ــ فالمتصرف بتوقيعه يثبت صحة واقعة ارادية تترتب عليها آثار قانونية ، والشهود بتوقيعاتهم يثبتون صحة واقعة مادية (كتابة الوثيقة)بعــد شهادتهم على الواقعة الارادية (التصرف القانونى) •

والواقع أن التوقيعات أدلة خطية لها من الاعتبــار مكان كبير ، وقد ثبت العمل بالخط بالأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة والاجمــاع ، فالكتابة تفوق الشهادة Lettres passent témoins

وكما يقول المثل الرومانى القديم : الكلام ينسى وتبقى الكتابة
Verba volant, Scripta manent

٨ ــ أن الصياغة القانونية لهذه الوثائق الثلاث ، قد سارت على النهج الذى درجت عليه صــياغة الوثائق العربية فى العصــور الوسطى ، بالرغم من أن كل المتصرفين فيها من النصارى ، ذلك أن الشريعة الاسلامية ومجالس الحكم العزيز (المحاكم) كانت هى المختصة بالنظر فى جل التصرفات القانونية الخاصة الصادرة بين المسلمين أو بين المسيحيين أو بين هؤلاء وأولئك فى ذلك العصر •

وفى الحقيقة ان هذا كله يعتبر جديدا فى طريقة اخراج هذه الوثائق القانونية الخاصة ، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين ، والصادرة قبــل خمسة قرون بمدينة الطور فى شبه جزيرة سيناء •

(لوحة رقم ١)

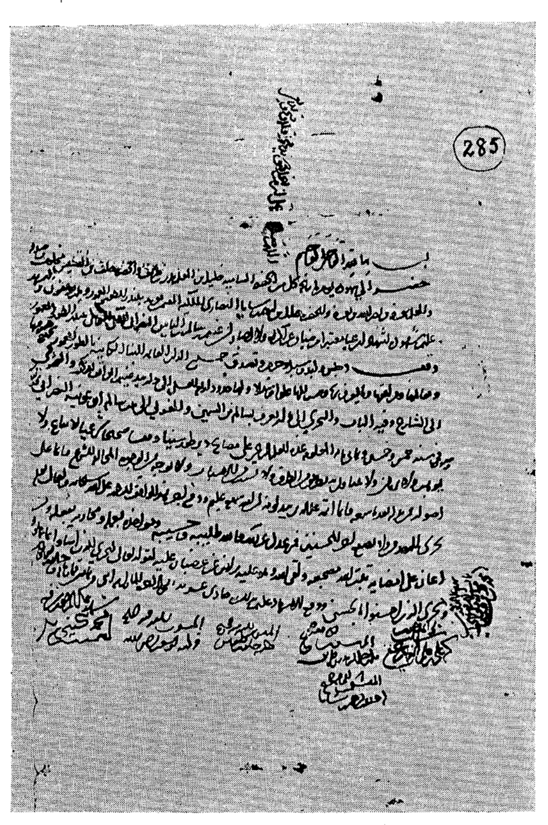
277

بسم الله الرحمن الرحيم

الوثيقة الأولى

(من وثائق دير سانت كاترين رقم ٢٧٧)

(لوحة رقم ٢)



الوثيقة الثانية

من وثائق دير سانت كاترين رقم ٢٨٥)

(لوحة رقم ٣)

الوثيقة الثالثة

(من وثائق دير سانت كترين رقم ٣٠٦)

(لوحة رقم ٤)

بقية نص الوثيقة الثالثة

(من وثائق دير سانت كاترين رقم ٣٠٦)

تم طبع هــذه المجلة بالهيئة
العــامة للكتب ــ مطبعة جامعة
القـــاهرة ــ فى يوم الســبت
الموافق ١٢ من أغسطس ١٩٦٧
مدير المطبعة
أحمد سلامه

(مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٦/٨٩٥/٤٥٠)

gence of the spirit is to be effected. This is why Mary utters these words as though in a trance. The result is that the finest poetry in **The Family Reunion** is not dramatic.

I have devoted some space to on an analysis of a play by Eliot in order to indicate the magnitude of the problem of communication. The attempt to meet the marked intellectual and cultural stratification of the modern audience by presenting a hierarchical design of characters and ethical values calls for exceptional powers on the part of the paywright. Other examples of double-pivoted plays may be given **On The Frontier** (1936) presents a fundamental duality of approach, on the part of Auden and Isherwood, to drama. There is a façade which reflects, in racy, idiomatic, and conversational English, the mundane, drab and uninspiring conditions of modern living under the shadow of menacing war ; while in the background we are treated to the Utopian world of the authors' aspirations, a world of fraternity and freedom from economic stress, expressed in a highly selective language. Again in **Ascent of F 6** there is a dramatic pattern of a central character striving after self-realization through climbing a mountain. Another pattern also exists, representing a picture of a circumjacent society which has to illustrate, in emphasized terms, that state of affairs and those political principles againsts which the principal characters—as well as the authors presumably—revolt.

The problem becomes one of effecting an easy commerce between the two realms. Where the problem is not satisfactorily tackled the play fails to present a comprehensive symbol which indicates the totality of the cosmos, the earthly and the spiritual, indivisibly fused. In other words either the drama of external conflict and tension obscures voices of greater significance, or else the revelations given in flickering moments lose their impact because they have not been sufficiently connected with normal experience.

dilemma which the others, with the exception of Agatha, are not capable of making.

The failure lies in a divorce between the «divine» drama enacted by the central character and the «human» drama seen in the relations of the less assuming personages in the play. It is the failure of the «intuitive» approach to the human plight to vie side by side with the «ratiocinative».

The result is that we have a double-pivoted play. The failure of the two layers of presentation to interpenetrate results in two sharply designated sets of verbal styles. In **The Family Reunion** these styles are exemplified on the one hand by the terse, lucid and vigorous colloquialism of the spiritually moribund characters, and on the other by the «duets» or arias seen in the Harry-Mary scence or in the Harry-Agatha scene of the rose-garden. One illustration from Mary's speech to Harry may show the quality of the style that answers to the spiritual layer of presentation :

> Pain is the opposite of joy
> But joy is a kind of pain
> I believe the moment of birth.
> Is when we have knowledge of death
> I believe the season of birth
> Is the season of sacrifice
> For the tree and the beast, and the fish
> Thrashing itself upstream :
> And what of the terrified spirit
> Compelled to be reborn
> To rise toward the violent sun
> Wet wings into the rain cloud
> Harefoot over the moon ?(48)

This sublime awareness has its origin, not in human, but in supernatural experience. Mary is not really a dimensional growth. The latinate overlay is not in Mary's consciousness or in the habits of speech which testify to her role ; it is an expansive gloss by the author on the need for sacrificial and renunciatory action if a resur-

(48) *op. cit.* p. 60.

The crucial point about Harry is that in his person he combines the past of Wishwood, its agony and degradation, as well as its future, in the sense of his being its redemptive symbol. In Harry's being two generations meet. In the rose-garden scene, when the moment «in» time intersects the moment «out of» time, or when, in the words of Agatha, «the loop in time» comes(42), Harry assumes the character of his father as well as his own. To Agatha Harry becomes both a son and a lover. Being born of a sinful wish on Agatha's part Harry has lived on to be both a «son» and a «scourge». At his own end Harry calls to her as their phantoms haunt for a moment the luminous realm of the spirit, «O my dear, and you walked through the little door/And I ran to meet you in the rose-garden» (43). In the language of the **Four Quartets** the rose-garden is the «door we did not open» ; what «might have» been, rather than what «has» been ; a symbol of «desire, not in itself desirable».

Harry reflects, therefore, not only his own pattern of woe but also that of his parents. Whatever he himself has done recedes into a larger background of degradation and misery of which his own act, or rather «dream» of an act—pushing his wife overboard—is only an instance. Later both patterns become part of a universal bondage, a shadow of «something behind our meagre childhood,/Some origin of wretchedness(44).

This, precisely, is what Amy and her satellites cannot understand. Why, what has Harry done in his absence, to justify such attachment to loathing, such a sense of horror and self-defilement ? Elsewhere Harry attempts an answer :

> It is not my conscience,
> Not my mind that is diseased, but the world I have to live in(45).

To Agatha there is nothing eccentric about Harry. «He sees the world as clearly as you or I see it», says she to Downing, «It is only that he has seen a great deal more than that» (46). The only way of gaining admittance into his own world, Harry says to Mary, is by «seeing» (47). Obviously there is a genuine approach to Harry's

(42) *op. cit.* p. 18.
(43) *Ibid.* p. 108.
(44) *Ibid.* p. 100.
(45) *Ibid.* p. 31.
(46) *Ibid.* p. 129.
(47) *Ibid.* p. 57.

the «eye» she refers to as directed towards the house merges into the « unwinking eye » (38) of the rose-garden scene. It is the eye which supervises the measured movements of the body in fulfilment of the requirements of expiation.

But the attempt to unify several strands of feeling and experience may admit of approval in theory without being uniformly successful in practice. The problem is one of effecting an easy commerce between the «elect», the one with remarkable intellectual and spiritual insight, and the less assuming personages in the play. Consider the following illustrations from the dramatist's group of earlier play: **Sweeney Agonistes** (1924), **Murder in the Cathedral** (1935) and **The Family Reunion** (1939) respectively :

> **Sweeney :** I gotta use words when I talk to you
> But if you understand or if you dont
> That's nothing to me and nothing to you (39).

> **Thomas :** (To the Priests while the Knights assail the Cathedral) Those who do not the same
> How should they know what I do ?
>
> How should you know what I do ? Yet how much more
> Should you know than these madmen beating on the door (40).

> **Harry :** But how can I explain, how can I explain to you ?
> You will understand less after I have explained it.
> And people to whom nothing has ever happened
> Cannot understand the unimportance of events (41).

The common feature in the examples under review is loss of contact, expressed in an impatient gesture on the part of the principal character and manifested in a breakdown of the range of communication. A brief analysis of Harry's dilemma may clarify the point.

---

(38) *op. cit.* p. 107.

(39) *Sweeney Agonistes* (Faber and Faber) 1932 p. 30.

(40) *Murder in the Cathedral,* op. cit., p. 72.

(41) The Family Reunion p. 28.

ever, emerge at the other end, bent on renouncing the world. These may spend the rest of their lives in prayer and solitude, in a «stony sanctuary » beside « a primitive altar (33) » ; or they may give up life after an incredible torture, crucified on an ant-hill by monkey-eating tribes. This is the spiritual plane of interpretation which Eliot's plays present for the understanding and the appreciation of a few sympathetic audience between whom and the protagonist there is to be a kinship of interest.

A specific example may not be out of place. On the surface plane of interpretation the method of designing, in **The Family Reunion,** parallel modes of behaviour continued over a span of two generations, brings into light the possibility of the existence of some «charm» which may be equated to the Greek «curse». Indeed Agatha, on more than one occasion, speaks of a «curse» coming to being «as a child is formed» (34), of an «eye» covering the house of Wishwood (35), and of an «enchantment» which Harry has been chosen to resolve (36).

Amy is struck by this recurrent rhythm which she has noted in the case of both husband and son. For thirty years Amy sought to contrive the happiness of her son. She selected his school mates, arranged the games he was to play, and even kept a poor relation in the house to be his future wife. But as the play draws to an end it comes as a shock to Amy to discover that her son is just such a weakling as his father was before him. As she catches the last part of Harry's conversation with Agatha, and realizes that he has consented, at his aunt's suggestion, to leave Wishwood and go on a long journey, she is forced to conclude that there must be some «spell» working «from generation to generation» (37).

Talking in terms of a spell or an evil eye is the charlatan's way of approaching the supernatural. For Amy this may be the sphere she can, both intellectually and emotionally, move within. Agatha, however, speaks of a «curse» in a way which suggests the Jewish conception of punishment visited on the sons and grandsons on account of sins committed by the fathers and grandfathers ; while

(33) *The Family Reunion,* op. cit., p. 115.

(34) *Ibid.* p. 110.

(35) *Ibid.* p. 70.

(36) *Ibid.* p. 105.

(37) *Ibid.* p. 120.

audience, while the rest ... should share the responses of the other characters in the play(32).

Eliot, for one, attempted to present in his plays a complex pattern of varying spiritual and ethical beliefs through characters conceived in the form of a hierarchical design, with the «elect» on top. A brief reference to his dramatic work would be pertinent for the purposes of the present study.

The world as Eliot's plays depict it is inhabited mostly by fugitives, not from justice, but from phantoms, visions and spectres. Always in ignorance of invisible pursuers, men and women shun solitude where their phobias are magnified, seeking in one form of activity after another to drown that incessant craving for union with God. If only they would turn once in their flight, and accept their ghosts, confess some past failure, some mean and cowardly act, they might come to see their Furies as Eumenides, and in time come to follow rather than flee.

This theme lends itself to interpretation on more than one plane of understanding. One is that of the «thriller» or the crime-and-punishment type of play. In **Sweeney Agonistes** we hear of someone who «did a girl in» and kept her body «in a gallon of lysol» in the bathroom. In **The Family Reunion** the dubious circumstances in which Harry's wife disappeared on board a steamer gives rise to specultations on the part of Harry's relations, which are all but confirmed in the reader's mind by the appearance of Sergeant Winchell.

It would also be possible to interpret the phobias experienced by certain personages in Eliot's plays in terms of «psycho-pathology». The loss of identity figuring so frequently, the rejection of the cause-and-effect relationship as a basis for interpreting phenomena, and the identification of the insubstantial with the Real, have given rise to commentary couched in the phraseology of psychoanalysis, as only the introduction of Sir Harcourt Reilly as psychiatrist in **The Cocktail Party** would indicate.

But Reilly is only in part a psychiatrist. His «sanatorium» can give nerve-racked patients a merciful respite and then send them back to the world to «make the best of a bad job». A few others, how-

---

(32) Eliot, discussing questions of creation pertaining to Sweeney Agonistes in *The Use of Poetry and the Use of Criticism* (Faber and Faber) 1933 p. 153.

III

In a healthily stratified society we expect to find a majority who are at one in a common understanding and with pleasures which are commonly shared. Not too remote from this larger public, and with frontiers so flexible as to allow continuous reciprocal influence and interaction among the whole, there are bound to exist smaller groups whose members are endowed with taste and discrimination, and who enjoy much the same background of education and manners. In an age of cultural debility, on the other hand, when canons of taste are continally shifting and deteriorating, reciprocity of feeling or understanding is restricted to the instinctive or the crude.

In order to cut through this cultural stratification presented by modern drama recipients certain playwrights have resorted to a corresponding laddering of planes of consciousness in the one play. This is not a novel device ; Professor Tillyard's discriminating analysis of Shakespeare's plays has revealed a hierachical design which, we expect, made its appeal at one end to the most refined scholars and courtiers of his time, and at the other to the rabble who wolfed down his plays in the way they enjoyed bear-baiting, cock-fighting and witch-burning.

This explains the frequent practice among modern playwrights of using some «democratizing» material—myth, ritual, folk yarn, music-hall varieties, or some known part of the nation's history—which establishes an immediate response among the audience at the lower strata of consciousness, while the subtler effects are entrusted to the care of profounder insights. Part of the material of self-analysis attempted by certain verse-dramatists in the thirties goes to reveal the factory work which is done in the process of creation and which answers to the contention maintained here. Of this material the following statement stands out as significant :

> I once designed, and drafted a couple of scenes, of a verse play. My intention was to to have one character whose sensibility and intelligence should be on the plane of the most sensitive and intelligent members of the audience ; his speeches should be addressed to them as much as to the other personages in the play. There was to be an understanding between the protagonist and a small number of the

The exhortation is for the «idealists» of our time who lack the insight to perceive the advent of a new world. But the world of the future, as the play depicts it, has its ideals evoked only in name. We are simply told of the «borderless world of the many», and of the «melting away» of «states and separate power». But we can hardly accept the idea of the transfiguration of our world into a guiltless and beatific one if the argument in support of this idea is so naive : «Through that blazing instant when the squad shoots», we are told by the Third Red, the cause is miraculously strengthened :

> When they are killed they fall like seeds
> Into the ground to bear the tenfold fruit
> Of our purpose ; thirty spring up,
> O, all the statistics show, where three comrades die(30).

Not only is the source of this power left vague and unobjectified, the result of stating rather than rendering, but we are also left uncertain whether it will not develop into another Hydra. Indeed it is difficult to see how the Third Red, with his dogmatic and sanguinary views, can refute the Judge's arguments :

> your world is the antipodes
> Of the world of those
> Who seal us in this living tomb :
> And travelling there, where all seems opposite,
> Yet all will be the same ; only
> Those who are now oppressed will be the oppressors,
> The oppressors the oppressed. For your
> World and theirs exist to maintain their worlds
> And truth becomes the slave of the arrangements(31).

In **Trial of a Judge** there is something final about the Reds and the Blacks, and we shrink from accepting the picture which the poet draws of our way of living. In **The Rock**, on the other hand, these organizations and creeds are parts of a design ; and if the note jars at times, it is not altogether a stray one. The historical sense as a redeeming factor is seen at work in Eliot's play ; and it makes the whole difference between the «contemporary» and the «topical».

I come in conclusion to the problem of communication in drama, a problem which is essentially one of reception.

---

(30) *op. cit.* p. 107.

(31) *Ibid.*, pp. 101—102.

Ethelbert : Ah, they wants it just as bad as anybody and they've
got it a 'ole lot worse. If people don't take their
religion in the usual proper way, they'll take it in
other ways, such as politics ; and then they get
into a 'ell of a muddle(28).

It is hoped that this analysis of a minor play by Eliot has revealed the value to his art of a developed historical sense ; it has steadied the fluctuations in the transient material. Considering the work of some minor verse dramatists of the period under review we come to the conclusion that they are more «topical» than «contemporary», a basic problem of art creation. In the 1930's Stephen Spender was so busy trying his Judge that the latter failed to extricate himself from the web of political and social organizations of the time.

In **The Rock** we accept the Red Shirts and the Black Shirts, the violence and the political agitation, in a way we find difficult in Spender's play **Trial of a Judge** (1938). While Eliot's play seeks anchor in the past experiences of the race, Spender's heralds a future of whose identity we are left uncertain. The confusion of the Judge throughout the play reflects, we feel, the perplexity of our modern world. The Judge seeks to keep his integrity by upholding the standards of justice in the face of the coercion of both the Government and the Black Party in power. The incidents of the play, however, reveal that the modern world is determined to go on independently of abstract laws of justice. In Act V the action revolves round three prisoners : the Judge, the Third Red, and Petra's Fiancée. They are awaiting trial by the Black Troop Leaders. We gather that the refusal of the Judge to back the Government's decision to set free the Jew's assassins and condemn the Reds, has failed to save either party. His two companions in prison seek to comfort him in his last hours :

Fiancée : No, no, you are not that mad and glittering snowman
Which you imagine. Simply, you are mistaken.
It is your misfortune, for which we pity you,
That being too honest for one time, you lacked strength
To be born into another(29).

(29) Spender, S. : *Trial of a Judge* (Faber and Faber) 1938, p. 100.

Having stripped the experience of church building throughout the ages to its core—a life-giving symbol—Eliot is not unmindful of the other part of the agreement : the simple-minded Ethelbert and his fellow-workers who occupy the foreground. It is true that the battle of man against time has already been won in spirit. But the vision of the Church as eternally triumphant cannot for long be sustained by human nature. These simple people have their own problems, and it is no use telling them that a spongy site will stop leaking or that political agitators will cease to threaten their work. With «progressive» views filling the air about them, views about religion as an expression of a reactionary mind, a handicap to material progress, and about church-building as a waste of money and material which should go to housing poor families, building libraries and providing for health centres, it is difficult for Ethelbert and his companions to go on building the church unless The Rock sustains this battle as well. «You needn't believe in God», says Ethelbert, «but you've got to believe in a buildin' (26) ».

This is man's battle in time which The Rock knows may have truces but no peace. Confronted by unwieldy material in the foreground—Red Shirts, Black Shirts, Plutocrats, humanists, social reformers, etc.—the dramatist alights on a convenient device by means of which he seeks to unify these varied manifestations of the «moment». The restlessness of the modern world Eliot accounts for in terms of self-exile from God, an attempt on the part of man to seek in various inadequate ways satisfaction for a permanent craving. In **The Rock** this primary urge in man is expounded in the simple words of two workers :

> **Alfred** : ...... religion is like a drink. People may not want
> it drawn very strong, or very much o' the time,
> most of 'em ; but they seems to like to know that
> it's always there if and 'ow they do want it. And
> if they don't get it one way, they will another(27).

As for the situation in Russia

(26) *The Rock*, op. cit., p. 13.
(27) *Ibid.* p. 15.
(28) *Ibid.* p. 15.

What saves all this from utter delirium is Eliot's systematic mind. As we read the play, it eventually resolves itself into two more or less closely-knit patterns, each of growth and decay. The first pattern traces vicissitudes in church building in past and present times. The second reflects the fluctuations in the quality of man's belief in God, analogously located at various points in history. The backgraund scenes where churches are built, destroyed, repaired, defended, ignored and deserted, remind us of the cycle of growth and decay in **East Coker**—a poem which obviously looks back to experiments in **The Rock.**

Seen from a particular point, church building as an affair of man is depicted as a hopeless battle against the ravaging hand of time. Here man is seen whirled about on the circumference of the moving wheel, governed by the rhythm of the day and the night, the blood, and the seasons. His vision is arrested by the perpetual revolution of configured stars, his mind and body by the endless cycle of idea and action. «We build in vain,» say the Chorus, «unless the Lord build with us(23)». In **East Coker** these activities, uninspired and unguided by the divine power, are visualized as «Feet rising and falling,/Eating and drinking. Dung and death(24)».

Another pattern also exists, at a deeper level of interpretation. In **The Rock** as well as in **Four Quartets** Eliot makes use of his wide reading in Greek philosophy, history, and the Christian mystics' teachings, in an attempt to discern the «Form» which governs this growth-and-decay movement, the Primum Mobile. This he identifies as the symbol of Incarnation. This is the intersectional point where a moment in time—the birth of Christ—bisected eternity. Church building as revealed in the covenant of time—dust and clay moved by dust and clay—was reconciled in the still point where the Church received its permanent Form by assuming the body of Christ Incarnate. This, we are told, was

> A moment not out of time, but in time, in what we
> call history ; transcending, bisecting the
> world of time, a moment in time but not
> like a moment of time,
> A moment in time but time was made through that moment :
> for without the meaning there is no time, and
> that moment of time gave the meaning(25).

(23) *The Rock,* op. cit., p. 30.
(24) *Four Quartets,* op. cit., p. 16.
(25) *The Rock,* p. 50.

A characteristic feature of war-period verse drama is that it subjects current political and other issues to a powerful examination. But in effecting an easy commerce between the world of the drama and that of the general public major problems involving the essence of creation are bound to arise. Contemporaneity may lapse into topicality. To have a true sense of one's age is not only to reflect its urges and crises, but also to view it as a moment in the greater scheme of perpetual human existence, a moment which as yet has not resolved the deeper reality of its relationship with this scheme in terms of art.

A primary prerequisite on the part of a writer is, therefore, a historical sense—to be able to see the present in terms of the past, and vice-versa (22). Lacking this historical sense at the time I have chosen for the present study, Spender, Auden and Isherwood wrote plays which were more topical than contemporay ; while even Eliot's **The Rock**, a play which is occupied at the surface plane with equally transient material, is not without its value. A closer analysis of two examples of writing in this period would be pertinent as an illustration of the value of the historical sense.

In **The Rock** Eliot was considerably handicapped. The scenario of the play had been set for him ; he had only to supply the words. So was the occasion—to collect funds for a church to be built in one of the unassuming districts of London—as well as the type of the audience. The material he had to shape into play-form presented a considerable amount of heterogeneity. It ranged from biblical and historical material of a serious order to a vacuous wrangling between a brick-layer and his wife in a slummy quarter. There are parts of the Mass, a blessing in Latin of the departing Crusaders, five versions of church-building at various periods in history, as well as three episodes of church dedication. There are imperfectly digested creeds-communistic, fascist, and humanistic. There is a Secondary Chorus of unemployed labourers, a labour strike, a street brawl, an undignified scramble after a golden calf, as well as some of the most stimulating choric verses Eliot ever wrote.

---

(22) The interrelationship of past and present is obvious :
«the historical sense involves a perception, not only of the pastness of the past, but of its presence».

(Eliot, T.S. : *Selected Essays*, op. cit. p. 14).

At that time Eliot was editing **The Criterion**, and he had for some time been watching with apprehension the continual closing of mental frontiers as the German and Italian contributions to this literary periodical were becoming more and more insular. The next year, commissioned to write a play for the festival of Canterbury, Eliot thought of bringing to the audience the contemporary relevance of the situation. The readers of the play are suddenly brought to alertness as the First Knight addresses the parishioners after the murder of the Archbishop :

> I suggest that you now disperse quietly to your homes.
> Please be careful not to loiter in groups at street corners,
> and do nothing that might provoke any public outbreak (20).

In the course of the few years following, the ominous words were to impress themselves upon nation after nation as Europe crouched under the lengthening shadows.

Certain shock-tactics abound in war-period verse drama, reminding us at times of Shaw's disruptive influence, his quick-flashing technique. A favourite device answering to this intention on the part of the playwright is the Chorus who, in certain plays, is not content to preserve a placid emotional or intellectual aloofness. The Skeleton, one of the most disquieting figures created by Charles Williams, wheels more than once upon the audience to upbraid them for their lethargy and lack of faith :

> And you, whose hands are still, lying now so quiet,
> one day, against your will, I may bid them move
> in their own life ; then they shall crawl
> slowly up sides, shoulders, and heads,
> till each spreads
> palms and fingers there, and waggles assent
> to all sins I call against you (21).

(20) Eliot, T.S. : *Murder in the Cathedral* (Faber and Faber) 1935, p. 83.
(21) Williams, C.: *Thomas Cranmer of Canterbury* (O.U.P.) 1936, pp. 42—43.

The preceding pages of this section are an attempt to determine some of the basic problems of creation attendant on the withdrawal from the contemporary scene. Pouring their sentiments into an idiom and a form of versification no longer suited to the sensibility of the age, the blank-verse dramatists—Phillips, Davidson, Binyon and Moore—inevitably exhibited in their plays an excess of emotion unaccompanied by a free play of the intellectual faculties. Arguing, on the other hand, that poetry was essentially a formal medium, and that it would better gain its effect by virtue of the singing voice, the choric dramatists—Masefield and Bottomley—stood in danger of developing the auditory imagination at the expense of the other provinces of the creative apparatus. I now turn to an examination of a third style—the politico-symbolical play.

II

In the extremely unsettled conditions of society today a literary writer may at some time or other have to face a problem of choice between two attitudes. One is to consider his main concern to be the form he is to use. He may feel that themes are only pretexts for the presentation of some purely spiritual experience, that the spirit of literature bloweth where it listeth, and that it is like a symphony ; it neither proves nor disproves. Or he may adopt another view. When men and women are living under conditions which at any moment threaten a reversion to bestiality, and when such mad chaos may be brought about as a result of a personal whim or a single act of wickedness, whether it is a pistol-shot or a leading article, a writer may feel that he owes primary obligation to his society.

A number of verse plays in the thirties, like so much writing in this century, were conceived in the shadow of this appalling system under which modern man lives, «Do you need to be told», asks The Rock in Eliot's play bearing that name,

> that whatever has been can still be ?
> Do you need to be told that even such modest attainments
> As you can boast in the way of polite society
> Will hardly survive the Faith to which they owe their significance(19) ?

(19) Eliot, T.S. : *The Rock* (Faber and Faber) 1934, p. 41.

The tumult and the conflict within the soul of Christ as experienced during the night at Gethsemane are expressed through sheer sound modulation :

Full Chorus

> And the turbulent night of a soul
> Is darker still with the roll
> And clanging of cloud-dark wings(15).

If we are looking in Bottomley's play for more than the aesthetic enjoyment engendered by the music, the echo and the reverberations, the fading and resurgence of tonal units, or the formal designing of masses of colour(16), we shall be disappointed. Action in drama Bottomley conceives mainly in sound :

> the words become the action, a sound can be a blow, a sound can hurt or kill ; a sound can bring to life, a sound can stir the blood, a sound can paralyse or release(17).

As for the theme of the play it has been mapped out for Bottomley in the **Apocrypha of the New Testament.** How else can one conceive of St. Peter except as a biblical figure parrotting words which were cut and dried for him by some translator four hundred years before ? Throughout the play we follow him—he looks much like the conventional figure of the Sunday school—as he obeys the call, then denies it at the crucial moment, later becomes the foremost of the disciples, goes to Rome where he manipulates man upon man into religious consciousness, and finally meets his death.

It is interesting to speculate that had Jean Cocteau handled this theme he might have given us a modern Paris for the old Rome, a poor persecuted fisherman for St. Peter, and for diction all the gossip of the latest scandal in the Latin Quarter. But such a treatment would have needed a bolder and less scrupulous dramatist than Bottomley whose idea of verse drama can be summed up in these words of his :

> The comparison of poetic drama should indeed be with opera all the time, and not with prose drama(18).

(15) *op. cit.* p. 22.

(16) Bottomely sought to create « a body of speech-choristers supplementary to the boys of the regular Cathedral choir in their cardinal red cassocks».
(A Stage For Poetry, p. 64).

(17) *Ibid.* p. XIV.

(18) *Ibid.* p. XIV.

The rock in pieces.
Sing, because Man receives
This Mercy that reprieves,
That blesses and relieves,
And lifts and lightens.
Sing, because Man is given,
This gateway into Heaven
This Peace of sins forgiven,
That burns and brightens(12).

Perhaps the best-rounded play in the whole group is **The Acts of Saint Peter** (1933) by Gordon Bottomley. It was commissioned by Dean Matthews, then of Exeter, for the Octo-Centenary celebrations of the consecration of the Cathedral church of St. Peter. By the time Bottomley came to write this play he had given up the cause of poetry among a public with marked lack of taste, and on a stage where mechamical devices were restrictive and oppressive to the exercise of the imagination. His main interest while writing this play was in the opportunities offered by the interior of the building of Exeter Cathedral for the contrapuntal effect produced by the poet's phonal units and musical passages. For this purpose Bottomley studied the topographic significance of the masses of building, the vaults and the arches, and the Gothic structure ; they were all inseparable, he tells us(13), from the text of the play. It is pertinent to keep in mind this feature when considering the play, for the action, which seems so tenuous on the printed page, is fitted with functional adroitness into the ecclesiastical setting. The following is an illustration from the play :

O, healing Voice, life-renewing Touch,
Disquieting and reassuring Presence,
Be near me as I speak ;
Be here ; be here. Come, Holy Light ... ...
He is so late. I am faint with listening,
And perhaps the quiet footfalls that I hear
Are only the sound of nightfall(14).

---

(13) In *A Stage For Poetry* p. 63, Bottomley writes :
« If ever a work of art was designed to fit a building, this one was, as truly so as any series of 15th century frescoes for an Italian church».

(14) Bottomely, G. : *The Acts of St. Peter* (Exeter Publications) 1933, p. 20.

was a spontaneous evolution from communal feelings, an articulation of religious and social stirrings. Wrenched now from its context, a Greek play may seem to the modern sensibility morbid, or long-winded, or ruthlessly gaunt and austere. The same qualities which once gave the Elizabethan play its distinctive identity—versatility, opacity and density of phrase, and lavishness of gesture and emotion—might give rise to such epithets as verbose, or too fanciful and sentimental, when judged by a world like ours brought up on a thin verbal diet. Around the turn of this century Stephen Phillips sought to transplant Greek forebodings into a modern soil. Laurence Binyon, in the example under review, sought to transplant the Elizabethan vision of the tragic into a modern climate. The result in both cases is a disharmonious growth.

From the blank-verse play I proceed to examine one more dramatic style which came into prominence in the thirties—the «choric» play. Mention has been made of John Masefield and Gordon Bottomley as the staunchest protagonists of this form in England in the period under study, and of the influence upon their work of Yeats's highly symbolical group of plays. Unlike **Plays For Dancers**, however, the choric plays do not exploit images of language, music, painting, dancing and sculpture, interwoven harmoniously in a single direction of emotional meaning. The emphasis rather is on a generalized mood, with the words themselves vague and half musicalized. The Chorus offers considerable opportunities in the pursuit of formal beauty ; it helps the evolution of strict patterns characterized by moderate complexity of design. An illustration from **Easter**, a play written, we are told by the author, «for twelve voices and a choir», reveals Masefield's attempt at a refinement of rhythm and an intensification of the aural effect :

The Angels

Sing, for the thing that was
Is withered like the grass,
Death's domination pass
And life increases.
Sing, because Man receives
This April of green leaves
Whose living impulse cleaves

(12) Masefield, J. : *Easter* (Exeter Publications) 1929, p. 9.

He guesses not with what a curb of steel
I check the extravagance of my heart, crush down
The hungry tenderness, am cold and wary
That I may set him like a pillar firm
In a sure socket (9).

The survival of this dramatic style into the late twenties explains in part the severance of verse drama from life. Poetry of this nature, dependent on lyricism and felicity of phrase had given John Locke, over a century earlier, occasion to pass some of his known judgments on the superfluity of art(10). Drama of this nature, dependent on the lure of costume and scenery, abounding in intrigue and disguise, and resorting for denouement to what William Archer called «the long arm of coincidence», had furnished Zola, in 1873, with material for ridiculing romantic extravagances and swooning postures(11).

Climates of thought and feeling differ, however slightly, throughout the ages. Sir Walter Raleigh fought, so the historians of the period tell us, with a sweeping flourish and a fanfare of drums. To the Victorians, on the other hand, fighting was a cool science and calculated tactics. Transferred into a different context of ideas, a dramatic form looks deplorably distorted. Greek drama as we know

---

(9) Binyon, L. : *The Young King* (Macmillan) 1935, p. 35.

(10) See «Essay Concerning Human Understanding», Book II, Chapter II, Section III :

« ... that entertainment and pleasantry of wit which strikes so lively on the fancy, and therefore so acceptable to all people, because its beauty appears at first sight, and there is required no labour of thought to examine what truth or reason there is in it».

(11) See his Introduction to his adaptation of *Thérèse Raquin* to the theatre : «The drama is dying its own fine death. It is dying of extravagances, lies, and platitudes ... Now that everything is torn down and swords and caps rendered useless, it is time to base our works on truth ... we must look to the future, and the future will have to do with the human problem studied in the framework of reality».

There is much in Zola's forthright utterances that is open to debate. The words «truth» and «reality» are certainly catch-words ; a moment's thought about the host of interpretations given them by various thinkers over the ages may raise doubt as to the absolute validity of that order of perception governing everyday relations between husband and wife, father and son, neighbours and acquaintances, or householders and shareholders,—topics dear to the naturalist playwright.

Nevertheless, there seems to be an undeniable truth about Zola's manifesto which amounts to a plea for recognition of a principle the validity of which has usually been confirmed by the history of art. A viable dramatic form derives its life from popular traditions or popular requirements.

the objects surrounding him, in the whole of the vast panorama of contemporary existence. Failure to satisfy this primary requirement is likely to result in «personal» writing in the objectionable sense(7). In the following section I seek to determine the consequences of this failure expressed in terms of withdrawal from the contemporary scene.

I

An example of a belated dramatic style surviving into the thirties may be cited by reference to **The Young King** by Laurence Binyon. As late as 1934 this play was chosen for performance at the Chapter House of Canterbury Cathedral, a proof of the dearth in religious plays. Binyon's play can be called religious only be courtesy. In all probability it was not meant to serve the purposes of a religious festival(8). In his play Binyon keeps up the tradition of the martial and the sanguinary in drama, which he availed himself of earlier in **Attila** and **King Arthur.**

In **The Young King** the rebellion of Prince Henry against his father King Henry II is made the pretext for introducing a miracle worked by St. Mary as a chastisement of the Prince for daring to despoil her shrine at Rocamadour Abbey of its treasure. The following lines exemplify the sentiment and the writing in the play. Here King Henry is overburdened by the thought of enemies marching from North and West. The southern part of his kingdom in France is also being threatened by King Philip of Spain. His son, feigning illness, inopportunely decides to go to Normandy as a pilgrim—another move which the old king gravely suspects. Under the strain of overwhelming passion, or so at least we are expected to believe, King Henry braces himself to the fight without and within :

> Why do we throne those sons on hopes so vast,
> Make them the deep foundations of our thoughts ?
> Why do we spend the torrents of our love
> Where it is despised, to soak into a sand
> Dry in an hour ?

(7) A main tenet in T.S. Eliot's critical theory expressed in the following terms :

In fact, the bad poet is usually uncoscious where he ought to be conscious, and conscious where he ought to be unconscious. Both errors make him «personal». (*Selected Essays* (Faber and Faber) 1934, p. 21).

(8) Originally *The Young King* was written for performance at Masefield's Theatre, Oxford, in 1924.

(**Easter** 1929) ; Binyon (**Love in the Desert** 1928, **Godstow Nunnery** and **Memnon**, both 1929) ; and Bottomley (**Merlin's Grave** 1929). Bottomley wrote a number of plays on other occasions in the same style, which appeared in three volumes : **Scenes and Plays, Choric Plays**, and **Lyric Plays**, all published between 1929 and 1939.

Religious Festival plays also received impetus through the combined effort of a number of poet dramatists of unprecedented stature. For a few years after the performance, in the Canterbury Festival of 1935, of Eliot's play **Murder in the Cathedral**, it looked as though some foundations might be laid for the evolution of the religious play. Charles Williams, Ronald Duncan, Dorothy Sayers and Christopher Fry, sought at one time or another to adapt to their purposes the basic action which Eliot evolved in his play : a central character—a mystic, saint, or devout contemplative—caught in the toils of temptation, and eventually coming, through self-elimination, to acknowledge the primal source of his being and unite himself with it.

A student of the drama of this period cannot, therefore, complain of scarcity of material. Taken together, in their combined range, concentration and precision of awareness of the possibilities of the verse play in the contemporary world, the poet dramatists I have mentioned stand out as the most consistent and significant exponents of their form in modern times. Whether their vision of an established verse drama form has materialized into a common medium sufficiently elastic for the expression of widely different poetic personalities, lies out of the scope of this paper. It is not my intention to trace how far their experiments have culminated in communal conformity taking precedence over private deviation. The experiments will be valuable in so far as they constitute a genuine attempt to transcend certain limitations felt by these poets in the creation and the reception of their works.

* * *

The problem of the new wine splitting the old bottles is as old as creativity itself. Every new departure in literature thrives in proportion as it abandons the old conventions which have become mere survivals. One of the primary requirements of a writer with any claim to genuine literary merit is to have a sense of his age, to be able to recognize its pattern while the pattern is yet incomplete, and to reflect with considerable accuracy upon the position and proportion of

the transition from one plane of existence to the other, from the level of the «transient» to that of the «eternal», without apparent self-consciousness.

To-day it would call for an unusual insight to accomplish this subtle transition. A primary requisite on the part of a modern writer is to have both imagination and a firm hold on the world of sense perception, so that the divine and permanent realities in existence should be the inevitable extension and sanctification of the domestic, the limited, the transient. It is this mediatory position which we imagine W.B. Yeats had in mind when writing the following statement :

> We must find some place upon the Tree of Life high enough for the forked branches to keep it safe, and low enough to be out of the little wind-tossed boughs and twigs (6).

To preserve such an equilibrium has in modern times proved difficult. Poetic drama too deeply immersed in social problems failed to disentangle itself from the clinging roots and weeds. Symbolical drama, too much preoccupied by higher states of being, was blown this way and that by the vexing wind. This is as much a problem of creation as one of reception. It is in the hope of surveying some of these problems that I have chosen the present field of study.

Now for the period. The nineteen thirties may be considered a moment in the development of modern verse drama which was fraught with possibilities. For one thing the politico-symbolical type of play forged ahead under the inspiration of W.H. Auden, Christopher Isherwood and Stephen Spender, who broke away from the accepted standards of the verse play maintained earlier by the Scottish and Northern poet dramatists, and evolved a new medium of expression by using free verse. Their plays abounded in intellectual wit and modern symbolism, and had a direct social relevance.

Another type of play which came into prominence in the period under review was the choric play. It was supported in England by John Masefield, Laurence Binyon and Gordon Bottomley, and was mainly influenced by the example of Yeats's middle-period **Plays For Dancers.** In Masefield's theatre on Boar's Hill experiments in writing verse plays with choric interludes were conducted by Masefield himself

---

(6) *The Collected Works in Verse and Prose of W.B. Yeats* (Stratford Press) 1908 Vol. VIII, p. 18.

practice of the Elizabethan and Jacobean dramatists we notice that in general they recognized few grounds for preferring to use one medium —prose or verse—rather than the other(3). They wrote plays exclusively in one medium or the other, or used both mediums in the same play, the choice being determined in each case by reference to a commonly recognized convention that realistic plots would better be dealt with in prose, while loftier themes would lend themselves more naturally to poetic treatment.

We now speak of prose and verse drama as two different species of writing. We may be inclined, further, to stress the difference in scope appropriate to each medium and species. Critics are in the habit of speaking, mostly in a derogatory sense, of the intervention of realistic or naturalistic themes in poetic plays, and of the prosaic, or the prevalence of prose cadences, in verse. All this may in view of the circumstances be just and necessary. But it should not obscure the fact that the supposed antithesis between these two forms of dramatic writing is a symptom of a deeper maladjustment. Not infrequently do we come across arguments assigning to prose the role of imparting information whereas poetry is viewed as the proper vehicle for evoking emotions. It is possible to trace this distinction back to Dryden's time(4).

Analogously, the scepticism shown by critics with regard to realistic or naturalistic treatment of material in a poetic play may, in the present circumstances, be justified. But here again objection should not be made without reservation. Elizabethan and Jacobean playwrights made use of realistic as well as non-realistic themes without the practice resulting in the need for any deliberate effort to reconcile the two levels of consciousness. «The paradox of the human being», to quote Christopher Fry again, «is that he is ... brief, particular, transient and at the same time eternal, general, a continuation of the life which has been from the beginning(2)». Shakespeare may have held the same view of the paradoxical nature of man, but just as his personages, using blank verse, passed without seeming effort from ordinary statements to the most exalted utterances, so they effected

(3) The rigorous practice of Ben Jonson is one exception.

(4)The evocation of the passions, Lisideius remarks, «We have acknowledge to be the poet's work».

Essay of Dramatic Poesy (ed). Thomas Arnold 3rd ed (Oxford) 1959 p. 45 lines 8—9.

(5) Fry, C. : *Theatre Newsletter*, 11 March, 1950, p. 5.

fullest effect in the study and those which are more effective on the stage, is a product of a later age(1).

From general problems I proceed to discuss others of a more specific nature. While recognizing the principle of the organic unity of all forms of artistic expression, and while allowing for the fact that certain fundamental problems of art creation and reception are as old as creativity itself, this paper subjects to scrutiny a certain art form at a certain period—verse drama in the nineteen thirties. In a sense all academic research, by arresting the natural flow of the tide of a certain phenomenon, prejudices the issue. All that the researcher can do is to suggest reasons for his choice of the field of study.

My choice of verse drama has been actuated by the contention that in modern times this art form invites problems of a heightened nature. Questions of cultural debility, for instance, vitiating the recipient's canons of taste, can be seen at work more clearly in choreographic arts, refined music and poetry, by virtue of their proximity to abstract forms of expression, than in representational art forms.

Much as the verse dramatists in the last two centuries differ among themselves they are more or less united in their awareness of the challenge presented to their use of a verbal medium possessing an avowed metrical pattern. It would be possible, of course, to argue that the principle of selection governs the use of good prose no less than that of good poetry. Nevertheless, a verse dramatist has at least to get over the initial barrier which makes the ordinary playgoer react to verse in a more conscious way than that in which he responds to prose. In an article entitled «Why Verse ?» Christopher Fry wrote : «I should really write a play which should be so good that the question would never arise(2)». The question would not in all probability have arisen had the current of tradition in drama descended in direct line from the Elizabethan and Jacobean dramatists at it did to them.

Aristotle surveyed the tragedies available to him, and they happened to be written in a dialogue possessing avowed metrical qualities; although we may note, further, that to Aristotle the use of patterned language alone was not enough justification for deserving the quality that goes under the name of «poet». When we come to consider the

(1) i.e. the Romantic Age. Lamb's criticism is one instance.

(2) Fry, C. : *World Theatre*, Vol. 4, Autumn 1955, p. 57.

SOME BASIC PROBLEMS OF MODERN DRAMA CREATION AND RECEPTION

by
FAYEZ ISKANDER
Cairo University

In modern times the tendency has been to stress the gulf between the art of the public and the art of the coterie, between what is preferred by the majority and what is accepted as valuable by the most qualified opinion. In literary circles it has been customary to point out the impotence of all serious art, and to compare the apathy and unsettlement of people to-day with the ardour of the communities that produced the Greek chorus, the Troubadour canzone, and the Elizabethan lyric.

It may be loosely maintained that Tennyson was the last poet in England who spoke with the voice of the nation. Tennyson was perhaps in a position, as no poet of equal stature has been since, to write poetry without dissipated effort, without frequently arguing, for instance, whether what he was writing had or ought to have had any use, and to whom it was going to be addressed. Tennyson was able to assume that there was a common understanding of the place of poetry in his world.

To-day, however, a writer has to decide in the first place the relation of literature to society. The attitude he adopts is likely to determine in the long run some of the major features of his work ; for example the degree of approach towards or withdrawal from the spoken language, the amount of suggestiveness reflected in his work if it were to appeal to various levels of culture, the choice whether to dwell upon the formal or the communicative aspect of his creation, etc.

It is now customary for a volume of dramatic criticism to begin with a reminder that the principle which has determined the selection of its contents is that drama is primarily literature and has to be read and appreciated as such. This principle would rule out, the author obviously implies, plays of less literary merit though having proved post-office success. This distinction between drama as literature and drama as material for performance, between plays which produce their

Virtually apart from erecting the two forts at Gondokoro (Ismailia) and Fatiko, the station of Foweira and the town of Taufikia, the expedition was unable to achieve its chief objects : the suppressing of the slave trade, the opening of the country to legitimate commerce, the placing of a steamer on Lake Albert Nyanza(155). Not only had Baker left the slavers almost undisturbed, he had contributed to a further deterioration of conditions in the Sudan and Equatoria by failing to distinguish between quasi—legitimate raids, upon tribes in league with the slavers, and mere predatory razzias. It is not surprising therefore that the expedition was frankly stigmatised by Mc William, Baker's chief engineer, as «a war of conquest and aggression». It had been expensive too. More than a million pounds had drained out of the Egyptian exchequer on account of «the big, square, hook—nosed, spade—bearded Sir Samuel(156)». In point of fact, he had acquired a flotilla of steamers for the Nile, but apart from them there was little to show for the cost except a few useful maps.

(155) Shukry, M. F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, p. 174.

(156) Beatty, C. : His Country Was the World. A Study of Gordon of Khartoum, p. 142.

of the steam vessels, the great events of the future will begin by the establishment of navigation in Central Africa».

As soon as he heard of the arrival of the expedition at Khartoum, the Khedive ordered a telegram to be sent to Sir Samuel, to congratulate him on his safety and on «the success of his mission(148) ». This last statement, needless to say, was a matter of courtesy, for Ismail by then had become convinced that the success of Baker's expedition had been much exaggerated(149), and his mission generally speaking had proved very unsatisfactory in its results(150). Besides, in the course of a conversation with the British consul General in Cairo, the Khedive pointed out that the operations of Baker's expedition had given rise to a general feeling of hostility and dislike towards Europeans and his government in the «Upper Country», and that even between Khartoum and Gondokoro the road was unsafe, and tribes hitherto friendly and well disposed were giving considerable trouble. Ismail moreover disbelieved that the way was open to Zanzibar, nor did he think that Baker had penetrated as far as the Equator(151).

Accordingly, on his arrival at Cairo in August 1873, Baker was received by the Egyptian authorities with coolness and dispassionateness(152). Undoubtedly, the Egyptian government was very glad that his term of office had finally completed. Nevertheless no sooner had Baker reached Cairo than he submitted to the government an accusation against Abu Suud, whom he had arrested in Cairo by a telegraph sent from Khartoum. In addition, he delivered to Cairo authorities «seventeen documents sworn to upon the Koran, and signed by many witnesses» charging Abu Suud with the murder of natives, the pillage of districts, the hunting of slaves, and direct rebellion against the government(153). But this impeachment did not change the Khedive's mind, that Sir Samuel was himself to blame for many of the difficulties which he had encountered, and which eventually ended with the failure of his expedition(154).

---

(148) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 4 July, 1873.

(149) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

(150) F. O. 78/2281. Elliot to Granville, Therapia, 2 July, 1873.

(151) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

(152) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873.

(153) F. O. 78/2349. Baker to Derby, 16 May, 1874.

(154) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 11 December, 1872.

ment received a despatch dated 15th March from the «moudir general» of the Southern Sudan, reporting the arrival at Gondokoro of the reinforcements sent to Baker, and confirmed that «la mission est en bon état(143)», at a place about 40 or 50 miles south of Gondokoro(144).

Baker, in fact, had left Fatiko on 20 March, and arrived at Gondokoro on 1st April «without firing a shot en route(145)». Leaving Muhammad Ra'uf Bey in charge of government of Equatoria, Baker descended the Nile for Khartoum, and while en route he came across two vessels conveying ivory which belonged to Aqqad and Company. On examining their cargos, he found also slaves hidden beneath them. Immidately he ordered the governor of Fashoda to take the slaves and confiscate the ivory.

Arrived ultimately at Khartoum, Baker sent a telegraph to the British Consul General in Cairo, in which he enumerated the achievements of his expedition as follows :

> «The country as far as the Equator annexed to Egyptian dominion. All rebellions, intrigues and slave trade completely put down. Country orderly. Government perfectly organized and road open as far as Zanzibar. El Zaraf navigable. Victory on June 8, 1872 with only 105 men over army of Onioro. Mission completely successful(146)».

Few days later, Baker sent to the Khedive a similar message, in which after having mentioned in abbreviation the results of his expedition, he declared :

> «The traffic in slaves has been suppressed, and an immense area has been added to the territory of Your Highness. Lake Albert joins Lake Tanganyika(147), and thus, when camels reach Ismailia (Gondokoro) for the transport

(143) F. O. 78/2284. Stanton to Granville, Alex. 17 May, 1873 ; and also F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Alex 18 May, 1873 ; enclos. Dépêche du moudir general du Sud du Soudan en date du 15 Mars, 1873.

(144) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Alex. 22 May, 1873.

(145) F. O. 78/2284. Baker to Stanton, Gondokoro, 19 April, 1873.

(146) F. O. 78/2283. Confid. Vivian to Granville, Alex. 1 July, 1873.

(147) Some of Mutesa's envoys who had been sent to request Baker to visit Buganda, had given him the impression that they considered Lake Tanganyika to be merely a continuation of Lake Albert. This impression was due to the use of the name «Mwita Nzige» for Lake Edward as well as Lake Albert.

Baker who, it is believed, might be easier and more expeditiously reached by the Nile(136) ».

In point of fact, apart from the relief of Baker, as Beardsley himself had indicated in a previous letter to the Department of State, the expedition had been intended to join Livingstone(137) and assist him in the work of solving the geographical problems of Central Africa, and more especially the question of the true sources of the Nile(138). Consequently, Colonel Purdy, an American officer in the service of the topographical engineers corps of the Egyptian army, was the obvious choice for leading this «relief expedition(139). Purdy, however, was selected for this enterprise for his sterling qualities and restless energy on the one hand, and on the other for his previous experience as a commander of the scientific expedition which, in the autum of 1870, had performed a reconnaissance of the country between the Nile and the Red Sea(140).

The preparations of Purdy's expedition regularly kept up, and on 5th March 1873 Beardsley informed his government that :

«The expedition under the command of Col. Purdy ... is about ready to take the field, and is expected to leave Cairo within ten days from this date(141)».

Yet Purdy's expedition did not leave for Zanzibar at all. On 25 April, it became known at Cairo, through a private telegraph which had been sent from Khartoum four days earlier, that Baker and his party were then at a place south of Gondokoro «in good health(142)». This intelligence was assured on 15th May when the Egyptian govern-

---

(136) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 5 March, 1873.

(137) David Livingstone (1813—1873), Scottish Doctor, Missionary, and explorer. In 1840 the London Missionary Society sent him to Kuruman, in Bechunaland, far to the north of Cape Colony. To open up Africa, and to bring to bear upon it the influence of Christianity and civilisation became the passion of his life. In 1853 he explored the course of the great River Zambesi, and crossed the continent from shore to shore. Between 1858 and 1864, under a commission from the British government, he explored the Zambesi valley further, as well as Lake Nyasa. In 1866 he set out on the last and longest of his journeys to solve the remaining mystery of the Nile-Congo watershed, but he died on May 4th, 1873.

(138) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 15 Dec. 1872.

(139) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 7 May, 1873.

(140) Crabités, P. : Americans in the Egyptian Army, p. 53.

(141) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 5 March, 1873.

(142) F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Cairo, 25 April, 1873.

ing his energies to interrupting Abou · Saoud's operations, and the hostilities in which he has been engaged may possibly have been undertaken with this view (132) ».

By December 1872, however, the particulars of Baker's expedition was not known at Cairo «except that it was a disastrous failure (133) ».

Yet, believing that Baker's expedition had been confronting with the formidable opposition of the natives in the Lake region, the Egyptian government had decided to attempt certain measures for its deliverance. In November, therefore, the whole problem had been put under discussion at the Ministry of War. On the 27th, General Stone, chief of the general staff of the Egyptian army, had submitted to the Khedive a report, in which it had been suggested that a «relief expedition» should be dispatched to communicate with Baker. And as the navigation of the Nile south of Khartoum was exceedingly perilous, owing partly to natural difficulties and partly to the hostility of the «savage tribes» inhabiting the Upper Nile basin, it had been intimated that this relief expedition would try to reach Baker by the way of Zanzibar (134).

At the beginning of December 1872, however, this scheme was notified to the British Consul General in Cairo. During a conversation with Stanton, the Khedive declared that he was thinking of sending an expedition via Zanzibar for the purpose of endeavouring to communicate with Baker on the Lake. Transmitting this information to the Foreign Office, Stanton appended :

> «I am at present unable to offer an opinion, as to whether His Highness seriously entertains the idea of sending this expedition, or whether if serious in the matter, he may not have some other object... (135) ».

About three months later, Beardsley, the American Consul General in Cairo expressed his doubts towards the proclaimed object of this expedition :

> «as its first destination is Zanzibar or thereabout ,it is difficult to believe that its ultimate object is the relief of

(132) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. ? December, 1872.

(133) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 11 December, 1872.

(134) Douin, G. : tome III, 2e partie, pp. 89—91.

(135) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. 7 December, 1872.

Writing on 7th December 1872, Stanton, the British consul General in Cairo, informed Earl Granville, the Foreign Secretary :

«I have the honour to report to Your Lordship, that during a conversation with the Khedive, His Highness mentioned to me, with reference to Sir Samuel Baker's expedition, that he had received a despatch from the governor general of the Soudan, to the effect that an attempt recently made in compliance with His Highness' orders, to communicate with Sir Samuel Baker had failed and that the expedition sent from Khartoum, had been unable to pass the obstructions in the White Nile, which caused so much delay and difficulty to Sir Samuel himself, about eighteen months since, and His Highness added, he was without any reliable intelligence as to the position of Sir Samuel Baker, though numerous had reached Khartoum that he was in lake Albert Nyanza (131) ».

Few days later, Stanton wrote again to Granville :

«With reference to my despatch of the 7th instant mentioning the rumours existing as to the position of Sir Samuel Baker's expedition, I have the honour to report to Your Lordship that during a recent interview with the Khedive, His Highness informed me that he had received intelligence that a certain Abou Saoud, the principal ivory trader of the White Nile, had arrived at Khartoum, reporting that Sir Samuel Baker had been unable to reach lake Albert Nyanza in consequence of the hostility of the inhabitants, and that he had been obliged to abandon some of his stores, having been unable to obtain porters for their transport, and to fall back towards Gondokoro.

«The source of this intelligence is however not strictly reliable, as Abou Saoud is in all probability connected with the slave trade of that district, and it is very possible Sir Samuel Baker, knowing the intimate connection that exists between the ivory trader and slave hunting, has been denot-

---

(131) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. 7 December, 1872.

Equally there was another point, in endeavoring to set up amicable connection with Egypt's representatives to the north. Apparently Baker's activities in general were very different in purpose and execution from those of the northern traders. He might well be an advantageous confederate. Certainly it would be hazardous for Buganda to allow herself to become the loath victim of too close an alliance between Bunyoro and Egypt. Such an explanation readily accounts for the original despatch of emissaries to see Baker whilst he was in Bunyoro, as it probably explains Kabarega's concern to thwart their meeting, and it probably too elucidates the despatch of the Baganda army to its northern border (129), when Rionga appealed to Mutesa at a time when he feared an assault by Baker upon him was overhanging (130).

For had this occured, it would have implied that an alliance between Kabarega and Baker had now been created, and if Rioga had succumbed, Buganda would have been next on the list for attack. But Baker at length clashed with Kabarega, and sided with Rionga. Mutesa was therefore quick to send envoys to Baker at Rionga's offering the help of Buganda's well—armed forces against the Banyoro, for no Kabaka could overlook any opportunity to weld a formidable alliance against his own most stubborn foe.

Baker, however, was now withdrawing, and went no further to assist Mutesa's quarrel with Kabarega. Yet such were almost certainly the terms in which these rulers looked upon the Egyptian intervention as it now began to develop.

At all events, a thick obscurity was then surrounding the expedition of Baker at Cairo and through the reports which arrived, the Egyptian government became convinced that the success of Baker was quietly doubted.

Since October 1871, Cairo had not any reliable intelligence concerning the position of Sir Samuel. From that time, and for more a year, the Khedive had received no communication from Baker.

---

(129) In his «Ismailia», Baker treated this as a demostration of Mutesa's friendly disposition towards the Egyptian government and of his desire to rid Bunyoro of the «cowardly and treacherous Kabaraga». Furthermore, in a letter sent from Ismailia (Gondokoro) to the British Consul General in Cairo, Baker declared : «I have allied with the king M'tesa of Maganda, who sent 6000 men to my assistance in Unyoro». See, F. O. 78/2284, Vivian to Granville, Alex. 2 August, 8173 ; enclos. Baker to Stanton, Ismailia, 19 April, 1873.

(130) Wilson and Felkin : Uganda and the Egyptian Sudan, vol. 2, pp. 41—42.

secured the throne of Bunyoro. Yet the lesson was obvious, and Mutesa proceeded to encourage the Zanzibaris to come to his country more than ever before, more especially to provide him with arms. By 1871 it was said that he had over a thousand, which was more than any other kingdom in the area could as yet put in the field(125).

By then, as it happened, the Sultan of Zanzibar, the sovereign of the Arab and Swahili traders, had sent Mutesa an embassy with some presents(126), no doubt in order to exhibit his support for the trade which had now developed. Mutesa was quick to reply by sending his own envoys to Zanzibar with a handsome load of ivory as a present for the Sultan(127). Whether he was thinking primarily of procuring an ally against Egyptian intervention as has been suggested(128), is not by any means clear. Certainly, there is room for doubt whether he had fully grasped the design of Baker's expedition. Baker had not, for instance, when he sent his «special caravan» to Zanzibar, yet came into collision with Kabarega. Mutesa was, however, very probably solicitous to ascertain absolutely for his own source of arms and ammunition against any advance by the northern traders. And he was in all likelihood equally concerned to make sure that if Kabarega were to look again to the north for assistance, Buganda should be the first of the lacustrine kingdoms with whom the Zanzibaris from the south (with whom Kabarega, via Karagwe, was to some exent also in touch) would cooperate. There was point in a manifestation to make sure of this, particulary when the initiative had come from the side of Zanzibar.

---

(125) Baker, S. W. : Ismailia, p. 264.

(126) According to David Livingstone, amongst other presents Seyyid Majid sent eight buffaloes to Mutesa (Waller, H. : The last journals of David Livingstone, I, p. 273). This may seem at first sight rather like sending coals to Newcastle, but the animals were in all probablity domesticated buffaloes which had been trained as transport animals and which came from India. History is silent as to whether any buffaloes ever reached Buganda at this date. See, Gray, J. M. : Sir John Kirk and Mutesa, Uganda Journal, vol. 15, March, 1951.

(127) The Baganda envoys are said to have set forth with one hundred and fifty tusks. We know for a fact that «upwards of fifty-five elephants' tusks» actually reached Zanzibar, and handed over to Seyyid Barghash bin Said, who had in 1870 succeeded his brother Seyyid Majid as Sultan of Zanzibar. See, Kirk's letter to the President of the Royal Geographical Society, 13 October, 1871 ; Proceedings of the Roy. Geog. Soc. 1871—1872, p. 186.

(128) Sir John Milner Gray suggests that Baraghash received the Banganda envoys with great courtesy, «but failed to realise the fact that they came with a serious offer, of an offensive and defensive alliance». See, Gray, Sir J. M. : Mutesa of Buganda, p. 28.

to such «an independent chief of first importance(120)». Consequently, during his stay at Fatiko, the British commander and the celebrated Acholi chief were on the best of terms, and the whole of Ochama's very powerful influence was placed at the disposal of the Egyptian government(121).

Meanwhile messengers arrived from Buganda «begging» Baker to visit Mutesa as soon as possible, «as he had only one desire, i.e., to see my face, and that he did not wish for presents(122)». In his article on «Mutesa of Buganda», Sir John Milner Gray points out :

> «The man whom Emin Bey(123) subsequently described as the most arrant beggar of all African potentates whom he had ever met, was not likely to decline gifts without good reason. When we remember the length of time during which Arab traders, Speke, Grant, and subsequent missionaries were involuntarily detained at Mutesa's court, it seems clear that Baker was to be invited into a trap. Mutesa wanted a valuable hostage as security against future Egyptian aggression. The trap, however, failed, Baker sent one of his soldiers, who had formerly served under Speke, in his place ... (124)».

To us looking back, marking the relations of Buganda with her neighbours, especially with Bunyoro, and knowing the terms in which the rulers of these lacustrine kingdoms looked upon Egyptian intervention, its seems that Gray's point of view is not by any means reasonable.

It has to be remembered that Mutesa's neighbour and rival, Kamrasi, Mukama of Bunyoro, had died in 1869, and Kabaka Mutesa had intervened upon the side of Kabugumire against Kabarega. Supported in considerable strength by the traders from the north, while the Baganda were only armed with spears, Kabarega at length

---

(120) Bere, R. M. : Awich—a biographical note and a chapter of Acholi History ; Uganda Journal, vol. 10, September, 1946, pp. 67—77.

(121) Gray, Sir J. M. : Rwot Ochama of Payera, p. 122.

(122) Baker, S. W. : Ismailia, p. 447.

(123) Emin Pasha (Eduard Schnitzer), ? 1830—92 ; travelled in Turkey and Egypt ; 1877—8 Governor of Equatorial Province, Sudan ; 1888—9 «rescued» by Emin Relief Expedition under Stanley ; 1890 entered German service ; October 1892 murdered by slave-raiders.

(124) Gray, Sir J. M. : Mutesa of Buganda, Uganda Journal, vol. 1, January, 1934, p. 29.

chief to kill the «nasrane(113)» on his return from the south(114). Among the wounded prisoners was Wad el-Mak who, during Baker's previous journey, had been looked upon by the terrified natives as the ruler and scourge of western Acholiland(115). In spite of this shameful reputation, and though an instigator in the rebellion against Baker, he was forgiven and allowed to enter government service, together with nearly three hundred other irregulars, who selected this course rather than the alternative of flying in company with Abu Suud to Khartoum.

Yet, after an interval of rest at Fatiko, Baker established there a «strong fort», of which garrison was supplied with corn by the surrounding Acholi. He then set about tranquillizing the neighbouring districts, with a result that the entire country—as he claimed—soon reduced to perfect order, and the natives exceedingly satisfed with the new Egyptian «regime»(116), paid their monthly taxes of corn readily to Egyptian authorities(117).

Baker, however, remained about seven months at Fatiko (2th August 1872—20th March 1973), entering into amicably relations with the Acholi chiefs. Among these was Omar Oye, who was familiar with the slave traders and Baker as «Wad el Ajoos», namely the son of the old man, and who had been Rwot of Fatiko during the previous visit of Baker in 1864(118). Another chief was Ochama, Rwot of Payera, who, as it has been seen, had determined to offer his allegiance to Sir Samuel, while the later was proceeding to Bunyoro. At the zenith of his power, Ochama probably exercised effective rule over the whole country extending from Kitgum to Pakwach and the Murchison Falls. Conceiving that Ochama was a great and famous chief(119), Baker treated him with the deference he considered due

---

(113) Nazarene, and it denotes here Sir Samuel Baker.

(114) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 10 July, 1873 ; enclos. a copy of a telegram from Henzel ; agent of New York Herald. Khartoum. 6 July, 1873.

(115) Ingham, K. : The Making of Modern Uganda, p. 25.

(116) F. O. 78/2283. Ibid.

(117) F. O. 78/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873 ; enclos. Baker to Stanton, Gondokoro, 19 April, 1873.

(118) Bere, R. M. : An Outline of Acholi History ; Uganda Journal, vol. 12. March 1948, p. 6.

(119) Anywar, R. S. : The Life of Rwot Iburaim Awich ; Uganda Journal, vol. 12, March, 1948, pp. 72—73.

After the ruin of Masindi, Kabarega absconded with his wives, his cattle, and most of his people. Though he pretended that the attack was made without his order, it soon became apparent that further treachery was intended in the hope that the whole party should be massacred. Baker therefore decided to march to Rionga, for raising him and his supporters against Kabarega. Hence, few days after the catastrophe of Masindi, Baker set fire to his «beautiful station», and destroyed all effects that he could not carry. The terrible retreat of about eighty miles through a foe's country was attended with many hardships. The troops were attacked during the marsh by fresh levies gathered in every district through which they passed; and «sometimes thousands rushed from the ambuscades of dense grass jungle, and the lances whiffed unpleasantly about our ears, but the rapid fire of the Sniders invariably repulsed the enemy with great loss(110)».

Retreated towards the Somerest Nile, where Rionga was ruling over Chopi district, Baker was welcomed by this chief, with whom he hurriedly changed blood, according to the custom of true friends in Tropical Africa. After establishing a fort at Foweira, and leaving a small body of troops with Rionga, he continued his retreat to Fatiko, in order «to bring up supports from Ismailia (Gondokoro), and to form an irregular corps of such of the traders' people, who should swear allegiance to the government».

Arrived at Fatiko on 2th August 1872, Baker, unexpectedly, found the garrison he had left behind, had proved unable of grappling successfully with Abu Suud's Danaqla. During his stay at Masindi, these irregulars had attacked the Acholi, mainly because they had refused to fight the «Englishman» on his arrival from the north(111). Thus, the garrison of Fatiko had failed to give the Acholi any suitable protection(112).

Besides, instantly on his arrival he was greeted with an armed rebellion of Abu Suud's men, who were subdued only after a sharp engagement, in which 140 of them were killed and many taken prisoners. When Baker inquired of some of these prisoners for the reason they made war against him, they replied it was by order of their

(110) F. O. 78/2284. Ibid.

(111) Crazzolara, J. P. : The Lwoo, part II, pp. 243—4.

(112) Gray, Sir J. M. : Acholi History 1860—1901, Uganda Journal, vol. 15, Sept. 1951, p. 126 ; Gray, Sir J. M. : Rwot Ochama of Payera, Uganda Journal, vol. 12, Sept. 1948, p. 122.

This success, however, appeared to be «coleur de rose» as—Baker himself wrote on 13 August to Stanton—the poison which Abu Suud had left behind soon took its effect in the mind of Kabarega. The later, in fact, was prepared on the first difference of opinion to believe all that he had heard against the government(107). About a month after he had notified the Khedive of the formal annexation of Bunyoro to Egypt, Baker was attacked at his station on 8 June 1872 by nearly six thousand of Kabarega's men(108). This sudden attack was described by Baker in a message to the British Consul General in Cairo in the following manner :

> «On the night of 7th June Kabba Rega sent a present of seven large jars of plantain cider. About 20 gallons. I gave six jars to the troops, reserving one for ourselves. Thank God we did not drink it. A few minutes after the drink had been issued to the men. Lieut-Col. Abd el Kader ran in to the divan (government house) with the news that the troops were poisoned. It was about 8 p.m. About 40 men were in a distressing state, some insensible. I gave all strong emetics. I doubled all the sentries, and shut the sick within the fort. During the night we heard the lowing of cattle as though the cows were being driven away from the town. The utmost silence was observed by the natives, who were usually singing and drumming at night.
>
> «On the following morning ... my men were hardly in poison, when we were attacked on all sides by about six thousand men, many of Kabba Rega's soldiers being armed with guns ... I immediately assumed the offensive cleared the castor oil jungle by a hot fire from the Sniders ... In about an hour and a half Masindi was destroyed, and the victory gained. The natives lost about 100 men including nine chiefs. This treacherous conspiracy to poison the troops and then to massacre those who might remain, ended in the total discomposure of Kabba Rega's army, and the destruction of his capital(109)».

---

(108) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

(109) F. O. 87/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873 ; enclos. Baker to Stanton, Fatiko, 13 August, 1872.

(107) F. O. 78/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873 ; enclos. Baker to Stanton, Fatiko, 13 August, 1872.

alliance, Baker was again forced to accept the methods of his trading predecessors (105), and renounce the rôle befitting his civilizing mission (106). Subsequently, he engaged in erecting a large room, which he called «government house», and made it as charming as possible. English views and coloured pictures of British notabilities were hung upon its walls, among these were a large portrait of Queen Victoria and another of the Princess of Wales. Kabarega and some of his chiefs visited that house, and were struck with wonder by its curious contents.

Tempted by the false friendliness of Kabarega, Baker formally proclaimed on 14 May 1872 the annexation of Bunyoro to Egypt. Four days before the formal annexation of this kingdom he had written from Masindi a letter to the Khedive, in which he addressed him as follows :

> «I hope that Your Highness will be satisfied with what I have done. The difficulties with which I was confronted were almost insurmountable ; but, thank God, they have been conquered. Now that the slave traders are out of the country, the natives look with confidence upon the government of Your Highness».

Moreover, Baker declared that Kabarega had accepted without hesitation the Egyptian government, consenting to supply the troops with victuals ; and thus «j'ai monté le pavillon de Votre Altesse et j'ai declaré l'annexion à l'Egypte». After several weeks however, continuing to point out, he would «pousser au sud de l'Albert Nyanza et de monter le pavillon de Votre Altesse à la source du grand lac», hoping to place before his return the Egyptian flag at least one degree south of the Equator, and thereupon the territory of Egypt would extend 33° south of Alexandria.

---

(105) As it happened, after Kamrasi, Mukama of Bunyoro, had gathered to his fathers in 1869, some of his innumerable sons proceeded to fight each other for the vacant throne. On this occasion the strife was prolonged and embittered by the intervention of the traders from Khartoum. But these traders were not the only people to take advantage of this fratricidal war. Mutesa of Buganda saw the opportunity of weakening the power of his country's hereditary enemies by fomenting strife and by endeavouring to secure the throne for his own nominee. He decided to intervene upon the side of Kabugumire against Kabarega ; but most ill-advisedly. For it was the traders from the north with their superiority in guns who proved to be the successful kingmakers.

(106) Gray, R. : A History of the Southern Sudan, p. 101.

country until porters from the Makaraka arrived, Baker marched on 18 March 1872 southwards to Bunyoro, following the common and safer way in former times(101). He passed on the route Abu Suud's southernmost station at Foweira on the victoria Nile, and examined its mass of ivory, which he deemed government property. Having faced with the alternative immediate evacuation to Khartoum, the garrison cf Foweira after a good deal of discussion loathingly agreed to enter government service, and Baker at once prepared to visit Bunyoro by sending presents to Kabarega.

On 25th April, the British commander reached Masindi, the orubuga (capital) of Bunyoro. Shortly after his arrival he heard that Abu Suud had been there to incite the natives against the expedition(102). Abu Suud, as has been seen, reached Gondokoro in June 1871, and though he was warned by Baker to withdraw his men from the district, the noted slaver left for the south, at a time when it appeared that Baker, involved with the Bari, might be unable to pursue him. Decided to make no attemp to evacuate but to sojourn in the south hazarding on the possibility that if Baker failed he would be able to continue his trading undisturbed, Abu Suud forthwith paid a hasty visit to the court of Bunyoro, during which he informed Kabarega that «the Pasha and his Egyptian troops were coming to take possession of his country, and to place the inhabitants under the Egyptian government and to enforce payment of tribute(103).

Baker therefore attempted to explain to Kabarega «the intentions of the Khedive of Egypt», namely «the suppression of the slave trade, and the return of every slave that had been kidnapped from this country». He further lamented the terrible change that had occurred throughout Bunyoro since his former visit, assuring Kabarega that «the future would be prosperous, and that, under the protection of Egypt, he would never have further cause for alarm(104)».

Yet although Kabarega received these declarations with simulating pleasure, his idea of conversation was almost certainly to procure Baker's support against his rival Rionga, the chief of the Chopi district on the banks of the Somerset Nile. In agreeing to this

(101) Crazzolara, J. P. : The Lwoo, part I, p. 112.

(102) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

(103) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 10 July, 1873 ; enclos. a copy of a telegram from Henzel dated Khartoum, 6 July, 1873.

(104) Baker, S. W. Ismailia, vol. 2, pp. 182—3.

attempts were unprofitable(93), and Baker's arrival at Fatiko was hailed with real delight by the natives and their leaders, especially by Rwot Ochama(94), who as Baker narrates «had never visited Abou Saoud or his people, but who would quickly tender his allegiance to me as the representative of the Khedive». On 16th March Ochama paid a visit to Baker at Fatiko assuring that when he had heard of his arrival «he had determined at once to offer his allegiance, and he and all adjacent countries would serve the government faithfully, in return for protection and justice(95)».

Hearing of the death of Kamrasi, Mukama of Bunyoro, and of the turn to Islam and learning Arabic of Mutesa, Kabaka of Buganda(96), Baker was enheartened to penetrate southwards(97). Whether for lack of time or other reason(98), Baker did not go to Buganda, and his longings consolidated on Bunyoro. His hopes however were rested on the conviction that the ruler of that kingdom would encourage the opening of trade, as well as on the fact that during his previous visit he protected Kamrasi from an attack by a party of de Bono's irregulars(99). He wished therefore to gain the aid of Kabarega, Kamrasi's successor, in opening up the river route to Lake Albert.

After leaving at Fatiko a small garrison for guarding a recently constructed magazine holding most of his ammunition, and keeping under control Abu Suud's men(100), whom he agreed to wait in the

(93) Crazzolara, J. P. : The Lwoo, part II, p. 248.

(94) Baker's Rot Jarma, and Rwotcamo in the Acholi narrative. It is worthy of note that Ochama claimed descent from Lwoo, the progenitor of all the Lwoo-speaking people. According to tradition, Labongo, who was the founder of the Babito dynasty in Bunyoro, was the common ancestor of both Ochama and his contemporary, Kabarega of Bunyoro.

(95) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 2, pp. 95—127.

(96) Gray, Sir J. M. : Mutesa of Buganda ; Uganda Journal, Jan. 1934 ; Gee, T.W. : A century of Muhammadan influence in Buganda, Uganda Journal, Sept. 1958.

(97) Baker, J. A. : Geographical Notes of the Khedive's expedition, p. 142.

(98) On 16 December, 1874, Chaillé-Long sent from Gondokoro to General Stone, chief Staff of the Egyptian army, a report contained a detailed account of his mission to Mutesa of Buganda. In this report Long said that a black named Ba-Baker (Abu Bakr), ivory agent of Mutesa, told him : «I prevented Baker (Sir Samuel) from reaching Uganda. You are a fortunate man, I will do everything to secure your admission to Uganda». See, Provinces of the Equator. Summary of letters and reports of his Excellency the Governor-General. Cairo 1877, pp. 37—38.

(99) Baker, S. W. : The Albert Nyanza, p. 371.

(100) Gray, Sir J. M. : Acholi History 1860—1901, I, Uganda Journal, Sept. 1951.

The expedition then went ahead to Labore, where they rested for nearly a fortnight and obtained 400 carriers to convey the stores(89). On their way they passed many pillaged villages, which had been ruined by the slave traders. Several parts of the country which Baker had formerly seen most flourishing had been entirely devastated by the slave hunters. Whole villages had been burnt, and «for 84 miles we passed through a country without a single inhabitant, whereas I recollect that years ago there was a teeming population there. This population was now gone(90) ».

Reached Fatiko, the «paradise of Africa» in March 1872, Baker found that the slavers had there a very large station, in which an immense number of slaves were kept under the custody of about 1100 armed Danaqla, with flags and drums. This station however belonged to Abu Suud, whose men were inexorably plundering the whole villages to the west across the Albert Nile or to the south east among the Lango and other tribes. Having not known what to do with these slaves, «I could not have fed them, for there were thousands and thousands», Baker gave the slavers a notice to quit without delay the country with their slaves.

Fatiko was one of four stations among the Acholi which were garrisoned by Abu Suud's Danaqla settlers, many of them were dressed in skins or bark-cloth. Although all the stations in Acholiland were under the nominal control of 'Aqqad's company, many of these Danaqla had entered the country in de Bono's service, and formed a force capable of spreading devastation far and wide(91). Undoubtedly, the disturbed state of the peoples of the Equatorial kingdoms met the demands of the slavers, who confederating with the contending tribesmen, converted swiftly the country into a wasps' nest and gathered a rich harvest in the process(92).

There can be no doubt that Baker's advance southwards was a source of danger to the slavers, who spared no effort to persuade the Acholi by misleading reports to fight the expendition. Yet their

---

(89) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

(90) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa, pp. 56—57.

(91) Speke and Grant have given graphic descriptions of the miseries which these irregulars inflicted on the countryside and, in his «Albert Nyanza», Baker fully confirms their story.

(92) Ingham, K. : The Making of Modern Uganda, p. 24.

received a letter from their commander, Muhammad Ra'uf, «inclosing and supporting official letters from the regimental officers proposing to abandon the expedition(84)». Threatened with entire failure, Baker at once ordered a campaign against the Bari, hoping that it would provide the soldiers with ample supplies(85). He further instructed that all soldiers seriously ill should go back to Khartoum. It was reported that six hundred troops took advantage of this permisson, «many in strong health», and his armament was thus reduced to 502 officers and soldiers(86). Unable to bring over the Bari to exchange corn for trade goods or cattle, Baker authorized the troops to seize the supplies, and in January 1872 his forces cleaned the country by rubbing large quantities of corn and sent it by boats to Gondokoro. It is not surprising therefore, that Baker's stay among the Bari, is remembered by them in a series of lampoons, the bitterness of which is almost impossible to translate(87). Thanks principally to the Snider rifles used by his soldiers, Baker was ultimately able to subjugate his foes, and thereafter decided to penetrate southwards.

Eventually, on 22th January 1872 Baker penetrated into the interior, leaving at Gondokoro a very considerable portion of his force(88). His immediate step was to transport the sections of one of the steamers over the 120 miles separating Gondokoro from the navigable Albert Nyanza Nile south of the Fola Rapids, and thus to the successful accomplishment of Egypt's plans. A few days after his departure he reached Rejaf, where he met Bedden, a seemingly friendly chief to the south of that point, and whom Baker asked to provide with porters to carry the sections of the steamer, promising to pay in cattle. Distrusting Baker, or as the later indicates, hoping to obtain the cattle more easily by rapine, Bedden refused to collaborate and attacked treacherously the camp at night. His action threw down all hope of being capable to transport the steamer instantly, and Baker resolved to send the steamer sections back to Gondokoro and proceed south with his soldiers alone.

(84) F. O. 84/1371. Ibid.

(85) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, p. 367.

(86) F. O. 84/1371. Ibid.

(87) Beaton, A. C. : Chapter in Bari History. Sudan Notes and Records, 1934, p. 190.

(88) F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Alex. 18 April, 1873.

cattle were stolen from the Shir country, where an officer and six soldiers had been left to represent the government and help the natives in cultivating corn. When Abu Suud attacked the Shir tribe, they—as Baker claimed in his report to the Khedive—«concluded that the government troops were spies and killed the detachment except the officer and one man(81) ».

In the course of the next few months Baker's exigency of provisions for his troops accounts for the enemity of the natives to his expedition. When it became clear on 26th August 1871 that the corn supplies would be spent after two or three weeks, Baker before dawn on the 30th led out a force of six hundred troops on a raid to Belinian, where there was «an immense quantity of corn all over the country». After setting fire to the neighbouring villages, the troops encamped near the hill, where Baker and his nephew determined «to buy corn from the natives if we can make terms with them, or to take it from them if we cannot». A prolonged and useless negotiations were entered into, which ended by Baker's destruction to «all the villages for about three miles along the mountain». Hence, the leaders returned to Gondokoro rejoicing in the fact that «We shall now beable, knowing the country to catch the cattle at any time», but without having solved the problem of corn supplies(82).

Indeed, during his stay at Gondokoro, Baker seized the cattle from the neighbouring tribes, not only for reason of nourshing his men, but also for giving them to other tribes provided that they would be friendly with him and serve his expedition. Mc Williams, Baker's chief engineer, enunciated that :

> «out of the numerous raids made against the inoffending natives near Gondokoro, many of them were led by Sir Samuel in person. Cattle and sheep to the number of 30,000 were captured. Baker's men received part of the cattle as their pay, while another share was given to the few tribes that promised to serve Sir Samuel(83)».

Nevertheless a general feeling of discontent among the troops for lack of provisions reached its climax on 12th October, when Baker

(81) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873 ; enclos. Abstract of Sir Samuel Baker's report to the Viceroy.

(82) Julian Baker's Diary, 30 August, 1871 to 24 September, 1871. Quoted by Gray, R. : p. 97.

(83) Shukry, M. F. : Equatoria under Egyptian Rule, pp. 443—445.

stream ; the soldiers dressed in clean uniforms were gathered, and Alloron and all the leaders of the country were summoned to witness the ceremonial. On 20 May 1871, taking up a position near the flagstaff, Bakar red an official proclamation declaring Gondokoro a part of the dominions of Egypt. Simultaneously, he issued the following «camp regulations» :

> «1-No person shall cut or in other ways destroy any tamarind or oil tree under any pretext whatever. Neither shall any tree whatsoever be either cut or damaged within a distance of 2,000 paces from the flag-staff or camp.
>
> «2-No person shall stray beyond 2,000 paces of the flag-staff or camp without permission.
>
> «3-No person shall trade in ivory, neither shall any person accept ivory as a present or in exchange ; neither shall any person shoot, or cause to be shot, elephants : all ivory being the property and monopoly of the government of His Highness the Khedive of Egypt.
>
> «4-No person shall either purchase or receive slaves as presents or in exchange(79) ».

At Gondokoro, a regular government was thus claimed to be established. This, not unnaturally, irritated the Bari, the most warlike in Central Africa, for they could no longer accompany the slavers in pillaging. The Bari therefore not only raised secretly the whole country against the government, but continued to annoy the expedition in every possible way, such as attacking the troops or destroying by night the sown corn. It was quite apparent that these bellicose Nilotes were preparing for open war, and although their attack on the government station was repulsed, Baker, neglecting the Khedive's instructions, decided to make an assault on their stockade, which was stormed and six hundred cows seized. In this manner the «Bari War» commenced in June 1871(80).

By then, and in accordance with the terms with 'Aqqad and Company at Khartoum, Abu Suud arrived at Gondokoro bringing with him 1400 head of cattle, which were at once seized by Baker in the name of the Khedive. His pretext for doing this was that the

(79) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, p. 252.

(80) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, p. 268.

they had enough time to foment intrigues and to incite all the tribes against the expedition. The Bari under Alloron their chief had become the allies of Aqqad and Company. Acting as porters and mercenary soldiers, some of Alloron people had joined the slavers' parties in razzias against their neighbours. When the slave-hunters' parties left for their interior stations, the Lokoya, a near neighbour on the south east of Gondokoro, and who had lost slaves and cattle by the depredations of the slavers, attacked Alloron and forced his people to abandon their villages on the east bank of the river. They took refuge on islands, or along the west side of the Nile, where they waited for the annual visit of their Aqqad's men (77).

Thus, instead of meeting friends, Baker encountered many enemies. When Alloron was sent for, and arrangements made with him to erect huts and till corn for the troops, the Bari headman seemed at first satisfied with these demands, but he forthwith refused to give any assistance to the expedition.

The troops therefore set to work, and a station was formed, which was named «Ismailia». All kinds of vegetables and fruits were planted. Though the large garden was quickly completed, meat food came to be unavailable, for Alloron refused to allow his people to sell the visitors neither sheep nor cattle. The Bari chief moreover questioned Baker's rights to establish himself and his men at Gondokoro (78), and informed the British commander that the sole method by which he could get meat would be by undertaking a large-scale razzia. Shortly after the expedition had established itself at Gondokoro, Alloron's men began to impel their cattle to graze on the grasslands near the station, which they had been incapable to utilize beforehand for fear of the Belinian and Lokoya tribes. Excessively in want of food, and large herds of fat cattle pasturing under their eyes, the state of the troops became unbearable. At the end of May 1871, after giving due warning, Baker ordered his men to capture a portion of Alloron's herds.

Having conceived that the Bari, who were allies of slavers, aimed at starving out the expedition and forcing its retreat to Khartoum, Baker hurriedly resolved to annex the country to Egypt. A flagstaff or camp was constructed on the highest place of land overtopping the

(77) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 221—6.

(78) Douin, G. : tome III, 2e partie, p. 33.

acres under the plough and cost nothing. In the second year the profits should be double and the prosperity of the future will depend upon the energy of the administration (73) ».

After about one month's absence, Baker came back by steamer to Taufikia, leaving his vessels to follow him. According to the plans he had laid down, these vessels upon the commencement of the north wind arrived from Khartoum with supplies and fresh troops. At Taufikia, Baker was active for nearly two months in checking the slave trade. He claimed in a letter to Sir Roderick Murchison that :

> «During my stay at this station, I have entirely suppressed the slave trade of the White Nile, not one slave having passed down the river to Khartoum. The steps that I took upon immediate arrival completely intimidated the traders, and the traffic no longer exists (74) ».

Certainly, Baker's acts to suppress the slave trade along the White Nile, raised much indignation in Khartoum, and «a passive but stubborn resistance» was ultimately excited against his expedition (75). The opposition was chiefly enticed by Aqqad and Company, and its representative Abu Suud became a great antagonist to the British commander (76). Nevertheless the later went on to put into force one of his mission's objects, the annexation to Egypt of the regions south of Gondokoro, and the establishment of a government therein.

In December 1870, consisted of a fleet of fifty-nine vessels, conveying the troops, workmen, and the varions stores, the expedition left Taufikia and reached Gondokoro on 15th April 1871, after working for four months in nothing but mud and sluch and tangled vegetation. Yet it was not till the 22 nd of May that the entire flotilla attained to Gondokoro, having been delayed by foul winds and calms. On arrival at Gondokoro Baker found the country sadly changed sicne his previous visit. Villages had been demolished, and the whole region laid waste by wars, aroused by the slavers who took away the plunder. As the slave traders had been at Gondokoro the year before,

(73) Crabitès, P. : Ismail, the Maligned Khedive, p. 104.

(74) Baker to Murchison, Tewfikeeya, 6 December, 1870. Proceedings. Roy. Geog. Soc. vol. XV. London, 1871, p. 162.

(75) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 147—148.

(76) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

pass the rainy season. At the new station which was called«Taufikia», the carpenters and engineers of the expedition forthwith erected a quay on the margin of the river, a large stable for the horses, galvanized-iron magazines for use as store-houses, and hundreds of tidy huts arranged in streets, forming a little town. The natives did not delay to visit the station daily, bringing with them all kinds of goods for sale. They moreover took away the soldiers' corn, and brought it back ground into flour.

Paradoxically, Baker's return to Taufikia seemed to be a most unfortunate one, but in reality it was a most fortunate incident, for none of the slavers knew that he had established a huge camp there. Believing that he had retreated to Khartoum, the slave traders shortly came down with their boats laden with slaves, and of course they all fell into his hands. Baker however set all slaves at liberty, putting the captains of the boats in iron and sent them down to Khartoum(71). He offered at the same time Cairo a suggestion that the cargos of boats transporting slaves should be confiscated for the profit of the government, as a kind of punishment to the traders of the White Nile. Yet although the captured ships were seized in a region beyond his sphere of authority, the Egyption government sent to him congratulating for the liberation of the slaves, but she refused his suggestion preferring to deliver the captured merchandize to their owners rather than to be confiscated for the profit of the state.

Since he wished to assure himself that the requisite preparations of the expedition were made, Baker returned in September 1870 to Khartoum. Here, he made an agreement with Aqqad and Company, in the presence of the noted slaver Abu Suud to provide his forces with supplies kept at the various stations belonged to the Company, and furnish him with irregulars in the event of any war with the negroes(72). From Khartoum Baker dispatched to the Khedive a message, in which he referred to his future plans as follows :

> «I am thinking of establishing central stations, and of beginning to plant cotton in their neighbourhood. In this way it will be easy to cultivate, the first year, 1000 acres at each station. Our eight stations will thus give us 8000

(71) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa, p. 53.

(72) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 159—160 ; Murray and White : p. 166.

The first station on the river was Fashoda, a most unhealthy town surrounded by marshes, though fortified with a garrison of Egyptian soldiers. Having passed the Shilluk country, and arrived at latitude 9° 21 , Baker found that a terrible change had come over the Nile. The great and broad navigable stream had vanished and immense marshes took his place, and the expedition was forced to take the Bahr el Zaraf, a twining shallow branch of the Nile, which flows in the midst of the marshy plains dwelled by the Nuer, and enters the main river to the west of the Sobat junction. The slave hunters had used the Bahr el Zaraf as an alternative for the main stream and pushed their light vessels through this channel, to the open water of the Upper Nile, far above the obstruction. The region beyond these masses of floating vegetation was cut off from all law and authority, and was thereby admirably adopted for piracy(67).

But as the expedition penetrated southwards amidst endless marsh, the rapidity of the current diminished, the stream narrowed to a width that would scarcely admit the passage of the steamers. The channel gradually vanished, and the flotilla became fixed in a boundless sea of high grass. The party therefore worked for thirty-two days, in which they cut a passage for the boats about eight miles through the floating marsh—and swamp grass, and the sight of open water, from time to time, was cheering to the men, fatigued and sickened by hopless labour in mud and stench(68). Rejoiced in the prospect of quickly reaching the White Nile, the whole force sailed merrily on. But suddenly the water became shallower and shallower, as well as the flotilla had to be dragged over a sandbank(69). The rain to worsen the matters fell then in torrents, so that it was absolutely necessary to return for fear of being blocked up by the masses of floating vegetation closing in the rear(70).

Refusing to return to Khartoum lest intrigues should set going and ruin his expedition, Baker went back to the Dinka country opposite the Shilluk, where on the right bank of the Nile, six miles below the Sobat junction, a station was formed, in which it was intended to

(67) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa, p. 53.

(68) Baker to Murchison, Tawfikeeya, 15 June, 1870. Proceedings. Roy. Geog. Soc. vol. XV, London 1871, p. 93.

(69) Baker, J. A. : Geographical Notes of the Khedive's Expedition to Central Africa. Proceedings. Roy. Geog. Soc. vol. XVIII, London 1874, p. 131.

(70) F. O. 84/1371. Ibid.

Several factors however account for the failure of Baker's expedition. Yet although the British commander had a «carte blanche» to equip his expedition in a way that should satisfy his exacting requirements, for as Baker wrote to his brother John «I am to have any number—thousands if required—of troops as re-inforcements, and I have a carte blanche for all expenses, appointments and everything pertaining to the expedition(63)», he neglected to supply his body of forces with sufficient provisions. Once short of supplies, orders were given by him to plunder the inhabitants of the country in particular of their crops and cattle. The effect was that inhabitants became so hostile as to render impossible the intercourse which used to be maintained with them(64). Furthermore, Baker's suspicion that Khartoum administration and even officers sent with him of being attempted to frustrate the «aim» of his mission, induced him not to hesitate to take the serious mistake of enlisting some of the slave hunters' bands in his own force, from which the natives ought have thought that the British commander and the slave hunters were in league(65).

However, no sooner had Baker received his appointment than he had three steamers commissioned from England and two steam life-boats built in Cairo to navigate the Nile and its tributary waters. Other necessities and trade goods were also ordered to help him in the accomplishment of his mission. Thirty-six vessels were supplied to carry the stores from Cairo to Khartoum. The European staff of the expedition composed of Baker's young nephew, Julian, who was a naval lieutenant, seven engineers, and a British physican. On 5th December 1869, Baker in company with his capable wife, left for the Sudan in the near of the expedition, and travelling by the Swakin route, rached Khartoum in thirty-two days. Departing from Khartoum on 8 February 1870, before all preparation had been completed, Baker started for the White Nile, leaving Higginbotham, the chief engineer, to come after with the remainedr. Baker's force however composed of 33 undecked vessels, 2 steamers, and 800 men commanded by the Egyptian officier, Muhammad Ra'uf(66).

(63) Gray, R. : p. 89.

(64) F. O. 78/2218. Elliot to Granville, Therapia, 2 July, 1872.

(65) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873.

(66) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873 ; enclos. Abstract of Sir Samuel Baker's report to the Viceroy.

dary importance which would follow from the subjugation of the country. His mission was to conciliate the tribes and to disturb the commerce and trade with the Lower Nile as little as possible. He was to be cautious and diplomatic in all things, bearing in mind that his mission was to advance the interests of Egypt in Central Africa and do nothing which might retard the progress southward of the Egyptian flag.

«Undoubtedly, Baker attaching more importance to the destruction of the slave trade than to the agrandizement of Egyptian interests, showed but little consideration to the slave-dealing tribes and none at all to the professional slave-traders. He perhaps counted too much on the Egyptian troops with him and hoped far too much from the Khedive's promises of support ... The slave traders were his deadly enemies from the beginning, a strong proof of his open hostility to the slave trade. He marched and fought, when necessary, under the Egyptian flag, in the capacity of an Egyptian Pacha, and his deeds were credited to the Egyptian government. The trade of the country was interrupted, fewer slaves came down the river and almost no ivory or ostrich feathers. The Khedive ... was disappointed, not that the slave trade was interferred with, but because commerce was checked and principally because the natives had become incensed against the Egyptian flag.

«His Highness said that he did not know Sir Samuel's object was in making the disastrous expedition into the interior of the country, the reports of which had just reache His Highness. In making this remark His Highness refe red to this particular warlike expedition and not to t general nature of Baker's expedition, and when he aft wards intimated that Sir Samuel had disobeyed his ord I understood him to mean that those orders were to concite the natives by peaceful and paternal measures, if possib or to reduce them by force of arms to submission to Egy an authority, if necessary, but to leave the suppression the slave trade in the background as a question to be tied when the country was thoroughly occupied, and in an vent not to wage war against it(62)».

---

(62) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 7 May, 1873.

Central Africa (57)», the only way to accomplish that object as well as to suppress slavery and check slavers was by annexing forcibly the country to Egypt(58). For this reason the British commander was throughout the expedition «too prone to fighting and the use of force, and neglected conciliation and arbitration between hostile tribes, means that might often have been employed to advantage(59)».

There is no denying the truth that the annexation of the country south of Gondokoro was the first step necessary for suppressing the slave trade, but Baker was not permitted to make any progress unless he utterly overthrew this traffic and founded a strong government at Gondokoro. Yet the results of Baker's expedition to this effect proved failure(60). When news reached Cairo concerning Baker's unjustified expedition on Bunyoro, the Khedive intimated that :

> «Sir Samuel had not confined himself to the letter or spirit of his instructions, and that such expeditions as the one in question, were foreign to the objects of his mission(61)».

And because of illustrating this last fact, a reproduction of part of a length message sent from the American Consul General in Cairo to the Department of State, seems appropriate :

> «The mystery which surrounds the expedition of Sir Samuel Baker is as great in Egypt as in Europe or America, and it not only attaches to and involves the fate of the expedition but its object ... From what the Khedive has informed me at different times, I am satisfied that he expected Baker to regard the destruction of the slave trade as a matter of secon-

(57) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's expedition to Central Africa, p.?.

58) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Ismail, pp. 445—7.

59) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

appears that Baker was in fact trying to test the power of European weas over the inhabitants of central Africa. After his return to England, Bak ave a lecture to the United Service Institution on «Experience in Savage War», in which he recounted the effects and prestige gained by firearms, rocke light-artillery and cavalry. Subsequently, the Duke of Cambridge declar that : «it was a wonderful thing that one should have been able to exerci o much power over those savage hordes. What had been done once could done again». See, Gray, R. : A History of the Southern Sudan 1839—, p. 173.

(60 O. 84/1371. Draft. Granville to Vivian, 3 August, 1873 ; and also Gordon Stanton, 15 Dec. 1874. Sudan Notes and Records, vol. X, Khartoum 1927, p.

(61) S. Egypt. vol. 7, Beardsley to Fish, Cairo, 11 Dec. 1872.

undertake no responsibility whatever for the consequences of it, either as regards themselves, or as regards any matter connected with it (53) ». At Constantinople, the Porte showed great skepticism towards the intention manifested by the Khedive for suppressing the slave traffic ; and interrogated by him, Ismail was contented with replying that the object of the expedition was to extend southwards the possessions of the Sultan (54).

After much deliberation and consultation, Baker received on 16 May 1869 a firman from the Khedive, in which he was given the title of «Pasha» and rank of «Fariq», which were required for the command of the expedition. Furthermore, he was granted full power to procure such materials or stores as he might consider necessary for the success of his expedition. Baker's authority had to begin on April 1, 1869, and was entrusted to him for the period of four years from that date, at salary of £10,000 per annum (55).

From the outset however we should point out that when the alluded to firman was issued, Cairo authorities notion of the whole project was excessively at incompatibility with that of Baker. The Egyptian government understood the enterprise as a «mission» aimed at civilizing Central Africa (56). Consequently, the Khedive insisted upon that conception in his instructions to the British commander, and in his conversations with the representatives of the foreign powers. In one of his letters to Baker, the Khedive made clear to him that :

> «Votre mission est une mission de pacification et de progrès. Vous étes appelé à concillèr les habitants du pays avec les hommes à peau blanche, qui, jusqu'à present ne se sont introduite dans leur pays que pour les tuer, les piller et faire des esclaves».

He moreover emphasized that his idea of sending such expeditions was to open up «le centre de l'Afrique à la science, au commerce, au progrès», while on the contrary Baker continued to misapprehend the object of the enterprise as pugnacious and combative. Since in his opinion the Khedive «first of all, wished to found a great empire in

(53) F. O. 78/2092. F. O. to Stanton, 15 April, 1869 ; also F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Alex. 5 May, 1869.

(54) F. O. 78/2075. Elliot to Clarendon, Const. 10 Juin, 1869.

(55) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 6—7.

(56) Shukry, M. F. : p. 162.

consideration accepted the viceroy's offer of the command of the greatest expedition of modern times(47)». Baker did so that he hurriedly left Egypt for England, for the purpose of preparing the necessary material for his expedition(48), the official character and the nature of which made it, as his authorized biographers pointed out «an undertaking of considerable importance(49)».

While Baker was occupied home in making preparation for his expedition, the Khedive accepted his contract «with the exception of the clause, which gives power of life and death over the personnel of the expedition, a stipulation which His Highhness wants somewhat modified(50)». Nevertheless, it seems that the Khedive soon conceived that this clause was imperative for the success of the expedition. Hence, it was not ultimately modified and incorporated in the firman or superior order authorising Baker's expedition and appointing him «Governor-General of the Equatorial Provinces». But the very clause which Ismail refused «for some unexplained reasons» was the delimitation drawn by Baker for the districts should be placed under his command. The Khedive however modified this term, making the jurisdiction of Baker to begin from the 5° of north latitude only, and to stretch out southwards. Thus, the White Nile remained outside his power, and his government was confined to the Equatorial regions(51).

At any rate, Baker's enterprise provoked immediate responses in both London and Constantinople. At London, although Baker in an interview with Clarendon, Russell's successor at the Foreign Office, divulged some of his enthusiasm and confidence in the probable results of the expedition, Gladstone, the Prime Minister, remarked : «I conclude we undertake no responsiblity with regard to this expedition(52». The Foreign Office therefore did not formulate any observation regarding the aims of Baker's expedition, but instructions were forthwith sent to Stanton, the British Consul General in Cairo to the effect that notification should be made to «all British subjects who may take part in this expedition, that Her Majesty's Government

(47) Gray, J. R. : A History of the Southern Sudan 1839—1889, p. 87.

(48) F. O. 78/2092. Ibid.

(49) Murray and White : p. 133.

(50) F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Alex. 22 April, 1869.

(51) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 151—2.

(52) F. O. 78/2092. Memoranda by Clarendon and Gladstone, 12 and 14 April, 1869.

draw from that annexation, looking forward to the establishment, on the system of agencies created in Canada by the Hudson Bay Company, of certain military posts which would serve at the same time as commercial centres (45).

Having approved of the ideas which were presented to him, the Khedive asked Baker to write the terms of the contract, by which he would enter the employment of the Egyption government. On 27 March 1869, three days after the Prince of Wales had left Cairo, Baker presented to the Khedive a plan, in which he defined the principal purposes of the expedition as :

> «1—to subdue to the Egyptian government the countries of the White Nile, which «sont actuellement habités par des nations sauvages sans lois, sans gouvernment et sans sûreté».
>
> «2—to suppress the slave trade on the White Nile.
>
> «3—to introduce a system of legitimate commerce, of which results would be advantageous to Egypt.
>
> «4—to open to navigation the great lakes of the equator, which form the principal sources of the Nile.
>
> «5—to establish a chain of military and commercial stations, from Gondokoro throughout the central basin of the Nile, at intervals of three days march, so as to secure a communication from the most distant point with Gondokoro, the base of operations.
>
> «6—to annex to Egypt all these regions, making thus the Egyptian Empire stretched out from the sources of the Nile to the Mediterranean».

Baker however stipulated for the exercise of «pouvoir absolu, mème celui de mort, sur tous ceux qui feront partie de l'expedition», as well as in all the country under his jurisdiction. This country was circumscribed by him of the whole Nile basin south the 14° of north latitude, that is from near Khartoum to Gondokoro (46).

After submitting his contract to the Khedive, Baker wrote on 5th April of the same year to his brother John that he had «after much

(45) Douin, G. : tome III, 1re partie, p. 479.

(46) F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Cairo, 2 April, 1869.

Having returned to England in 1866 after his discovery of Albert Nyanza, Baker was knighted for his «laborious researches in Africa» which he had done «without costing the state a shilling». Two years later, the Nile explorer received a communication from the Khedive's minister Nubar on the determination of the Egyptian government to put down slavery and slave trade in the Sudan. No sooner had Baker received that communication, than he got an invitation to accompany the Prince and Princess of Wales on an official visit to Egypt on the occasion of the opening of the Suez Canal. Baker had to attribute the invitation to the fact that his brother Valentine was a close friend of the Prince, and it was thought of that Sir Samuel should lead the Prince in the delectation of crocodil avriving shooting on a tour up the Nile.

Arriving at Egypt in the suite of Prince and Princess of Wales, Baker with his vigorous personality and upright bearing impressed the Khedive, who felt that the British explorer was the very man he wanted to combat slavery in the Sudan. As it happened, during the festivities at the town of Ismailia, the Khedive communicated to the Prince of Wales his idea of nominating Sir Samuel to take command of an expedition for the suppression of the slave trade on the White Nile, and for the establishment of order in the Sudan(43). The Prince warmly supported the proposal, and as Baker afterwards declared :

> «I can safely say that, although I might have had the command of the expedition offered to me, I am sure I should never have accepted it had it not been for the kindness of His Royal Highness, and the great interest he showed in its main object—the suppression of the slave trade. It was by the advice, and I may say by the kind personal interference, of His Highness that the arrangement were made with the Viceroy, and that I accepted the command ... (44)».

Having decided to engage the services of Sir Samuel, the Khedive demanded him to draw up a plan for the proposed expedition. In his first report to Ismail, Baker openly explained Egypt's permanent interest in the Nile water, «as the prosperity of whole Egypt depends on the Nile benefactor, it has become indispensable to annex to Egypt the two lakes Albert Nyanza and Victoria Nyanza, from which the Nile takes its sources». He showed the profit that the country would

---

(43) Murray and White : Sir Samuel Baker, A Memoir, p. 132.

(44) Beker, S. W. : The Khedive of Egypt's expedition to Central Africa. Proceedings. Roy. Geog. Soc. vol. XVIII. London 1874, p. 51.

Sudan, and recommending the establishment of a strong government at Gondokoro, the memorandum continued to suggest that Egypt should be committed with forming such regular government in the Equatorial regions in the following manner :

> «The consitution of a permanent Egyptian post at Gondokoro would lead to the suppression of that infamous traffic in slaves, which is at present carried on to an enormous extent upon the Upper Nile and which the Egyptian government has declared itself anxious to suppress. The Council have reason to believe through information from those well acquainted with his character, that the Pasha of Egypt would readily appreciate the commercial advantages arising from such a policy, and when alive to them, would be willing to take measures to facilitate this inter-course by putting an end to barbarities now wholly beyond the pale of his jurisdiction. The Council are therefore of opinion that His Highness would the more willingly cooperate in the views here put forward, if he received the slightest encouragement from the British government (39) ».

Murchison and Speke suggested that the encouragement could take the form of a scientific expedition which would act «as a prelude to future commercial settlements», and the Royal Geographical Society was willing to contribute £ 1,000 towards its expenses. But the Foreign Office was unwilling actively to encourage the extension of Egyptian power in the Southern Sudan (40).

When therefore the Egyptian government determined in 1869 to stem the notorious traffic in the Sudan, or at least reducing it to politically harmless dimensions, an action which had been begun in earnest since 1865 (41), it was not uncommon to entrust with such a step to an Englishman, in order to assure the British government her decided resolution on overthrowing that trade in the Sudan (42). The Viceroy's choice for that task soon fell on the far famed British explorer, Sir Samuel Baker.

---

(39) F O. 78/1839. Murchison to Russell, London, 28 April, 1864 ; enclos. Speke to Russell, London, 28 May, 1864.

(40) Gray, R. : A History of the Southern Sudan 1839—1889, p. 81.

(41) Shukry, M. F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, pp. 132—3.

(42) Douin, G. : p. 479.

Thus, in about 1865 a monopoly of the trade was established in each of the two regions of the Southern Sudan which had been opened up ; the Bahr Al Ghazal trade was thoroughly directed by Al Zubair Rahma Mansur, a Ja'ali from the central Sudan ; that of the Gondokoro region by Muhammad Ahmad Al-'Aqqad, an Egyptian from Aswan. This latter had purchased almost all the depots of his concurrents(37). Moreover, he obtained three years later a contract with Khartoum administration giving him monopolitic rights over an area of about 90,000 square miles south of Gondokoro, in return for paying yearly £ 3,000 for four years.

Yet although both Al Zubair Rahma and Al 'Aqqad professed to trade for ivory, the market in Khartoum—as Baker perceived—could not exist on the sale of ivory alone. Nor did the boats that took razzias to the field of their operations, carry trade goods : their only cargo were the arms and supplies required by the hunters. In this manner the «bootlegging» of slaves went on as in the past, and in a short time the slavers became the real sovereigns of these tracts. It was unlikely that Egypt would permit indeterminately the practical detention of her political sway by that of the «trading» monopolists. Being aware that open allowance of slavery in the Sudan was probably to injure her with European powers, the Egyptian government determined «to dry up the evil at its source».

It was in the opinion of Speke and Consul Saunders that annexation by Egypt of the regions round Gondokoro would help to a great extent to check the evil of the traffic in slaves. Saunders had suggested in July 1862 to his government that :

> «if the Viceroy could be induced to extend his rule to Gondokoro by annexing the White Nile to Egyptian territory, an inestimable boon would be thereby conferred upon the suffering tribes in that direction, and an effectual blow struck at the root of so much misery(38)».

About two years later, a memorandum by the President and Council of the Royal Geographical Society on the subject of a projected expedition to the eastern Equatorial regions of Africa, was handed over in London for the consideration of Earl Russell, the Foreign Secretary. After describing the state prevalent in the Southern

(37) F. O. 84/1277. Hansal to Stanton, Khartum, 5 Nov. 1867.

(38) F. O. 84/1181. Saunders to Russell, Alex. 31 July, 1862.

at the same time eager to overthrow the slave trade, the Egyptian authorities came to terms with the dealers and bought their stations, cattle, ivory and slaves, liberating these last miserable creatures. Yet this attempt was useless, for having pocketed the money, the traders forthwith established new stations and recommenced their activities as before (30). In January 1865 the Viceroy informed Sir Henry Bulwer that he was desirous to destroy the whole traffic, «for the negroes now suppose that I encourage and sanction the atrocities practised against them which makes my name odious to them, whereas what is going is being done by foreigners against my interests and in opposition to my authority(31)».

Accordingly, posts were founded at Kaka and Fashoda to check the slave trade on the White Nile ; and on Baker's return journey in 1865 he found an Egyptian camp of one thousand men established at Fashoda for this purpose. Much about this time, the European community in the Sudan began to dissolve. The few remaining European and Levantine merchants soon found their way out the country. Refusing to pay the «Werko»—poll tax—levied on merchandize imported by the White Nile, John Petherick, merchant and English Consul at Khartoum, had abandoned his business(32) and retired to seek legal compensation in Egypt and England(33). By 1865 Andrea de Bono left the Sudan and settled in Cairo, leaving a trading agent, Mahmud Ahmadani, in Khartoum(34). The Maltese trader sold his assets, valued by himself at £ 25,000, to the government for £ 5,000(35). Two years later Ambroise and Jules Poncet, the solitary remaining European dealers, put to sale theirs for a quarter of their real value. Some writers however are of opinion that the policy of the Egyptian government under Ismail inclined then to turn aside the Europeans from the White Nile region, and allow only the native traders to subsist there(36).

---

(30) Gessi, R. : Seven Years in the Soudan, pp. 3—4.

(31) F. O. 84/1246. Bulwer to Russell, Cairo, 6 January, 1865.

(32) Petherick, J. : Travels in Central Africa, vol. 2, p. 144.

(33) F. O. 78/2253 is devoted solely to Petherick's complaints.

(34) Hill, R. : Biographical Dictionary, pp. 110—111.

(35) F. O. 84/1246. Colquhoun to Russell, Alex. 10 July, 1865.

(36) Douin, G. : Histoire du Regne du Khedive Ismail, t. III, are partie, pp. 472—3.

their palaces, houses, and estates are supplied with slave labour—indirectly, because, in as much as the trade is ostensibly a forbidden one, they are enabled to levy on the dealers heavy toll for permission to evade the law. 2ndly, that the army of Egypt is largely recruited from the male black adult slaves ; and 3rdly, that the fellahs, or farmer population, are glad to have the means of sending, as substitutes for themselves and children when summoned by the government to forced labour, slaves bought at these marts (25) ».

In spite of these difficulties the Egyptian government was resolved to check the traffic without inflicting serious loss on the population, and paralysing the industry of the country (26). Hence, the Egyptian authorities habituated to liberate slaves as soon as they reached Egypt, of whom adult males were drafted with their own consent into the Nubian regiments, the lads were to be taught music for the military bands, the young women were taken as house servants at wages, and the young girls were sent to receive some education in the government schools in Cairo (27). Some girls also were given in marriage to Egyptian officers with small pension which was registered, and «this register would always serve to prove their freedom, and to keep the government in their track (28) ». More important still, it was the habit of slaves wishing their liberty to apply to the British Consuls or Consular Agents, who obtained it for them by sending the applicants to the police authorities and demanding their emancipation papers. The American Consul General in Egypt wrote to his government :

> «Without either treaty-rights or any particular understanding on the subject with the Egyptian government, the English authorities in Egypt have been recognised as the champions of the Egyptian slave, and thousands of slaves have been liberated through their active interference (29) ».

In the Sudan however the Egyptian government decided to check the traffic completely. Wishing to avoid fresh bloodshed, and

(25) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(26) D. S. Egypt. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.

(27) F. O. 84/1204. Colquhoun to Russell, Alex. 1 July, 1863.

(28) F. O, 84/1246. Bulwer to Russell, Cairo, 15 April, 1865.

(29) D. S. Egypt. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.

In point of fact, Sudan's administration since the fifties had gone from bad to worse. Razzias came and went without question or comment, hiding neither their purpose nor their destination(18). The slavers' boats were permitted to navigate with impunity, upon payment, for every voyage they made(19). Yet it was due to the steamers stationed by the Egyptian government on the White Nile, and the posts of inspection established by her to examine boats coming down the river, that a most marked effect upon the slave dealers was achieved(20). This success however was unfortunately transitory, for the check soon became «merely nominal», and «the boats having slaves on board are kept informed as to the movements of these steamers, and by sending their slaves into the country escape any danger that might have threatened them, had they been discovered with their cargo on board»(21). Consequently, slaves were brought to Egypt, and it was estimated that from ten to fifteen thousand slaves were yearly brought down the Nile to Cairo, while an equal or even greater number found their way to the ports of the Red Sea(22). As it happened, «every Turkish and Egyptian family has more than one, generally several black slaves-male and female-in their housholds. The position of these people however, is by no means a bad one. They are well and kindly treated, and are much better off, than if they had remained in their own country(23) ».

It is worthy of note that though the attack on slavery and slave trade in the Sudan was entirely a risky procedure in a country whose economy was established on slave labour, the Egyptian government under Ismail was «sincere and earnest» in her desire to suppress that notorious traffic in both Egypt and the Sudan(24). A British Consular official at Alexandria enumerated to his government certain reasons for the difficulty of overthrowing the slave trade in the following manner :

> «1st, that important persons and functionaries of the government derive considerable profit and advantage from the trade, either directly or indirectly—directly, because

(18) Elgood, p. G. : The Transit of Egypt, p. 155.

(19) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(20) F. O. 84/1246. Stanton to Russell, Alex. 26 September, 1865.

(21) F. O. 84/1260. Stanton to Clarendon, Alex. 9 May, 1866.

(22) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(23) F. O. 84/1181. Hornby to Russell, 12 September, 1862.

(24) D. S. Egypt. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.

particular importance now, Gondokoro was by that time the grand emporium of the slave trade in the White Nile region.

This nefarious traffic however had its origin in the early part of the nineteenth century, when numerous European fortune hunters, frequenting the Southern Sudan in quest of ivory, for which there appeared to have been an European demand, foresaw more luctrative results from human cargoes, and transferred their activities to dealing in native slaves. From slave dealing they took to slave hunting, until this immense tract of equatorial territory lying between Khartoum and great Victoria Nyanza lake had become reduced to a pitiable state(13).

Thus, conformably to an eminent writer, «in 1863 ... nearly every European merchant was engaged in the slave trade. The slave raiders sailed their boats flying the English, French, Austrain, Turkish, and even the American flag»(14). Another distinguished author pointed out : «it is more particulary at Gondokoro that one is sure to meet with Europeans among the slave-traders. Their presence is recognised by the ability with which they carry on the work of devastation, and it is easy to understand why they use every precaution to conceal it from the knowledge of Europe»(15). Moreover, a British Consular official in Egypt informed his government : «I am afraid that it is even more than probable that British traders in those parts are no better than native traders»(16).

Arriving at Egypt in his way back to England, Baker uproariously complained to the British Consul General of the notorious operations of the European traders in the White Nile region. He was convinced that «all the ivory traders without exception are either openly slave dealers, or, what is nearly as bad, allow the men employed in their service to collect slaves on their own account». The famous Nile traveller's description of the state to which these traders had reduced the country was most lamentable, «ruin and desolation now reign where formerly rich valleys teeming with cattle met the eye, and the European in most parts of this vast country is looked upon as the scourge of the native(17) ».

---

(13) French, H. G. : Gordon Pasha of the Sudan, pp. 92—93.
(14) Budge, E. A. : The Egyptian Sudan, p. 225.
(15) Berlious, E. F. : The Slave Trade in Africa, pp. 31—32.
(16) F. O. 48/1181. Hornby to Russell, 12 September, 1862.
(17) F. O. 84/1246. Stanton to Russell, Alex. 26 September, 1865.

reception in Bunyoro was hostile, because Wad al-Mak had preceded them, and had made the worst impression by his treatment of the Banyoro. At first Baker desired to follow the Nile down stream till it entered the Albert Nyanza, but the Banyoro would not allow him to do anything of the kind, or to make any journey off the main road along the Victoria Nile to Kamrasi's Capital.

Contrary to their anticipations, Kamrasi, Mukama (ruler) of Bunyoro, received the Bakers well, and this was the more fortunate, as Baker was very nearly dead with fever. But Kamrasi soon regarded Baker with the deepest suspicion and fear, for he could not believe that any man could come so far merely to see water ; his object must be to plunder or seize the kingdom from him. The «Beard» or Baker and the «little star» or Mrs. Baker (as they were called by the Banyoro) were practically held prisoners for some days, since Kamrasi stoutly refused to provide them with porters or to give them any assistance in fitting out their caravan for the expedition to the lake(10).

Finding, however, there was nothing to be got out of Baker, Kamrasi relented, accepted a double-barrelled gun, and sent off the explorer and his wife with two guides and an escort consisted of a body of about three hundred men, dressed in the most grotesque fashion. They wore leopard and white monkey skins, and had cows' tails fixed on behind, and antelopes' horns fitted on their heads. This escort, however, was soon set back owing to their noisy demonstrations, and after facing immense difficulties the Bakers reached on the 14th of March 1864 Luta N'ziga, which they named Lake Albert, and which proved to be part of the Nile system. Coasting along the eastern edge of the lake to the entrance of the Victoria Nile, the travellers returned to Gondokoro which they reached in March 1865.

When Baker arrived at Khartoum he wrote to the British Consul General in Cairo, «Gondokoro was swarming with slaves this year. Many thousands were there ... Debono's people are about the worst of the lot, having utterly destroyed the country, of course their zareeba (encampment) is full of slaves ... I have much to say to you on this matter, as I have myself been a witness to the atrocities of the White Nile trade»(12). Needless to say that though a town of no

(10) Fisher, A. B. : Twilight Tales of the Black Baganda, pp. 5—7.

(11) Johnston, H. : The Nile Quest, pp. 184—86.

(12) F. O. 78/1871. Baker to Colquhoun, Khartoum, 21 June, 1865.

of the British government, and that his object was to put down the slave trade (6).

On the 26th February 1863 Speke and Grant sailed in Baker's boats on their return voyage to Khartoum. Tempted by Speke's news of the reported existence of a large lake to the south west, which was called by the natives Luta N'zige (i.e. the «dead locust Lake»), and which was believed by Speke to be a second source of the Nile (7), Baker determined to proceed to this lake. Having a great weight of luggage, which consisted largely of beads, copper, and ammunition, Baker was anxious to obtain assistance from Muhammad Wad al-Mak, de Bono's (8), agent and the leader of the party with whom Speke and Grant had just arrived. Wad al-Mak's porters had brought a quantity of ivory from the interior, and Baker offered to pay them well if they would carry his goods at twelve days' journey on their way back to the station at Faloro.

Wad al-Mak promised to grant Baker's request, but his friendly manner was only a pretence. He not only did not intend to keep his promise, but he secretly incited Baker's Khartoum men to desert him, that the expedition might not proceed any farther. The White Nile traders were most anxious to keep such men as Baker out of the regions in which they hunted down the negroes and spread destruction with fire and sword. In spite of all attempts to frighten him, Baker managed to persuade 17 of his old servants to accompany him, and on the 26th of March 1863 a start was made. Without guide or interpreter, the Bakers were once more moving southwards (9).

The slavers' grasp over the Southern Sudan was so great that the travellers found themselves obliged to join up with a slaving caravan in order to make some progress towards Bunyoro kingdom. After countless delays occasioned by the indolence and hindrance of the natives, and by starvation, fever and fatigue, they arrived at the Karuma Falls on the Victoria Nile, and entered Bunyoro. Their first

---

(6) Baker, S. W. : p. 61.

(7) Budge, E. A. : The Egyptian Sudan, its history and monuments, vol. 2, pp. 220—221.

(8) Andrea de Bono (—1871) Maltese trader and explorer, he came to the Sudan in 1848, erecting a corn mill in Khartoum and manufacturing lime and kiln-dried bricks, his activities led him to enter the white Nile trade, and combine the export of slaves with that of ivory.

(9) Lomax, A. E. : Sir Samuel Baker. Hunter, explorer, administrator, pp. 41—44.

main stream, known as the White Nile, and explore the Nile tributaries of Abyssinia. After twelve months' wanderings, during which the Atbara, Settite, Rohad, Dinder and the Blue Nile were explored(3), Baker the greatest big-game hunter of his age(4), travelling with his wife by way of the Blue Nile, reached Khartoum.

On their arrival at Khartoum, in spite of being armed with a letter from the Viceroy in Cairo, the Bakers were given a hostile reception from the then Governor-General, an intriguer named Moosa Pasha Hamdi. This latter, being mostly deep in the horrible slave traffic and fearful of the travellers' revelation, tried to throw trouble in their way. Baker however narrates :

> «We were just ready to start ; the supplies were all on board, the donkeys and horses were shipped, when an officer arrived from the Divan, to demand from me the poll-tax that Moosa Pasha, the Governor-general, had recently levied upon the inhabitants ; and inform me, that in the event of my refusing to pay the said tax for each of my men ... he should detain my boats. I ordered my captain to hoist the British flag upon each of the three boats, and sent my compliments to the Government official, telling him that I was neither a Turkish subject nor a trader, but an English explorer ; that I was not responsible for the tax, and that if any Turkish official should board my boat, under the British flag, I should take the liberty of throwing him overboard. This announcement appeared so practical that the official hurriedly departed, while I marched my men on board, and ordered the boatmen to get ready to start» (5).

Thus, on December 18th 1862 the Bakers left Khartoum for the south, arrived at Gondokoro on February 2nd, 1863. Here, the dramatic meeting with Speke and Grant took place on the 15th of the same month. Gondokoro was then «a nest of robbers, sacred to slavery and to every abomination that man could commit». While Baker was at that town, the traders looked on him with great suspicion, nor would they believe that the object of his journey was the discovery of the Nile sources. They said that he was there as a spy

---

(3) Baker, S. W. : The Nile Tributaries of Abyssinia, pp. 388—9.

(4) Perham, M and Simmons, J. : African Discovery, p. 215.

(5) Baker, S. W. : The Albert N'yanza, Great Basin of the Nile, and explorations of the Nile Sources, vol. 1, p. 19.

SAMUEL BAKER AND THE SOUTHERN SUDAN

by

EL SAYED RAGAB HARRAZ. PH.D.

Lecturer in Modern History, Cairo University

Speke and Grant had plunged into Africa, and all trace of them had been lost for more than two years, when Samuel Baker(1) determined to explore the Nile, and at the same time to search for the missing travellers, who had been sent out via Zanzibar with that object(2).

At his own expense and accompanied by his wife, Florence Ninian von Sass, a Hungarian lady, who insisted on sharing the hazards of the journey, Baker on the 15th April 1861 sailed up the Nile from Cairo. The voyage on the Nile was continued for twenty-six days, and Korosko was reached. At this point there is a great bend in the river. To save time, the travellers therefore mounted camels and made their way, a seven days' journey, across the desert. Reaching Abou Hamed, the travellers proceeded along the banks of the river for eight days, until they came to Berber, a town of some importance on the Nile. At this locality Baker decided to leave the

(1) Samuel White Baker (1821—93), British traveller and sportsman, he completed a desultory education at the University of Frankfurt-am-Main and then embarked on a varied career, visiting Mauritus in 1844, founding an English agricultural colony in Ceylon in 1846—55, and undertaking the management of the construction of a railway being built from the Danube river over the Dobruja to the Black sea in 1859—60.

(2) In 1856 the Foreign Office, the East India Company, and the Royal Geographical Society provided funds for two Indian Army officers, Burton and Speke, to investigate the rumours of a huge inland sea reported in 1848—9 by Krapf and Rebmann, two C.M.S. missionaries who had first sighted the snow-capped mountains of Kenya and Kilimanjaro. Burton and Speke reached Lake Tanganyika and on the return journey Speke broke off to the north and discovered in 1858 that Victoria Nyanza was the source of the Nile. In 1860, again assisted by the Government and the R.G.S., Speke returned accompained by Grant, another Indian Army officer, to obtain further proof of the wonderful discovery he had made in 1858.

the social researcher is also subject to a number of individual and social forces that may interfere with his observation ; for instance, his physical characteristics and capacity, his training, his status and role and so forth.

The analysis and interpretation of research findings do not represent an isolated process. They are affected also by the social framework of the research undertaking. Analysis is done within a certain theoretical framework and in the light of certain logical-theoretical constructs which will direct the analysis one way or another. The reality orientation of the researcher or his ideological commitments will be reflected in this phase of analysis. A researcher committed to the maintenance of the statusquo will analyze his material in a way different from that of a revolutionary researcher.

Finally, when it comes to reporting his findings, the researcher sometimes faces complications if not dilemmas. What will be the reaction to his report on the part of his organization, his association, and/or the broader social order ? What about if his findings will hurt certain segments of the community ? What if the findings are harmful to a group but beneficial to another ? Will he report all the findings, or part of it, or keep it undisclosed ? We do not claim to have an answer to these and comparable questions. We do not even believe that there is an all-inclusive answer. However, these questions illustrate the social dimensions and social pressure that bear upon the social researcher and on his methods too. Needless to say that the end product of his research will be coloured by these sociological factors.

To sum up, our purpose was to introduce one of the new fields of inquiry in the social sciences, the sociology of social research, by exploring what constitutes its major dimensions and the way in which they affect research methodology and conclusions. Further investigation is still needed to analyze in detail the interaction between each dimension and the research process. It should be clear that probing into the nature and consequences of this interaction does not convey that social research is largly controlled by forces other than the norms of science and scientific investigation. In fact norms of science are there and will continue to provide valuable guidelines for social research. The point this study intended to stress is that of the existence, beside the norms of science, of a host of sociological factors which affect the very norms of science. An awareness of such factors is essential, if not imperative, so that research findings could be seen and evaluated in a meaningful and true perspective.

will encounter barriers in the research process. On the other hand, the formal organization of the bureaucracy which employs the social researcher and sponsors this research is likely to have a stake in the selection of a research topic. For instance, some universities are specialized in specific research topics and in accordance with a certain school of thought. Often times, research topics will be selected and dealt with in accordance with this specific framework. Even the social scientist who works independently cannot separate himself from the very social order he seeks to study and explain ; for the conflicts and struggles he experiences in society provide him with insights into the working of the system. This involvement in the social order is expected to affect the social scientist in selecting his research topic. However, these effects upon the selection process do not, by any means, prevent the researcher from pursuing meaningful generalizations which add to our body of knowledge.

If we consider the research design, one may not readily conceive the impact of sociological factors. But suffice to say that the procedures incorporated in the design must be acceptable to the people who will be selected as respondants, that these procedures ought not conflict with the cultural values of the society. In other words, the adoption of this rather than other types of research designs is not solely determined by scientific norms. Sociological factors bear upon the formulation of a specific design which may not be, scientifically speaking, the most appropriate designs. Often times, certain concessions have to be made to ensure some degree of conformity of the design to the society and its value system. For instance, certain experimental designs are not permissible because of the mere fact that we are dealing with human beings. On the other hand, and within the broader society, there are certain organizations particularly universities which adhere to a particular approach in their research endeavors and this is often reflected in their research designs.

In the collection of data we find that both the kind of data collected for research purposes, its sources as well as the way it is collected are affected, by one way or another, by the social components in the research process. For example ; observation, as a source of data, could be acceptable in certain topics, but could be rejected in others. Observation can be done by non-professionals and in this case it may provide valuable information not available otherwise. However, this information may have certain shortcomings for it may be subject to bias and subjectivity. Observation by

way in which the researcher adapts his logical theoretical contructs, selects his problems and methods, and analyses and writes up his findings as we shall see later.

To sum up, social research does not take place in a vacuum. It is affected by the nature of the social order which tolerates and supports it, by the characteristics of the particular social setting which sponsors it, and by the social researchers who carry it out. The interaction between these major components have given birth to a new field of inquiry in the social science, came to be known as the sociology of social research. Now, the question arises as to the way in which these dimensions of the sociology of social research, as outlined before, affect the research methods in particular. This makes up the subject matter of the second part of this study.

II.—Research Methods

The role behavior of the social researcher, as we have seen before, is affected by his status in various social groupings ; by the setting in which he carries out his research, and by the broader social order. Consequently this will bear upon the methods applied to the research problem, and this in turn may have its bearing upon the research findings. To illustrate this relationship, we will use the term «method» in a rather broad sense to connote the way in which the researcher goes about conducting research, or the major steps that are generally followed in the research endeavor, and then try to identify how these effects come about. Within this framework, we will examine the effects of the social dimensions upon those identifiable phases of the research process, namely, selection of a research problem, the research design, methods of data collection, interpretation of findings, and reporting those findings. It is possible that these effects are more readily apparent in one phase than in the other.

The selection of a research problem is not conditioned solely by the ideals of science namely filling gaps in knowledge. The needs of the community and the social and economic problems facing its members have a stake in what topics to be studied; particularly in the developing countries where research oriented toward alleviating the hardships of life and raising the level of living takes precedence over other subjects of inquiry. The value system of the society may favor investigation in certain areas, but in the meantime may prohibit research in certain others. These taboo areas, if selected for inquiry,

is adapted to the conditions of each particular country. «Research specifically oriented toward characteristic problems of newly developing countries is necessary, even as a prerequisite to making maximum use of the world's existing reservoir of science and technology» (7). If science and technology is to be adapted to peculiar conditins of each country, it should be taken for granted that social research must be in accord with the particular social order within which it is conducted. The National Charter of the U.A.R. has rightly expressed this viewpoint stating that, «the real solutions for the problems of any country cannot be imported from the experiences of other people», (Chapter 5.) Hence, a close relationship exists between types of social research and the social order which orients research one way or another ; for instance, the deteriorated social and economic conditions in the U.A.R. prior to the Revolution of 1952 made it imperative that research should be oriented toward the discovery of scientific solutions for the baffling social and economic problems. This trend has been clearly defined in the National Charter.

> «The scientific research centres are required at this stage of the struggle to develop themselves so that science would be in the service of society. At this stage, science for its own sake is a responsibility which our national potentiality cannot shoulder.
>
> Therefore science for society should be the motto of the cultural revolution at the present stage. The achievement of the objectives of the national struggle will enable us, at a further stage of our development, to make a positive contribution to the world in the domain of science for its own sake» (8).

The Charter, while taking full cognizance of the essentiality of science for science, i.e. filling gaps in knowledge, made science for society take the precedence. This is dictated by the historical phase of great transfomation the Egyptian society is going through. Hence, the nature of the social order at a certain point in time is an important variable that bears upon the research process. On the other hand, the value system, the mores and folkways, and the cultural values particular to each social order will affect, to a great extent, the

7. Ibid.,
8. See the National Charter, U.A.R., 1962, Chapter 8.

same time. The professional norms dictate certain role behaviour which meets with that of the bureaucrat at certain points but may diverge at certain others. This presentation of various factors involved in the research setting refrains from passing any judgment about the efficiency or inefficiency of bureaucratic and other organizational structure for conducting research.

In fact these organizations may become a must if research is to flourish particularly in the developing areas of the world where indivi dual research is scarce and sporadic. However, it calls the attention to the interaction between the research setting and the research process in order to provide controls for whatever variables inherent in the setting which may distort research findings.

The broader social order : Social research takes place within a certain social order and at a certain point in time. Considerations of time and place bear upon the research process. There is a relationship between the type of social order and the degree of tolerance or intolerance of research as well as the kind of research to be carried out. In fact, research does not depend solely upon technical conditions, but upon social and psychological conditions too.

A passive society may be indifferent to research and this retards its progress. One can but compare the relative position of research in general and researchers or the funds spent on research in a highly industrialized country and in a less-developed country. It has been noted that the number of research scientists in general working in the less-developed countries is comparatively small. It has been roughly estimated that there are ten scientists per million in the less-developed areas of the world, compared with about a thousand per million in the developed areas (6). In this context, it is expected that the percentage of social researchers in the less-developed areas will be much smaller as they are relatively late comers in the social research field. More often than not, the conditions under which scientists and research experts work in less developed countries do not make for maximum effectiveness.

It might be claimed that the less developed countries can draw upon a great wealth of accumulated scientific knowledge and technology, the result of centuries of research in the advanced countries. However, such knowledge in its present form is not enough, unless it

---

6. Scientific Research and Progress in the Newly Developing Countries. Op. Cit., P. 12.

between social research and modern organizations do have certain advantages. Some aspects of research are undertaken in such setting otherwise would not be possible in simple social orders. Modern agencies with the scope of its means, funds and facilities have made possible, not only certain types of research but, and this is crucial, have contributed a great deal toward the refinement of research tools and techniques and the development of methodology in the social sciences. The studies conducted by the Social and Criminological Research Center in the U.A.R. on certain aspects of crime and addiction are cases in point. In fact research centers and agencies particularly in the developing countries are serving a dual purpose for carrying out research and for training a new cadre of researchers who are a scarce human resource in those societies. Hence, it is this structure which sponsors research, provides funds, selects research problems, and acts or not upon the findings. Within this setting, the danger may lie in the interaction between the researcher and the bureaucratic structure in which he functions due to certain differences in the nature of the research process and the nature of bureaucracy.

While certain bureaucratic attributes may facilitate the function of research as an organized activity, others may be dysfunctional to the research process in general or to certain phases of it. The efficient operation of a bureaucracy often requires a high degree of reliability of behaviour by means of a high degree of conformity with prescribed rules and regulations, and patterns of action. Conformity and rigid adherence to routine performance may prohibit flexibility which is often necessary for conducting research in the social sciences. Social researchers, when they become bureaucratic agents develop over the years a sense of common destiny and vested interests and a sense of bride in their official status. Hence, they may become subject to conflicts between their adherence to the norms of science and their loyalty to the bureaucratic organization which provides them with means of livelihood. On the other hand, material considerations may come in conflict with the ideal norms of scientific investigation. In other, words, researchers may find themselves committed to the ideals of science and at the same time required to sustain the bureaucratic organization in order to ensure the flow of funds for further research which may end in inefficiency when research becomes more concerned with its continuity rather than with its substance. However, this is not peculiar to social research. The situation exists, with varying degrees, whenever professional norms come into contact with bureaucratic structures, or whenever professionals act as bureaucrats at the

terms of research findings. For this reason, any research undertaking must take into account the researcher himself as one of the major variables involved in the different phases of the research process with differential effects.

The research setting : Here we are concerned with the kind of setting where social research is carried out and which may hear upon its methodology and in turn upon research findings. It is evident that as the society grows and advances and gets complex, it becomes in need of social data and in turn in need of social research to provide knowledge for making objective, rational decisions and policies. The more the decision is based on accurate information and guided with research findings the more it is apt to serve the purpose best. As the society grows in its complexity, research tends to become an organized activity. In fact, it is becoming increasingly evident that research in modern society is conducted within an organizational structure, be it a governmental department, a university, a research institute, an industry, a social agency and so on. This does not deny the existence or the essentiality of independent research carried on by individual researchers unattached to any such organization. Independent research will continue to exist and will continue to perform a vital function to the community and to the scientific cause particularly the development of theory and theoretical constructs. However, the great bulk of modern research is conducted within bureaucratic structures and is largely controlled by these structures. With the expansion of large scale research, means must be found for supporting it. These means can be diversified. In socialistic countries and in many developing countries research is carried under goverment auspices. In the U.S.A. this is covered by various types of grant giving agencies and foundations which represent government, business in a broad sense and other organizations. In the more complex industrial societies of the West, it may even become imperative for the researcher to join such structures to pusue his research activities. In this respect Robert Merton has found that the researcher in the U.S.A., «if, on the other hand, he remains unattached in order to preserve full opportunity of choice, he characteristically has neither the resources to carry out his investigations on an appropriate scale nor any strong likelihood of having his findings accepted by policy-makers as a basis for action» (5). However, close attachment

5. Ibid., P. 217.

family, whether his family of orientation or family of procreation or both, and he has obligations to either one or to both of them. To some extent, the family exerts certain controls upon the researcher as a member, although the extended kinship family may be more behaviour controlling than the nuclear type common to the urban industrial populations. Furthermore, if he is committed to the ideals of science, seeking knowledge for its own sake, the researcher will enjoin with others in the pure scientific community devoted to the quest for new knowledge, particularly in those societies which progressed rapidly with respect to research. Here, means of control will evolve largely from the norms of science themselves. Or otherwise the researcher will be a member of a professional association which exerts certain controls upon his behaviour, not only for the maintenance and development of research endeavors, but for the furtherance of their narrow guild concerns. On the other hand, the researcher, as a human being, has his personal interests and hobbies which he pursues mostly in his leisure time. For this purpose he joins various voluntary organizations which serve to satisfy this own interests and needs. His residence in a certain neighborhood may require him to join with others in voluntary community activities serving the interest of their locality. Again, his membership in these associations exerts controls or at least makes certain demands upon the researcher. Finally, the researcher is a citizen in his nation and this controls his activity whether he wants it or not. The impact of the nation varies from one country to another. The regime of the country as well as its stage of development are variables in operation. The newly emerging countries with their strong sense of nationalism are different in this respect from a highly industrialized country. Building up of a new nation and the demands of development have considerable impact upon the researher in those societies. The presentation of these variables does not mount to an exhaustive list of various reference groups to which the researcher relates himself and his scientific endeavors. However, it serves to illustrate the whole range of social controls the researcher is subject to which, in a sense, support him, but it may also lead to role conflicts within him and this in turn will bear upon the research process. Hence, the researcher as an individual, and as a member of different groups in the society is subject to a variety of factors which may affect the way he selects his research problems and sees them and the way he draws up his research design and selects research methods and techniques and this in the long run will, by one way or another, affect the end products in

persisted considerably to the extent that, in Merton's words, «the hobo and the saleslady have been singled out for close study but we seem reluctant to analyze the social scientist as an occupational type» (4).

To what extent does the role of the social researcher bear upon his research methods, and, in turn, his research findings and conclusions ? In examining this relationship, we would like to stress the role of the researcher as an individual, and as a member of certain group or groups, although the two roles are, to a great extent, inseparable from each other. First of all, the social researcher is an individual human being. Like any other human being, the social researcher may possess certain attributes which might or might not be advantageous form the point of view of scientific research. For instance, his biological build-up may bear upon his sensory perception and this again may affect his observation. Also, the intellectual capacity is another variable involved in his ability for research undertakings. As any other human being, he has his preferences and dislikes, he has dispositions, hereditary or otherwise, for certain things and not for others. However, most of these attributes are created and nutured by the society in which he lives and the culture in which he grows. Of course, one cannot deny certain hereditary attributes, though most of these are conditioned by the society too.

More specifically, and with regard to research methodology, one may rightly say that the social researcher is what he conceptually is. In other words ; he sees his research problem or certain aspects of it in the light of his own conceptualization. Of course, social researchers differ in the way they conceptualize, but some of this difference lies in the type of social structure the researcher has grown and has been socialized in. After all the researcher, as a human being, is programmed by other human beings ; by his parents ; his teachers ; his culture and his society. Initially he is programmed by others though he later develops self-sufficiency and automatic programming. However, conceptualization is an ongoing process. And since the human being is to exist, his selection of concepts will be adapted to what he already has. One expects that the extent to which his adaptation is a flexible or a fixed process will bear upon his research methodology and behaviour.

The social researcher, as mentioned before, is not an isolated individual. He is a member of a multicipliclty of groups which affect his role behaviour as a researcher. First of all, he is member of a

4. Ibid.,

research for which it is given differ in diverse social structures. Clinging to the norms of science may favour the idea that research is best when carried out in a social vacuum. However, scientific research seldom occurs in a vacuum. This applies to research in the physical science and in the social science too. The latter is our concern in this study.

Needless to say that social research is carried out by human beings, and for human beings. One has either to recognize this fact and study its implications, or to continue unaware of its consequences which are already there. It is this gap in knowledge which called for a new sociological discipline, the sociology of social research, to deal mainly with the reciprocal relations between social research and the social structure. Though the need for such line of inquiry is readily apparent, the newness of the field did not make for much clarity with respect to its subject, method, tools of research and particularly its position in the conventional social science picture. However, this is a sign of maturity and dynamism of sociology and sociologists who are consistently filling up gaps in our knowledge of complex social relations by pursuing new lines of inquiry,the newest of which is the sociology of social research. In this study, we will try to point out the major dimensions of this new sociological inquiry. To this end we will examine three components which, in our viewpoint, determine the nature of the research process, namely the social researcher, the social setting, and the broader social order.

The social researcher : The social researcher is an important variable in the research process, and unless controls are provided for his presence, the validity of the research findings is likely to be affected. Apparently the social researcher, as the incumbent of a certain status or statuses and like other members of the society, is affected by the social structure in which he functions and this, in turn, is reflected on his role behaviour. However, little has been done to pursue this relationship ; i.e. between the social structure and the researcher's role behaviour, particularly its bearing upon the research process. Referring to this situation, Robert Merton has noted that, «intellectuals devoted to social science have been so busy examining the behaviour of others that they have largely neglected to study their own problems, situation, and behaviour» (3). This situation has

---

3. Robert Merton : *Social Theory and Social Structure.*, The Free Press, Illinois, 1957. P. 207.

of these relations have received uneven attention ; the impact of research upon society eliciting more attention, and the impact of society upon research eliciting little, if none. The reason for that lies partly in the fact that, more often than not, the impact of scientific research on the social structure is readily apparent. Research in the physical sciences have given birth to an array of technological by-products which left marked effect upon the social structure. In fact, and since the industrial revolution, scientific research has been contributing a great deal toward enhancing social and economic well-being of populations, though with unequal distribution of benefits. The growth of knowledge in many sciences has opened the way to new power sources, new means of communication and transportation, new measuring instruments, advances in medicine and other fields and innumerable other items in the material progress of societies. Research in the twentieth century has come to the forefront to the extent that scientific research, both basic and applied, has become widely recognized as an important factor in economic progress (1).

Though not to the same extent and because of its recent origin, research in the social sciences has also produced good many findings which affect the social structure by one way or another. Moreover, research has been regarded as an indispensable tool for meeting the problems that arise in industry ; in agricultural development ; in medicine and public health ; in education, social welfare and other aspects of modern life to the extent that investment in research is regarded as a criterion of a dynamic society (2). In other words, the identifiable consequences of scientific research for society made for perceiving the impact of the former upon the latter. However, this was not so with regard to the effects of diverse social structures upon scientific research. On the other hand, it may probably be that the ideals of science in themselves have created some reluctance on the part of the researcher to conceive of his inquiry as dependent upon particular social structures. One may refer, in this respect, to the ideals of objectivity ; partiality, and universalism which are perceived to cut across structural barriers. These norms seem to be endangered by the fact that scientific research is an organized activity supported by the society and that the measure of this support and the types of

---

1. *Scientific Research and Progress in Newly Developing Countries*. Stanford Research Institute, California, 1958, P. 11

2. Ibid.,

SOCIAL RESEARCH AND THE SOCIAL ORDER
INTRODUCTION TO THE SOCIOLOGY OF SOCIAL RESEARCH

by

Dr. EL-FAROUK YOUNIS

Faculty of Arts-Cairo University (Khartoum Division)

The purpose of this study is to examine social research in its societal context and to explore the extent to which this bears upon research methods and research findings. Obviously, it is a rather new subject of inquiry in the social sciences, and so, comprehensive coverage of the topic is not feasible, at least for the time being. Hence, the study will be selective to some extent, focusing upon what we conceive of as the major dimensions in this regard. Our discussion of this topic will be divided into two parts :

Part I, will examine some of the dimensions of this growing field, namely the sociology of social research. However, the discussion herein will be limited to three major components, the social researcher; the setting in which research is carried out, and the broader social order. Needless to say that these components are not separate entities. They do overlap and interact with each other. This separation is only for analytical purposes.

Part II, will focus on the research methods, however, our interest is not in these methods per se, but rather in the way in which they are affected by the social dimensions discussed in Part I and how this, in turn, bears upon the end products of social research.

I.—Dimensions of the Sociology of Social Research

Little attention has been given to the dynamic interdependence between scientific research in its broader sense, and the social structure within which it is conducted. It is not until recently that reciprocal relations which exist between research as a process and society as a conditioning factor have been recognized. However, reciprocity

«Reader-consider not this as a romance merely.-Over their passions and their weaknesses, mortals cannot keep a curb too strong. The progress of vice is gradual and imperceptible, and the arch enemy ever waits to take advantage of the failings of mankind whose destruction is his glory. That his seductions may prevail, we dare not doubt ; for can we otherwise account for those crimes, dreadful and repugnant to nature, which human beings are sometimes tempted to commit ? Either we must suppose that the love of evil is bcrn with us (which would be an insult to the Deity), or we must attribute them (as appears more constant with reason) to the suggestions of infernal influence» (35).

Zofloya-as we have seen-has neither originality (except conception of the Devil) nor any other great merits and its place in literary history would have been negligible had it not had some influence on Shelley's two juvenile romances : **Zastrozzi** (1810) and **St. Irvyne** (1811). Both these are the outcome of a boyish ambition to practise the art of freezing the blood, and their composition was a source of pride and delight to the young author.

In **St. Irvyne ; or, The Rosicrucian,** (36) the supernatural element is borrowed from **Zofloya** and the motif of the «Elixir of life» is taken from Godwin's novel **St. Leon.** (1799). In world literature the most ancient instance of the theme occurs in the Babylonian myth of Ishtar's descent into Hades. **St. Leon** which was a favourite book with Shelley has been indicated by the peet himself as another source of his romance (37). The plot of this supernatural historical romance centres on the theories of the Rosicrucians. Godwin himself believed that the Rosicrucian order was started by one of the Crusaders in the East in the fourteenth century. Only in the seventeenth century were the ideas of this sect popular. Their notions of secret and magic know ledge, such as the transmutation of metals, the prolongation of life and power over the elements and elemental spirits are probably derived from the Arabs (38).

---

(35) *Zofloya,* op. cit., p. 260.

(36) *St. Irvyne : The Rosicrucian : A Romance* by a Gentleman of the University of Oxford (1811).

(37) T. Medwin, *The Life of Percy Bysshe Shelley,* (1913), p. 49.

(38) cf. W. Godwin, *Lives of the Necromancers,* (1834), p. 35.

Before the spirit is seen' a full strain of melodious music sounded in the air». Having got rid of both her husband and Lilla (32) (Henriques's wife), Victoria offers herself as Henriques's mistress. But Henriques obstinately refuses ond is finally killed. To escape arrest by the Inquisition Victoria, upon a promise of safety, pledges herself to Zofloya, who thereupon conveys her to a distant ravine amid the loftiest Alps. Here they encounter a gang of bandits with whom they live a lawless life and various adventures follow. Victoria and Zofloya are besieged by a great number of soldiers, but upon her promise to commit herself wholly to him, Zofloya swears to protect her, and at the same time a fearful explosion shakes the earth, the cavern crumbles and in an instant she finds herself on the summit of a beetling crag, with the Moor standing by her side. Reminding her of his past services, he demands that she shall once and for all give herself unequivocally to him «heart, body and soul». The wretched woman devotes herself to Zofloya by a fearful oath, whereupon with a loud laugh he bids her look upon him, and as she gazes, in the place of the beautiful Zofloya, she sees «a figure, fierce, gigantic and hideous to behold». The Evil One thus appearing in his true colours, addresses his disappointed devotee :

«Dost thou mark, vain fool.» he cried in a terrific voice, which drowned the thundering echo of the waters-«Behold me as I am.-no longer that which I appeared to be, but the sworn enemy of all created nature, by men called SATAN».

With fearful taunts «he grasped more firmly the neck of the wretched Victoria-and as she fell his loud demoniac laugh, his yells of triumph echoed in her ears, and a mangled corpse, she was received into the foaming waters below (33).

It requires but little observation to realise that all this is merely a reproduction of the final catastrophe of **The Monk.** Again, just as in the original issue of **The Monk,** (34) Lewis had a final paragraph pointing a moral, so Charlotte Dacre also concludes **Zofloya** with a final paragraph conveying a moral to her story. She assumes an even deeper moralizing tone as she touches upon the great problem of the origin of Evil and Satan's role in our life.

(32) cf. *Zofloya* Vol. III. Chapter XXIX.

(33) *Zofloya* p. 259.

(34) M.G. Lewis. *The Monk,* (1924) III, p. 210. This edition is printed from the first edition 1796.

were encircled with the finest Oriental pearl ; he wore a collar of gold around his throat, and his ears were decorated with gold rings of an enormous size. Victoria contemplated this figure with inexplicable awe, and as she gazed he bent his knee, and extended his arms towards her. While in this attitude, her mind filled with terror, she looked upon him with dread, and essaying to fly, she stumbled and awoke» (29).

Zofloya is in fact none but the Devil himself disguised as a Moor. It is only on this account of depicting Satan as such that Mrs. Dacre may be accredited with a certain measure of originality. It is the first time in English fiction that the medieval notion that negroes are the offspring of marriage between demons and mortal women is utilized. On the other hand, through political and religious prejudice, the Saracens or Moors (who were often confused with negroes because of their black colour) were thus considered to be either devils in disguise or sons of devils. This is most likely the basis of the authoress' conception of the Principle of Evil as a Moorish slave.

Another interesting aspect of Mrs. Dacre's treatment of the Devil is, again, the unusual method of contacting his victim. In this romance he does not come on his own to stir up trouble among human beings, nor is he invoked by the mighty power of a magician's spell ; but he simply appears to the wicked Victoria in her dreams' Luring her to attempt the completion of her wildest wishes'. Such a device is probably suggested by the Oriental tradition-promulgated by Defoe in two of his books, (30). that the Devil first appeared to Mankind in visions and dreams.

Zofloya strangely attracts her, and after several interviews he offers to help her win the object of her love and dispose of her husband (31). She is struck by and frequently muses upon the mystery surrounding this extraordinary being who is a master of Satanic chemistry, hypnotism and telepathy. He seems to appear suddenly even in the depths of a forest glade and sometimes his presence is heralded by sweet aerial sounds, the tremulous vibration of a double-toned flute. This of course is very similar to what happens in **The Monk** when Matilda summons the demon in the vaults.

---

(29) *Zofloya,* p. 130.

(30) These are *A System of Magic* (1726) and *History of the Devil* (1727).

(31) cf. *Zofloya* Vol. II. Chapter XIX.

and very often the imitation is not only confined to theme, characters, and incidents, all of which are repeated over and over again in many chapters with exemplary fidelity, but there are also very distinct verbal echoes to be heard, dialogue at second-hand which merely differs from the original by very slight insignificant alterations. The novels which directly derive from **The Monk** are in themselves so numerous that it would be tedious to set down a large number of parallel passages or discuss details that in most of them are stereotyped copies. Our discussion of such novels must necessarily be limited to the relevant parts in them which deal with Satan and the Satanic. An outline of the main incidents in the story of each novel to be considered will therefore be given here to enable us to indicate the points of resemlbance or identity between the original and the imitation. The first and most important is Charlotte Dacre's novel **Zofloya ; or, The Moor (1806).**

Mrs. Dacre-better known as Rosa Matilda-was a professed disciple of **The Monk**, and her **Zofloya ; ; The Moor** (27), a romance of the fifteenth century, is almost a reproduction of the plot, characters and atmosphere of the original work. «Beautiful and accomplished as an angel» Victoria, the heroine, is none the less proud and haughty, wild, ardent, implacable, revengeful and cruel. «The wildest passions predominated in her bosom ; to gratify them she possessed an unshrinking relentless soul, that would not startle at the darkest crimes». In brief, she is Lewis's Matilda denuded of her diabolical supernaturalism. In some ways Matilda may be regarded as a «Succubus» (28). This view is supported by Lucifer's statement to this effect in the last scene when he disclosed to his victim Ambrosio how he was deceived by him. Five years after her marriage with Count Berneza, the wicked Victoria conceives a guilty and devouring passion for Henriques, the Count's brother. In her dreams she is haunted by the figure of a noble and majestic Moor, whom she recognises as Zofloya, the servant of Henriques :

«He was clad in a habit of white and gold ; on his head he wore a white turban, which sparkled with emeralds, and was surmounted by a waving feather of green ; his arms and legs, which were bare,

(27) Ch. Dacre, *Zofloya ; or, The Moor* (1806) Edition used (1928) (ed.) M. Summers.

(28) i.e. female demon having sexval intercourse with men.

Orientalising movement which continued throughout the earlier nineteenth century by publishing his collection of Romantic Tales (1808). In this collection, besides the «Anaconda» (an East Indian Tale), and the «Four Facardins» (an Arabian story), Lewis wrote an Oriental romance called **«Amorassan or The Spirit of the Frozen Ocean»**, Part of which is original and part a close translation from a Faust story (Der Faust Der Morgenlander) by F.M. Klinger.

In his eager desire to do the right thing and whatever is good for the Caliph and his people, the Grand Vizier Amorassan seeks aid from an Egyptian necromancer who teaches Amorassan the spells and incantations by which he invokes the Spirit of the Frozen Ocean :

> «The spell was complete ; trice had he pronounced it in the awful name of Solomon, the powerful and the wise ; and now a thick grey cloud descending into the room, hovered a while over the chafing-dish and then spread itself through the whole apartment. Gradually, it dispersed ; and now Amorassan beheld a female figure, the faultless perfection of whose form and features sufficiently assured him, that she was no terrestrial being» (24).

In reply to his question «What art thou ?» the Spirit who in the past was one of the slave-Jinn of King Solomon, says, «She, whom you summoned, and whom you need ; a Spirit from the islands of Chillness and gloom». What the good Vizier wants her to do is to guard him against others and still more against himself. «Unmask the wilful hypocrisy of those who surround me, and dispel the involuntary illusions of my own enthusiastic heart (25).

Influence of «The Monk» on Comptemporary Gothic Romances :

However adversely we may judge Lewis to-day, in his own time and during the first half of the nineteenth century his influence was considerable. In addition to contemporary novelists, many later writeres, both English and foreign, some far more telented than Lewis, drew upon **The Monk** for inspiration (26). His followers are legion,

---

(24) M.G. Lewis, Romantic Tales (1808) «Amorassan or the Spirit of the Frozen Ocean» Vol. IV. p. 151.

(25) M.G. Lewis, *Romantic Tales* (1808) *«Amorassan or the Spirit* of the Frozen Ocean» Vol. IV. p. 157.

(26) e.g. Sir W. Scott borrowed from it the idea of the tragic Knight Templar's love for the Jewesg Rebecca in *Ivanhoe* see M. Praz. *The Romontic Agony* (1938), p. 112.

This last statement by Lewis is significant because it shows that the debt he owes to the story in the **Guardian** (i.e. **Santon Barsisa**) is not mere inspiration but something more, since the «moral and outline» of The Monk are also taken from this Oriental tale.

There can be little doubt that Lewis's intention was to each the most virtuous man to be on his guard against the first false step and this entirely agrees with the moral of «Santon Barsisa» namely «Let every man take care that he do not fall» (22); but he certainly enjoyed the portrayal of active vice made necessary by his plan.

In **The Monk,** the incidents follow one another in kaleidoscopic variety like the disjointed phases of a dilirium or nightmare, from which there is no escape. In Lewis's wonder-word there are no elusive shadows, he hurls us without preparation or initiation into a daylight orgy of horrors. To some extent this melodramatic and direct method of using the supernatural horror resembles that used in some of the Oriental tales of terror such as those in **The Arabian Nights** and the **Turkish Tales.** Like writers of those «wild» Oriental tales, the lifelike and the natural are not powerful enough for our author's taste and so to arouse violent emotions, shock and startle his readers Lewis magnified, exaggerated and distorted facts and situations. Again, like them, in reckless abandonment Lewis, sometimes throws to the winds all restaints, both moral and artistic. Yet, with all its limitations, this most extravagant tale has firmly established the «School of Horror» in English literature and the vogue for sensational effects by diabolical supernatural machinery continued for a considerable length of time after its author's death. Commenting on the importance of **The Monk** as an influential work and the contribition it has made to the field of romantic fiction at large, Dr. Varma maintains that the book «marks a new phase in romanticism inherent in tragadies of the soul, revealing deep, human conflicts, the struggle between good and evil for ultimate mastery in human life» (23).

In other words, Lewis is to be credited for reviving Marlowe's old theme of demoniac temptation and league with the powers of Evil.

The author of **The Monk** was interested not only in the Gothic romance but also in the Oriental tale of terror, and contributed to the

(22) *The Guardian,* (1713) No. 148.

(23) D.N.P. Varma, *The Gothic Flame* (1957), p. 158.

«Fiend., 'tis false. Infinite is the Almighty's mercy, and the penitent shall meet His forgiveness. My crimes are enormous, but I shall not despair of pardon» (17).

The Devil does not keep his agreement to release him, after all, for as the auther tells us, taking his victim to the top of the mountain and,

«darting his talons into the monk's shaven crown, he sprang with him from the rock. The caves and mountains rang with Ambrosio's shrieks. The demon continued to soar aloft till, reaching a dreadful height, he released the sufferer. Headlong fell the monk» (18).

He plunged to the river's brink after which a storm evoked by the Devil swept away his body in the flood.

On the publication of **The Monk,** charges of indecency, immorality and irreligion were directed against its author by several critics and contributors to the periodical press (19). Lewis's explanation and apology in respect of the earlier editions (20) are contained in a letter addressed to his father, dated the 23rd February, 1798—a letter of extreme interest to us because it shows the close relation between **The Monk** and the story of **Santon Barsisa** which inspired it. The young author pleads that inexperience prevented his distinction of what would offend, but as soon as he found offence was given, he made the only reparation in his power :

This indeed was no difficult task ; for the objections rested entirely on expressions too strong and words carelessly chosen, not on the sentiments, characters or general tendency of the work .

That the latter is undeserving censure, Addison will vouch for me ; the moral and outline of my story are taken from an allegory inserted in the **Guardian** and which he commends highly, for ability of invention and propriety of object» (21).

---

(17) *The Monk,* Vol. III. pp. 199, 200.

(18) *The Monk,* Vol. III p. 209.

(19) The warm love scenes between Ambrosio and Antonia were the main targets of criticism and abuse.

(20) In the second edition, which closely followed the first, all passages that gave reason for such charges were removed.

(21) M.B. Wilson, (ed.) *The Life and Correspondence of M.G. Lewis,* (1839) Vol. I. p. 156.

She gives him the magic book and before she disappears «in a cloud of blue fire»—she tells him that he can conjure Lucifer if he read the first four lines of the seventh page backwards. When the repentant monk insists on refusing, she departs in an angry temper, and, before long, Lucifer himself appears before him, not in his glory as he did last time, but in all his dread and familiar ugliness.

> «His blasted limbs still bore the marks of the Almighty's thunders ; a swarthy darkness spread itself over his gigantic form ; his hands and feet were armed with long talons ...... Over his huge shoulders waved two enormous sable wings ; and his hair was supplied by living snakes which twined themselves with frightful hissings. In one hand he held a roll of parchment, and in the other an iron pan. Still the lightnings flashed around him and the thunder bursts seemed to announce the dissolution of Nature (16).

After a good deal of resistance and a heated discussion Ambrosio is overawed into selling his soul and signs the contract with his blood. So, to Lewis the Devil's compact is still a necessary bond that must be signed with the blood of those mortals who seek the assistance of the Infernal Powers. That is, the traditional condition of service and forfeiture of man's immortal soul, is the «established price». This revival of the Devil tradition as set by Marlowe is particularly clear from the powerful and moving description of the last scene between the Monk and the Devil. In many respects the situation, the philosophical and theological ideas expressed and the tragic conclusion of the victim's life recall Marlowe's play **Doctor Faustus.**

In answer to Ambrosio's appeal for safety, the fiend asks, «Will you be mine, body and soul ? Are you prepared to renounce Him who made you and Him who died for you ? Answer but «Yes.» and Lucifer is your slave». When the Monk refuses to do so in the hope of heavenly salvation, the Devil who is anxious to have his soul for ever argues :

> «On what chimera rest then your hopes ? Miserable wretch. Are you not infamous in the eyes of men and angels ? Can such enormous sins be forgiven ? Your fate is already pronounced. The Eternal has abandoned you. Mine you are marked in the book of destiny, and mine you must and shall be».

(16) *The Monk,* Vol. III. p. 198.

«Agnus Dei», (13) which she breaks in pieces and throws into the flames. Suddnely she utters a loud and piercing shriek. She appears to be seized with an access of delirium and drawing the poniard from her girdle, plunges it into her left arm. The blood spurts beyond the magic circle. Ambrosio waits with fear the spirit's appearance whose coming is announced by thunder and earthquakes. Yet to his great surprise, the Devil appears in the form of a very beautiful young man, whose features, overcast with melancholy like a fallen angel, recall to mind Milton's Satan and Beckford's Eblis.

> «Enchanted by a vision so contrary to his expectations, Ambrosio gazed upon the spirit with delight and wonder : yet, however beautiful the figure, he could not but remark a wildness in the demon's eyes, and a mysterious melancholy impressed upon his features, betraying the fallen angel, and inspiring the spectators with secret awe» (14).

Lucifer gives the witch «a silver wand», a branch of myrtle whose touch opens all doors. No sooner has she received it, than the music is again heard ; a thick cloud spreads itself over the apparition ; the blue flames disappear and total obscurity reigns through the cave. To impress the abbot and entice him to solicit the evil spirits and sell his soul to the Devil, she says,

> «My magic arts will now be of no use to you : In future you can only hope for supernatural aid, by invoking the demons yourself, and accepting the conditions of their service. This you will never do. You want strength of mind to force them to obedience ; and unless you pay their established price, they will not be your voluntary servants» (15).

When Ambrosio and Matilda fall into the hands of the inquisition, the latter manages to escape, by means of magic powers. Dressed in splendid garments she returns to visit the monk in his prison cell and declares :

> «I have renounced God's service, and am enlisted beneath the banners of His foes ... «Abandon a God who has abandoned you, and raise yourself to the level of superior beings».

---

(13) A cake of wax stamped with the figure of a lamb bearing cross or flag, and blessed by the pope.

(14) *The Monk,* Vol. II pp. 184—185.

(15) The Monk, Vol. II pp. 186.

may be considered the story of a diabolical assault upon the virtue of a man who, priding himself on his virtue, was really devoid of principle. With this fact kept in mind, the gradual development of the plot becomes in the highest degree interesting, for it is really managed with considerable art. As in the previous Devil's compact stories, the object of the tempter (the Evil One) is to lead the self-confident Ambrosio from crime to crime till his cup of iniquity is full to overflowing, thus securing his hopeless damnation. But the choice of events and situation which lead to the final catastrophe is quite different.

In the first temptation scene which eventually leads to the Monk's ruin, Matilda, repulsed by Ambrosio, who, till then, has had the reputation of a saint, bares her beautiful bosom and makes as if to plunge a dagger into it.

> «She had torn open her habit, and her bosom was half exposed. The weapon's point rested upon her left breast : and, oh, that was such a breast. The moon-beams darting full upon it enabled the monk to observe its dazzling whiteness : his eyes dwelt with insatiable avidity upon that beauteous orb : a sensation till then unknown filled his heart with a mixture of anxiety and delight ; a raging fire shot through every limb ; the blood boiled in his veins, and a thousand wild wishes bewildered his imagination. «Hold» he cried, in a hurried, faltering voice ; «I can resist no longer. Stay then, enchantress. Stay for my destruction» (11).

Diabolism in The Monk :

Upon Ambrosio's falling in love with the innocent virgin, Antonia, Matilda promises to aid him with her magical arts. Her magic frightens the monk and she rebukes him for his superstition and bigotry. The vision of Antonia undressing to bathe, which the witch causes to appear in a mirror, succeeds in overcoming the reluctance of Ambrosio, who again gasps : «I yield Matilda, I follow you. Do with me what you will» (12). So he follows the witch into the crypt where she begins to fashion spells with various ingredients, among which an

(11) *The Monk*, Vol. I p. 68.

(12) The Monk, Vol. II, p. 178.

In composing **The Monk**, Lewis abandons the Oriental setting, converts the Turkish Santon into a Christian monk and embroiders the story according to his wild fancy with its strong Gothic bias for sexual passion, bloodshed and demonology. Though the plot is entirely directed towards giving opportunity for the type of horrofic description in which the author excels, we cannot fail to notice a number of significant parallels in the two works which may be summarised as follows :

1. The hero's character in both narratives is almost the same— an ecclesiastic with wide reputation for virtues and chastity.

2. The Santon and the Monk both yiled to the Devil's temptation in the form of a woman.

3. Once fallen, both heroes plunge further into hideous crimes.

4. In both stories the Fiend makes his appearance only towards the end to offer a bargain that completes the victim's ruin.

5. Both heroes are betrayed by the Devil.

6. The moral of both stories is identical, namely,«Let the most virtuous man be on his guard against the first false step».

7. The theme—temptation and the punishment of those who succumb to it—is also the same in both stories.

It should be acknowledged that Lewis's plot is better conceived and ingenously worked out, and all the more so as it is not till he reaches the end of the story that the reader obtains the key to its meaning. In the concluding pages the Fiend who has carried off the wretched Ambrosio reveals to him the steps by which his ruin has been accomplished.

> «Know, vain man, that I have marked you for my prey ; I watched the movements of your heart ; I saw that you were virtuous from vanity, not principle, and I seized the fit moment of seduction».

It is very interesting to note the most lively and original manner in which Lewis treated the traditional theme of «demoniac temptation». So great indeed is the role of the Devil in this story that it

penetrated the cloistral walls. As her cowl falls back he recognises in her radiant beauty a sacred picture (of the Madonna) which some two years before had been brought by the monks, and which has been the object of his increasing adoration. After a brief but fierce struggle, the ceibate yields to the overwhelming temptation and seeks satisfaction in her wanton caresses. His lust having been satiated, he feels disgust towards his first mistress and before long the Monk embarks upon a new criminal adventure whose victim is Antonia, a young virgin of fifteen. Matilda consents to aid his evil designs and help debauch the innocent oject of his violent desire. In order to achieve this end she summons a demon and at midnight in the dark vaults of the monastery Ambrosio takes part in infernal rites. By means of a magic spell he gains admittance to Antonia's chamber and is about to violate her, when Elvira her mother interrupts his wicked attempt. To escape, he murders the wretched woman, and, unsuspected, regains his cloister. By Matilda's contrivance he then administers a sleeping drug to the poor girl and being supposed dead she is conveyed to the vaults for burial. Here Ambrosio waits until she awakes and in spite of her cries effects his lustful purpose. To conceal his crime, in a wild frenzy he stabs her, but this second murder is soon discovered (9). With his accomplice Matilda, he is thrown into the dungeons of the Inquisition and charged with the horrid crimes of murder, rape and sorcery. Through torture a full confession is made by Matilda and both are condemned to the stake. Devoting herself to the Devil, Matilda obtains freedom and at the last moment Ambrosio also sells his soul to Lucifer on the condition of instant release (10). Accordingly he is borne to the wilds of the Sierra Morina, where the deceitful and mocking fiend reveals to him the bitter facts that Elvira whom he slaughtered was his mother, and Antonia whom he ravished and killed was his sister. As the condition of release has been fulfilled, nothing more will be granted by the Fiend who suddenly lets loose his grip, and the wretched monk is hurled down to the bottom of the abyss.

(9) The analogy between this incident and the corresponding situation in the story of *Santon Barsisa* is worth of note.

(10) cf. infra. Comparison between the two stories (The English and the Turkish).

«Santon Barsisa». «The first idea of this romance» says Lewis, «was suggested by the story of the Santon Barsisa, related in the **Guardian**». This story of the hermit Barsisa (7) was first published by Addison in No. 148 of the **Guardian**, August, 1713. Though it is brief and crude, «Santon Barsisa» is swift in movement and powerful in a way not unlike early versions of the Faust legend. The dialogues between the Devil and the Hermit are thoroughly dramatic ; no mention has been made of the Devil at all, and the reader is as unprepared for his sudden stage entrance as is the Santon himself. An evil idea (to lie with his patient, the beautiful young maid) arises in Santon's mind, and quick as thought, the Devil, taking this opportunity whispers in his ear thus : «O Santon, do not let slip such a fortunate minute» (8). The Santon yields, commits one crime after another, is eventually detected and condemned to be hanged. On the scaffold he hears a whisper in his ear : «O Santon if you will worship me, I will extricate you out of this difficulty and transport you two thousand leagues from here, into a country where you shall be reverenced by men as much as you were before». «I am content», says Barsisa, «deliver me and I will worship thee». «Give me first a sign of adoration», replies the Devil ; whereupon the Santon bows his head and says, «I give myself to you». The Devil then raising his voice, says, «O Barsisa, I am satified ; I have abtained what I desired», and with these words, spitting in his face, he disappears, and the wretched Santon is hanged. This disappointment at the end on the part of Barsisa and Ambrosio the monk is typical of all bargains with the Devil from Doctor Faustus onwards.

To show how much Lewis' Gothic romance owed to this short Oriental tale, it is necessary to give a brief summary of the main incident in **The Monk.**

Ambrosio, the Monk, is Abbot of the Capuchins at Madrid, and revered throughout the city for his sanctity. The youngest novice of the house, Rosario, becomes a particular favourite with the Abbot, who one eventing when they are together in the garden discovers to his horror and amazement that his companion is a woman. The lady declares herself to be Matilda de Villanegas, the daughter of a noble house, and passionately avows that she has for his dear love alone

(7) «Santon Barsisa» is one of the most interesting stories in *The Turkish Tales* which first appeared in English in 1708, 1714 and was later included in H. Weber's *Tales of the East* (1812)

(8) Citations are taken from the text quoted by Addison in *The Guardian* No. 148, August 1713.

The mysterious twilights of Medievalism invited eyes tired of the noonday glare of Augustan formalism. The natural had become familiar to monotony, hence men craved the supernatural and found satisfaction in the Oriental tale of terror and the Gothic remance. Medievalism, which formed an important aspect of Romanticism in all European countries also implied diabolism, since the Devil occupied a position of great importance in medieval arts and letters. Medieval legend and history have thus brought into literature magic potions, witches' sabbaths, devil-compacts, vampirism and many other aspects of Satanism.

In England, the Gothic school of fiction brought diabolism into vogue as far back as the last quarter of the eighteenth century. The leader in this field of horror-supernaturalism is, without question, Mathew Gregory Lewis, whose famous work Ambrosio or the Monk (4) (1796) was a masterpiece of the English School of Terror. By introducing diabolical machinery into the popular novel, Lewis created the so-called diabolical supernaturalism which in contrast to Mrs. Radcliffe's method, disdains all rational explanation (5). Lewis may be given credit for having introduced into modern fiction the theme and motif of the Devil. In **The Monk**-the Devil incarnate is not brought in with an allegorical or satirical aim, but is the leading character ; the mainspring of action. **The Monk** was Lewis's first literary achievement and proved to be his greatest work. It was very popular from the beginning and ran into sveral issues and new editions following on one another's heels (6).

In this Gothic romance, Lewis has amplifield the character of the Turkish «Santon Barsisa» (whose story he knew from the Guardian) in a most masterly and impressive manner. The stranger passions are finely delineated and exemplified in the progress of artful temptation working on self-sufficient pride, supersition and lasciviousness.

Santon Barsisa and The Monk :

Among several sources of **The Monk** which the author acknowledges in the «Advertisement», predominance is given to the Oriental tale

(4) M.G. Lewis, *The Monk, A Romance*, 3 volumes, (1796)-Edition used is published in 1924 by Brentano's Ltd.

(5) cf. Sir W. Scott's views concerning the use of the supernatural ; article in P.M.L.A., March 1935, p. 235 f.

(6) A second edition was published in the same year (1796) and the third, fourth and fifth followed in 1797, 1798 and 1800.

ORIENTAL BACKGROUND OF THE MONK

by M.G. Lewis and Its Impact On Horror Romantic Fiction In England during the Late Eighteenth Century

by

Dr. M. SAMIR ABDEL HAMID

Asst Professor-Dept. of English-Ain Shams Univ.

Because of the sway of rationalism, the supernatural scarcely ventured into the English novel of the first half of the eighteenth century. the supernatural horror in those weird narratives which exemplify the subtle fusion of the Oriental tale of terror and the Gothic remance.

Because of the sway of rationalism, the supernatural scarcely ven tured into the English novel of the first half of the eighteenth century. Defoe's pamphlet, «A True Relation of the Apparition of one Mrs. Veal» (1706) is merely a vivid account of a current ghost story and an interesting attempt to rob the supernatural of all extraordinary and «romantic» qualities. Any innate desire for the «marvellous» was met at this period chiefly by oral tradition and by such works as Galland's translation of **The Arabian Nights** and similar collections of genuine and pseudo-oriental tales (1) ; collections of fairy tales ; and Charles Perrault's **Contes de Ma Mere l'Oye** (1729). Many essays in the periodical magazines indicate clearly the state of popular opinion. In one of the «Spectator» essays, Addison admits that he is strongly inclined to believe in the existance of spirits, though he repudiates the ridiculous supersititions which prevailed in his day, (2) Defoe, however, in the preface to his «Essay on the History and Reality of Apparitions» (1727) (Which appeared 21 years after Mrs. Veal's), declares uncompromisingly : «he that is not able to see the devil, in whatever shape he is pleased to appear in, he is not really qualified to live in this world, no, not in the quality of a common inhabitant» (3).

---

(1) e.g. *Turkish Tales* (1708). *Persian Tales* (1714) and *Mogul Tales* (1736).

(2) *The Spectator* (1711) No. 110.

(3) D. Defoe, *Novels and Miscellaneous Works of D. Defoe* (1840) Vol.13,p.x.

Spain, a nation between East and West, a country that although it belongs to the West is proud of her Oriental ancestry. The only European land that has treasured the best essences of the Arab soul and can therefore affirm that its friendly relations with the Muslim world are deep-rooted and everlasting. Spain, a country with European mind and Arab soul.

Alvaro and Abbot Sanson. Notwithstanding the Muslim civilization grows and the Christian decays. In the days of Abd-ar-Rahman III there are in Cordova only a few Christian intellectuals, who later on migrate to Northern Spain, attracted by the intellectual revival of Cluny in the XII century. Parallel to it, Mussulman learning fades away in Ali-Andalus from the XIII century onwards. Abul Baqa' Al-Waqqasi and Ibn Quzman are the last representatives of a folk fighting now not fora literary supemacy but for physical survival. The Spanish language is born, the great medieval authors write their masterpieces, the Spaniards acquire slowly the sense of nationality and they do their best in order to bring the whole country under their rule.

Summing Up

Spain has enjoyed the Oriental influence during many centuries but, I must reassert it, she never forgot her European roots. Present Spain is the result of this encounter and peaceful meeting of East and West. The Western world prevailed at the end but the Oriental traits are there and nobody can deny them. It is for this reason that Spain means a compromise between both cultures. She is the only European nation who can boast of an Oriental heritage without being indeed an Oriental country. In the days of Spanish hegemony in the world our historical destiny held us aloof from the Muslim world and sent us across the seas to create our own civilization in the Western hemisphere. Notwithstanding the Mussulman was never forgotten and the Spanish-speaking countries overseas have also got something from the Arabic essences of the Spanish soul. The mudéjar architecture, that of Muslim architects working in Christian Spain, could be the best exponent of this. Mudéjar, a style which you can find in America in the cathedral of Santo Domingo, in the house of Diego Colón, in Santo Domingo de Tunja, in San Francisco de Cartagena. Finally, let us remember there are big Syrian, Turkish and Libanese colonies in South America bringing together the Arab and Spanish ideals. The similaraity between both of them has paved the way for cultural movements considered impossible one hundred years ago, for instance the revival of Arab poetry. Is it not surprising that some of the greatest Arab poets of this century were born in the Western Hemisphere ? Poets like Fawzi Maahuf and Al-Keraui born in Brazil, like Goubran Khalil Goubran and Mikhail Naima born in the U.S.A., lihe Ilias Qonsul born in Argentine. Ilias Qonsul is a bilingual poet writing both in Arabic and Spanish.

Muslim Cordova could boast of a cultural tradition several centuries old going back to Hosius, Seneca and Lucan. It flourished in Cordova the highest civilization of its time, its university was the chief centre of European learning, and Albucasis, Abenzoar, Ibn Hazm and Averroes were the chief scientific luminaries. Any way, I must repeat it, they were Spaniards who developed a Muslim culture just as centuries before another Spaniards had developed in the same place the Roman and Christian civilization. Spain was always an active, dynamic agent of Muslim learning. When the Spanish Muslims were compelled to leave the peninsula they tried to maintain alive their cultural tradition on African soil, but they having been deprived of their roots they did not succeed in the long run and brought forth a mimetic civilization, a constant repetition of the glories of Al-Andalus.

The interest for Muslim culture will on the other hand be kept alive by Christian Spaniards who travel through Africa and Asia and sometimes accept Islam. For instance, Leon de Granada, whose real name was Hassan Ibn Mohammed, born at Granada in 1491, author of a giant «Description of Africa» (11526) ; Luis de Mármol Carvajal, who lived 22 years in Africa, principally in Tunisia, author of a «General Description of Africa» (1573) ; Ali Bey el Abbasi, already referred to ; Hach Mohammed el Bagdadi (José María de Murga), and Sheikh Ismail (Joaquín Gatell).

I have pointed out the survival of Christian Spain inside Muslim Spain. This survival accelerated the Reconquest. The Christian kingdoms of North Spain kept a watchful eye on these follow-believers and tried to establish their rule over them. The Reconquest must therefore be considered as a roll-back, as a turn of the tide, as a civil war between both communities and not as an Spanish invasion of the Spanish fatherland. Codera has proved that many Latin languages and dialects were spoken in Al-Andalus, where Arabic was simply the official language. Latin was at the same time employed for literary and canonical purposes ; The Christians or the VIII-XI centuries could not of course create a civilization competing with that of Cordova. They lived on acanty books and had no libraries like that of al-Hakam II. Therefore the great writers of this period are Muslims like Algazal, Ibn Abd Rabbihi, Ibn Hani, Azzobaidi, Sa'id. It is the great age of « zejel » and « muwaššaha ». But the Christian tradition instead of dying away lives underground, in Cordova itself, thanks to the scholarship of men like Speraindeo, Saint Eulogius, Paulo

Arabic and European Civilization

Let us see Spain with European eyes. A German, a Briton, a Frenchman, a Scandinavian will tell you that Spain, considered as an European country, is a very queer one. They notice racial, spiritual, cultural differences we are not always aware of. These traits are the sequel of our Oriental past, specially of our Arab tradition. In our literature, our folklore there are many traces of this Eastern trend. Spanish chivalry and hospitality have Islamic roots. The Spanish language, on account of our Roman ancestors, remains a Latin language up to the present day ; she has, however, adopted many thousands Arabic and Persian words. The Spanish poetry uses strophes akin to the Arabic ones. Our early medieval poetry, as Dâmaso Alonso says, has not Provençal but Muslim origins. Our oldest poems contain Arabic and Spanish words gracefully inter-mingled. In present Spain there are many towns and villages the holydays of which-the feasts of Moors and Christians-call up those happy days in which bigotry did not hinder a common life. There is still a Spanish village, Benamahoma (Cadiz), i. e. the town of Mohammed children, where the warlike show always ends with a Muslim victory.

Thousands of Spanish geographical names have an Arabic origin. This happens because Al-Andalus was not simply a reservoir of Islamic civilization but one of its chief centres. Muslim culture developed there nurtured by the Spaniards themselves, who fostered it with the same passion they put in the advancement of Roman culture. «Whatever can be done by sheer force of genius or the impulse of some ardent passion, whether in the physical or in the spiritual world, that a Spaniard has done», writes the British historian Havelock Ellis. The same author remembers that the old Iberians formed part of a great Mediterranean race which reached from Spain to Africa, where they may still be seen in their present form, by the ancient called Lybians, by the modern Kabyles and Berbers. A kinship that maintains itself due to the Carthaginian presence in Spain, that explained even in Roman days, the curious affiinty between Africa and Spain in the resemblance in literary spirit between the Latin African writers and Spanish writers.

Spain remoins today a compact, homogeneous people ; India is composed of peoples speaking many languages, belonging to many languges, belonging to many races, believing in many religions.

Spain can be proud of her Arabian heritage, she being true at the same time to her Christian tradition. The Muslim presence in the Peninsula enriched our spirit, changed it partially but it did not substantially modify a national genius which had had occasion for developing along original lines many centuries before the advent of Islamic civlization. Let us not forget that Roman Spain supplied the Roman Empire with philosophers, economists, writers, poets and emperors. Thus, my country had the obligation of maintaining a culture, a spirit that had moulded our mind since the arrival of Greece and Rome to our coasts. Christianity came with the Romans and it intended to stay. The Reconquest was started in 718, seven years after the Visigothic defeat, and the rolling back could not be prevented by the Mussulmans. It seems idle to speak of eight centuries of Muslim Spain. Forty per cent of the Iberian soil had been reconquered as early as 1065, at the death of Ferdinand I. The southernmost point of the Peninsula, Tarifa, fell in Christian hands in 1292. As a matter of fact Muslim Spain had been reduced to an enclave two centuries before the fall of Granada.

Please, bear also in mind that Christian Spain was not isolated from Europe. The European countries, Italy and France mainly, granted Christian Spain the cultural and spiritual support she barely needed for resisting the pressure of Islamic civilization that, as everybody knows, was paramount and better than our own during the first centuries of this confrontation. Roman tradition, Christian religion and European backing in this crucial period modelated Spain and made my country European for ever in spite of the Oriental marks and the spiritual ties with the American continent. Had Spain been forgotten like Albania, she would be today a different land. History decided thus and to ignore its lessons seems the best way for misunderstanding a nation. To overlook the permanent reality of Christian Spain amounts to forget the existence of Pharaonic or Ptolemaic Egypt. The vigorous personality of Egypt, if compared with that of other Muslim countries, has its roots in the historical grandeur before Islam. Nomadic peoples who never produced a great civilization possess a single cultural layer. This might be the case of the Eskimos but not that of Egypt and Spain.

I must reassert it. Spain is an European country though in a peculiar way having little in common with the Europeanism of Germany, Italy or France. Europe means for us something else. **We are Europeans as well, mainly Europeans but not exclusively Europeans.** Just as the Russians are European and Asiatic at the same time.

My country, due to her geographical situation lives inside a magic triangle : Europe, America and Africa. Not to understand this is the best way for misunderstanding Spain. The Frenchmen say «Africa begins at the Pyrenees». Well, Africa may begin at the Pyrenees. We are proud of it, we don't forget there are racial links between the Iberian and the Berber tribes since prehistoric times. In spite of it Spain differs from Africa just as Africa differs from Spain. I consider necessary to lay stress upon this reality, as Muslim historians went sometimes so far as to identify Mussulman Spain with Africa and the Orient. They wrote by the by pages of delicious candour about the Christian invaders of Al-Andalus. The Spanish arabist Isidro de las Cagigas has proved that only a few thousands Muslims have been necessary for conquering Visigothic Spain. Including the Almoravide and Almohade troops who came thereafter, the Arab and African soldiers occupying the Peninsula during the famous eight centuries never supposed the bulk of our population, only a small part of it. To put it in other words, the Spanish Muslims have been no foreigners but mainly Spaniards converted to Islam who formed a minority-a bright, a powerful one, of course-even in Spain. For this reason the Reconquest was actually a civil war between Christian and Muslim Spaniards. Islamic toleration permitted the existence of big Christian and Hebrew communities in Al-Andalus. Marriages between Christians and Muslims, military alliances between Christian and Muslim princes with a view to overrunning Muslim or Christian enemies have not been seldom but, as a matter of fact, the general law. The case of Muslim Spain bears a striking likeness to that of Muslim India, though there is a capital difference : Muslim power was destroyed in the subcontinent by European nations, not by the natives themselves as it happened in Spain. Therefore the outcome has been different :

The Holy Qur'an says in this connection : «And when the trumpet is blown there will be no kinship among them that day, nor will they ask of one another».

Spain as a Western Country

Nobody should think I am trying to make amends for eventual errors in the past or pretending to show before your eyes the image of a Spain that could be an integral part of the Mussulman world. Were this the case, one would have to explain how it is possible that my country be a Roman Catholic one, that no Muslim minorities live there like in Bulgaria or Poland, not to speak of an overwhelming Muslim population like in Albania. Of course not. Spain remains a part of Europe. Spain began her career as a modern nation with the discovery of America, in 1492, i. e. the same year of the Granada surrender. Nations must undergo a physical growth in order to achieve historical maturity. Important are only the elements composing the national body. On the other hand Spain has absorbed Oriental elements during 25 centuries and they cannot be thought off, ignored, excluled without maiming the very framework of our soul. Nobody should, however, think these Oriental elements are the principal ones. To believe this is the usual error of some Arab historians, who mistake themselves and their readers by taking no account of our history as a whole, limiting their research to Muslim Spain. Why not to Greek, Carthaginian, Roman, Byzantine or Visigothic Spain ? I don't wish to criticise such an illustrious historian as Amir Ali but I cannot help to smile when I read these words printed in his famous «History of the Sarracens» : The Moors were banished ; for a while Christian Spain shone, like the moon, with a borrowed light ; then came the eclipse, and in that darkness Spain has grovelled ever since». The truth is just the opposite. After having achieved her national maturity in 1492, Spain rose during a couple of centuries to preeminence in Europe and throughout the world, attained her golden century. Her definitive political fall in 1898 has to be explained as the result of a hopeless struggle with rising European powers like Germany, Holland, France and Great Britain. Our downfall is logical due to the enormous task we took on our shoulders. The reasons for our decay should not be looked for in the existence or absence of Muslim communities in our country after 1492. Had Spain remained Muslim during those bright centuries, the European nations would not have spared her, just as they did not spare the Ottoman Empire, Persia, India or the Arab world.

Do not forget, please, that French and German intrigues with a view to conquering Morocco forced Spain, at the beginning of this century, to intervene there in order to avoid that another European power might establish itself in the neighbourhood of Southern Spain. For the same reasons when France conquered Mauritania we took the necessary steps for protecting the Canary Islands. Britain, for instance, has more than once tried to convert these two Spanish provinces into a British colony.

We are living today in a changing world, in o world where colonialism and imperialism are regarded as curses we cannot put up with. In this connection the Spaniards feel like all the Afroasian countries because we are still suffering under colonialism. We are sure of the final disappearance of colonialism but in any case nobady can overlook the historical and geographical fact that Spain and Africa are complementary parts of a whole. Summing up, it is convenient to remind oneself that Spain, as regards her policies towards the Oriental world, has been conquered before conquering herself the tiniest bit of land ; that Spain has lived under Oriental influence 2.500 years and only exerted her own influence during the last five centuries ; that even in those bygone days when my country was a sea power in the Mediterranean she always fought a defensive war, never trying to rule over other peoples, though this might have been possible on several occasions. It is therefore correct to speak of Spanish political inhibition in the Mediterranean as well as of a continuous trend towards friendship and cultural intercouse with Arab countries.

Spain learned very much from the Muslims, adopted their culture and established blood ties with them. We are proud of our Arab past. We believe that this common origin secures the continuity of our friendly relations with the Arab world. This community of ideals and interests gives its special flavour to our spiritual presence in the Oriental wold, though one must not forget that Spain is an European country and a Roman Catholic one. Our preference for the Arabic civilization has nothing to do with Imperial preferences or Imperial rights to be defended with warships, parachutists and airborne troops. It is the result of a common destiny. Kinships due to political domination, to a colonialist past are doomed to disappear, to show their real face. Those who have to suffer under them will only be glad to see them in jeopardy, to free themselves from such «relatives».

like Sheikh Mohieddin Ibn Arabi, the Spanish mystic glory of Islam, and nobody knows whether he was really an agent of Madrid or a convinced Muslim who endeavoured to give Mussulman countries the independence from Ottoman supremacy they were bound to attain in this century.

The XIX century means the arrival of Imperialism, of European yoke over the Orient. It could have been the great Spanish opportunity for getting its share of flesh of the Turkish body. Notwithstanding Spain maintans her defensive position, as she has no political interests there. She assists at the gradual decay of Ottoman power without availing herself of the circumstances. (In the Middle Ages Spain did not take part in the Crusades). Spain retires from Algeria and cedes her historical rights to France. She fights unwillingly in Morocco and has to back Great Britain and France becanse these countries exert such an influence over our own home affairs that they can at any time overthrow all the Spanish governments. In 1860 the war with Morocco has to be organized as a means of unifying the Spanish political parties and the gains thereof are meagre. Its sole important consequence will be the introduction in Morocco of printing, electric power and railroads, a modernization carried out by Spain.

Up to the present day my country remains active in Africa. Africa does not mean for us a remote continent, as it lies 10 miles away from Spain, being therefore our neighbour, a neighbour we must live with. River Congo is broader than the Gibraltar Straights. It would be foolish to pretend we have no interests in Africa, just as it would be absurd to believe Turkey has no interests in Europe. I would like, however, to make it quite clear, in order to avoid misunderstandings, that the Spanish action in Africa has never had colonialistic purposes. We always spent lots of money there and got very little in exchange. Our chief aim was always to protect us and our African neighbours against third parties who could lay siege to Spain both from the North and the South. Our only imperialistic onrush in Africa was carried out in the years 1590—91 when an Army of Moroccans and of Spanish mercenaries crossed the Sahara and after a 3.200 kms march, from Marrakesch to Gao, conquered the Sudanese Empire of Askea Mohammed Gao. True, the commander-in-chief of this Army was also the Spanish Muslim Yuder but he acted on behalf of sultan Ahmed el-Mansur of Morocco. This is the origin of the imperialistic dreams of some Moroccans.

lecture at Zaragoza, by the fact that the French Prime Minister, M. Jules Ferry, denied in the year 1885 before the French Assembly that the Human Rights Declaration may have anything to do with Negroes.

The Spanish record is quite different. Surely Spain has been an Empire, too, which gave birth to twenty nations. This has not been, however, the case as regards the Orient. To begin with, Spain lived many centuries under Oriental influence. Phoenicians, Carthaginians, Byzantines, Arabs established themselves on Spanish soil, left there their culture and religion. One thousand years before Christ the Phoenicians founded their stronghold of Gades, the present Cadiz, cited in the Bible ; Hannibal marched across the Pyrenees in order to invade Italy commanding an army composed of Carthaginians and Spaniards, and after Carthago's fall Carthaginian civilization survived a couple of centuries in the Spanish island Ibiza. Later on, at the beginning of the VIII century, the Muslim conquest of Spain begins and the racial, cultural and religious symbiosis is consequently going to last till the XV century. The Muslim domination ends in 1492 but Christian Spain does not intend to avail herself of the circumstances with the purpose of bringing North Africa under her control. She tries just her best to secure the navigation lines across the Mediterranean by keeping some strongholds on the African coast. Spain is compelled to fight against European powers in Europe, America and the Pacific Ocean and wishes to live in peace with the rising Ottoman power, a wish that as a matter of fact seldom comes true. The innumerable watch-towers along the Spanish coast construsted for preventing Muslim sea inroads bear witness up to the present day of this defensive mentality. Spain, encouraged by the Papacy, destroys the Ottoman sea power at Lepanto on October 7, 1571, but this overwhelming victory hailed with jubilation throughout Europe will not be followed by the logical landing in Turkey. Really Spain has no imperialistic ambitions in the Orient and contents herself with a truce with the Turks that will mean their recovery, their survival until the First World War. Even the Moroccan onslaught against Ceuta in 1791, which ended with the defeat of sultan Muley Eliacit's army, did not prevent our king Charles IV of forbidding the activities of the Spanish adventurer Domingo Badia Ali Bay el Abbasi in the Muslim world-who had in the meantime succeeded in gaining support for his cause in Morocco, Algeria, Palestine, Syria and Arabia. Domingo Badia lies buried in Syria

SPAIN BETWEEN EAST AND WEST (*)

by

ANTONIO IGLESIAS LAGUNA

Spain as an Eastern Country

Among all the European nations having ever built a bridge between Eastern and Western civlization, Spain is perhaps the country that better preserved the Oriental heritage. Much better than Greece, Rome or Byzantium, Greece absorbed much of the Oriental cultures of her age, specially in her origins, but she remaind Greek, I mean European throughout the centuries. It is for this very reason that we, Europeans, talk about Greek culture and thought as the living source of our spiritual life. Rome, too, was imbibed of Oriental spirit but for the Romans the Orient consisted only of far-off provinces that had to be protected and raised to Roman standards of civilization. Greece formed the European mind. Byzantium should be considered as a kind of Christian bulwark able to resist the Asiatic onrush till 1453, in which year Constantinople was conquered by the Turks.

Lastly, the great powers of modern Europe-England and France came to the Orient with a view to subduing it. Colonization, Imperialism were means for a political task which besides the poltitcal enslavement included the diffusion of European ideas and habits but not the opposite, though the total impermeability was impossible. Those countries were more interested in cheap raw materials than in cultural values. The antagonism brought about the jealousy between both of them. In Egypt, for instance, England and France clashed in Napoleonic times. The invasion of Syria proved to be of no avail and Napoleon had to return to France in August 1799, but this war only reflected the struggle for supremacy in the Middle East between both nations. Their colonial mentality is well illustrated, as Dr. Ahmad Anwar, Egyptian Ambassador in Madrid remembered in a

(*) A paper read at the Faculty on 28 Nov. 1966 by Mr. Antonio Iglesias Laguna, Spanish writer and chief editor of « LA ESTAFETA LITERARIA », guest of Dr. S. Okasha, Deputy Prime Minister of Culture (U.A.R.)

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ; in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Library Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin Dr. Abd El-Latif Ibrahim Assist. Prof. Faculty of Arts, Giza, U.A.R.

Back numbers of this Bulletin are available at 30 P. T. for each Part

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXV—PART I

May 1963

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1967

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXV—PART I

May 1963

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1967





المجلد الخامس والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٦٣

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٨

مجلة

كلية الآداب



المجلد الخامس والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٦٣

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٨

تصدر هذه المجلة مرتين كل سـنة ، فى مايو وديسـمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القـاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصـة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة .

وثمن الجزء الواحد من أي مجلد ثلاثون قرشا مصريا

فهرس القسم العربى

صفحة

من الوثائق العربية فى العصور الوسطى :

وثيقه استبدال

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم
أستاذ الوثائق المساعد

هذه وثيقة استبدال من العصر الوسيط (الاسلامى) فى مصر الجركسية ، ترجع إلى أوائل القرن العاشر الهجرى – الخامس عشر الميلادى ، كنت قد وعدت بنشرها [1] منذ سنوات مضت .

والوثيقة مكتوبة على عشرة دروج من الورق الأوصال من كلا الوجهين ، مطوية من أسفل إلى أعلى على هيئة ملف (roll) ، ويبلغ طولها ٣٫٧١ مترا ، ويتراوح طول الدرج بين ٣٥٫٩ – ٣٧٫٦ سم ، وعرضه بين ٢٨٫١ – ٢٨٫٦ سم ، وعرض الهامش الأيمن بين ٨٫٢ – ١٠٫٢ سم ؛ ومن ثم فان متوسط طول الدرج الواحد هو ٣٧٫١ سم ، ومتوسط عرضه هو ٢٨٫٥ سم ، ومتوسط عرض الهامش الأيمن هو ٩٫٧ سم [2] .

ونجد على الدرج الأول من الملف القصة (الالتماس أو طلب الاستبدال) ملصقة على الجانب الأيمن منه ، وأبعاد هذه القصة ٢٣ × ١٤٫٤ سم ، وهى مكتوبة على ورق خشن الملمس سميك نوعا ويضرب لونه إلى الاصفرار ، وهو أقل جودة من دروج الوثيقة نفسها ، وقد أصطلح على تسميته فى بعض وثائق الاستبدال بالورق البلدى [3] .

---

(١) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢١ جزء ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٩) ص ١٣٤ ، ١٣٥ حاشية ١١

(٢) أنظر الجدول الخاص بأبعاد كل درج وعدد سطوره فى ص ١٠ من بحثنا هذا .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧ ، ج ٦ ص ١٩١ حيث تجد ذكرا لأنواع الورق المستعمل فى مصر إبان العصر الوسيط ، أما الورق البلدى فقد ورد ذكره فى وثائق الاستبدال على أنه الورق الذى تكتب عليه القصص .

والدرج الأول من الملف به آثار رطوبة واضحة ، كما نجد به تمزقا وبعض ثقوب فى الهامشين الأيمن والأيسر ، وقد أدى ذلك إلى ضياع بعض الكلمات والحروف أو زوال لون الحبر وبخاصة فى القصة سطر ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٣ وفى نهاية بعض سطور الوثيقة نفسها مثل السطر رقم ٢ ، ٣ ، ٦ . والوثيقة بالرغم من ذلك كاملة وسليمة إلى حد كبير ومحفوظة حفظا جيدا .

وقد ورد فى وجه الملف نص القصة وعدد سطورها ١٣ سطراً ، ووثيقة الاستبدال بتاريخ ١٨ رجب سنة ٩١٢ هـ وعدد سطورها ٧٦ سطراً ، ثم فصلى الجريان والأعذار وعدد سطورهما ٩ ، ٧ على التوالى ، أما فى ظهر الملف فنجد الإشهاد الشرعى وهو الإسجال التوثيقى الحكمى بتاريخ ٢٠ رجب سنة ٩١٢ هـ وعدد سطوره ٤٤ سطراً .

ولا يوجد على الدرج الأول لوجه الوثيقة سوى ثلاثة سطور فقط ، لأن القصة الملصقة عليه تحتل معظم المساحة ، أما بقية الدروج فيتراوح عدد السطور المدونة عليها بين ٨ ــ ١٠ سطور .

* * *

وقد كتبت الوثيقة بحبر أسود به قدر من أكسيد الحديد ، بخط ديوانى هو قلم التوقيع المطلق [١] فيما عدا بعض الكلمات والعبارات ، وهى تلك التى كتبها قاضى القضاة ــ أو كبير الموثقين ــ الشيخ عبد البر بن الشحنة الحنفى بجوار القصة وعلى الهامش الأيمن لها ونصه :

« الشيخ غرس الدين المقرى أعزه الله تعالى

ينظر فى ذلك بطريقه الشرعى [٢] »

---

(١) قلم التوقيع المطلق يكتب به فى قطع الثلث ، وهو إلى التقوير أميل منه إلى البسط ، وفى سطوره تقوير ما على نسبة تقور حروفه كما يقول ابن الصائغ . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٥ ، ٥٨ ، ١٠٠ ــ ١٠٢

(٢) أنظر اللوحة رقم ١

أو ما كتبه نائبه القاضي الموثق لهذه الوثيقة ، وهو الشيخ غرس الدين أبو الجود خليل الامام المقرى الحنفى فى وجه الوثيقة مثل كلمة « ليسجل » على الهامش الأيمن للوثيقة أمام سطر ٣ ـ ٤ ، والتصديق على شهادة الشاهدين سطر ٧٥ ، ٧٦ وفى نهاية فصل الجريان سطر ٨ ، ٩ وفصل الأعذار سطر ٦ ، ٧ وكذلك فى ظهر الوثيقة حيث كتب بخط يده ما يلى :

ا ـــ علامته : وهى « الحمد لله على كل حال » سطر ١

ب ـــ التاريخ : وهو « العشرين من شهر رجب الفرد الحرام » سطر ٩

حـ ـــ الحسبلة : وهى « وحسبنا الله ونعم الوكيل » سطر ٣٥

ومما لا شك فيه أن كاتب نص وثيقة الاستبدال فى وجه الملف ، والاسجال التوثيقى الحكمى فى ظاهرها شخص واحد هو عبد العزيز بن عمر الحانوتى ، وهو الشاهد العدل على الفعل القانونى فى الوجه سطر ٧٤ ، وعلى الفعل التوثيقى فى الظهر سطر ٣٩ فى آن واحد .

* * *

أما طريقة إخراج وكتابة الوثيقة باطنا وظاهرا ـ على حد مصطلح كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى ـ فهى لا تختلف عما كان متبعا فى الوثائق الدبلوماتية الخاصة إبان عصر المماليك الجراكسة فى مصر بصفة عامة من حيث الهوامش ، والمسافات بين السطور ، وكتابة النص تباعا وغير ذلك ، وهى الطريقة التى سار عليها كتاب الوثائق فى القاهرة ، وعلى نسقها سار كاتب هذه الوثيقة الذى درج على إهمال الهمزات والشكل إهمالا تاما ، أنظر لفظ العلما سطر ٦ ، ١١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، الفضلا سطر ٢٦ ، ٤٠ ، وكذلك ابدل الكاتب الهمزة اللينة فى أواسط الكلمات ياء مثل الزوايد والفوايد سطر ٩ ، وساير سطر ١٣ ، الوظايف سطر ١٥ ، ٦ فى ظهر الوثيقة ، صحايفه سطر ١٧ ، شايعا سطر ٣٣ ، مسيولا وشرايطه سطر ٢٨ فى ظهر الوثيقة ، وغيرها من الألفاظ والكلمات ، كما كتبت كلمة حسبما هكذا « حسب ما » سطر ٣٧ ، ٤١ ، ٤٩ فى مقطعين منفصلين .

وقد استغل كاتب الوثيقة الهامش الأيمن لوجه الملف ودون عليه هذين النصين :

أولهما : نص ورد فيما بين سطر ١٠ - ١٧ ، يفيد انتقال ملك العين المستبدلة بطريق البيع من الزينى رمضان (المستبدل) إلى ملك السيفى طراباى (المشترى) أمير رأس نوبة النواب الملكى الأشرفى بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ .

ثانيهما : نص ورد فيما بين سطر ١٧ - ٢١ ، يفيد وقف السيفى طراباى للعين المذكورة على أولاده ثم من بعدهم على من عينه فى كتاب وقفه المسطر بذيل مكتوب وقفه الكبير المؤرخ فى ١٥ شعبان سنة ٩١٥ هـ[1] .

ومن حيث طريقة اخراج هذه الوثيقة كذلك ، فقد ورد فى نهاية الوجه نصان أحدهما خاص بالجريان والثانى بالاعذار - وقليلا مايحدث هذا ، إذ ان المتبع فى طريقة اخراج وثائق ذلك العصر كتابة مثل هذه النصوص على الهامش الأيمن وهو ربع عرض الدرج ، تبعا لما درج عليه الكتاب المعتبرين ، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون [2] .

أما النصان المذكوران فهما :

١ - فصل الجريان : (٩ سطور) الخاص بالشهادة على جريان العين المستبدلة فى وقف المبدل الشرفى يونس وفى استحقاقه وتحت نظره إلى حين صدور هذا الاستبدال فى ١٨ رجب ٩١٢ هـ .

٢ - فصل الاعذار : (٧ سطور) الذى اشهد فيه المتصرفان على نفسيهما أنهما لا دافع لهما ولا مطعن فى جميع ما تضمنه مكتوب (وثيقة) الاستبدال ولا فيمن شهد فيه ، ولا فيما شهد به فيه ولا فى شىء من ذلك .

---

(١) قمنا بالبحث عن وثيقتى السيفى طراباى المذكورتين (البيع والوقف) ولكنا لم نعثر عليهما فيما وقع بين أيدينا من وثائق تلك الفترة فى المحفوظات التاريخية بالقاهرة ، هذا وتوجد للسيفى طراباى عدة وثائق فى أرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة هى :

١ - وثيقة بيع بتاريخ ١٩ رمضان ٩١٠ هـ رقم ٢٤٨ محفظة ٣٩

٢ - وثيقة بيع بتاريخ ٨ ربيع آخر ٩١٢ هـ رقم ٢٥٧ محفظة ٤٠

٣ - وثيقة بيع بتاريخ ٢٦ ربيع آخر ٩١٢ هـ رقم ٢٥٨ محفظة ٤٠

٤ - وثيقة بيع ووقف بتاريخ ١٢ جماد الثانى ٩١٢ هـ ، ٩ رجب ٩١٤ هـ رقم ٢٦٥ محفظة ٤١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٩٥ ، جـ ٩ ص ٣٣٣ - ٣٣٥

دراسة فى مراحل انشاء وثيقة الاستبدال :

وهذه الوثيقة التى بين أيدينا تعتبر مثلا لطريقة إخراج بعض وثائق الاستبدال التى وصلتنا من ذلك العصر ، وتوضح لنا المراحل التى مرت بها عند انشائها ـ أعنى مراحل تدوين وثيقة الاستبدال وتحريرها بعدأن صدرت إرادة المبدل (الفعل القانونى) بالاستبدال .

ومن دراستنا لهذه الوثيقة وغيرها من وثائق الاستبدال يمكن أن نخرج بنتائج جديدة تسهم فى بناء علم الوثائق العربية ـ الذى لابد قبل الكتابة فيه من دراسة كتب المصطلح الوثائقى دراسة تحليلية نقدية مقارنة ، ونشر أعداد كبير من الوثائق التى وصلتنا على اختلاف أنواعها ـ لأنها توضح لنا الخطوات والمراحل التى تمر بها وثيقة الاستبدال عند تحريرها بعد أن مرت بمرحلة الارادة أو الفعل القانونى ـ وهى سابقه على تدوين الوثيقة كما هو معروف ـ وهذه المراحل هى :

أولا : يقوم الواقف أو الناظر على الوقف أو المستحق لريعه برفع قصة ـ فى حالة إرادته الاستبدال ـ إلى قاضى القضاة (كبير الموثقين) يلتمس أو يطلب فيها اذنه الكريم لأحد نوابه فى الحكم (القاضى الموثق) بالنظر فى ذلك ، والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف [(١)] ، اى أن المبدل يطاب تأييد طلبه أو التوصية بالتماسه واتخاذ الخطوات القانونية اللازمة .

ثانيا : تعرض القصة على قاضى القضاة الذى يقوم باحالتها إلى أحد نوابه أو مساعديه من نفس مذهبه (خليفة الحكم العزيز) ـ ويكتب على يمين القصة أو على الهامش الأيمن للدرج الملصقة عليه ما يفيد ذلك [(٢)] ـ لينظر فى ذلك بالطريق الشرعى .

---

(١) أنظر القصة سطر ١١ ، ١٢ ـ وكانت القصة تكتب على قطعة من الورق ، وتلصق على الدرج الأول فى وجه الملف كما هو الحال فى هذه الوثيقة ، أو تكتب مباشرة على وجه الدرج الأول نفسه أو فى بدايته وخاصة فى حالة وثائق الاستبدال المكتوبة على دروج من الرقوق المخيطه كما اتضح لنا من دراسة كثير من وثائق الاستبدال . وقد ثبت لنا كذلك من الدراسة الباليوجرافية المقارنة ـ لعدد من وثائق الاستبدال ـ بين الخط الذى كتبت به القصص وخط الوثائق نفسها ، أن الكاتب فى الحالتين شخص واحد فى أغلب الأحوال .

(٢) جرى المصطلح الوثائقى على القول بأن قاضى القضاة « يتوج هامشها بخطه الكريم » الوثيقة سطر ٢٤

ثالثا : عندما تعرض القصة على القاضي الموثق الذى عينت عليه ، كان يتأملها تأملا شافيا ويقف عليها وقوفا وافيا[1]، ولكى يتأكد من أن التصرف (الاستبدال) صحيح وشرعى ، كان يتحتم عليه قبل الأمر بكتابة وثيقه الاستبدال ـ الرجوع إلى وثيقة الوقف ذاتها ، فيطلب مكتوب أو وثيقة الوقف من رافع القصة [2] أو المبدل باعتبارها مستنده فى ذلك وليتثبت بنفسه من ثلاثة أمور قبل الاذن بالاستبدال — وهى :

١ — أن العين المطلوب استبدالها فى القصــة المرفوعة من المبــدل ، قد ورد ذكرها فعلا فى وثيقة الوقف ضمن ما وقفه الواقف[3] .

٢ — أن شرط الاستبدال قد ورد ضمن شروط الواقف صراحة فى وثيقة وقفه[4] .

٣ — أن التصرف القانونى الوارد فى وثيقة الوقف ثابت صحيح محكوم به فى الشرع الشريف[5] .

رابعا : مرحلة الأمر أو الاذن من القاضي الموثق بكتابة أو تدوين نص وثيقة الاستبدال ـ بناء على طلب المبدل ـ فى وجه الملف أو باطنه (Recto) وما يتبع ذلك من كتابة النص التوثيق (الاسجال الحكمى) فى ظاهره (Verso) وذلك بعد أن يكون الطلب أو الالتماس (القصة) الذى قدمه أو رفعه المبدل قد حصل على موافقة القاضي الموثق من كافة النواحى القانونية .

وقد تمر الوثيقة بمرحلة المسودة (الشكل الأول أو التمهيدى) ثم تأتى بعد ذلك مرحـــلة المبيضة أو تحريرها فى شكلها النهائى ، وما يتبع ذلك من شهادة الشهود على الفعل القانونى وتوقيعاتهم وتأشيرات القاضي الموثق فى وجه الوثيقة .

---

(١) الوثيقة سطر ٢٥ ، ٢٧ — ٢٨

(٢) الوثيقة سطر ٢٨ — ٢٩

(٣) الوثيقة سطر ٣٢ — ٣٥

(٤) الوثيقة سطر ٣٧

(٥) الوثيقة سطر ٣٩ — ٤٢ وظهر الوثيقة ٢٩ — ٣٢

أما فى ظهر الوثيقة فنجد الاسجال الحكمى وعلامة القاضى الموثق (الحمدلة) - وهى بمثابة التوقيع أو الختم - والتاريخ والحسبلة بخط يده ، ثم شهادة الشهود على الفعل التوثيقى .

ونود ان نشير هنا إلى أن الأمر أو الاذن بالاستبدال لم يرد مدونا فى هذه الوثيقة كما لا حظنا فى غيرها من وثائق الاستبدال .

وجدير بالملاحظة أن هذه لوثيقة التى ندرسها قد مرت بالمراحل الاساسية التالية عند إنشائها وتدوينها وهى :

(أ) مرحلة طلب الاستبدال أو كتابة القصة الملصقة على الدرج الأول وما يتبعها من اجراءات .

(ب) مرحلة كتابة نص وثيقة الاستبدال فى وجه الملف ، وما يتعلق بها مثل فصلى الجريان والاعذار .

(حـ) مرحلة كتابة الاشهاد أو الاسجال التوثيقى الحكمى فى ظهر الملف .

ولكن هذه الوثيقة موضوع الدراسة ، أغفلت تدوين مرحلتين من المراحل التى تمر بها بعض وثائق الاستبدال عند إنشائها ، فقد وصلت إلينا وثائق استبدال أخرى أكثر كمالا ، لأنها تحوى المراحل الثلاثة الواردة فى هذه الوثيقة بالإضافة إلى مرحلتين أساسيتين هما :

١ - محضر الكشف على العين موضوع التصرف (المستبدلة) بواسطة المهندسين .

٢ - الإذن بالاستبدال من القاضى الموثق .

أما محضر الكشف فانه يكتب عادة فى وجه الملف بعد القصة مباشرة بناء على طلب القاضى الموثق الذى عينت عليه القصة وباذن منه للمهندسين من أرباب الخبرة بالعقارات وعيوبها والأراضى وذرعها - على حد قول بعض تلك الوثائق - لكى

يبدوا رأيهم الفنى فى حالة العين الموقوفة والمطلوب استبدالها[1] ، وإذا ما أقر المهندسون ذلك وشهدوا لدى القاضى - بعد الكشف على العين - بأنها متهدمة مثلا أو قدم بناؤها أو قل ريعها لسبب أو لآخر ، صدر الإذن بالاستبدال من القاضى الموثق ، ويرد نص الإذن بالاستبدال عادة فى بداية ظهر الملف ، ويبدأ غالباً بعبارة نصها : « أذنت فى ذلك على الوجه الشرعى » بقلم جليل بخط القاضى الموثق نفسه .

وفى هذه الحالة - التى نجد فيها محضر الكشف ، والإذن بالاستبدال - فان وثيقة الاستبدال نفسها كانت تكتب على الهامش الأيمن للدروج فى وجه الملف او بعد محضر الكشف كنص قائم بذاته إذا ما وجد بياض فى بقية الدروج .

وأخيراً نجد فى ظهر الملف - آخر مرحلة من مراحل إنشاء وثيقة الاستبدال - الاسجال التوثيقى الحكمى .

***

وبعد - فان وثيقة الاستبدال فى ذلك العصر كانت تمر بخمس مراحل عند انشائها أو تدوينها وهى تتمثل فيما يلى (٢) :

١ - القصة أو الالتماس أو طلب الاستبدال وكانت تكتب أو تلصق على الدرج الأول فى وجه الملف .

٢ - محضر الكشف ويكتب على دروج الوثيقة فى وجه الملف .

٣ - الاذن بالاستبدال ويكتب فى بداية ظهر الملف .

٤ - وثيقة الاستبدال وتكتب على الهامش الأيمن غالبا فى وجه الملف .

٥ - الاسجال الحكمى ويكتب على دروج الوثيقة فى ظهر الملف .

---

(١) إلى مثل هذا تشير كثير من وثائق الاستبدال - أنظر وثيقة استبدال محمد بن تغرى برمش محكمة رقم ٢٦١ محفظة ٤١ بتاريخ ٢١ رمضان ٩١٢ هـ التى ورد فيها ما نصه : « . . . وقد كشف المهندسون المندوبون للكشف المكان المذكور وتقويمه من بين يدى سيدنا الحاكم المشار اليه . . . وشاهدوه وأحاطوا به علما وخبرة نافيين للجهالة وأقاموا شهادتهم لدى الحاكم المشار اليه فيه مسيولين فى ذلك بعد الكشف التام فوجدوه قد قدم بناوه وقل ريعه . . . . »

وأنظر كذلك وثيقة استبدال السيفى مصر باى بن عبد الله محكمة رقم ٢٤٩ محفظة ٣٩ بتاريخ ١٢ ذى القعدة ٩١٠ هـ حيث جاء فيها النص التالى : « . . . . وهما من المعلمين المهندسين العارفين بالعقارات وقيمتها والابنية وعيوبها والأراضى وذرعها والأماكن وخططها . . . . »

(٢) أنظر وثائق الاستبدال رقم ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٣٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٦٨٤ فى مجموعة الوثائق التى اكتشفت أخيرا فى الأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف بالقاهرة والتى عهد الينا بدراستها .

فهرسة الوثيقة :

مكان الوثيقة : الأرشيف التاريخى بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .

رقم الوثيقة : ٢٥٩

رقم المحفظة : ٤٠

مـادة الكتابة : ورق

شـكل الوثيقة : ملف (Roll)

عـدد الدروج : ١٠

متوسط أبعاد الدرج : ٣٧٫١ × ٢٨٫٥ سم

نـوع التصرف : خاص

موضوع وتاريخ التصرف : استبدال بتاريخ ١٨ رجب ٩١٢ هـ .

العـين وموقعها : جميع الحصة التى قدرها نصف عشر وهى حصة كاملة شائعة فى جميع أراضى ناحية سرو بجيجا بالدقهلية .

المتصرف : ١ — المستبدل : الصـدر الأجل المحـترم الحاج زين الدين رمضان بن المجلس المرحوم السيفى طوغان الزينى .

٢ — المبدل : الجناب العالى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى الشرفى يونس بن المقر المرحوم السيفى طوخ من تمر ، وهو رافع القصة والواقف والناظر على وقفه والمستحق لريعه بمفرده فى آن واحد .

الاشهاد التوثيقى وتاريخه : اسجال حكمى بتاريخ ٢٠ رجب ٩١٢ هـ

القاضى الموثق : الشيخ غرس الدين ابو الجود خليل بن ابى عبد الله محمد الامام المقرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ونائب كبير الموثقين وقاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة الحنفى .

« جدول ببيان أبعاد كل درج من دروج الوثيقة وعدد سطوره »

رقم الدرج	طول الدرج	متوسط عرض الدرج	متوسط عرض الهامش الأيمن	عدد السطور فى كل درج
١	٣٧,٣	٢٨,٢	٨,٢	٣
٢	٣٧,٥	٢٨,٣	٨,٥	٩
٣	٣٧,٤	٢٨,٢	٩,٤	٨
٤	٣٧,٦	٢٨,٦	١٠,٢	١٠
٥	٣٧,٥	٢٨,٥	١٠,١	٩
٦	٣٦,٤	٢٨,٤	١٠	١٠
٧	٣٥,٩	٢٨,٢	٩,٨	٩
٨	٣٧,٢	٢٨,٣	٩,٣	٩
٩	٣٧	٢٨,٦	٩	١١
١٠*	٣٧,٥	٢٨,٦	٩,٦	١٦

أولا : وجه الوثيقة :

(١) القصـــة :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبى[١]

٢ ــ المملوك[٢]

٣ ــ يونس بن طوخ[٣]

٤ ــ يقبل الأرض[٤] بين يدى سيدنا ومولانا قاضى القضاة[٥] [شيخ][٦]

٥ ــ الاسلام أمتع الله تعالى بطول حياته الأنام وينهى[٧] أن من الجارى

٦ ــ فى وقفه على نفسه وتحت نظره (وفى استحـ]قاقه بمفرده

٧ ــ جميع حصة كاملة قدرها نصف [ع]شر باراضى ناحية سرو بججا[٨]

٨ ــ بالدقهلية وشرط لنفسه فى وقفه الزيادة والنقصان

٩ ــ والاستبدال[٩] وبدا له ان يستبدل ذلك بما هو أنفع لجهة

١٠ ــ الوقف[١٠] من ذلك ويوقف على حكم شرط وقفه وسواله من

١١ ــ الصدقات العميمة اذن كريم لاحد السادة النواب فى الحكم

١٢ ــ العزيز بالنظر فى ذلك والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف

١٣ ــ [انهـ]ى ذلك والحمد (لله) وحده[١١]

الشيخ عز الدين القرى اعزه الله تعالى

ينظر فى ذلك بطريقة الشرعى[١٢]

---

* ترجع زيادة عدد السطور فى هذا الدرج إلى كتابة فصلى الجريان والاعذار عليه (أنظر لوحة رقم ٧) بطريقة تختلف عن كتابة متن الوثيقة نفسها من حيث ضيق المسافات بين السطور .

(ب) الوثيقة :

١ بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

٢ هذا مكتوب(١٣) استبدال شرعي معتبر محرر مرعى مضمونه انه لمـ[ـا]

٣ رفع لسيدنا ومولانا(١٤) العبد الفقير(١٥) إلى الله تعالى الشيخ(١٦) الامام(١٧) العالم(١٨) العامل(١٩) العلامة(٢٠) الحبر(٢١) البحر الفهـ[ـامة]

٤ المحدث(٢٢) الحافظ(٢٣) العمدة(٢٤) المحقق(٢٥) المدقق(٢٦) الرحلة(٢٧) المجتهد(٢٨) الأوحد(٢٩) الامة المحرر المتقن الحجة(٣٠) الخاشع(٣١) الناسك(٣٢)

٥ القدوة(٣٤) الورع الزاهد الصالح العابد قاضي القضاة(٣٥) شيخ الاسلام(٣٦) مفتي الأنام(٣٧) محقق

٦ القضايا والأحكام(٣٨) ملك العلما الاعلام(٣٩) حسنة الليالي والايام(٤٠) صدور مصر والحجاز والعر(اق)

٧ والشام(٤١) سرى الدين لسان المتكلمين(٤٢) حجة المناظرين(٤٣) مفحم المجادلين(٤٤) رحلة الطالبين(٤٥) عمدة المحققين(٤٦)

٨ بغيـة المجتهدين(٤٧) سلطان الفقها والأصوليين(٤٨) كنز النحاه والمعربين(٤٩) قدوه السالكين لازال

٩ علم علمه منصوبا ابدا وثنا مجده مرفوعاً بخفض العدا مستخرج الزوايد من بحار الفوايد

١٠ مشيد القواعد باقتناص الاوابد امام النقلة والمفسرين(٥٠) حجة الحفاظ والمحدثين(٥١) (*)

(هامش: (٣٣) ـ جل ـ)

---

*يوجد على الهامش الأيمن للوثيقة بين السطر ١٠ – ١٧ النص التالى :

١ – الحمد لله وحده

٢ – انتقل ملك جميع الحصة التى قدرها نصف عشر بأراضى ناحيةسروبجا المحدودة المعينة فى ملك الزينى رمضان المستبدل المذكور فيه

٣ – الى ملك مولانا المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الاميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى السيفى طراباى أمير راس نوبة النواب الملكى الاشرفى اعز الله أنصاره انتقالا =

١١ مرجع الحساب والفرضين[٥٢] سيبويه زمانه فريد عصره واوانه[٥٣] قاضي المسلمين[٥٤] سلالة العلما

١٢ العاملين[٥٥] قامع المبتدعين[٥٦] محى سنة سيد المرسلين[٥٧] خالصة مولانا امير المومنين[٥٨] ابى البركات

١٣ عبد البر ابن الشحنة الحنفى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية وساير الممالك

١٤ الشريفة الإسلامية وشيخ الشيوخ[٦١] بالخانقاة الشيخونية[٦٢] كابيه وجده[٦٣] وما اضيف لذلك من

١٥ الوظايف الدينية والانظار الحكمية ادام[٦٤] الله ايامه الزاهدة وجمع له بين خيرى الدنيا

١٦ والاخرة وانفذ اقضيته واعز احكامه وختم بالصالحات اعماله واحواله

١٧ واحسن اليه واسبغ نعمه فى الدارين عليه وملا من الخيرات صحايفه ويديه[٦٥] القصة[٦٦] الملصقة باعاليه التى مضمونها *

= ٤ – شرعيا بتبايع شرعى مسطر بالرقوق المخيط بعضها على بعض موافق لتاريخه ولشهوده بتاريخ سابع عشرى شهر رمضان المعظم قدره وحرمته سنة اربعة عشر وتسعماية .

٥ – شهد فى اصله — شهد فى اصله

٦ – محمد بن حجاج الأزهرى — عمر بن حجاج الحانوتى

* يوجد على الهامش الأيمن بين سطر ١٧ – ٢١ النص التالى

١ – الحمد لله رب العالمين

٢ – صارت جميع الحصة التى قدرها

٣ – نصف عشر من أراضى ناحية سرونججا المحدود

٤ – كاملها فيه وقفا شرعيا من جملة

٥ – اوقاف مولانا المقر الأشرف الكريم العالى

٦ – المولوى الأميرى الكبيرى المخدومى السيفى طراباى

٧ – راس نوبة النوب بالديار المصرية المشار اليه اعلاه

٨ – بالفصل المسطر اعلاه بمقتضى انه وقف ذلك

٩ – على أولاده ثم من بعدهم على من عينه فى كتاب وقفه

١٠ – المسطر بذيل مكتوب وقفه الكبير المورخ بالخامس عشر =

١٨ بعد البسملة الشريفه المملوك يونس بن طوخ يقبل الارض بين يدى سيدنا ومولانا قاضى القضاه شيخ

١٩ الاسلام امتع الله تعالى بطول حياته الانام وينهى ان من الجارى فى وقفه على نفسه وتحت نظره وفى

٢٠ استحقاقه بمفرده جميع حصة كاملة قدرها نصف عشر باراضى ناحية سرو بجحابالدقهلية

٢١ وشرط لنفسه فى وقفه الزيادة والنقصان والاستبدال وبدى له ان يستبدل ذلك بما هو

٢٢ انفع لجهة الوقف من ذلك ويوقف على حكم شرط وقفه وسواله من الصدقات العميمة اذن كريم

٢٣ لاحد الساده النواب فى الحكم العزيز بالنظر فى ذلك والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف انهى ذلك

٢٤ والحمد لله وحده وتوج هامشها بخطه الكريم اعلاه الله تعالى ما قراته الشيخ غرس الدين المقرى اعزه الله تعالى

٢٥ ينظر فى ذلك بطريقه الشرعى وعرضت القصة المذكورة على من عينت عليه وهو سيدنا العبد الفقير

٢٦ الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامه غرس الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابو الجود خليل

٢٧ الامام المقرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فتاملها تاملا شافيا

= ١١ من شعبان المكرم سنة خمسة عشر وتسعمايه وثبت وحكم به

١٢ بالشرع الشريف بموافقة تاريخه وشهوده وحسبنا الله ونعم الوكيل

١٣ شهد فى اصله بذلك — شهد فى اصله بذلك

١٤ محمد بن ابرهيم التتاى — صالح بن على الاطفيحى الشافعى

٢٨ ووقف عليها وقوفا وافيا وطلب سيدنا الشيخ غرس الدين الحاكم المشار اليه اعلاه من الجناب الشرفى يونس رافع

٢٩ القصة[٦٨] الملصقة باعاليه مكتوب وقفه[٦٩] الشاهد له بذلك فاحضر مكتوب رقوق مخيط [٧٠] بعضها على

٣٠ بعض من مضمونه بعد البسملة الشريفة اشهد عليه الجناب العالى الشرفى يونس بن المقر المرحوم السيفى طوخ

٣١ من تمرلزامه مجلس والده كان شهوده الاشهاد الشرعى فى صحته وسلامته[٧١] انه وقف جمع ابنية وحصص

٣٢ ومن جملة ذلك جميع[٧٢] الحصة المعينة بالقصة الملصقة اعلاه التى قدرها نصف عشر وهى حصة كاملة

٣٣ شايعا [٧٣] ذلك فى جميع اراضى ناحية سرو بججا بالدقهلية ولكامل الناحية المذكورة حدود اربع القبلى

٣٤ ينتهى الى [٧٤] أراضى ناحية منية ابى عبد الله والبحرى ينتهى الى اراضى ناحية شرباص والشرقى

٣٥ ينتهى الى بحيرة برنبال والغربى ينتهى الى الخور الفاصل بين هذه الحصة وبين حصة الجزيرة الذى شرط لنفسه

٣٦ فى مكتوب وقفه المنبه عليه اعلاه شروطا منها انه شرط لنفسه الزيادة والنقصان والادخال

٣٧ والاخراج والتغيير والتبديل [٧٥] ومنها انه شرط لنفسه ان يستبدل ذلك حسب ما ذلك مشروح بمكتوب

٣٨ وقفه المذكور المورخ المكتوب المذكور بالخامس عشر من شوال المبارك سنة احدى وثمانين وثمان مائة [٧٦]

٣٩ الثابت المحكوم به بالشرع الشريف لدى سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ بدر الدين شرف العلما

٤٠ اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى الفضل محمد بن الشيخ تقى الدين بركه المسلمين بقية السلف الصالحين ابو الخير محمد

٤١ سبط النويرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان حسب ما يشهد بذلك

٤٢ اسجاله الكريم المسطر بظاهره المورخ بخطه الكريم بالسابع من ذى الحجة الحرام سنة احدى وثمانين وثمان مايه

٤٣ واقتضى راى الجناب الشرفى يونس الواقف المشار اليه اعلاه ان يستبدل ذلك فمقتضى ذلك استبدل الصدر

٤٤ الاجل المحترم الحاج زين الدين رمضان[٧٧] بن المجلس المرحوم السيفى طوغان الزينى حفظه الله تعالى بماله لنفسه من

٤٥ الجناب العالى الاميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى الشرفى يونس بن المقر المرحوم السيفى طوخ من تمر لزامه مجلس

٤٦ والده بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان واعز جناب ولده المشار اليه اعلاه

٤٧ جميع الحصة التى قدرها نصف عشر وهى حصة كاملة المعينة اعلاه الجارية

٤٨ الحصة المستبدلة المعينة اعلاه فى وقف الجناب الشرفى يونس المشار اليه اعلاه وفى استحقاقه

٤٩ وتحت نظره الى حين صدور هذا الاستبدال حسب ما يشهد له بذلك المكتوب المذكور اعلاه

٥٠ المخصوم فيه بقفيه هذا الاستبدال بهامشه الخصم الشرعى[٧٨] الموافق لتاريخه ولشهوده ومن سيوضع

٥١ اسمه بالفصل[٧٩] الذى سيسطر فيه المعلوم ذلك عند المستبدلين المشار اليهما اعلاه

٥٢ العلم الشرعى النافى للجهالة[٨٠] شرعا استبدالا صحيحا شرعيا بمبلغ[٨١] جملته من الذهب

٥٣ الاشرفى والظاهرى[٨٢] الطيب الوازن السالم من عيب مثله معاملة تاريخه بالديار

٥٤ المصرية الف دينار ومابة دينار [و] احد وستون دينارا ومن الفضة

٥٥ العددية الانصاف(٨٣) ثلاثة عشر الف نصف نصف الذهب المذكور

٥٦ حفظا لاصله وضبطا لجلته خمسماية دينار وثمانون دينارا ونصف دينار ونصف

٥٧ الفضة المذكورة ستة الاف نصف وخمسماية نصف حالا مقبوضا(٨٤) بيد الجناب

٥٨ الشرفي يونس المبدل المشار اليه اعلاه من الزيني رمضان المستبدل المذكور اعلاه بتمام ذلك

٥٩ وكماله باعترافه بذلك لشهوده الاعتراف الشرعي واعترف الزيني رمضان المستبدل

٦٠ المذكور اعلاه بتسلم ما استبدله فيه لنفسه التسلم الشرعي بعد النظر والمعرفة (٨٥) والمعاقدة الشرعية

٦١ المشتملة على الايجاب والقبول الشرعيين (٨٦) فبمقتضى ذلك صار المبلغ المذكور اعلاه متحصلا

٦٢ لجهة الوقف المذكور ليصرف فى مصرفه الشرعي فى شرآ عقار او حصة من عقار او غير ذلك

٦٣ ويوقف على حكم شرط الواقف المشار اليه اعلاه فى الحال والمآل والتعذر والامكان والنظر

٦٤ والاستحقاق والشرط والترتيب وصارت الحصة المستبدلة اعلاه ملكا طلقا من جملة املاك

٦٥ الزيني رمضان المستبدل المذكور اعلاه وحقا من حقوقه يتصرف فى ذلك وفيما شآ منه تصرف ذوى

٦٦ الاملاك فى املاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع له فى ذلك ولا معارض

٦٧ ولا رافع ليد بتصادقهما على ذلك كله التصادق الشرعي ووقع الاشهاد عليهما بذلك وبالتوكيل

٦٨ فى ثبوته وطلب الحكم به وسوال الاشهاد وابدا الدافع ونفيه التوكيل الشرعي(٨٧) وهما بحال الصحة

٦٩ والسلامة والطواعية والاختيار بتاريخ ثامن عشر شهر رجب الفرد الحرام سنة اثنى عشر وتسعاية [٨٨]

٧٠	اشهد على المستبدلين	اشهد على المستبدلين
٧١	المذكورين اعلاه بجميع ما نسب	المذكورين اعلاه بجميع مانسبه
٧٢	اليهما اعلاه فى تاريخه اعلاه	اليهما اعلاه فى تاريخه
٧٣	وكتبه [٨٩]	اعلاه وكتبه
٧٤	عبد العزيز بن عمر الحانوتى	محمد بن حجاج الازهرى

٧٥ شهدا عندى بذلك

٧٦ اعزهما الله تعالى [٩٠]

(ج) فصل الجريان :

١ الحمد لله وحده

٢ يشهد من يوضع اسمه باخره بمعرفة العين المستبدلة اعلاه المعرفة الشرعية النافية للجهالة شرعاً

٣ ويشهد مع ذلك بجريانها فى وقف الجناب الشرفى يونس المشار اليه اعلاه وفى استحقاقه

٤ وتحت نظره وبانه يستغل ذلك استغلال الاوقاف الى حين صدور هذا الاستبدال بعلم شهوده

٥ ذلك ويشهدون به مسيولين فى دلك بسوال من جاز سواله شرعاً وحسبنا الله ونعم الوكيل

٦	شهد بمضمونه	شهد بمضمونه
٧	الحاج عمر بن شرف الدين	الحاج ابراهيم بن محمد
٨	وكتب عنه باذنه [٩١]	وكتب عنه باذنه

شهدا بذلك

٩ وقبلا فيه

(د) فصل الاعذار :

١ الحمد لله وحده

٢ اشهد عليه الجناب الشرفى يونس والزينى رمضان المستبدلان المشار اليهما اعلاه

٣ شهوده الاشهاد الشرعى انهما لا دافع لهما ولا مطعن فى جميع ما تضمنه مكتوب الاستبدال

٤ المسطر اعلاه ولا فيمن شهد فيه ولا فيما شهد به فيه ولا فى شى من ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل

٥ شهد بذلك — شهد بذلك

٦ محمد بن عبد القادر — شهدا عندى بذلك — عبد القادر بن . . .[92]

٧ اعزهما الله تعالى

ثانيا : ظهر الوثيقة :

وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

١ بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله على كل حال[93]

٢ هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ

٣ الامام العالم العلامة غرس الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابو الجود

٤ خليل بن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ شمس الدين مفيد الطالبين قدوة

٥ السالكين بقية السلف الصالحين ابى عبد الله محمد الامام المقرى الحنفى

٦ خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية وما اضيف لذلك من الوظايف الدينية ايد الله

٧ تعالى احكامه واحسن اليه من حضر مجلس حكمه وقضايه(٩٤)

٨ وهو نافذ القضا والحكم ماضيهما وذلك فى اليوم المبارك

٩ العشرين من شهر رجب الفرد الحرام (٩٥)

١٠ من شهور سنة اثنى عشر وتسعمايه انه ثبت عنده وصح لديه احسن

١١ الله تعالى اليه على الوضع المعتبر الشرعى والقانون المحرر المرعى بشهادة

١٢ من اعلم له تلو رسم شهادته باخر مكتوب الاستبدال المسطر باطنه اعلام التادية

١٣ والقبول على الرسم المعهود فى مثله اشهاد المستبدلين المشار اليهما

١٤ باطنه على انفسهما بجميع ما نسب اليهما باطنه على ما نص وشرح باطنه

١٥ ومعرفتهما المعرفة الشرعية وباطنه مورخ بالثامن عشر من شهر رجب الفرد

١٦ سنة تاريخه ثبوتا شرعيا (٩٦) وثبت ايضا عنده ثبت الله مجده

١٧ وانجبح قصده بشهادة من رقم له تلو رسم شهادته باخر فصلى الجريان والاعذار

١٨ المسطرين اذنى باطنه رقم التادية والقبول على الرسم المالوف فى مثله

١٩ مضمون كل منهما على ما نص وشرح فيه ثبوتاً صحيحاً شرعياً وحكم(٩٧)

٢٠ أيد الله تعالى احكامه واحسن اليه بموجب ذلك وبصحة الاستبدال

٢١ المسطر باطنه وبصيرورة العين المستبدلة باطنه ملكا طلقا من املاك

٢٢ الزينى رمضان المذكور باطنه وحقا من حقوقه يتصرف فى ذلك وفيما شآ منه

٢٣ تصرف ذوى الاملاك فى املاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع

٢٤ له فى ذلك ولا معارض ولا رافع ليد وبصيرورة المبلغ المقبوض باطنه مختصا

٢٥ لجهة الوقف المذكور باطنه ليشترى به ما هو انفع لجهة الوقف من العين المستبدلة
٢٦ باطنه ويوقف على حكم شرط الواقف المذكور فى الحال والمال والتعذر والامكان
٢٧ والشرط والترتيب والنظر والاستحقاق صيرورتين وحكما
٢٨ صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسيولا فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية (٩٨)
٢٩ عالما بالخلاف فى ذلك وذلك بعد ان اتصل بسيدنا الشيخ غرس الدين الحاكم
٣٠ المشار اليه اعلاه ادام الله علاه حكم سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ بدر الدين
٣١ شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى الفضل محمد سبط النويرى الحنفى خليفة
٣٢ الحكم العزيز بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان المعين باطنه
٣٣ الاتصال الشرعى بالطريق الشرعى واشهد على نفسه الكريمة بذلك فى التاريخ
٣٤ الذى سيكمل بخطه (٩٩) الكريم اعلاه شرفه الله تعالى وزاد علاه بمحمد واله
٣٥ وحسبنا الله ونعم الوكيل (١٠٠) اشهدنى (١٠١)
٣٦ سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامه غرس الدين
٣٧ شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين الحاكم المشار اليه اعلاه على نفسه الكريمة
٣٨ بما نسب اليه فى اسجاله المسطر اعلاه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتبه
٣٩ عبد العزيز بن عمر الحانوتى
٤٠ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به فى تاريخه اعلاه
٤١ وكتبه
٤٢ محمد بن حجاج الازهرى (١٠٢)
٤٣ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به وكتب
٤٤ خضر بن محمد الازهرى (١٠٣)

التعليقات العلمية

١ – درج كتاب قصص الاستبدال على كتابة عبارة « وهو حسبى » بعد البسملة مباشرة . قارن ذلك بافتتاحية الوثيقة نفسها التى أتبعت فيها البسملة بالصلاة على النبى محمد وآله وصحبه .

أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢١٩ – ٢٢٩ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « بسملة »

٢ – عن لفظ « مملوك » أنظر زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر (مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية م ٤ جـ ١ مايو ١٩٣٦) ص ٨١ والحواشى ٥٤ – ٥٧ ، حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٥٠٧ – ٥٠٩ والواقع أن اللفظ قد تحور عن معناه الحرفى ، وكان يقصد به النعت للدلالة على التواضع والطاعة ، وخاصة فى حالة الالتماس ومخاطبة قاضى القضاة عند طلب الاستبدال فى القصص القضائية .

أنظر : المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢ حاشية ٢ ، السيوطى : الكنز المدفون والفلك المشحون ص ١١ ، ١٢ – وثيقة الصالح طلائع بن رزيك محكمه ١ محفظة ١

أنظر كذلك الوثائق التالية بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة :

وثيقة الشهابى انسباى من بيبرس محكمة ٢٢٠ محفظة ٣٥ ، وثيقة السيفى مصرباى محكمه ٢٤٩ محفظة ٣٩

وثيقة الناصرى محمد بن السيفى فارس محكمه ٢٥٢ محفظة ٤٠

وثيقة محمد بن تغرى برمش محكمه ٢٦١ محفظة ٤١

وثيقة ناصر الدين الصواف محكمه ٢٨٦ محفظة ٤٤

وثيقة قانى باى المحمدى محكمة ٢٩٣ محفظة ٤٤

٣ – هو الجناب العالى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى الشرفى يونس بن المقر المرحوم السيفى طوخ من تمر ، الواقف والناظر على وقفه والمستحق لريعه بمفرده والمبدل رافع القصة الملصقة على الدرج الأول . الوثيقة سطر ٤٥ . هذا ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من المصادر التاريخية وكتب التراجم المختلفة .

٤ – صيغة اصطلح عليها فى كتابة قصص الاستبدال والالتماسات ، وقد ترد بالمفرد أو المثنى أو الجمع حسب الحال . وقد وردت فى كثير من القصص فى بداية وثائق الاستبدال ومنها على سبيل المثال الوثائق رقم ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ،

٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٧ ، ٦٢٩ ، ٦٦٨ فى المجموعة المكتشفة أخيرا بالأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف ، والتى قمنا بدراستها وفهرستها .

٥ — قاضى القضاة هو عبد البر بن الشحنة الحنفى — الوثيقة سطر ١٣ ، وهو فى نفس الوقت كبير الموثقين ، لأنه لم يكن هناك فصل بين الوظيفة القضائية La Juridication contentieuse والوظيفة الادارية أو الولاية La Juridication gracieuse للقاضى والحاكم فى ذلك العصر .

٦ — ما بين الحاصرتين متآكل وغير ظاهر فى الأصل . وعن هذا اللقب الفخرى أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ١٦ ، ٣٦

٧ — لا زال هذ اللفظ مستعملا فى الالتماسات والطلبات التى يقدمها أصحاب الحاجات إلى المسئولين حتى اليوم .

٨ — سرويجا من القرى القديمة واسمها المصرى بجحا ، وفى العهد العربى الاسلامى عرفت باسم سرويجا ثم عرفت بالسرو ، وهى من أعمال الدقهلية مركز فارسكور قرب دمياط . وسرو كلمة عربية معناها الأرض المرتفعة التى لا يعلوها ماء النيل إلا بواسطة الآلات الرافعة .

ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٨٩ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٧٣

ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٦٣ . محمد رمزى : القاموس الجغرافى القسم الثانى ج ١ ص ٢٤١

٩ — هذه هى بعض الشروط التى ترد فى وثائق الوقف، وهى المعروفة باسم الشروط العشرة عند الموثقين والفقهاء ولكنها لا ترد كاملة ، لأنها مترادفة المعانى ، ويمكن القول بأن شرطى التغيير والتبديل يغنيان عنها كلها . الوثيقة سطر ٣٦ — ٣٧ ، خلاف : أحكام الوقف ص ٦٩ — ٧٠

١٠ — وردت هذه الصيغة كتبرير لطلب الاستبدال والفعل القانونى ، لأن القاضى الموثق لا يمكن له أن يوافق على الاستبدال إلا فى هذه الحالة فقط — أعنى أن يكون ذلك أنفع لجهة الوقف ، وأن يوقف على حكم شرط وقفه .

١١ — درج كتاب الوثائق فى العصور الوسطى على كتابة هذه العبارة « الحمد لله وحده » فى ختام قصص الاستبدال بدلا من الحسبلة التى ترد عادة فى ختام النص .

١٢ — هذه العبارة بخط قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى وهى تأشيرة باحالة القصة إلى الشيخ غرس الدين المقرى لينظر فيها بالطريق الشرعى ، أنظر الوثيقة سطر ٢٤ ، ٢٥

١٣ — هذا اللفظ « مكتوب » أو « كتاب » هو المستعمل فى الوثائق العربية فى العصر الوسيط سواء كانت بيع أو وقف أو استبدال ، وقد حل محله فى العصر العثمانى لفظ « حجة » بالضم بمعنى الدليل والبرهان

والسند القانونى وما تثبت به الدعوى من حيث الغلبة به على الخصم Piéce Justificative
ابن منظور : لسان العرب مادة حجج ، الفيروز بادى : قاموس المحيط مادة الحج ، البستانى : محيط المحيط مادة حجج ، أبن قاضى سماوة : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٤

والمكتوب الشرعى المتضمن تصرفا قانونيا من أى نوع (سواء كان من جانب واحد أو من جانبين) هو الوثيقة فى مصطلح العصر الحديث .

١٤ – يطلق لقب سيدنا ومولانا على كبار العلماء من رجال الدين وخاصة قضاة القضاة على المذاهب الأربعة . حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٣٤٥ – ٣٥٠ ، ٥١٦ – ٥٢٢ وما بها من مراجع .

١٥ – لقب من ألقاب التواضع والخضوع لله تعالى ، وهو من الألقاب التى ينعت بها الشيوخ كبارهم وصغارهم . حسن الباشا : نفس المرجع ص ٣٩٣

١٦ – الشيخ فى اللغة الطاعن فى السن ، وكان يطلق للتوقير على كبار العلماء والقضاة والمتصوفة فى عصر المماليك ، وهو من الألقاب الأصول ويأتى غالبا فى مقدمة الألقاب . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٦٤ – ٣٦٦ وما بها من مراجع ، الفنون الاسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦٢٧ – ٦٣٣

١٧ – الامام هو القدوة ، ويطلق على أهل الورع والعلم ومن هو قدوة فى شئون الدين ، وأطلق اللقب على الخلفاء كما أطلق على سلاطين المماليك فكان يقال لبعضهم « الامام الأعظم » كمظهر من مظاهر طموحهم للسيطرة على العالم الاسلامى كله . حسن الباشا : الألقاب ص ١٦٦ – ١٦٧ وما بها من مراجع وقد أطلق هذا اللقب على القضاة الذين أظهروا نبوغا ووصلوا إلى أعلى درجات العلم .

١٨ – العالم من ألقاب السلاطين والعلماء ، فهو لقب مشترك بين رجال السيف والقلم ، وقد ورد هذا اللقب ضمن ألقاب قضاة القضاة ونوابهم فى عصر المماليك فى مصر والشام . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٠

١٩ – العامل من ألقاب أهل الصلاح ويلحق غالبا بلقب العالم الذى يعمل بما يعلم من أمور الدين . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٢

٢٠ – العلامة هو العالم للغاية والمتمكن من علمه . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٠٥ – ٤٠٦ وقد ورد اللقب ضمن ألقاب قضاة ذلك العصر .

٢١ – الحبر من ألقاب كبار العلماء . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٢ وقد يضاف اليه البحر الفهامة للدلالة على سعة علمه وفهمه لأمور الدين .

٢٢ – المحدث من ألقاب رجال الحديث الذين يعرفون الرواية والدراية والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والأسانيد والجرح والتعديل ونحو ذلك . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤

٢٣ – الحافظ اسم فاعل عن الحفظ بمعنى الاستظهار ، وهو من ألقاب المحدثين لحفظهم للاحاديث وأسماء الرجال وتواريخهم ونحو ذلك . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٢

٢٤ – العمدة فى اللغة ما يعتمد عليه ، وقد أضيف إلى لفظ عمدة بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل عمدة المحققين (سطر ٧) ويقصد به العالم أو القاضى الذى يعتمد عليه لتقصيه الحقيقة عند عرض القضايا عليه للفصل فيها ، وهو من ألقاب العلماء والقضاة . ولقب عمدة المحققين لم يرد فى كل من حسن الباشا : الألقاب ص ٤٠٨ – ٤٠٩ ولا فى القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٦٠ – ٦١
أنظر الوثيقة سطر ٧

٢٥ – المحقق هو المتقصى للحقيقة ، ويلقب به القضاة والعلماء والصوفية . القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٦

٢٦ – المدقق هو الذى ينعم النظر فى المسائل ويناقشها بدقة علمية تامة ، وهو من أشهر ألقاب العلماء والقضاة فى عصر المماليك . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٦٦ ويرد عادة ضمن ألقاب قضاة القضاة دون نوابهم كما اتضح لنا من دراسة ألقابهم الواردة فى الاسجالات الحكمية والتنفيذية فى كثير من وثائق ذلك العصر .

٢٧ – الرحلة فى اللغة من يرتحل اليه للاستفادة من علمه ، وقد أختص به المحدثون الذين يرتحل اليهم لأخذ العلم والحديث بالذات عنهم . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٠٢ . ورحلة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من ألقاب العلماء عامة ومدرسى الحديث خاصة ، أما رحلة الطالبين فلم يرد فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى ومعناه واضح لا يحتاج إلى تفسير أو شرح – أنظر الوثيقة سطر ٧

٢٨ – المجتهد من أشهر ألقاب علماء عصر المماليك . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٥٤ ، والمجتهد هو من يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٦ ويظهر أن هذا اللقب كان قليل الاستعمال على أيام القلقشندى ، ولكنه ذاع بعد ذلك فى أواخر عصر المماليك . والحقيقة أن الاجتهاد شرط أساسى فى تولية القاضى منصب القضاء بل إن بعض الفقهاء يعتبرونه شرط الأولوية مثل الامام الشافعى . وقد ورد كلقب مركب « بقية المجتهدين » الوثيقة سطر ٨ ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ص ١٠٥ – ١٠٦ ، قراعة : الأصول القضائية ص ٢٨٠ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٦ – ١٧ ، ١٢٥ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ١ ص ١٤ – ١٧

٢٩ – الأوحد من الألقاب التى حدث تفاوت كبير فى استعمالها فهو من الألقاب السلطانية كما يطلق على صغار الكتاب ، ويدخل فى تكوين ألقاب مركبة كثيرة مثل « أوحد الفضلاء » وهو من ألقاب القضاة ، والمضاف فى اللقب المركب يشير عادة إلى وظيفة الملقب وهى إما عسكرية أو مدنية أو دينية . كما أن اللقب يشير إلى أن صاحبه ينفرد بدرجة رفيعة بالنسبة لأفراد طائفته ، فقد ورد اللقب بصيغة أفعل التفضيل. حسن الباشا : الألقاب ص ٢١٧ – ٢١٩

٣٠ – الحجة هى البرهان – لقب فخرى للعلماء وكبار قضاة عصر المماليك ، أما حجة المناظرين فلقب فخرى يطلق على المدرسين . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٦ – ٢٥٧

٣١ – الخاشع هو الخاضع المتذلل إلى الله تعالى وهو من ألقاب الصوفية وإن كان يطلق على كل من اتصف بالصلاح والتقوى من المدنيين والعسكريين فى ذلك العصر . وكان يطلق على نائب الشام نتيجة للتقاليد المتبعة فى التلقيب فى العصر المملوكى ، وعلى رؤساء النصارى كالباب والبطاركة وذلك لمناسبته لهم . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٧٠ وما بها من مراجع .

٣٢ – الناسك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، ومعناه الورع الزاهد الصالح العابد – كما ورد بعد ذلك فى السطر رقم ٥ من الوثيقة – أخذا من النسك بمعنى العبادة ، وقد يلقب به أرباب السيوف والأقلام الصالحين .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٢

٣٣ – هذا اللفظ بخط القاضى الموثق غرس الدين أبو الجود خليل الامام المقرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، ونائب قاضى القضاة وكبير الموثقين الأحناف عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وقد كتبه بصيغة الأمر بعد أن حكم بصحة التصرف (الاستبدال) وما ترتب عليه من آثار قانونية .

ظهر الوثيقة سطر ١٩ – ٢٦

أنظر عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ١٩ عدد ٢ ديسمبر ١٩٥٧) ص ١٥٦ – ١٦١

٣٤ – القدوة بمعنى الأسوة من ألقاب العلماء والصلحاء ، وكان يضاف اليه أحيانا بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل قدوة العلماء وقدوة البلغاء وغيرها . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٣٠

٣٥ – قاضى القضاة لقب مركب انتشر استعماله ولقب به كبار قضاة المذاهب الأربعة منذ قيامها فى مصر المملوكية ، وأول من خوطب به فى مصر القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، وكان ابنه الحسين ابن على أول من كتب له هذا اللقب فى سجله . حسن الباشا : الألقاب ص ٧٤ – ٧٥ . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٩٥ – ٩٩

وقاضى القضاة هو أجل أرباب الوظائف الدينية وأعلاهم شأنا وأرفعهم قدرا وأجلهم رتبة ولا يتقدم عليه أحد ، وكان لمن يتولى هذه الوظيفة النظر فى الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢

وقاضى القضاة كان يتصرف فى نواب الحكم العزيز – على مذهبه – تقليدا وعزلا ، ويتفقد أحوالهم وأعمالهم ويتصفح أقضيتهم ويراعى أمورهم وسيرهم فى الناس . وكان أول ظهور هذه الولاية فى بغداد فلا يطلق قاضى القضاة إلا على قاضى بغداد .

أنظر القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٤ – ٣٥ ، ج ٥ ص ٤٥١ ، ج ٦ ص ٢٣

السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الوطن) ج ٢ ص ١٢٠ . جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ج ١ ص ٩٠ وما بها من حواشى ، مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ٢٢٢ – ٢٢٣

عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ١٤٠ – ١٤١ . أنظر كذلك الدراسة المستفيضة للزميل الأستاذ الدكتور حسن الباشا فى كتابه الفنون الاسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٦٧ – ٨٨٠ وما بها من مصادر

٣٦ – شيخ الاسلام لقب مركب نعت به كبار العلماء والقضاة فى مصر المملوكية أواخر القرن ٩ هـ – ١٥ م وحتى نهاية الدولة . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٦٦ . ولزيادة تعظيم صاحبه يقال له شيخ شيوخ الاسلام أو شيخ مشايخ الاسلام كما ورد فى ألقاب ابن الفرفور الشافعى – ظهر وثيقة الغورى أوقاف رقم ٨٨٣ سطر ٢٤٠

٣٧ – مفتى الأنام لقب مركب لم يرد فى كل من القلقشندى جـ ٦ ص ٧٠ ، حسن الباشا ص ٤٨١– ٤٨٢ وهو لا يختلف فى معناه عن مفتى المسلمين ، وكان يطلق على كبار العلماء ورجال الفتوى مثل الامام الغزالى . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٨٢

٣٨ – محقق القضايا والأحكام لقب مركب لم يرد كذلك فى المصدرين السابقين ، وكان يطلق على قضاة القضاة لأن صاحبه يتقصى حقيقة القضايا والأحكام التى تعرض عليه بعد أن يكون نوابه قد حكموا فيها .

٣٩ – ملك العلماء الأعلام لقب مركب لم يرد أيضا فى المصدرين السابقين ، ومعناه الرئيس الأعلى للعلماء المشهورين بعلمهم ، ويستشف من هذا اللقب اتضاع لقب الملك فى تلك الفترة من حياة الدولة المملوكية أما عن لقب « الملك » فانظر حسن الباشا : الألقاب ص ٤٩٦ – ٥٠٢

٤٠ – حسنة الليالى والأيام من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من الوزراء والقضاة ، والمراد أن الزمن أحسن بالامتنان به . وقد ورد فى القلقشندى نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٦ « حسنة الأيام » فقط .

٤١ – صدر الشىء أوله ، وقد استعمل كلقب من ألقاب الكناية المكانية تفخيما لصاحبه لكونه صدرا بين العلماء والقضاة فى كل من مصر والحجاز والعراق والشام فى عصره وللدلالة على اتساع نفوذ صاحبه العلمى فى كل تلك الأصقاع من أنحاء المملكة الشريفة الاسلامية .

القلقشندى نفس المصدر جـ ٦ ص ٥٧

٤٢ – لسان المتكلمين لقب مركب شاع استعماله فى نهاية العصر المملوكى ولقب به العلماء والمدرسون حسن الباشا: الألقاب ص ٢٥٧ ، ٤٤٢ . وربما كان المقصود بالمتكلمين العلماء بعلم الكلام وهو أصول الدين .

القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٦٧

٤٣ – حجة المناظرين لقب فخرى يطلق على المدرسين . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٧ ، والمراد بالمناظرين أهل البحث والجدل ، أخذا من النظر وهو الفكر المؤدى إلى الدليل ، ويقصد به هنا قوة صاحبه فى المناظرة والجدل . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٥٥

٤٤ – مفحم المجادلين من ألقاب الفقهاء والقضاة فى أواخر عصر المماليك ، وهو نادر الإستعمال ، ولم يرد فى كل من حسن الباشا والقلقشندى . ولم يلقب به من قضاة القضاة فى سنة ٩١١ هـ إلا عبد البر بن الشحنة الحنفى . أنظر ظهر وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣

٤٥ – أنظر : التحقيق رقم ٢٧ فى بحثنا هذا .

٤٦ – أنظر : التحقيق رقم ٢٤ فى بحثنا هذا .

٤٧ – أنظر : التحقيق رقم ٢٨ فى بحثنا هذا .

٤٨ – سلطان الفقهاء والأصوليين لم يرد فى كل من القلقشندى ج ٦ ص ٥٣–٥٤ ، وحسن الباشا : الألقاب ص ٣٢٣ – ٣٣٩ ، وهو من ألقاب كبار الفقهاء وعلماء الأصول ، والمقصود به أن صاحبه حجة وبرهان فى الفقه وأصوله وله السيادة على المشتغلين بهذه العلوم الدينية .

ومن المعروف أن سلطان لقب ذو معنى سياسى واسع ، وهو لقب عام للحاكم فى عصر الأيوبيين والمماليك وآل عثمان ، أما فى كتب الفقه فهو يشير إلى الحاكم أى القاضى . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٢٣ – ٣٣٩ وما بها من مراجع .

٤٩ – كنز النحاة والمعربين لقب مركب لم يرد فى كل من القلقشندى ج ٦ ص ٦٦ وحسن الباشا : الألقاب ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ وهو من ألقاب أهل العلم ومدرسى النحو بالذات من ذوى المكانة والرفعة فى هذا الميدان ، وقد كانت العلوم اللسانية واللغوية من نحو وصرف وغيرها تدرس ضمن العلوم النقلية ، وذكرت لنا بعض الوثائق ما كان يوجد من كتبها فى المكتبات المملوكية والعثمانية .

عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية ص ٥٣ ، مكتبة فى وثيقة ص ٢٦ ، وثيقة باستلام كتب ص ٨ ، ١٦ ، مكتبة عثمانية ص ٢٨ ، ٣٠ – ٣٢

٥٠ – إمام النقلة والمفسرين لقب مركب لم يرد فى القلقشندى ج ٦ ص ٣٨ ولا فى حسن الباشا : الألقاب ص ١٦٦ – ١٧٩ والمقصود به أن صاحبه كان إماما المشتغلين بالعلوم النقلية بعامة وتفسير القرآن وغريبه بخاصة ، وأصل هذه العلوم النقلية الوضعية كلها على حد قول ابن خلدون هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله ، والعلوم النقلية كثيرة من أهمها علم التفسير وتفسير غريب القرآن . ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٢

٥١ – حجة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من ألقاب العلماء عامة ورجال الحديث منهم خاصة . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٠٢ وقد سبق لنا شرح لفظ محدث وحافظ وحجة فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠ على التوالى .

٥٢ – مرجع الحساب والفرضيين من ألقاب كبار العلماء والفقهاء الذين يرجع اليهم فى علم الفرائض والميراث ، والمرجع هو السند والمصدر الذى يعتمد عليه ، وقد ورد هذااللقب المركب بصيغة أخرى هى « عمدة الحساب والفرضيين » ضمن الألقاب الفخرية لقاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى . ظهر وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ٢٠٨ بتاريخ ٩١١ هـ .

٥٣ – فريد عصره وأوانه لقب مركب ، وهو من ألقاب أكابر العلماء والقضاة فى عصر المماليك ، ومعناه المنفرد بما لا يشاركه فيه غيره . لم يرد فى كل من القلقشندى ج ٦ ص ٢٢ وحسن الباشا : الألقاب ص ٤٢١ .

٥٤ – عن لفظ « قاضى » أنظر حسن الباشا : الألقاب ص ٤٢٤ ، الفنون الاسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٣٣ – ٨٦٣ – وكذلك أنظر ص ٨٦٤ « قاضى الجماعة » والمقصود به قاضى المسلمين .

٥٥ – سبق لنا شرح لقب العالم والعامل فى بحثنا هذا تحقيق رقم ١٨ ، ١٩ ، وعبد البر بن الشحنة الحنفى من بيت فضل وعلم كوالده وجده – الوثيقة سطر ١٤ – أنظر التحقيق رقم ٦٣ فى بحثنا هذا .

٥٦ – قامع المبتدعين لقب مركب من ألقاب أكابر العلماء ، ويعنى أن الملقب به كان قامعا لمن يحدث بدعة ، وهى ما خالف السنة النبوية وما عليه الجماعة . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، وقد ورد هذا اللقب ضمن الألقاب الفخرية لكثير من قضاة القضاة فى أوائل القرن ١٠ هـ – ١٦ م فى وثائق المماليك الجراكسة .

٥٧ – محى سنة سيد المرسلين من ألقاب العلماء والصلحاء فى عصر المماليك ، ويقصد به أن صاحبه من العاملين على احياء سنة سيد المرسلين محمد بن عبد الله (ص) . حسن الباشا : الألقلاب ص ٤٦٣

٥٨ – خالصة مولانا أمير المؤمنين لقب قديم من الألقاب التى تطلق على كبار رجال الدولة من الكتاب وأرباب الأقلام منذ أواخر العصر الأيوبى ، وأورده القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦ ، ١٠٩ مع الجناب الكريم ضمن ألقاب الوزراء ومن فى معناهم على حد قوله .

وكثيرا ما نجد هذا اللقب ضمن الألقاب الفخرية لقضاة القضاة فى وثائق عصر المماليك الجراكسة فى مصر .

٥٩ – هو الشيخ سرى الدين أبو البركات عبد البر بن محب الدين محمد بن الشحنة الحلبى القاهرى الحنفى ، ولد بحلب فى ٩ ذى القعدة سنة ٨٥١ هـ وجاء إلى القاهرة مع والده حيث درس على مشاهير علماء عصره ، ومهر فى الفقه والحديث والأصول وغيرها ، وتولى عدة وظائف سنية ، وفى سنة ٩٠٤ هـ نفاه السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه إلى قوص ثم عفا عنه . وفى عهد العادل طومان باى قرر فى قضاء الحنفية قاضيا للقضاة ثم عزل فى نفس العام سنة ٩٠٦ هـ . وكان من أخصاء الغورى فهو جليسه وسميره وصديقه ، وكان يخطب ويصلى به ، وقد توفى فى ٢٨ رجب ٩٢١ هـ بعد أن شغل وظيفة قاضى القضاة مدة طويلة .

ابن اياس : بدائع الزهور (ط . استنبول) ج ٣ ص ١٣٠ ، ٢٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ ، ج ٤ ص ٣٨ – ٣٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ٤٧٠

الحنبلى : در الحبب فى تاريخ أعيان حلب (مخطوط – تصوير شمس دار الكتب المصرية رقم ٢١٠٥ تاريخ تيمورية) ص ١١٨ ، الطباخ : أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٨١ ، الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢١ . ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ص ٩٨ وما بعدها .

وعبد البر بن الشحنة هو قاضى قضاة الحنفية وكبير الموثقين الأحناف فى عصره ، وعلامته التى كان يكتبها فى الاسجالات على الوثائق التى تعرض عليه هى « الحمد لله عليه توكلت » وقد وردت فى الوثائق التالية : وثيقة أبو العباس أحمد بن انفرفور محكمة ٢٢٧ محفظة ٣٦ ، وثيقة الشيخ عبد الرحمن المغربى محكمة ٢٤٦ محفظة ٣٩ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ محفظة ٤٠ ، وثيقة السيفى برسباى المحمدى محكمة ٢٨١ محفظة ٤٣ ، وثيقة السيفى طقطباى أوقاف ١٠٢٠

وكذلك وردت فى عدد كبير من الوثائق المكتشفة أخيرا بالأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف ومنها الوثائق رقم : ٧٤ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٨٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٦٣١

٦٠ - الناظر فى الأحكام الشرعية ، لم يرد هذا اللقب فى كل من القلقشندى وحسن الباشا (الألقاب) ولكن وظيفة « ناظر » وردت فى كتابه الفنون الاسلامية والوظائف جـ ٣ ص ١١٧٧ وما بعدها . والناظر فى الأحكام الشرعية هو قاضى القضاة لأن له النظر فى الأحكام الشرعية ، من النظر بمعنى الفكر المؤدى إلى الدليل لأنه ينظر فى القضايا التى تعرض عليه ليفصل فيها بما يوافق الشريعة الغراء لا فى مصر وحدها بل فى سائر الممالك الاسلامية .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٥ ، جـ ٦ ص ٥٥

٦١ - شيخ الشيوخ لقب يطلق على متولى الاشراف على الصوفية فى الخوانق ، وهو يشير إلى وظيفة ، وفى عصر الأيوبين والمماليك صار لقبا فخريا يطلق على شيخ الخانقاة الصلاحية سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩ هـ . ولما بنى الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الرياقوسية دعى شيخها بشيخ الشيوخ ، ولما فسدت أحوال الدولة المملوكية منذ سنة ٨٠٦ هـ تلقب كل شيخ خانقاة بشيخ الشيوخ ، وصارت هذه الوظيفة أقرب إلى لقب فخرى .

أنظر وثيقة محمد بن قلاوون محكه ٢٥ محفظة ٤ ، وثيقة المؤيد شيخ المحمودى أوقاف ٩٣٨

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٧

وكان عبد البر بن الشحنة الحنفى يشغل وظيفة شيخ الشيوخ بالخانقاة الشيخونية والمدرسة الصرغتمشية فعلا ، فقد تولى مشيخة الصرغتمشية بعد انفصال القاضى نور الدين الدمياطى عنها كما تولى مشيخة الشيخونية بعد وفاة والده . أنظر المراجع الواردة فى التحقيق رقم ٥٩ ، وكذلك انظر وثيقة طومان باى أوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٩

حسن الباشا : الألقاب ص ٣٦٦ ، الفنون الاسلامية والوظائف جـ ٢ ص ٦٣٩ - ٦٤٤ وما بها من مراجع .

٦٢ - الخانقاة كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وأصلها كما يقال خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخانقاة مؤسسة دينية تعليمية اجتماعية للصوفية فى العصر الوسيط .

المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٨٢ حاشية ٤ ، الخطط جـ ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ٤٢٧

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥٠ حاشية ٤

والخانقاة الشيخونية (أثر ١٥٢) تنسب للامير الكبير سيف الدين شيخو العمرى الناصرى رأس نوبة الأمراء الجمدارية ، بناها بين الرميلة والصليبة الطولونية ظاهر القاهرة - بعد أن

فرغ من بناء جامعة تجاهها تماما بست سنوات — وبنى بجوارها حمامين وعدة حوانيت وغير ذلك ، وفرغ من بنائها فى سنة ٧٥٧هـ ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث وآخر للقراءات السبع ، ووقف عليها الأمير شيخو أوقافا كثيرة للصرف من ريعها على طلبة العلم والصوفية ، ودفن بقبر فيها عند وفاته فى سنة ٧٥٨ هـ ، ومنذ مطلع القرن ٩ هـ — ١٥ م ساءت حالة هذه الخانقاة وتدهورت لأسباب مختلفة .

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٤ ، ٤٢١ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٣١ حاشية ٦ ، ص ٢٦٩ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩١ . حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد جـ ١ ص ١٥٦ — ١٥٧

Van Berchem : C. I. A. Egypt, T. I. pp. 232 - 236,

Hautecoeur and Wiet ; Les Mosqueés du Caire p. 270.

٦٣ — بيت ابن الشحنة من بيوت العلم . والشحنة فى البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان.

أنظر لسان العرب وقاموس المحيط ومحيط المحيط مادة «شحن» وكذلك المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ — ٩٨٢ . ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٧

Dozy : Supp, Dict, Ar.

Lane ; Arabic - English Lexicon art (شحن)

ووالد عبد البر هو قاضى القضاة محب الدين محمد بن محمود بن غازى الثقفى الشهير بابن الشحنة الحنفى ، وأصله من حلب ولد بها سنة ٨٠٤ هـ وكان اماما عالما فاضلا فقيها فى مذهبه ، تولى قضاء الحنفية عدة مرات كما ولى مشيخة الخانقاة الشيخونية والمؤيدية والصرغتمشية بالقاهرة ، وله عدة مؤلفات قيمة ، وتوفى فى ١٦ محرم سنة ٨٩٠ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٩٥ — ٣٠٥ رقم ٧٥٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٠٩ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٣٤٩

أما جده فهو محب الدين أبو الوليد محمد ، وهو تركى الأصل فقد ولد بحلب سنة ٧٤٩ هـ واشتغل بالعلم وتفقه فيه ودرس وأفتى فى حلب ودمشق والقاهرة ، توفى فى حلب يوم الجمعة ١٢ ربيع آخر سنة ٨١٥ هـ

السخاوى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٣ — ٦ رقم ٥ ، ابن العماد الحنبلى : نفس المصدر جـ ٧ ص١١٣

٦٤ ، ٦٥ — ما بين الرقمين عبارات دعائية ، درج كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى على ذكرها فى هذا الموضع من متن الوثائق المختلفة ، بهذه الصيغة أو بصيغ قريبة منها تؤدى نفس المعنى .

٦٦ — القصة هى الطلب أو الالتماس أو الشكوى أو العريضة يرفعها صاحب الحاجة إلى السلطان عن طريق موظف خاص هو «قصة دار» القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٤ . والقصص

تختلف بحسب الحال ، وقصة الاستبدال هنا هى التماس يرفعه المبدل للوقف إلى قاضى القضاة يطلب منه فيه اذنه الكريم لأحد نوابه للنظر فى عريضته أو ملتمسه القضائى والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف .
الوثيقة سطر ٢٢ — ٢٣

وتفتتح قصص الاستبدال بالبسملة فى سطر مستقل ، ثم يرد اسم المبدل سواء كان هو الواقف أو الناظر على الوقف أو المستحق لريعه مسبوقا بلفظ مملوك ، ويبدأ نص القصة بالعبارة التقليدية « يقبل الأرض بين يدى سيدنا ومولانا قاضى القضاة . . . . . » وهى صيغة تواتر على كتابتها فى القصص بصفة عامة ، والقضائية بصفة خاصة . ويكتب القاضى الموثق على حاشية القصة بالكشف عبارة نصها : « يكشف ثم يقوم » .

٦٧ — غرس الدين أبو الجود خليل الامام المقرى الحنفى ، هو القاضى الموثق وأحد نواب قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى . ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر تاريخية أو كتب التراجم الخاصة بتلك الفترة .

٦٨ — رافع القصة هنا هو المبدل الشرفى يونس بن السيفى طوخ من تمر وهو الواقف والناظر على وقفه والمستحق لريعه بمفرده .

ولا يمكن أن ترفع قصة الاستبدال إلا بواسطة المبدل سواء كان هو الواقف أو المتولى على الوقف (الناظر) أو المستحق لريعه ، وباعتباره متصرفا قانونيا فى وثيقة الاستبدال .

وقد وقعت بين أيدينا عشرات من وثائق الاستبدال التى تثبت ما ذكرناه ، وخاصة فى مجموعة الوثائق التى عثر عليها أخيرا فى الأرشيف التاريخى بوزارة الأوقاف . أنظر تحقيق رقم ٤

٦٩ — يقصد بذلك وثيقة وقفه التى تشهد للمبدل بأن العين المستبدلة جارية فى الوقف المذكور حتى صدور الاستبدال . ومكتوب الوقف فى هذه الحالة مستند شرعى ، وهو مثل مستند أو عقد الملكية فى حالة البيع ، ومن ثم يكون التصرف صحيحا . ويظهر أنه فى حالة الاستبدال ، كان يتحتم على المبدل أن يقدم أو يبرز كتاب الوقف لكل من القاضى والمستبدل عند التعاقد ، بل أن القاضى نفسه كان هو الذى يطلب مكتوب الوقف ليتأكد من عدة أمور — الوثيقة سطر ٣٢ — ٤٢

٧٠ — يمكن القول بأن جل الوثائق العربية فى تلك الفترة سواء الأصول أو الصور ، كانت مطوية من أسفل إلى أعلى على هيئة الملف roll — وإذا كانت مادة الكتابة هى الورق سميت الدروج الموصلة أو الورق الأوصال ، وإذا كانت هى الرق كما فى هذه الحالة سميت بالرقوق المخيطة على حد مصطلح كتاب الوثائق آنذاك .

أنظر عبد اللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية من وثائق دير سانت كاترين (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٥ جزء ١ مايو ١٩٦٣) ص ١٢٥ تحقيق رقم ٣٩ وما به من مراجع .

٧١ — هذه الصيغة القانونية وما فى معناها اصطلح عليها الشروطيون وكتاب الوثائق الشرعية للدلالة على أن التصرف قد صدر من المتصرف وهو كامل الأهلية ، فى صحة بدنه وسلامة عقله .

أحمد ابراهيم : الأهلية وعوارضها ص ٢ وما بعدها ، السنهورى : الوسيط ص ٢٦٦ - ٢٦٨ مدكور : نظرية الحق ص ٨١ ، عبد الحى حجازى : النظرية العامة للالتزام ص ٣٧ . قراعه : مذكرة التوثيقات ص ٢٧ ، ٢٨

٧٢ - لازالة الوهم بقدر الامكان ، احتياطا ومنعا لما عساه يحصل من النزاع ، كان يكتب فى وثيقة الوقف كلمة « جميع » قبل لفظ الدار أو العقار أو المحل موضوع التصرف .

٧٣ - الموقوف أو المحل هو حصة كاملة شائعة فى جميع أراضى الناحية المذكورة ولا تتركز فى جانب منها بالذات ، وهذا ما يميز الوقف الشائع عن الوقف المفرز ، وهذا الوقف جائز صحيح شرعا لأن الواقف المبدل يستبدل ما وقف ، ويحل المستبدل محله ويصبح مالكا على الشيوع بنسبة الجزء الذى استبدله فقط ، وتصير الحصة المستبدلة ملكا طلقا من جملة أملاك المستبدل ، وحقا من حقوقه يتصرف فى ذلك وفيما شاء منه تصرف ذوى الأملاك فى أملاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع له فى ذلك ولا معارض ولا رافع ليده - الوثيقة سطر ٦٤ - ٦٥

دكتور أنور سلطان : العقود المسماه ص ٤١٢ . أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١ أحمد أبو الفتوح : المعاملات ص ٣٠٠ - ٣٠١

٧٤ - درج كتاب الوثائق القانونية الخاصة على ذكر الحدود الأربعة للعقار المتصرف فيه (المستبدل فى حالتنا هذه) وقد اختلفت الآراء فى عدد الحدود فقال بعضهم يحصل بذكر حدين أو ثلاثة إلا أن منهم من قال إنه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة ، ولذلك فان كاتب هذه الوثيقة - محتاطا ومتحرزا عن مواضع الخلاف - قد ذكر الحدود الأربعة .

والقول بأن حدها القبلى ينتهى إلى كذا ، أفضل وأدق من القول بأن حدها القبلى كذا ، ولما كان الموقوف فى حالتنا هذه مشاعا فانه يكتفى بتحديد الكل الذى منه هذا الجزء لكونه ليس مفرزا وليست له حدود خاصة ، فجعل تحديد ما اشتمل عليه تحديدا له . قراعة : التوثيقات ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

٧٥ - أنظر التحقيق رقم ٩ فى بحثنا هذا .

٧٦ - هذا هو التاريخ الوارد فى وجه وثيقة وقف الشرفى يونس بن السيفى طوخ من تمر (١٥ شوال سنة ٨٨١ هـ) ، والتى قام بتوثيقها الشيخ بدر الدين أبى الفضل محمد بن تقى الدين أبو الخير محمد سبط النويرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية بدلالة إسجاله المدون بظاهرها والمؤرخ بخطه فى ٧ ذى الحجة سنة ٨٨١ هـ - سطر ٣٩ - ٤٢

٧٧ - الحاج زين الدين رمضان بن السيفى طوغان الزينى هو الطرف الثانى فى هذا العقد (المستبدل) ولم نعثر له كذلك على ترجمة فى المصادر التاريخية وكتب التراجم الخاصة بتلك الفترة .

٧٨ - المقصود بالخصم الشرعى هنا هو إسقاط العين المستبدلة وإخراجها أو خصمها من الوقف بعد صدور الاستبدال ، وذلك بالنص كتابة على الهامش الأيمن لوثيقة الوقف وأمام العين الموقوفة بأنها قد استبدلت بتاريخ كذا (وهو نفس تاريخ وثيقة الاستبدال) وبشهادة الشهود (شهود وثيقة الاستبدال) .

وكان يسبق توقيع الشاهد فى نهاية الخصم الشرعى ما نصه « شهد فى أصله » أى شهد فى وثيقة الاستبدال .

٧٩ – المقصود بذلك فصل الاعذار المدون فى نهاية وجه الوثيقة ، والذى أشهد فيه على المستبدلين (المبدل والمستبدل) أنهما لا دافع لهما ولا مطعن فى جميع ما تضمنه مكتوب الاستبدال .

٨٠ – لا يعتبر العقد صحيحا – وهو فى حالتنا هذه عقد استبدال – إلا إذا كان كل من طرفى العقد (المبدل والمستبدل) راضيا رضا صحيحا ، وعالما بجميع ما تضمنه العقد علما كافيا بنفسه ، والعلم الكافى هو العلم الشرعى النافى للجهالة شرعا ، فيصير العقد لازما .

أنظر : عبد اللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية ص ١١٤ وما بها من مراجع .

٨١ – يقصد الثمن وجملته من الذهب ١١٦١ دينارا ومن الفضة ١٣,٠٠٠ نصف فضة ، فهو معين بنوعه ومقداره ، ويظهر أن المبدل لم يشترط استيفاء حقه كله بالذهب وحده ، وربما كان ذلك لعدم توفر النقد الذهبى فى تلك المرحلة القاسية التى كانت تمر بها الدولة المملوكية الجركسية فى أواخر أيامها كما هو معروف .

أنظر عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة – مجلد ١٩ عدد ٢ ديسمبر ١٩٥٧) ص ١٧٩ تحقيق رقم ٣٧ وما به من مراجع .

٨٢ – عن الدينار الذهبى الأشرفى والظاهرى – أنظر نفس المرجع السابق ص ١٨٣ تحقيق رقم ٣٨ وما به من مصادر .

٨٣ – الفضة الأنصاف أو أنصاف الفضة مسكوكات صغيرة الوزن من معدن الفضة ، ومن المعروف أن السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى قد ضرب الانصاف والأرباع من الفضة عند سكه للدراهم المؤيدية .

المقريزى : شذور العقود (نشر الأب أنستاس مارى الكرملى) ص ٦٣ – ٦٦

ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر (مخطوط) ج ٢ ص ١٠٤

ويذكر لنا المقريزى فى كتابه السلوك (مخطوط) ج ١٠ ورقة ٢٩١ ، ٣٠٢ أن الدراهم المؤيدية عملت أنصاف وأرباع وأنهم استكثروا من ضرب الأنصاف .

ومن المعروف أن أنصاف الفضة كانت تختلف فى وزنها وعيارها من حين لآخر . ابن اياس : بدائع الزهور (نشر د . محمد مصطفى) ص ٥٢ ، على مبارك : الخطط ج ٢٠ ص ١٤٣ – ١٤٥ ومن الراجح أن يكون هذا الجزء من الثمن والمعين بنوعه من الفضة الأنصاف قد قبلها المبدل بالعدد باعتبارها شرعية من حيث الوزن والعيار والسك .

٨٤ – الثمن المقدر فى عقد الاستبدال – سواء من الذهب أو الفضة – حال الدفع (معجل) باعتباره واجب الأداء فور العقد (اتفاق إرادة الجانبين) والقاعدة هى أنه يجب على المستبدل أداء الثمن والوفاء به فى نفس الوقت الذى يقوم فيه المبدل بتسليم العين المستبدلة . إن دفع الثمن – الذى تحدد بالمبلغ النقدى

الذى ارتضاه المتعاقدان فى عقد الاستبدال – هو التزام أساسى واجب على المستبدل مقابل نقل ملكية العين المستبدلة اليه من المبدل عند قبضه الثمن .

أنظر عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ص ١٨٥

٨٥ – اعترف المبدل الشرف يونس بقبض الثمن من الزينى رمضان المستبدل بتمامه وكماله ، وقد تم وصول الثمن اليه بقبضه بيده ، وباعترافه بذلك للشهود . كما اعترف المستبدل الزينى رمضان بتسلم العين المستبدلة من المبدل تسلما شرعيا بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية .

ومن المعروف أن عقد الاستبدال عقد ملزم للجانبين ، وينشىء التزامات متقابلة فى ذمة كل من المتعاقدين ، وفى حالتنا هذه ألزمت الوثيقة أو المعاقدة الشرعية المستبدل بدفع الثمن ، كما ألزمت المبدل بنقل ملكية العين للمستبدل وتسليمها له ، وقد قام بتسلمها تسلما شرعيا .

والظاهرة الجوهرية فى عقد الاستبدال – وهو مثل عقد البيع تماما اللهم إلا أن العين أو المحل موضوع التصرف ليس ملكا طلقا أو حرا ولكنه وقف يسمح باستبداله – هو التقابل القائم ما بين التزامات أحد الطرفين (المبدل) والتزامات الطرف الآخر (المستبدل) ، باعتبار الطرف الأول بائعا للوقف ولمصلحته ، والثانى مشتريا .

وتسليم العين المستبدلة إلى المستبدل من أهم التزامات المبدل ، وهذا الالتزام فرع من التزامه بنقل ملكية العين بالحالة التى كانت عليها وبالوصف والمقدار الذى عين فى عقد الاستبدال ، ولذلك فان التخلية تعتبر لازمة لصحة التسليم ليتمكن المستبدل من تسلم العين من غير حائل ولا مانع .

عبد اللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية ص ١١٨ – ١١٩ تحقيق رقم ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

٨٦ – يعتبر الايجاب والقبول من أهم أركان المعاقدة الشرعية أو العقد الملزم للجانبين Contrat synallagmatique ، والمعاقدة الشرعية هى ربط بين كلامين أو عبارتين صادر كل منهما من طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرفى عقد الاستبدال تعتبر ايجابا ، ولكن تسمية إحداهما إيجابا والأخرى قبولا ليست إلا تسمية اصطلاحية فقط وليست واقعية .

أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٢٢٨ – ٢٣٣

ولكى ينتج ركنا المعاقدة الشرعية وهما الايجاب والقبول أثرهما ويكون للعقد وجود شرعى ، يجب أن تتوافر عدة شروط معروفة . محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٢٥٤ – ٢٥٧ ولا شك أنه يجب لتكوين عقد الاستبدال وهو عقد رضائى contrat consensuel حصول الرضا بين المتعاقدين ، وهو تقابل الايجاب والقبول وتطابقهما ، وأن يكون رضاء أحد الطرفين مطابقا لرضاء الطرف الآخر تمام المطابقة ، وأن يتصل القبول بالايجاب فى مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الايجاب والقبول أو توافق الارادتين الصحيحتين المتطابقتين .

السنهورى : الوسيط – نظرية الالتزام ص ١٧٠ – ١٧٢ ، ٢٠٥ – ٢١٧ وما بعدها .

أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ٧٧ ، ١١٤ – ١١٥

على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ٦٨ – ٧٤ ، ١٦١

وبمقتضى هذه المعاقدة الشرعية المشتملة على الايجاب والقبول ، ونتيجة لما ترتب على ذلك من آثار :

١ — صار المبلغ أو الثمن المذكور فى العقد متحصلا لجهة الوقف ليصرف فى شراء عقار أو حصة من عقار أو غير ذلك ويوقف على حكم شرط الواقف .

٢ — صارت العين المستبدلة المذكورة فى العقد ملكا طلقا من أملاك المستبدل وحقا من حقوقه يتصرف فيها وفيما شاء منها من غير منازع ولا معارض .

٨٧ — هذه الفقرات جزء من البروتوكول الختامى للوثيقة ، وهى عبارة عن صيغ قانونية توثيقية اثباتية ، درج كتاب الوثائق العربية فى ذلك العصر على كتابتها بعد موضوع التصرف أو صلب الوثيقة بأجزائه المختلفة وهى ترمى إلى تنفيذ العقد وضمانه ، واعلان الصفة الرسمية للوثيقة بما يتبع من اجراءات تجعلها صحيحة ونافذة . وقد حوت الاعلان بطريقة التوثيق ومنها التوكيل فى ثبوت التصرف وطلب الحكم به وسؤال الاشهاد وابداء الدافع ونفيه ، حتى تصبح الوثيقة كاملة من الناحية القانونية ، صحيحة لها قوة اثباتية ، ولا يمكن الطعن فيها — أى أنها ضمانات متعلقة بالفعل القانونى .

٨٨ — هذا هو تاريخ التصرف القانونى ، وقد ورد فى موضعه الطبيعى والمعتاد فى نهاية البروتوكول الختامى لوثيقة الاستبدال ، وقد أثبت فيه اليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجرى ، وذلك أمر ضرورى لصلاحية الوثيقة وتأكيد قيمتها كسند قانونى .

ويمكن ملاحظة أنه لم ترد بعد التاريخ العبارة الدعائية الختامية وهى الحسبلة ، وهى الصيغة المتواتر عليها فى ختام الوثائق القانونية الخاصة من بيع ووقف واستبدال وقبل شهادة الشهود مباشرة . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢

٨٩ — شهد فى نهاية الوثيقة كل من عبد العزيز بن عمر الحانوتى ومحمد بن حجاج الأزهرى بعد نص شهادته سطر ٧٠ — ٧٣ ، ويتضح أن صيغة الشهادتين متطابقة لفظا ومعنى . وقد كتب كل منهما نص شهادته ووقع بخط يده .

٩٠ — هذه هى تأشيرة القاضى الموثق غرس الدين خليل بن محمد الامام المقرى الحنفى الذى عرضت عليه القصة وأمر بتحرير وثيقة الاستبدال ، وحكم بصحة التصرف القانونى فى اسجاله الحكمى فى ظهر الوثيقة ، وقد قام بكتابة هذه العبارة بخط يد بعد توقيع الشاهدين العدلين للدلالة على أداء الشاهدين لشهادتهما عنده وأنهما منتصبان للشهادة متسمان بالعدالة ، وقد كتب القاضى الموثق هذه العباره (التأشيرة أو العلامة) بقصد الاعلام بصحة التوقيع وقبول الشهادة — أنظر ظهر الوثيقة سطر ١١ — ١٣

٩١ — الشاهدان فى فصل الجريان لا يعرفان الكتابة ، ولم يكتبا نص الشهادة ولم يوقعا بخطهما ، بل كتب ووقع عن كل منهما باذنه (سطر ٨ من فصل الجريان) وبحضوره بلا شك ، أحد كتاب الحكم أو الشهود العدول من مساعدى القاضى الموثق والحاضرين مجلس حكمه وقضائه .

وهذا يدل على أن الشاهدين من العامة وعلى قدر اجتماعى متواضع .

وعن شهادة أصحاب الحرف والصنائع ومن فى مقامهم الاجتماعى أنظر كل من :

ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٢٩

ابن عابدين : العقود الدرية فى تنقيح الفتاوى الحامدية ج ١ ص ٣١٥ ، رد المحتار على الدر المختار ج ٤ ص ٢٩٤

ومهما يكن من أمر فان الاقرار أو الشهادة باللسان فى مجلس الحكم أو القضاء أقوى دلالة من الاقرار المكتوب ، وهناك مثل رومانى قديم يقول : ألسنة الخلق أقلام الحق Vox populi Vox Dei ومن ثم فلا عيب ولا شبهة فى شهادتهما والأخذ بها ، بالرغم من عدم قيامها بكتابة الشهادة والتوقيع – أنظر كذلك .

جعيط : الطريقة المرضية ص ١٧٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٦٤

٩٢ – لم أتمكن من قراءة بقية اسم الشاهد قراءة صحيحة أو مؤكدة ، ولذلك آثرت تركه بياضا .

٩٣ – هذه هى علامة القاضى الموثق ، وقد كتبها بخط يده بقلم جليل ، والحمدلة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيق ، كما كانت تغنى عن التوقيع والختم بل هى بديل لكل منهما .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ، ج ١٤ ص ٣٤٢ – ٣٤٩

٩٤ – يقصد بذلك أن القاضى الموثق قد أشهد على نفسه من حضر مجلس حكمه وقضائه – وهو فى نفس الوقت مجلس التوثيق – أنه ثبت عنده وصح لديه بشهادة الشهود فى وجه الوثيقة ما يلى :

(ا) صحة عقد الاستبدال ـ كافة النواحى القانونية .

(ب) صحة فصلى الجريان والأعذار .

وبناء على ذلك فانه يقوم بالحكم بصحة التصرف وتوثيق العقد .

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضى لأن الغرض من الشهادة الحكم بموجبها ، ولا كراهة فى أن يكون مجلس القضاء والحكم فى المسجد .

ابن عابدين : رد المختار ج ٤ ص ٣٨٥ ، الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٣١٩ وما بعدها .

الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٧٩ . قراعة : الأصول القضائية ص ١٥٨ – ١٥٩

عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٢٥ – ١٢٦

أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ، طرق الاثبات ص ١٣٤ – ١٣٥

والحاضرون مجلس الحكم والقضاء هم الشهود العدول وكتاب الحكم ممن تثبت للقاضى عدالتهم ويكتب لكل منهم اسجال بذلك . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٦ – ٣٤٩

وهؤلاء هم مساعدو القاضى فى وظيفته التوثيقية خاصة وكانوا يجلسون حواله يمنة ويسرة على ترتيب عدالتهم ، كما كان للقاضى الحق فى تفقد أمورهم وأحوالهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم .

الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥٩ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦ حاشية ٤ ،
عرنوس : تاريخ القضاء ص ١١٣

٩٥ – هذا هو تاريخ الاسجال الحكمى وهو بخط القاضى الموثق ، وقد درج كتاب الوثائق على ترك مكان التاريخ بياضا ليكتبه القاضى الموثق بنفسه كما يفعل تماما فى الحمدلة والحسبلة . وذلك لأهمية التاريخ الكبيرة فى اكساب الاشهاد صفة الصحة والرسمية . أنظر ظهر الوثيقة سطر ٣٣ – ٣٤

٩٦ – الثبوت لغة حصول الأمر وتحققه عن طريقة معرفته حق المعرفة ، أو هو ما ثبت به الحق بنهوض الحجة والبينة وقيام الدليل الشرعى السالم من العيب والمطاعن .

وإثبات أمر معناه قيام الحجة على ثبوت السبب عند الحاكم (القاضى) ، فان قامت الحجة على سبب الحكم وانتفت الريبة وحصلت الشروط المطلوبة شرعا ، فهذا هو الثبوت ويكون الحكم من لازمه ، وهذا دليل على أن الثبوت يجرى مجرى الحكم ، بدليل قولهم عند الاشهاد أو التوثيق الحكمى « ولما ثبت عند القاضى ثبوتا شرعيا حكم . . . »

والواقع أن الفعل القانونى Acte Juridique – الذى هو مصدر الالتزام – هو محل الاثبات وذلك متى استوفى كل شروط الشرعية من قيام البينة والاقرار بها وتزكيتها وقبولها .

والثبوت عند الحنفية هو حكم بتعديل البينة وقبولها وجريان المشهود به ، أى أنه صار كالحكم الذى حاز حجية الشىء المقضى به فلا يمكن التعرض لنقضه ، وإذا قيل أنه حكم بثبوت البينة أمتنع على حاكم (قاض) آخر إبطاله .

أحمد ابراهيم : طرق الاثبات الشرعية ص ٢ . ابن فرحون : تبصرة الحكام ج ١ ص ٨٢

جعيط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ – ٢٢٢ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ١ ص ١٩– ٢٠ ، ج ٢ ص ٣٢٦ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤١ – ١٤٢

٩٧ – عن حكم القاضى الموثق أنظر عبد اللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية ص ١٢٩ تحقيق رقم ٥١ وما به من مراجع وجدير بالملاحظة أن حكم القاضى هنا قد تضمن ثلاثة أمور هى :

(ا) صحة الاستبدال المكتوب فى وجه الملف – سطر ٢٠ – ٢١

(ب) صيرورة العين المستبدلة ملكا طلقا (حرا) من أملاك الزينى رمضان – سطر ٢١ – ٢٤

(ج) صيرورة المبلغ (الثمن) المقبوض مختصا لجهة الوقف ليشترى به ما هو أنفع من العين المستبدلة ويوقف على حكم شرط الواقف – سطر ٢٤ – ٢٧ .

٩٨ – من المعروف أن الوثيقة سواء كانت عقدا بين طرفين (بيع – إيجار – زواج – استبدال) أو تصرفا من جانب واحد مثل الوقف والهبة مثلا ، لا بد أن تكون مستوفية للشروط الشرعية التى نص عليها الفقهاء والموثقون ، ولأنها بذلك تأخذ الشكل الدبلوماتى La form diplomatique للوثيقة ، وخاصة من حيث الصياغة القانونية rêdaction technique الواجب توافرها فيها .

ومن هنا تظهر الصلة القوية بين علم الدبلوماتيك والقانون وبين الوثائق العربية فى العصور الوسطى والشريعة الاسلامية .

أنظر عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٥ تحقيق رقم ٥٩

٩٩ – أنظر كل من التحقيق رقم ٨٨ ، ٩٥ فى بحثنا هذا

١٠٠ – الحسبلة هى الدعاء الختامى فى نهاية الاسجال الحكمى ، وقد وردت فى أبسط صورها بخط القاضى الموثق بقلم جليل .

ومن المعروف أن الحسبلة قد يسبقها أو يتبعها الصلاة على النبى محمد وآله وصحبه . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦٧ – ٢٧٠ ، جـ ١٤ ص ٣٤٢ – ٣٤٩

وإذا كانت الحسبلة جزء أساسى فى الاسجال بظهر الوثيقة ، إلا أنها لم ترد فى نهاية وجه الوثيقة بعد التاريخ كما هى العادة – أنظر التحقيق الرقم ٨٨

١٠١ – تبدأ الشهادة الأولى – على القاضى الموثق – بصيغة « أشهدنى سيدنا العبد . . . . » أما فى الشهادتين الثانية والثالثة فتبدأ بصيغة « وبذلك أشهدنى . . . . » وهذه هى الصيغة التى جرت عليها شهادة الشهود فى نهاية الاسجال الحكمى تقريبا طوال العصر الجركسى .

أما ختام نص الشهادة فهو غالبا : « . . . . . . فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب » ثم توقيع الشاهد العدل بخط يده .

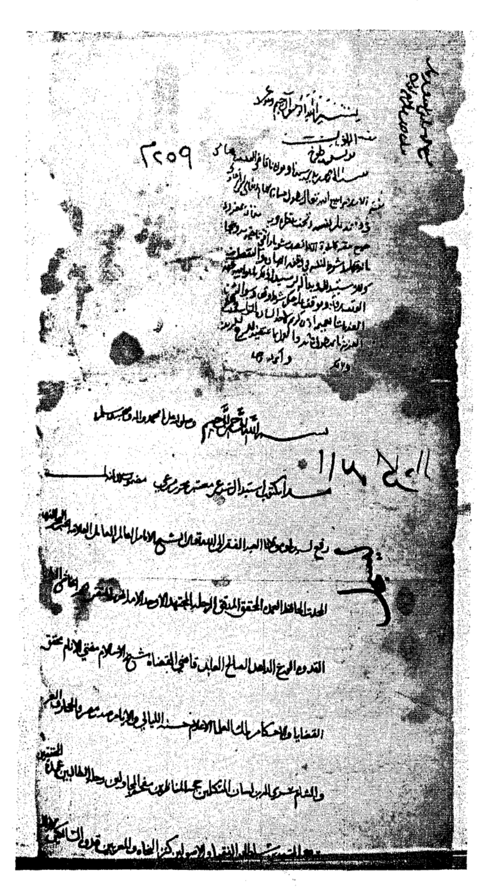
والشهود هنا يشهدون على صدور الحكم من القاضى بصحة التصرف القانونى (الاستبدال) ولزومه وتوثيقه .

١٠٢ ، ١٠٣ – الشاهدان محمد بن حجاج الأزهرى وخضر بن محمد الأزهرى من أسرة واحدة ، ولعل كل منهما ابن عم الآخر . وكثيرا ما لاحظنا علاقة القرابة بين الموقعين وكتاب الحكم من الشهود العدول بمجلس الحكم والقضاء ، بل إن بعضهم قد يكون من أسرة القاضى الموثق نفسه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يصل إلى منصب القضاء أحيانا . وهؤلاء الشهود العدول هم أشبه شىء بمساعدى القاضى الموثق فى العصر الوسيط . ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٦

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ – ٣٤٩

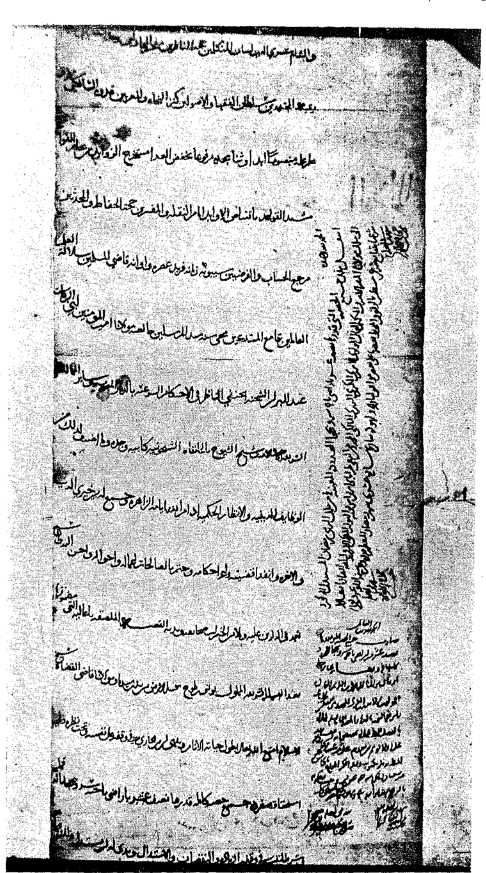
وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، وثيقة قايتباى محكمة ١٦٨ محفظة ٢٥

لوحة رقم ١



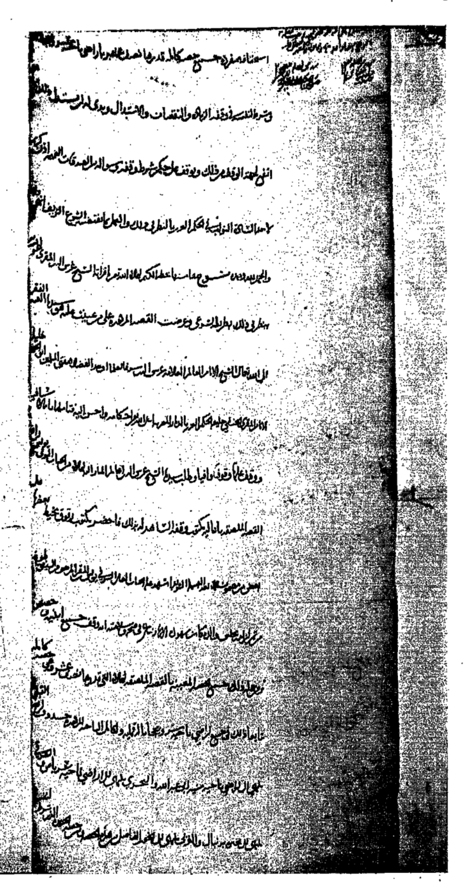
وجه الملف ــ القصة الملصقة على الدرج الأول
وافتتاحية وثيقة الاستبدال

لوحة رقم ٢



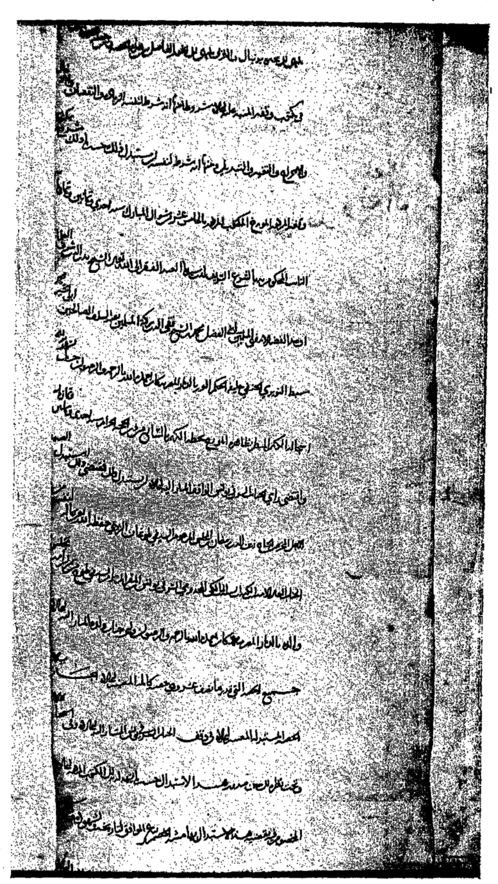
جزء من وثيقة الاستبدال وعلى الهامش الأيمن نصان يفيدان حدوث تصرف بالبيع ثم بالوقف على العين المستبدلة

لوحة رقم ٣



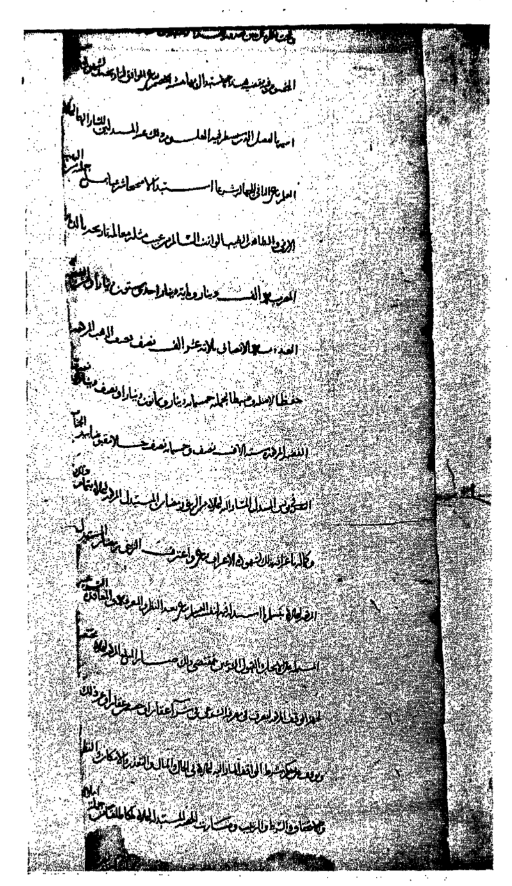
جزء من نص وثيقة الاستبدال ورد فيه ذكر العين المستبدلة وحدودها

لوحة رقم ٤

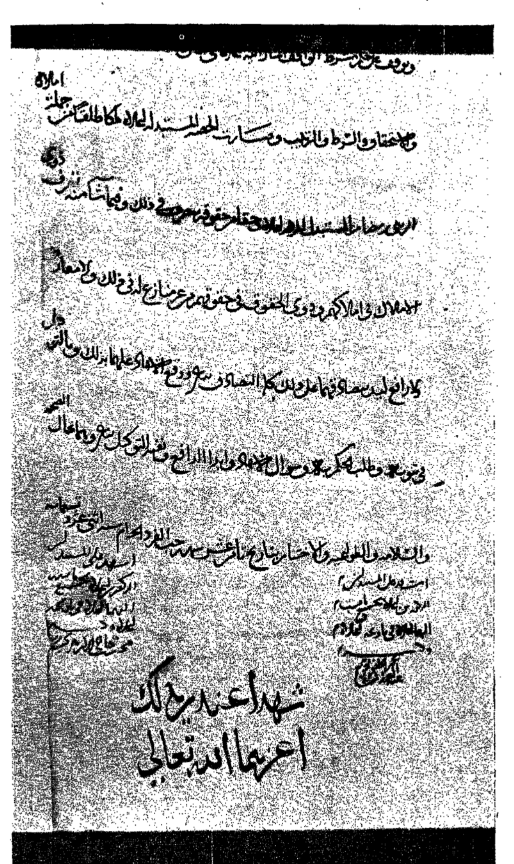


جزء من نص وثيقة الاستبدال ورد فيه
اسم كل من المبدل والمستبدل (المتصرفان)

لوحة رقم ٥



جزء من نص الوثيقة ورد فيه ذكر الثمن مقدرا بالدنانير الذهبية والفضة الانصاف

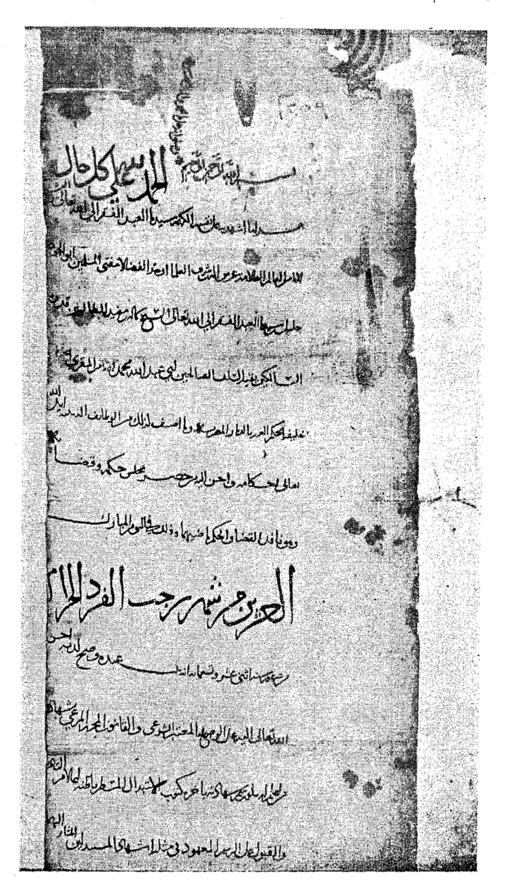


ختام وثيقة الاستبدال وقد ورد فيه التاريخ وشهادة الشاهدين
وتأشيرة القاضي الموثق

لوحة رقم ٧

الجزء الأخير من وجه الوثيقة حيث نجد فصلى
الجريان والاعذار

لوحة رقم ٨


بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على كل حال

العشرين من شهر رجب الفرد الحرام

ظهر الملف ــ افتتاحية الاسجل الحكمي حيث نجد فيه
الحمدلة والتاريخ بخط القاضي الموثق

لوحة رقم ٩

جزء من الاسجال الحكمى الوارد فى ظهر الملف

لوحة رقم ١٠

لديه في ذلك ولا معارض ولا دافع لما وصرح في المبلغ المقبوض بطريقه

لجهة الوقف المذكور باطلا لا يشترى به الا ما هو انفع لجهة الوقف من الرع المستبدل

باطله ويوقف على حكم شروط الواقف المذكور في الحال والمآل والتعليقات والاحكام

والشروط والترتيب على النظر والاختصاص صورة شرعية صحيحا

صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسؤولا في ذلك مستوفيا شرائطه الشرعية

عالما بالخلاف في ذلك وذلك بعد ان ثبت لسيدنا الشيخ عرس الدين الحاكم

المشار اليه اعلاه ادام الله تعالى ايامه حكم سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى نور الدين بلدي الشيخ

شرف العلما اوحد الفضلا مفتي المسلمين بقية الفضلا كمال سبط النوري الحنفي خليفة

الحكم العزيز بالديار المصرية كان تعمده الله بالرحمة والرضوان المعمر باطنه

الاتصال على الطريق الشرعي واشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ

المرسوم بخطه الكريم اعلاه اسبغ الله تعالى ظلاله [illegible] على الاحكام و

وحسبنا الله ونعم الوكيل

سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة عرس الدين

شرف العلما اوحد الفضلا مفتي المسلمين الحاكم المشار اليه اعلاه الكريمة على النسبة

ما نسب اليه في اسجاله المسطر اعلاه اشهدت عليه بذلك في تاريخه [illegible]

الجزء الأخير من الاسجال الحكمي ونجد فيه
الحسبلة بخط القاضي الموثق

لوحة رقم ١١

وحسبنا الله ونعم الوكيل

شهادة الشهود على الاسجال الحكمى فى نهاية ظهر الوثيقة

ملاحظات فى تحقيق النص على عقد زواج

من القرن الخامس الهجرى

للدكتور حسن على حسن الحلوه

مدرس الوثائق ــ كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

نشر ا. جرومان عقد زواج تحت الرقم (٤٥) ، ضمن ما نشر من مجموعة الوثائق المحفوظة فى دار الكتب المصرية [١] ، فأخطأ فى القراءة فى موضعين ، فتغير مضمون العقد كثيراً ، فرأينا أن نصحح القراءة حتى لا يرتب المؤرخ نتائجه على وقائع غير صحيحة .

(١) قرأ ا. جرومان الكلمة السابعة من السطر التاسع [٢] : « ليلى » [٣] فجاءت الجملة على النحو التالى : « وأخرت الثلاثة دنانير || ٩ الباقى مهرها عليه إلى انقضى خمسة ليلى متواليات أولهن تاريخ || ١٠ هذا الكتاب » [٤] . وهى قراءة خاطئة خطأ بينا . والصواب أن تقرأ « سنين » . ويتضح ذلك من دراسة رسم الكلمة أولا ، وفحص مدلول العقد ثانياً .

---

(١) A. Grchmann, Arabic papyri in the Egyptian Library, I, Cairo, 1934, no. 45 (Pl.V), p. 101-106.

(٢) أنظر اللوحة .

(٣) أى « ليالى » مع حذف الفتحة الممدودة ـ الألف ـ بين الياء الأولى واللام الثانية كما فى : « دينرين » = « دينارين »

A. Grohmann, o. c. no. 38. Pl. III, l, 7, 8; no. 40. Pl. IV. l. 6 ; no. 41, Pl. III, l.5.

و « ثلث » = « ثلاث » Ibidem, no. 48, Pl. VII, l.9

و « ثلثة » = « ثلاثة » Ibidem, no. 67, Pl.XVII, l.8, 14.

و « ثلثين » = « ثلاثين » Ibidem, no. 48, Pl. VII, l. 9.

و « ثلثماية » = « ثلاثماية » Ibidem, no. 43, Pl. IV, l. 4r, 4v ; no. 37, Pl. II, l. 13.

و « جمدى » = « جمادى » Ibidem, no. 44, Pl. VI., l 6.

وغير ذلك من الأمثلة فى المرجع نفسه

(٤) يشير الرقم الموضوع فوق العلامة || إلى بداية السطر الذى يحمل هذا الرقم فى اللوحة .

(أولا) رسم الكلمة :

تتألف الكلمة من حروف أربعة ، خالية من النقط تماما ، فى هيئة خطوط مقوسة تتفاوت فى مقدار تقعيرها ، الأول والرابع كبيران ، والثانى والثالث صغيران .

أما الحرف الأول فلا يمكن أن يكون اللام ، لأن كاتب الوثيقة [1] لا يكتب أبدا الخط المنتصب من اللام [2] فى هيئة خط مقوس ، مقعر قليلا ، مستلق بزاوية قدرها ٤٥ درجة تقريباً [3] . وإنما يكتبه دائما فى هيئة خط مستقيم ، غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب ، كالألف تماما [4] ، سواء جاءت اللام مركبة مبتدأة [5] ،

---

(١) يتضح من النظر إلى خط الوثيقة أن هناك أيادى ثلاثة اشتركت فى كتابتها : يد أولى (ا) رئيسية كتبت معظم الوثيقة (الأسطر ١ — ٢٢) ، وهى اليد التى نعنيها هنا . ويدان أخريان (ب ، ج) ، هما يدا شاهدى العقد ، كتبت إحداهما (ب) النصف الأيمن من السطر (٢٢) ، وكتبت الأخرى (ج) النصف الأيسر من السطر (٢٢) والسطر (٢٣) كله . أنظر اللوحة ، وأنظر أيضا :

A. Grohmann, o. c., p. 101, l. 11—15.

(٢) أنظر فى هندسة اللام : القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ، الجزء الثالث ، القاهرة ، ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م ، ص ٣٥

(٣) أنظر اللوحة ، سطر ٩

(٤) أنظر فى هندسة الألف : القلقشندى ، المرجع المذكور ، ص ٢٧

(٥) أنظر فى اللوحة الكلمات : « الرحيم » (سطر ١) ؛ « المكنا » ، « القدر » ، « الساكن » (سطر ٢) ؛ « الطراف » ، « الساكنة » ، « المدينة » ، « المذكورة » (سطر ٣) ؛ « العيون » (سطر ٦) ؛ « ذلك » ، « لنفسها » (سطر ٧) ؛ « اليمين » ، « الثلاثة » (سطر ٨) ؛ (الباقى » ، « إلى » ، « متواليات » ، « أولهن » (سطر ٩) ؛ « الكتاب » ، « الله » ، « بالمعروف » (سطر ١٠) ؛ « الله » ، « آله » (سطر ١١) ؛ « له » ، « ذلك » ، « ولى » ، « بذلك » ، (سطر ١٢) ؛ « الشيخ » ، « الفضل » ، « العباس » ، « الله » ، « القاضى » ، « القاسم » (سطر١٣) ؛ « الله » (سطر ١٤) ؛ « الحكم » ، « الصلاة » ، « الخطابة » ، « القضا » ، « المظالم » ، « أعمالها » ، « اليه » (سطر ١٥) ؛ « حالها » ، « المتولى » ، « ذلك » (سطر ١٦) ؛ « الناكحة » ، « الزوج » ، المسما » ، « بالمهر » ، « المذكور » (سطر ١٧) ؛ « المذكورين » » ، « الكتاب » ، « له » ، « بالرضا » (سطر ١٨) ؛ « الزوج » ، « المتولى » ، « النكاح » ، « ألزمه » (سطر ١٩) ؛ « الزوجين » ، « المتولى » ، « الشيخ » (سطر ٢٠) ؛ « العشر» (سطر ٢١) .

أو مركبة مختتمة [١] ، أو وسطى [٢] ، أو مفردة [٣] . ولا يكتبه على غير هذه الهيئة إلا فى اللام ألف ، إلا أنها حرف له كيان قائم بذاته ، فضلا عن أنه يكتبه فيها مستقيما وليس مقوسا ، منكبا وليس مستلقيا [٤] . وإذن فان اليد التى كتبت الحرف الأول لم تقصد أبدا أن يكون اللام ، فليست هذه طريقتها فى رسمها . وقراءتها لاماً هى من ثم قراءة خاطئة ، والصواب قراءتها سينا فتلك هى طريقة الكاتب فى رسمها مثبتة الأسنان كما يتبين بما لا يدع مجالا للشك من فحصها فى الكلمات الأخرى التى وردت فيها[٥] .

أما الحرف الأخير فلا يمكن أن يكون الياء . ذلك أن الياء تتركب من خطوط ثلاثة : مستلق هو رأسها ، ومنكب هو صدرها ، ومقوس[٦] . وقد جرت عادة كاتب الوثيقة فى رسم الياء المركبة المتأخرة على أن يحذف رأسها ويبقى على صدرها ليركبه على الحرف السابق كما يتبين من الكلمات التى وردت فيها الياء مركبة متأخرة[٧] . وعلى ذلك فان صدر الياء هو دليلنا هنا فى الحكم على طبيعة الحرف :

---

(١) أنظر فى اللوحة الكلمات : « جل » (سطر ١٠) ؛ « فقبل » (سطر ١٦) ؛ « قبل » (سطر ١٨)

(٢) أنظر فى اللوحة الكلمات : « طلقها » ، « طلقة » (سطر ٥) ؛ « عليه » (سطر ٨) ؛ « عليه » (سطر ٩) ؛ « صلى » ، « عليه » ، « على » (سطر ١١) ؛ « سلم » ، « تسليما » ، « عليها » (سطر ١٢) ؛ « على » ، « خليفة » (سطر ١٤) ؛ « على » (سطر ١٥) « ؛ « آجله » ، « عليها » (سطر ١٨) ؛ « على » (سطر ١٩) ؛ « على » ، « عليها » (سطر ٢٠)

(٣) أنظر فى اللوحة الكلمة : « عدل » (سطر ١٨) .

(٤) أنظر فى اللوحة الكلمات : « الثلاثة » (سطر ٨) ؛ « الصلاة » ، « الأشمونين » (سطر ١٥) ؛ « الأخير » ، « الآخر » (سطر ٢١) .

(٥) أنظر فى اللوحة الكلمات : « سنة » (سطر ١١) ؛ « سلم » ، « تسليما » (سطر ١٢) ؛ « سنة » ، « ستين » (سطر ٢١) .

(٦) أنظر فى هندسة الياء : القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ، الجزء الثالث ، ص ٣٨ ، ٤٧ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١١٨ ، ١٣١ ، ١٣٢

(٧) أنظر فى اللوحة الكلمات : « استيفى » (سطر ٨) ؛ « إلى » ، « انقضى » (سطر ٩) ؛ « يتقى » (سطر ١٠) ؛ « صلى » ، « على » (سطر ١١) ؛ « ولى » (سطر ١٢) ؛ « القاضى » (سطر ١٣) ؛ « على » ، « القاضى » ، « أبى » (سطر ١٤) ؛ « على » (سطر ١٥) ؛ « المتولى » (سطر ١٦) ؛ « المتولى » ، « رضى » (سطر ١٩) ؛ « المتولى » (سطر ٢٠) .

فان وجد الصدر كان الحرف ياء ، وان لم يوجد كان حرفا آخر غيرها . وإذا نحن دققنا النظر فى الحرف الأخير من الكلمة فاننا لانجد فيه أثرا لصدر الياء على الاطلاق . وإذن فان قراءته ياء قراءة خاطئة ، والصواب أن نقرأه نونا فتلك هى طريقة الكاتب فى رسم النون مركبة متأخرة[١] بل ومفردة[٢] .

أما الحرفان الثانى والثالث فهما النون والياء على الترتيب ولا يمكن أن يكونا الياء واللام . وذلك أن اسم العدد « خمسة » وإن كان يبيح لنا أن نقرأ « ليلى » = « ليالى » أو « سنين » أو أى شىء آخر يكون معدودا يدل على الزمن مثل « أيام » أو « شهور » الا أن قراءة الحرفين الأول والأخير سينا ونونا على الترتيب — كما سبق أن بينا — يحتم علينا أن نقرأ « سنين » دون أى شىء آخر أى أن نقرأ الحرفين الثانى والثالث نونا وياء وليس ياء ولاما . ويؤكد هذه القراءة أن تلك هى طريقة الكاتب فى رسم النون الوسطى[٣] والياء الوسطى[٤] .

---

(١) أنظر فى اللوحة الكلمات : « حسن » و « بن » و « الساكن » (سطر ٢) ؛ « من » و « ايمين » (سطر ٨) ؛ « ستين » و « أولهن » (سطر ٩) ؛ « يحسن » (سطر ١٠) ؛ «إبن » (سطر ١٣) ؛ « بن » و « الرحمن » و « الحسن » (سطر ١٤) ؛ « الأشمونين » (سطر ١٥) ؛ « عن » (سطر ١٦) « من » (سطر ١٧) ؛ « المذكورين » (سطر ١٨) ؛ « من» (سطر ١٩) ؛ « الزوجين » (سطر ٢٠) ؛ « ستين » (سطر ٢١) .

(٢) أنظر فى اللوحة الكلمات : « العيون » (سطر ٦) ؛ « أن » (سطر ١٠) ؛ « أن » (سطر ٢٠) .

(٣) أنظر فى اللوحة الكلمات : « مدينة » (سطر ٢) ؛ « الساكنة » و « المدينة » (سطر ٣) ؛ « مستنصرية » (سطر ٦) ؛ « ديناراً » و « منه » و « لنفسها » (سطر ٧) ؛ « منه » (سطر ٨)؛ « سنة » (سطر ١١) ؛ « بمدينة » (سطر ١٥) ؛ « النكاح » و « بينهما » (سطر ١٩) ؛ « سنة » (سطر ٢١) . ويلاحظ أن هذا الحرف فى ذاته ودون أى اعتبار آخر يصح أن يقرأ ياء أيضا . فالكاتب يرسم النون والياء المتوسطتين فى هيئة سنة غير منقوطة .

(٤) أنظر فى اللوحة الكلمات : « دنانير » (سطر ٦) ؛ « ايمين » و « استيفى » و « دنانير » (سطر ٨) ؛ « عليه » و « متواليات » (سطر ٩) ؛ « عليه » و « فيها » (سطر ١٠) ؛ « نبيه » و « عليه » (سطر ١١) ؛ « عفيف » (سطر ١٣) ؛ « بمدينة » و « الأشمونين » و « اليه » (سطر ١٥) « جميعه » (سطر ١٩) ؛ « الزوجين » و « الشيخ » و « بجميع » و « عليهما » (سطر ٢٠) ؛ « جميعه » و « الأخير »و « ستين » (سطر ٢١) . ولا يمكن أن يكون هذا الحرف لاما لما سبق أن ذكرناه عن طريقة الكاتب فى رسم اللام عند الكلام عن الحرف الأول من الكلمة .

وأخيرا فان كلمة « ستين »[1] — ولاشك فى قراءتها هكذا[2] — تشبه كلمة « سنين » التى قرأها ا . جرومان « ليلى » = « ليالى » فى رسمها وهندستها تمام حتى أنه لايمكن التفرقة بينهما لولا سياق الكلام . وهذا الشبه يؤكد أن الحرفين الأول والأخير من الكلمة التى ندرسها إنما هما السين والنون على الترتيب ولا يمكن أن يكونا اللام والياء ، وأن الكلمة فى مجموعها هى « سنين » ولا يمكن أن تكون « ليلى » = « ليالى » .

ولو فرضنا جدلا أن كاتب العقد أراد أن يكتب « ليلى» = «ليالى» وليس « سنين » فان ما توهمه ا . جرومان من وجود ألف أسقطها الكاتب بين الياء واللام استنادا ولاشك إلى ماجرت عليه عادة بعض الكتاب من حذفها فى بعض الكلمات[3] لايتفق أبدا مع ماجرت عليه عادة كاتب العقد من إثبات الألف فى هذه الكلمات عينها وهو ماتشهد عليه كلمة «دنانير»[4] و«دينارا»[5] و «الثلاثة»[6] و «جمادى»[7] . وعلى ذلك فان كاتب العقد لو أنه أراد أن يكتب « ليلى » = « ليالى » وليس « سنين » لكان كتبها « ليالى » مع إثبات الألف وليس « ليلى » مع حذفها كما توهم ا . جرومان . وهذا يؤكد مرة أخرى أن الكلمة هى « سنين » وليس « ليلى » .

(ثانيا) مدلول عقد الزواج :

يتلخص عقد الزواج فى أن « حسن بن المكنا بأبو البدر[8] » أصدق « ضيا ابنة غنايم[9] الطواف[10] » أربعة دنانير مستنصرية استرجعها بها — بعد طلقة

(١) أنظر فى اللوحة الكلمة الثانية عشرة من السطر الحادى والعشرين .

(٢) وقد قرأها ا . جرومان هكذا .

(٣) أنظر ص ٣٩ حاشية ٣

(٤) أنظر فى اللوحة الكلمة الرابعة من السطر السادس .

(٥) أنظر فى اللوحة الكلمة الثالثة من السطر السابع .

(٦) أنظر فى اللوحة الكلمة العاشرة من السطر الثامن .

(٧) أنظر فى اللوحة الكلمة الثامنة من السطر الحادى والعشرين .

(٨) قرأها ا . جرومان « القدر » .

(٩) قرأها ا . جرومان « عثام » أو « غثام » « أو « غنام »

(١٠) قرأها ا . جرومان « الطراف »

واحدة — وعجل لها منها دينارا واحداً وأخرت هي الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه إلى انقضاء خمس سنوات أولهن تاريخ العقد[1] . ولكن ا. جرومان قرأ « خمسة ليلى » (= « ليالى ») بدلا من أن يقرأ « خمسة سنين » . و « خمسة ليلى » (= « ليالى ») فترة زمنية قصيرة جداً لا نتبين الحكمة من تأخير آجل الصداق إلى حين انقضائها ، لاسيما إذا كان المقصود أن يكون السداد على نجوم خمسة بواقع ثلاثة أخماس دينار عند كل نجم[2] ومقابل إقرار من الزوجة بالقبض فى كل مرة[3] . ويؤكد رأينا هذا أن هناك خمسة عقود زواج أخرى نشرها ا . جرومان ، ضمن مانشر من مجموعة الوثائق المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، تحت الأرقام (٣٨) و (٤٠) و (٤١) و (٤٢) و (٤٤) ، ثلاثة منها (رقم ٣٨ و ٤٠ و ٤١) من النصف الأول من القرن الثالث الهجرى[4] ، وواحد (رقم ٤٢) من القرن الثالث الهجرى[5] ، وواحد (رقم ٤٤) من بداية القرن الخامس

---

(١) « فى العشر الأخير من جمادى الآخر سنة إحدى وستين وأربعماية » (١٧ من أبريل — ٢٦ منه عام ١٠٩٦ م) أنظر اللوحة (سطر ٤) وكذلك التعليق على السطر الرابع فى
A. Grohmann o. c., p. 106.

(٢) أنظر A. Grohmann, o. c., p. 71-7.2

(٣) أنظر A. Grohmann, o. c., p. 72 حيث يقول :
«A receipt is given for the sadâq as also for the various instalments (cf. no. 49 ff.) ».
وقد جاءت ترجمة هذه الجملة فى « أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، ص ٧٧ ، على النحو التالى :
«وكان يعطى ايصال كما كان الحال عند دفع كل نجم من أنجم الصداق (راجع رقمى ٤٩ و ٥٠) » والصواب :
«وكان يعطى ايصال عند دفع مقدم الصداق وكذلك عند دفع كل نجم من أنجم مؤجل الصداق » .

(٤) « فى شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومايتين » (٥ من يناير — ٤ من فبراير عام ٨٧٣ م . أنظر . A. Grohmann, o. c., no. 38 (Pl. III), l. 18-19 ; p. 73.
فى التعليق على السطرين ١٨ و ١٩ المذكورين ؛ « فى العشر الأواخر من شعبان سنة إحدى وسبعين ومايتين » (١١ من فبراير — ٢٠ من فبراير عام ٨٨٥ م) أنظر
A. Grohmann, o. c.. no. 40 (Pl. IV) l. 11, 8 ; p. 85.
فى التعليق على السطر ١١ المذكور ؛ « وذلك فى العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ومايتين » (١٨ من سبتمبر — ٢٧ من سبتمبر عام ٨٩٢ م) أنظر
A. Grohmann, o. c., no. 41 (Pl. III), l. 16 ; p. 91.
فى التعليق على السطر ١٦ المذكور .

(٥) تآكل الجزء الذى فيه صيغة التاريخ ، ويقترح ا . جرومان القرن الثالث الهجرى . أنظر
A. Grohmann, o. c.. no. 42. (Pl. V), p. 91.

الهجرى [1] ، وقد عجل فيها جميعا جزء من الصداق وأجل الجزء الباقى إلى انقضاء سنة واحدة [2] أو خمس سنوات متواليات [3] أو ثمانى حجج متواليات [4] . وليس من بينها عقد واحد أخر فيه آجل الصداق إلى انقضاء بضع ليالى [5] . وقد تنبه ا. جرومان إلى أن تأخير الثلاثة دنانير — فى العقد الذى ندرسه (رقم ٤٥) — إلى انقضاء خمس ليالى متواليات — على ما توهم — من تاريخ العقد لا يتفق وماجرى عليه العرف فى عقود الزواج الأخرى . ولم يجد بطبيعة الحال تفسيراً لذلك فاعتبر أن الأمر لا يعدو أن يكون حالة شاذة ، فيقول :

«an exceptional instance is found in no. 45, 1.8-10, where the balance of three dînârs is payable within five successive nights from the date of the document.» (٦)

---

(١) تآكل الجزء الذى فيه صيغة التاريخ ، ويقترح ا . جرومان ١٥ من جمادى الأولى عام ٤١٩هـ (١١ من يونيو ١٠٢٨ م) استنادا ولا شك إلى ما جاء فى السطرين الخامس والسادس من العقد من تأخير آجل الصداق إلى انقضاء سنة واحدة أولها فى النصف من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وأربعماية. ونحن نتفق معه فى هذا ، لأنه جرت العادة فى عقود الزواج التى نشرها ا . جرومان فى المرجع المذكور أن يكون تأخير آجل الصداق ابتداء من تاريخ العقد . أنظر
A. Grohmann. o. c.. no. 44 (Pl. VI), p. 96.

(٢) « وعلى أن الدينار الذى هو بقية صداقها مؤخر لها إلى انقضى سنة واحدة ١١٦ أولها فى النصف من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وأربعماية » أنظر
A. Grohmann, o. c.. no. 44 (Pl. VI), I,5—6

(٣) « ويبقى لعايشة ابنت يوسف ١١٨ على زوجها اسمعيل مولى أحمد بن مروان دينرين مؤخرين إلى خمسة سنين ١١٩ أولهن شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومايتين » أنظر
A. Grohmann, o. c., no. 38 ,(pl. III), 1.7-9.
« وأخرت . . صداقها على زوجها يحنس بن شنودة ١١٨ خمسة سنين متواليات أولهن شعبان من سنة احدى وسبعين ومايتين » أنظر A. Grohmann, o. c., no. 40 (Pl. IV) ,I.7-8
« بعد أن خلين خمسة سنين متواليات أولهن جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين ومايتين » أنظر
A. Grohmann. o. c., no. 41 (Pl. III) 1. 6.

(٤) « ويبقى لها [كذا دينـ]ـارا مؤخرا لها عليه إلى انقضى ثمانية حجج متواليات ١١٥ أولهن تاريخ هذا الكتاب » أنظر A. Grohmann, o. c.. no. 42 (Pl. V), I.4-5.
والمقصود بالحجة هنا السنة . أنظر A. Grohmann, o. c., p. 94. فى التعليق على السطر رقم ٤

(٥) أنظر أيضا فى تأييد وجهة نظرنا :
Papyrus aus der Sammlung der staatlichen Museen zu Berlin, 12789, 15055.
ومجموعة البرديات المحفوظة فى دار الكتب المصرية (تاريخ ٣ / ١٧٣٥ و ٤ / ١٧٣٥ و ٥ / ١٧٣٥ . وقد جاء ذكرها فى A. Grohmann, o. c., p. 72. فى التعليق على السطر (٦) من العقد (٣٨)

(٦) A. Grohmann. o. c., p. 72.

وجاءت ترجمة ذلك على النحو التالى :

« وتوجد حالة شاذة عثرنا عليها فى رقم ٤٥ س ٨ — ١٠ حيث يتكون الباقى من ثلاثة دنانير تدفع فى خمس ليال متواليات مبتدئة من التاريخ الذى حرر فيه الصك »[١] .

ولم يتنبه إلى أن ما اعتبره حالة شاذة إنما هو فى الحقيقة خطأ من جانبه فى قراءة الكلمة . وأن القراءة الصحيحة هى « خمسة سنين » — كما بينا — وليس « خمسة ليلى » .

(ثالثا) كيف وقع الخطأ ؟

وجدنا إذن ، استناداً إلى رسم الكلمة ومدلول العقد ، أن القراءة الصحيحة هى « سنين » وليس « ليلى » (= ليالى) . ونتساءل الآن كيف وقع ا. جرومان فى الخطأ . وتقوم أهمية هـذا السؤال فى أن الإجابة عليه تخص فصلا من فصول منهج البحث فى الوثائق بوجه عام والوثائق العربية بوجه خاص[٢] . ذلك أن ناشر الوثائق العربية إن هو فى الحقيقة إلا ناسخ من طبقة ممتـازة من النساخ — أو هذا هو المفروض أن يكون على الأقل — فاذا نحن تقصينا الظروف التى تؤدى إلى وقوعه فى الخطأ وحرصنا بالتالى على تحاشيها فاننا نقترب بذلك شـيئاً فشيئاً ، قدر الإمكان ، من الكمال المنشود فى نشر الوثائق العربية .

ونحن نعتقد أن ثمة ظروفاً ثلاثة أدى تضافرها إلى وقوع ا. جرومان فى القراءة الخاطئة :ـ

(الظرف الأول) تكون عادة فى القراءة مضلله ؟

نلاحظ أن كاتب العقد يتبع طريقتين مختلفتين فى رسم السين . الطريقة الأول

---

(١) أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمة المؤلف ا . جرومان بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن . السفر الأول ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ م ، ص ٧٦ — ٧٧

(٢) هو فصل نقد النص فى كتب المنهج التاريخى — وهو المنهج الذى يتبع على وجه العموم فى نقد الوثائق . أنظر على سبيل المثال Robert Marichal, La critique des textes (Encyclopédie de la Pléiade XI : L'historire et ses méthodes, Paris, 1961. P. 1247-1366).

أن يثبت أسنانها الثلاثة وهو الأغلب[1] . والطريقة الثانية أن يرسلها ارسالا دون أن يثبت أسنانها وهو الأقل ولا يتحقق إلا فى ست كلمات فقط[2] . ونلاحظ من ناحية أخرى أن كلمة (سنين) التي وقع الخطأ فى قراءتها هى أول كلمة من كلمات العقد يرسمها الكاتب بسين مرسلة غير مثبتة أسنانها بينما جميع الكلمات السابقة عليها قد أثبتت أسنان السين فيها[3] . وعلى ذلك فانه يبدو لنا أن ا. جرومان عندما بلغ من قراءة العقد كلمة « سنين » تعذر عليه أن يرى فى الحرف الأول منها سينا لأنه كانت قد تكونت لديه عادة عقلية ـ قوامها أن كاتب العقد يرسم السين مع إثبات أسنانها ـ منعته من أن ينتبه إلى انتقال الكاتب من طريقته الأولى فى رسم السين إلى طريقته الثانية فى ذلك . لا سيما وأن الكاتب قد عاد بعد ذلك مباشرة إلى طريقته الأولى فى رسم السين مثبتة أسنانها كما يتبين من الكلمتين « يحسن »[4] و « سبحانه »[5] .

(الظرف الثانى) سياق كلام وتشابه رسم وعادة نساخ :

ولما فات ا. جرمان أن يقرأ « سنين » لأنه لم ير فى الحرف الأول من الكلمة سينا ، وكان سياق الكلام يقتضى بعد اسم العدد « خمسة » كلمة تكون معدوداً يدل على الزمن[6] فانه لم يكن أمامه إلا أن يقرأ « ليلى » (= ليالى) استناداً إلى

---

(١) أنظر فى اللوحة الكلمات : « حسن » و « الساكن » (سطر ٢) ، « الساكنة » (سطر ٣) ، « مستأنفا » (سطر ٤) ، « استرجعها » (سطر ٥) ، « مستنصرية » (سطر ٦) ، « لنفسها » (سطر ٧) « استيفى » (سطر ٨) ، « خمسة » (سطر ٩) ، « يحسن » (سطر ١٠) ، « سبحانه » (سطر ١١) ، « العباس » و « القاسم » (سطر ١٣) ، « الحسن » و « مسرة » (سطر ١٤) ، « مستحقة » (سطر ١٦) ، « المسلما » (سطر ١٧) ، « نفسه » (سطر ١٩) . كما يلاحظ أن الكاتب يرسم الشين مثبتة أسنانها دائما : « الشيخ » (سطر ١٣) ، « الأشمونين » (سطر ١٥) ، « كشف » (سطر ١٦) ، « شاهدى » و « شهدا » (سطر ١٨) ، « شهد » و « الشيخ » (سطر ٢٠) ، « العشر » (سطر ٢١) .

(٢) أنظر فى اللوحة الكلمات : « سنين » (سطر ٩) ، « سنة » (سطر ١١) ، « سلم » و « تسليما » (سطر ١٢) ، « سنة » و « ستين » (سطر ٢١) . أنظر ص ٤١ هامش ٥

(٣) أنظر الكلمات المذكورة فى الهامش (١) من هذه الصفحة فى الأسطر ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩

(٤) أنظر اللوحة (السطر العاشر)

(٥) أنظر اللوحة (السطر الحادى عشر) .

(٦) أنظر ص ٤٢

قرائن ظنها سليمة كلها . القرينة الأولى أن النظرة الأولى غير الفاحصة ولا المقارنة يمكن أن ترى فى الهيئة العامة للكلمة « ليلى »[١] . والقرينة الثانية أن هناك تشابهاً فى الرسم بين قوسى الياء والنون ـ المركبتين المختتمتين ـ جعله يرى فى الحرف الأخير من الكلمة ياء[٢] . والقرينة الثالثة أن الحرف الثانى من الكلمة يصح أن يكون فى ذاته ياء[٣] . والقرينة الرابعة أن من عادة بعض كتاب ذلك العصر الذى كتب فيه العقد أن يحذفوا الألف ـ أو الفتحة الممدودة ـ فى بعض الكلمات فنسب هذه العادة إلى كاتب العقد لتكتمل له حروف كلمة « ليالى » الخمسة وتستقيم له القراءة التى يريدها[٤] .

(الظرف الثالث) اغفال مبدأ من مبادىء نقد النص : هو مقارنة رسم الحروف :

ولكن ربما كان يمكن أن يتجنب ا. جرومان الوقوع فى القراءة الخاطئة لو أنه درس كل حرف من حروفها ، وقارن طريقة رسمه فيها بطريقة رسمه فى الكلمات الأخرى من العقد . ولكنه لم يقم بهذه الدراسة المقارنة ، فأغفل بذلك مبدأ من مبادىء نقد النص نبغ بعض الدبلوماتيقيين الألمان من أمثال تيودور فون سيكل (Th. von Sickel) فى تطبيقه فى دراسة وثائق العصر الوسيط الأوربى[٥] . ولعله ، وإن كان قد صادف شيئاً من الصعوبة فى قراءة الكلمة ، قد طاب نفساً بما خطر له من قراءة براقة ، فلم يلق بالا إلى مبدأ المقارنة . ولما تبين له ما فى تأخير أجل الصداق إلى انقضاء خمس ليالى متواليات من خروج على المألوف فى عقود الزواج فى ذلك العصر ، اعتبر ذلك حالة شاذة ، ولكنه لم يشك لحظة واحدة فى أن ما اعتبره حالة شاذة إن هو فى الحقيقة إلا خطأ منه فى قراءة الكلمة[٦] .

---

(١) ولكن النظرة الأولى أيضا يمكن أن ترى فى الهيئة العامة للكلمة « سنين » . وقد بينا أن النظرة الفاحصة المقارنة لا يمكن أن تقرأ غير ذلك .

(٢) والواقع أنه يوجد فارق فى الرسم بين الياء والنون المركبتين المختتمتين . أنظر ص ٤١ - ٤٢

(٣) كما يصح أن يقرأ نونا . أنظر ص ٤٢

(٤) أنظر ص ٣٩ هامش ٣ ، ص ٤٣ . وقد بينا فى ص ٤٣ خطأ اضافة هذه العادة إلى الكاتب .

(٥) أنظر A. de Bouard, Manuel de diplomatique française et pontificale, I, Paris, 1939, p. 28-29.

(٦) أنظر ص ٤٤ - ٤٦

(ب) — كذلك قرأ ا . جرومان فى السطر السادس عشر : « وتَزَوَّجَها وكيل المتولى ذلك » ، ظنا منه أن الواو لعطف هذه الجملة على الجملة السابقة عليها ، وأن « تزوج » فعل ماض مفعوله الضمير المؤنث المتصل به وفاعله « وكيل » ، وأن « وكيل » مضاف و « المتولى » مضاف إليه ، و « ذلك » اسم إشارة للعاقل بدل من « وكيل » [1] . وهذه قراءة خاطئة . والصواب فى ، رأينا ، أن يقرأ : « . . . وتَزَوُّجِها . فقبل المتولى ذلك » على اعتبار أن « تزوج » اسم مجرور معطوف على الاسم الذى قبله وهو « كشف » بواو العطف ، وأنه مضاف والضمير المؤنث المتصل به مضاف إليه ، وأن « قبل » فعل ماض فاعله « المتولى » ، وأن « ذلك » مفعول به يشير إلى غير العاقل وهو أمر القاضى « أبو القاسم » إلى الشيخ « أبو الفضل » بكشف حال « الزوجة » « وتزوجها » . فيكون الكلام : « . . . وولى تزويجها إياه بذلك || ١٣ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضى أبو القاسم || ١٤ عبد الله بن على بن عبد الرحمن خليفه القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله || ١٥ على الحكم والصلاة والخطابة والقضا والمظالم بمدينة الأشمونين وأعمالها إليه || ١٦ بكشف حالها وتَزَوُّجِها فقبل المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجدها مستحقة || ١٧ الناكحة فزوجها من الزوج المسمى معها فيه . . . » ولا يكون الكلام : « . . . وولى تزويجها إياه بذلك || ١٣ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضى أبو القاسم || ١٤ عبد الله بن على بن عبد الرحمن خليفه القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله || ١٥ على الحكم والصلاة والخطابة والقضا والمظالم بمدينة الأشمونين وأعمالها إليه || ١٦ بكشف حالها وتَزَوَّجَها وكيل المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجدها مستحقة || ١٧ الناكحة فزوجها من الزوج المسمى معها فيه . . . » .

ويتضح لنا ذلك من دراسة رسم كلمة « فقبل » أولا ، وفحص مدلول العقد ثانيا .

---

(١) وقد ترجم هذه الكلمات :

And this representative of the guardian has given her in marriage.

أنظر : A. Grohmann, o. c., p. 104, 1. 16.

(أولا) رسم الكلمة :

أن الحرف الذى قرأه ا. جرومان كافاً فى ما ظن أنه كلمة « وكيل » إنما هو قاف وليس كافا ، فليست هذه طريقة كاتب العقد فى رسم الكاف المركبة سواء كانت مبتدأة أو متوسطة أو مختتمة . فهو يكتبها فى هذه الحالات مبسوطة من خطوط أربعة : مستلق ، ومستلق (أو مقوس أحيانا) أحد زاوية من المستلق الأول ، ومنتصب ، ومستلق مواز للمستلق الثانى وأطول منه قليلا [١] ، ولا يكتبها أبدا فى هيئة رأس مستديرة وقوس فهذه طريقته فى كتابة القاف المركبة المبتدأة [٢] .

(ثانيا) مدلول العقد :

أن ثمة أسباباً ثلاثة تمنعنا من أن نقرأ : «وتـَزَوَّجـَها وكيل المتولى ذلك » .

(ا) السبب الأول أن المقصود بكلمة « المتولى » [٣] (السطر ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ من العقد) من « ولى » (السطر ١٢ من العقد) هو « الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف » وهو ما تؤكده العبارة « شهد على إقرار الزوجين

---

(١) أنظر فى اللوحة ، فيما يتعلق بالكاف المركبة المبتدأة ، الكلمات : « الساكن » (سطر ٢) ، « الساكنة » (سطر ٣) ، « كانت » (سطر ٤) ، «كما » و «كتابه » (سطر ١١) ، «كشف» (سطر ١٦)١ ، « الناكحة » و « المذكور » (سطر ١٧) ، المذكورين » (سطر ١٨) ، «كتب » (سطر ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) . وأنظر فيما يتعلق بالكاف المركبة المتوسطة ، الكلمات « المكنا » (سطر ٢) ، « الكتاب » (سطر ١٠) ، « الحكم » (سطر ١٥) ، « بكشف » (سطر ١٦) ، « الكتاب » (سطر ١٨) ، « النكاح » (سطر ١٩) . وأنظر ، فيما يتعلق بالكاف المركبة المختتمة ، الكلمات : « ذلك » (سطر ٧ ، ١٢) . وأنظر عن رسم الكاف : القلقشندى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ، جـ٣ ص ٣٤–٣٥ و ص ٨٤ — ٨٥

(٢) أنظر فى اللوحة الكلمات : « أصدقها » (سطر ٦) ، « قبضته » (سطر ٧) ، « قبض » (سطر ٨) ، « الباقى » (سطر ٩) ، « اقرار » (سطر ٢٠) ، « قرىء »(سطر ٢٠) ، « فأقروا » (سطر ٢٠) ، « اقرار » (سطر ٢٢)

(٣) وقد ترجمها أ . جرومان : guardian فى A. Grohmann, o. c., p. 103-105 فى الأسطر ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ من ترجمة العقد .

والمتولى الشيخ بجميع ما فيه[1] » حيث « الشـيخ » بدل من « المتولى » [2] . وليس فى العقد ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن « المتولى الشيخ » قد وكل عنه أحداً للكشف عن حال الزوجة وتزويجها من الزوج حتى يحق لنا أن نقرأ « وكيل » ونعتبر « ذلك » اسم اشارة للعاقل بدلا من « وكيل » المزعومة . إن هناك سؤالا تثيره هذه القراءة الخاطئة ولا يملك صاحبها جوابا عليه : أين هو « وكيل المتولى ذلك » ؟ .

(ب) السبب الثانى أن كاتب العقد يفرق فى الاستعمال بين الفعل الماضى « تزوج » والفعل الماضى « زوج » ، وهو ما تبينه ا. جرومان ولا شك عندما ترجم الفعلين :
«and by it he takes her ...... in marriage.» [3] و «So he married her to the husband named together with her herein.» [4]

على الترتيب . فاذا نحن قرأنا « وتزوجها وكيل المتولى ذلك » لكان فى هذه القراءة خروج بمعنى الفعل « تزوج » إلى معنى آخر وهو « زوج » ، وهذا ما لا يفعله كاتب العقد

(حـ) السبب الثالث أن القراءة التى يريدها ا. جرومان معناها أن وكيل الشيخ « أبو الفضل » زوّجَ « ضيا » من الزوج المذكور قبل الكشف عن حالها ، ثم كشف عن حالها بعد ذلك فوجدها مستحقة النكاح فزوجها إياه ! ومعناها أيضاً أن القاضى « أبو القاسم » أمر الشيخ « أبو الفضل » بكشف حال الزوجة وحسب ، ولكن وكيل الشيخ كشف عن حالها وزوجها فضلا عن ذلك . وعلى الحالين فان هناك خروجا على منطق العقد السليم . فالمنطق السليم يقضى بأن يأمر القاضى الشيخ

---

(١) السطر ٢٠ من العقد .

(٢) وقد ترجم ا. جرومان هذه العبارة :

«(The following witnesses) have testified to the acknowledgment by the couple and the guardian, the Šaih, of all that (is contained) herein,»

أنظر A. Grohmann, o. c., p. 105. ، السطر ٢٠ من ترجمة العقد .

(٣) أنظر السطر ٤ من اللوحة : « وتزوجها به » وأنظر A. Grohmann, o. c., p. 103. ، السطر ٤ من ترجمة العقد .

(٤) أنظر السطر ١٧ من اللوحة : « فزوجها من الزوج المسما معها فيه » . وأنظر A. Grohmann, o. c., p. 104. ، السطر ١٧ من ترجمة العقد .

بأن يكشف عن حال الزوجة اولا ويزوجها ثانيا ، فيقبل المتولى الشيخ ذلك فيكشف عن حالها ، فيجدها مستحقة النكاح ، فيزوجها من الزوج المسمى معها فى العقد .

وهكذا فان مضمون العقد ، فضلا عن رسم الكلمات ، يحتم علينا أن نصحح القراءة فى الموضعين المذكورين على ما بينا .

قراءة عقد الزواج(١)

١ [بسم الله] الرحمن ا [لرحيم]

٢ هذ[ا](١) ما أصدق حسن بن المكنا بأبو القدر(٢) الساكن يوميذ مدينة [الأشمونين] .

٣ ضيا ابنة عثام(٣) الطراف(٤) الساكنة يوميذ بهذه المدينة المذ[كورة]

---

(١) نورد هنا قراءة ا. جرومان للعقد (A. Grohmann, o. c., p. 102-103), . ونثبت فى الهوامش ما نراه من تصحيحات لها .

(٢) نقترح « البدر » لأن الحرف الثالث من الكلمة أقرب إلى الباء منه إلى القاف كما يتبين من مقارنة رسم هذين الحرفين عند وقوعهما متوسطين فى مواضع مختلفة من العقد : أنظر الكلمات : « طلقها » و « طلقة » (س ٥) ، « انقضى » (س ٩) ، « تبقى » (س ١٠) ، « القاضى » و« القاسم » (س ١٤) ، « القاضى » (س ١٥) ، « القضا » (س ١٦) ، فيما يتعلق بالقاف المتوسطة . وانظر الكلمات : « الباقى » (س ٩) ، « صحبتها » (س ١٠) ، « سبحانه » و « نبيه » (س ١١) ، « عبد » (س ١٤) ، « بمخاطبة » (س ١٩) ، فيما يتعلق بالباء المتوسطة .

(٣) نقترح « غنايم » لوجود حرف رابع ، نعتقد أنه الياء ، أسقطه الناشر . قارن فى اللوحة الكلمات : « تزويجا » (س ٤) ، « يحسن » (س ١٠) ، « تزويجها » (س ١٢) ، « بمدينة » (س ١٥)

(٤) نقترح « الطواف » ، لأن الحرف الرابع من الكلمة أقرب فى رسمه إلى الواو منه إلى الراء . أنظر طريقة رسم الواو المركبة المتأخرة ، فى اللوحة ، فى الكلمات : « بأبو » و « يوميذ » (س ٢) ، « يوميذ » (س ٣) ، « العيون » (س ٦) ، « متواليات » (س ٩) ، « أبو » (س ١٣) ، المتولى » (س ١٦) ، « الأشمونين » (س ١٥) ، « المذكور » (س ١٧) ، « المذكورين (س ١٨) ، « المتولى » (س ١٩) . وقارن بذلك رسم الراء المركبة المتأخرة ، فى اللوحة ، فى الكلمات : « استرجعها » (س ٥) ، « دنانير » و « مستنصرية » (س ٦) ، « وأبرأته » و « براة » و « أخرت » ، و« الدنانير » (س ٨) ، « مهرها » (س ٩) ، « بالمعروف » (س ١٠) ، « أمر » (س ١١) ، « بأمر » (س ١٣) « مسرة (س ١٤) ، « بالمهر » (س ١٧) ، « بالرضا » (س ١٨) ، « جرت » (س ١٩) ، « اقرار » و « قرى » و « فأقرأ » (س ٢٠) ، « العشر » و « الأخير » و « الآخر » (س ٢١) .

٤ وتزوجها به تزويجا مستأنفاً إذ كانت زوجته به .... هذا ...[ ]
٥ ودخل بها وأصابها وطلقها طلقة واحدة واسترجعها بهذا
٦ الصداق أصدقها أربعة دنانير مستنصرية جياد العيون نقدها
٧ م[ن] ذلك ديناراً واحداً قبضته منه لنفسها نقداً فى يدها تاما وافياً
٨ وأبرأته منه ومن اليمين عليه براءة[1] قبض واستيفى وأخرت الثلاثة دنانير
٩ الباقى مهرها عليه إلى أن انقضى خمسة ليلى[2] متواليات أولهن تاريخ
١٠ هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويحسن صحبتها بالمعروف
١١ كما أمر الله سبحانه فى كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله
١٢ وسلم تسليما وله عليها مثل ذلك ودرجة زايدة وولى تزويجها إياه بذلك
١٣ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضى أبو القاسم
١٤ عبد الله[3] بن على بن الرحمن خليفة القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله
١٥ على الحكم والصلاة والخطابة والقضا والمظالم بمدينة الأشمونين وأعمالها إليه
١٦ بكشف حالها وتزوجها وكيل[4] المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجبها[5] مستحقة

(١) جاء فى العقد « براة » وليس « براءة » .

(٢) أقرأ « سنين » . وقد بينا ذلك فى هذه الدراسة .

(٣) الحرف الأخير فى هذه الكلمة هو الميم وليس الهاء . أنظر طريقة الكاتب فى رسم الميم المركبة المختتمة فى كلمة « وسلم » (سطر ١٢ من اللوحة) وطريقته فى رسم الهاء المركبة المختتمة فى كلمة « الله » (سطر ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من اللوحة) وفى كثير غيرها من كلمات العقد . ويلاحظ أيضا أن الانفراج ما بين اللامين أكبر فى هذه الكلمةمنه فى كلمة « الله » فى مواضع العقد الأخرى مما يحتمل معه أن يكون سينا . ـ لعل الكاتب أراد أن يكتب كلمة « الله » فأخطأ وكتب هذه الكلمة الأخرى .

ومع ذلك فقد تكون الكلمة هى « الله » على اعتبار أن الحرف الأخير منها هو الهاء ، وليس الميم ، رسمها الكاتب فى صورة أخرى ، واتصلت بالعلامة (ـ) فوق كلمة «والصلاة» (س ١٥ من اللوحة) . أنظر هذه العلامة فوق حرفى السين والشين فى :

A. Grohmann, o. c., Pl. X.

(٤) اقرأ « فقبل » واجعل من الفعل السابق « تزوجها » اسما معطوفا على « كشف » ومن الكلمة التالية « المتولى » فاعلا ، ومن « ذلك » اسم اشارة لغير العاقل ، على ما بينا فى هذه الدراسة .

(٥) اقرأ « فوجدها » . فالهاء هنا مركبة مبتدأة وليست مركبة متوسطة . أنظر طريقة كاتب العقد فى تركيب الهاء المركبة المتوسطة على الحرف السابق عليها فى الكلمات :ـ «بهذه» (سطر ٣) ، =

١٧ الناكحة فزوجها من الزوج المسما معها فيه باذنها ورضـا[1] وبالمهر المذكور عاجله

١٨ وأجله المذكورين فى هذا الكتاب وشاهدى عدل شهدا له عليها بالرضا وقبل

١٩ الزوج من المتولى هذا النكاح ورضى به وألزمه نفسه بمخاطبة جرت بينهما على جميعه

٢٠ شهد على إقرار الزوجين والمتولى الشيخ بجميع ما فيه بعد أن قرىء[2] عليهم[3] فأقروا[4] بفهمه

٢١ بمعرفة[5] جميعه وكتب فى العشر الأخير من جمادى الآخر سنة إحدى وستين وأربعماية

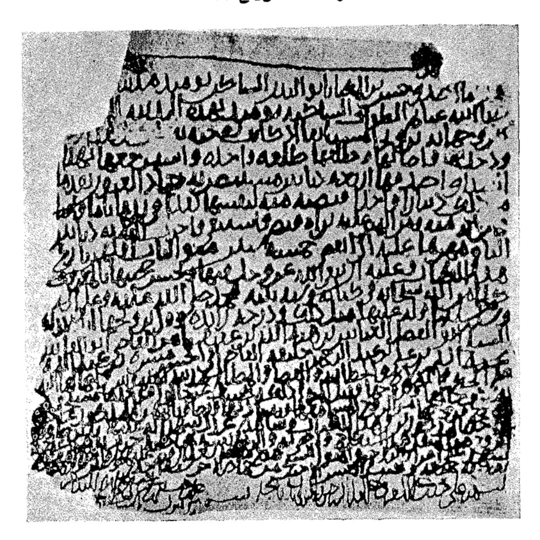
٢٢ شهد على بن نجيد بن على المغربى على إقرار الزوجين والمتولى وكتب[6] فى تاريخه شهد على بن حفص بن على بن حفص على إقرار الزوجين

٢٣ والمتولى بما فيه وكتب[7] فى تاريخه

= « وتزوجها » (س ٤) ، « بها » و « وأصابها » و « طلقها » و « واسترجعها » ، « بهذا » (س ٥) ، « وأصدقها » (س ٦) ، « لنفسها » (سطر ٧) ، « مهرها » و « أولهن » (س ٩) ، « فيها » و « صحبتها » (س ١٠) ، « عليها » و « تزويجها » (س ١٢) ، « وأعمالها » (س ١٥) ، « حالها » و « تزوجها » (س ١٦) ، « فزوجها » و « معها » و « بأذنها » و « بالمهر » (سطر ١٧) ، « شهد » و « عليها » (سطر ١٨) . ثم أنظر طريقة الكاتب فى رسم الهاء المركبة المبتدأة فى الكلمات : « نقدها » (س ٦) ، « يدها » (س ٧) ، « مهرها (سطر ٩) .

(١) لعل الكاتب سها فكتب « ورضا » حيث يريد أن يكتب « ورضاها » .
(٢) جاء فى العقد « قرى » دون الهمزة .
(٣) اقرأ « عليهما » .
(٤) اقرأ « فأقرا » .
(٥) اقرأ « ومعرفة » .
(٦) اقرأ « بما فيه » .
(٧) اقرأ « بما فيه » .

((لوحة عقد الزواج (١)))



(١) يوجد الأصل فى دار الكتب تحت الرقم ١٤٥ . وهو مكتوب بالحبر الأسود على ورق أصفر رمادى طوله ٢٣ سم وعرضه ٢٠٫٨ سم . والظهر خال من الكتابة وقد طوى الورق من الوسط ثم طوى من الوسط طيا ثانيا موازيا للسطور من أسفل إلى أعلى . وعرض الطيات المتواليات كالآتى : ٣٫٦ و ٣٫٧ و ٤٫١ و ٥٫٥ و ٤ سم . والعقد فى حالة جيدة . ولعله كشف بالأشمونين :
(A. Grohmann, o. c., p. 101).

الطرق الصوفية فى مصر

للدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

(١) تمهيـد :

ميدان التصوف الإسلامى من ميادين الدراسة التى لا تزال فى حاجة ملحة إلى مزيد من جهود الباحثين للكشف عما يكتنف كثير من موضوعاته من غموض . وأحد هذه الموضوعات موضوع «الطرق الصوفية» ، من حيث نشأتها وتطورها ، والدور الذى لعبته فى تاريخ المجتمعات الإسلامية منذ ظهورها إلى العصر الحاضر .

وأهمية الطرق الصوفية فى الإسلام راجعة إلى أنها تمثل لنا الجانب العملى من التصوف ، وهو جانب ارتبط بحياة المجتمعات الإسلامية وجماهير الناس فيها عبر عصور التاريخ ارتباطا مباشراً ، ودراسة هذا الجانب دراسة علمية تبين لنا مدى فعالية « القيم الصوفية » قوة وضعفا فى واقع هذه المجتمعات .

والتصوف ، فى حقيقته ، ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتا فيزيقية بقدر ماهو « طريقة » فى الحياة ، ورياضة عملية تمارس من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام . وقد نبه الإمام الغزالى المتو فى سنة ٥٠٥ هـ[١] إلى أنه لا يكفى أن تقرأ كتب الصوفية لتصبح صوفياً ، إذ أن « طريقتهم لا تتم إلا بعلم وعمل » ، وهم يقيناً « أرباب أحوال لا أصحاب أقوال » .

من هنا كان على دارس التصوف أن يتتبع نظرياته المختلفة فى تطبيقاتها العملية ، فهذا مما يعينه على فهمها أولا ، ومما يتيح له أن يحكم على مدى فعاليتها وحيويتها ثانياً ، ولعلك تدهش إذا علمت أن آراء كبار شيوخ التصوف لم يكتب لها البقاء

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ، بهامش الإنسان الكامل للجيلى ، القاهرة ١٣١٦ هـ ، جـ ٢ ، ص ٣٠ و ٣١

فى العالم الإسلامى قرونا إلا من خلال الطرق العملية التى أسسوها ، والتى انتشرت فيه انتشاراً واسعاً ، وهذا من دلائل عظمة شخصياتهم ، وقدرتهم على القيادة الروحية للجماهير ، وهو أمر لم يتهيأ لغيرهم من كبار مفكرى الإسلام وفلاسفته الذين آثروا منهج العقل وحده فى تقرير مباحثهم النظرية ، فبقيت آراؤهم لهذا فى نطاق محدود لا تتجاوزه إلى قلوب الجماهير وعقولهم إلا فى النادر .

وبحثنا هذا محاولة لإلقاء الضوء على حركة الطرق الصوفية فى مصر خاصة ، وقد رأينا من المناسب أن نقدم له بمقدمة تاريخية نبين فيها معنى مصطلح «الطريقة» لغة ، وفى القرآن الكريم ، والمعانى التى اتخذها عبر العصور المختلفة للتصوف ، وكيف نشأت الطرق الصوفية فى مصر وتطورت ، وما هى الخصائص العامة التى يمكن أن يوصف بها تصوف أصحابها ، وما هى التنظيمات المختلفة التى تعاقبت على الحركة الصوفية فى مصر ، مع العناية ببيان الأوضاع الراهنة للطرق المعاصرة المتعلقة بلوائحها وعاداتها وتقاليدها ، وقد وضعنا فى ختام البحث ثبتاً يتضمن أسماء الطرق الصوفية فى مصر إلى سنة ١٩٦٨ م .

وقد رأينا من المفيد أن نلحق بالبحث أيضاً رسالة قصيرة ، تتعلق بموضوعه ، لمؤلف مجهول كتبها باشارة من السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية سابقا ، المتوفى سنة ١٩٣٢ م ، عنوانها « كتاب الطرق الصوفية بالديار المصرية » ، وقد حققنا نصها بالرجوع إلى نسختها الخطية الوحيدة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٧٣٧ تاريخ .

(ب) مقدمة تاريخية :

١ — الطرق جمع « طريق » ، والطريق السبيل الذى يطرق بالأرجل ، أى يضرب ، وعنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان فى فعل محمود كان أو مذموماً[١] ويقال أيضاً : الطريق والطريقة على سبيل الترادف[٢] ، ويقال : « الطريقة » ، بمعنى السيرة والحالة ، وطريقة الرجل : مذهبه[٣] .

---

(١) الأصفهانى : مفردات غريب القرآن ، مادة « طرق » .

(٢) الفيروزابادى : القاموس المحيط ، مادة « طرق » .

(٣) الشرتونى : أقرب الموارد ، مادة « الطريقة » .

وقد ورد اللفظان « طريق » و « طريقة » فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم[1] » ، وقال تعالى : « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا[2] » ، وقال تعالى : إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما[3] » ، وقال تعالى : « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً[4] » ، وقال تعالى « ويذهبا بطريقتكم المثلى »[5] .

وجمع الطريق طرق ، على حين أن جمع الطريقة طرائق ، قال تعالى : « وأنا منا الصالحون ، ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً[6] » ، إشارة إلى اختلافهم فى درجاتهم[7] كقوله : « هم درجات عند الله[8] » .

٢ — وحينما نشأ التصوف الإسلامى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وما بعده استمراراً لحركة الزهد الإسلامية الأولى ، نجد هذا الاصطلاح ، أعنى «الطريقة» ، يتخذ مدلولا خاصاً ، فهو يعنى عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين المذكورين فى « الرسالة القشيرية » مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التى يتمسك بها طائفة الصوفية[9] . ويجعل القشيرى طريقة الصوفية مقابلة لطريقة أرباب العقل والفكر[10] ، إذ معرفة الصوفية ذوق وكشف ، أما معرفة أرباب العقل والفكر فهى استدلال . ويذكر القشيرى أيضاً كلمة طريقة بمعنى منهج الإرشاد النفسى والخلقى الذى يربى به الشيخ مريده ، فيروى عن أبى على الدقاق قوله :

---

(١) سورة الأحقاف ، آية ٣٠ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٦٨ .
(٣) سورة طه ، آية ١٠٤ .
(٤) سورة الجن ، آية ١٦ .
(٥) سورة طه ، آية ٦٣ .
(٦) سورة الجن ، آية ١١ .
(٧) الأصفهانى : مفردات غريب القرآن ، مادة « طرق » .
(٨) سورة آل عمران ، آية ١٦٣ .
(٩) الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٣٣٠ هـ ، ص ٢ — ٣ ، ص ٧ .
(١٠) نفس المرجع ، ص ١٨٠ .

« الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فانها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً »[1] . وفي « الرسالة القشيرية » ما يوضح لنا أن أوائل الصوفية كانوا يستخدمون إلى جانب اصطلاحي الطريق والطريقة اصطلاح السلوك[2] ، أي السير في الطريق ، وهذه الاصطلاحات كلها تعبر عندهم عن الجانب السيكولوجي الأخلاقي من التصوف الذي يتمثل في تصور الطريق إلى الله مكونا من مراحل هي المقامات والأحوال ، فالمقامات كالتوبة والصبر والرضا واليقين والمحبة والتوكل وما إليها ، والأحوال كالقبض والبسط والفناء والبقاء والهيبة والأنس وما إليها ، وهذه كلها فضائل وأحوال أخلاقية ونفسية تأتي ثمرة مجاهدة النفس ، يترقى فيها السالك للطريق حتى يصل إلى مقام التوحيد أو المعرفة بالله ، وهو آخر مقامات الطريق[3] . ولعل مما له دلالة في هذا الصدد أن صاحب كتاب « قوت القلوب » ، وهو أبو طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، وأحد كبار الصوفية الأوائل الذين تأثر بهم الغزالي ، قد جعل عنوان كتابه هذا في الأصل : « طريق المريد للوصول إلى مقام التوحيد »[4]. هذا ، ويجعل المكي اسم الطريق دالا على معاني الشريعة الإسلامية والسنة ، ويجعله مرادفاً للطريقة والسنة والصراط المستقيم والمحجة والمنهاج والسبيل[5] .

٣ — ولما كان الصوفية الأوائل قد فرقوا بين علم الشريعة أو علم الظاهر الذي هو على الجوارح الظاهرة ، وعلم الحقيقة أو علم الباطن الذي هو على الجارحة الباطنة وهي القلب[6] ، وجعلوا علمهم أكثر يقيناً من العلوم الأخرى ، وجعلوه ثمرة الشريعة

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٨١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(٣) إلى هذا المعنى يشير الجرجاني في التعريفات بقوله : « الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي في المقامات » التعريفات ، مادة « الطريقة » ، وأنظر أيضا مقدمة ابن خلدون (بدون تاريخ) ، الفصل الخاص بعلم التصوف ، ص ٣٢٨ .

(٤) أبو طالب المكي : قوت القلوب ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٢ م ، جـ ٤ ، ص ٣ .

(٥) نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ٣ ، ٥ .

(٦) أنظر في ذلك مثلا : اللمع للطوسي ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٣ — ٤٤ ، والرسالة القشيرية ، ص ٤٣ .

وروحها ، فقد وضعوا لأنفسهم مصطلحاً خاصاً ورموزاً معينة لا يفهمها أحد حق الفهم إلا بالتلقى عنهم ، وأوجدت حركتهم نشاطاً روحياً ذا طابع خاص فى المجتمعات الإسلامية ، وأقبل عليهم كثير من الناس لينتمى إليهم ويأخذ عنهم ، وجمع كبار مشايخ التصوف المريدين حولهم وكرسوا أنفسهم لهدايتهم والأخذ بأيديهم فى طريق التكمل الخلقى ، وكانت تلك التجمعات الصوفية صورة أولى للطرق الصوفية فى الإسلام . ومن هذه الطرق الأولى التى ابتدأت فى الظهور منذ القرن الثالث الهجرى السقطية نسبة إلى السرى السقطى ، والخرازية نسبة إلى أبى سعيد الخراز ، والنورية نسبة إلى أبى الحسين النورى ، والملامتية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار ، والحلاجية نسبة إلى الحسين بن منصور الحلاج[1] إلا أن نظام هذه الطرق الأولى لم يكن متكاملا ومتماسكا كما هو الشأن فى الطرق الصوفية المتأخرة . على أن القشيرى يظهرنا فى رسالته[2] على شىء مما كان متعارفاً عليه بين شيوخ التصوف من قواعد السلوك آنئذ ، فهو يجعل أول قدم للمريد فى الطريقة الصوفية الصدق ليصح له البناء على أصل صحيح ، ويجعل مراحل التربية الصوفية مبتدأة بتصحيح اعتقادات المريد، ثم التوبة، وفراغ القلب، والخروج عن العلائق، وطاعة الشيخ فى كل مايشير به ، واصطناع الخلوة والعزلة ، واستدامة الذكر، وما إلى ذلك ، مع ضرورة حفظ العهد . ويفهم من كلام القشيرى أيضا وجود رتب آنئذ فى الطريق بالنسبة للسالكين ولكنه لم يتعرض لتحديد هذه الرتب تحديداً واضحا كما هو الشأن عند متأخرى صوفية الطرق .

٤ — فاذا كنا مع الإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ ﻫ نجده يفهم الطريق الصوفى على نحو لا يختلف كثيراً عن النحو الذى فهمه عليه صوفية الرسالة القشيرية وأبو طالب المكى ، فهو يرى أن طريق الصوفية عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانب السالك وتصفية وجلاء ثم استعداد

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ، القاهرة ١٩٤٥ م ، ص ١٠٩ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١٨٠ وما بعدها فى « باب الوصية للمريدين » .

وانتظار [1]. ويعنى الغزالى كمن تقدمه من الصوفية ببيان قواعد السلوك[2] على نحو مفصل مثل علاقة المريد بالشيخ وقواعد العزلة والخلوة والذكر وما إليها ، وهو يصف مقامات السلوك وأحواله على اختلافها فى كتبه التى ألفها فى التصوف ، وعلى الأخص فى كتابه « إحياء علوم الدين » .

٥ — وكان مجيء الإمام الغزالى فى رأينا من العوامل الهامة التى غيرت من مجرى التصوف الإسلامى ، فقد أرسى الغزالى قواعد التصوف السنى الذى يعنى بالجانب الخلقى التربوى فى العالم الإسلامى ، ورفض أنواع التصوف الأخرى المسرفة ، كتصوف الحلاج القائم على فكرة الحلول ، وتصوف البسطامى الذى يعلن فيه الاتحاد ، وسرعان ما ظهر المعجبون بالإمام الغزالى فى اتجاهه هذا من كبار شيوخ الصوفية ، نذكر منهم الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١[3] هـ ، ومؤسس الطريقة القادرية ، والشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ [4] ، ومؤسس الطريقة الرفاعية ، وتوالى شيوخ التصوف الكبار فى الظهور فى أقطار إسلامية عدة ، والتف حولهم الأتباع والمريدون . واستمرت الطرق الصوفية فى الظهور والانتشار منذ القرن السادس الهجرى إلى يومنا هذا ، وتشعبت فى جميع الاتجاهات من السنغال غربا إلى بلاد الصين شرقا ، وقامت فى كثير من البلدان الأفريقية والآسيوية بنشر دعوة الإسلام ، كما قاومت فى كثير من الأحيان الاستعمار الأوروبى المستتر وراء التبشير [5] . واختلفت أسماء الطرق فى العالم الإسلامى باختلاف أسماء مؤسسيها ، وهى فى حقيقة الأمر تهدف إلى غاية واحدة ، والخلافات التى كانت ولا تزال بين

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، جـ ٣ ، ص ١٦ — ١٧ .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٥٢ وما بعدها ، ص ٥٦ ، ص ٦٤ وما بعدها .

(٣) كتبت فى مناقبه كتب نذكر منها : الشطنوفى ، بهجة الأسرار ، القاهرة ١٣٠٤ هـ ، وانظر فى ترجمته المناوى : الكواكب الدرية ، القاهرة بدون تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٨٨ — ٩١ ، الشعرانى : الطبقات الكبرى ، القاهرة ١٣٤٣ ، جـ ١ ، ص ١٠٨ — ١١٤ .

(٤) من الكتب التى جمعت أخباره ومناقبه بالتفصيل ، كتاب « قلادة الجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر » ، لأبى الهدى الصيادى ، بيروت ١٣٠١ هـ .

(٥) لمزيد من التفصيلات يمكن الرجوع إلى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على « كتاب حاضر العالم الاسلامى » للمستشرق ستودارد ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٧ وما بعدها ، وص ٣٩٢ وما بعدها ، وفى مواضع أخرى .

الطرق هى فى الرسوم العملية فقط كالزى والأوراد والأحزاب التى يرددها الأتباع وما إلى ذلك ، فهى أشبه شىء بمدارس تتحد غايتها فى التعليم الروحى وتختلف وسائلها العملية فيه باختلاف المعلم الذى يجتهد فى أن يضع لتلاميذه قواعد ورسوم خاصة يرى أنها أفعل فى تعليمهم . والحقيقة أن الغاية القصوى من الطريق الصوفى هى غاية خلقية تتمثل فى إنكار الذات والصدق فى القول والعمل والصبر والخشوع ومحبة الغير والتوكل وغير ذلك من الفضائل التى دعا الإسلام إليها وكانت محوراً دارت حوله أبحاث التصوف النظرى .

٦ — وأصبحت لفظة « طريقة » عند الصوفية المتأخرين [١] تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين ، ويخضعون لنظام دقيق فى السلوك الروحى ، ويحيون حياة جماعية فى الزوايا والربط والخانقاوات ، أو يجتمعون اجتماعات دورية منظمة فى مناسبات معينة ، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام ، وهكذا أصبح التصوف جماعياً بعد أن كان حظ أفراد متفرقين لا رابط بينهم .

(ج) الطرق الصوفية فى مصر :

٧ — أول من غرس بذور التصوف فى مصر [٢] هو ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، وكان يعد أول من تكلم من الصوفية عموما فى علوم المقامات والأحوال ، وكان من عظم الشخصية حتى قيل إن جميع الشيوخ قد أخذوا عنه واعتمدوا عليه ، وشاركه فى غرسها فى القرن الثالث الهجرى أيضا صوفيان آخران لهما مكانتهما ، وهما أبو بكر الزقاق المصرى [٣] ، وأبو الحسن بن بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ هـ [٤].

ثم استمرت حركة التصوف بمصر فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن أبرز رجالها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ [٥] ، وأبو الخير الأقطع

---

(١) قارن : Massignon : Art. «Tarika», Encyclopedie de l' Islam.

(٢) أنظر فى تفصيل ذلك كتابنا « ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه » ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ٢١

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٦

التيناتي المتوفى سنة ٣٤٣ هـ[١] ، وأبو على بن الكاتب المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة[٢] ، وأبو الحسن الدينورى الصائغ المتوفى سنة ٣٣١ هـ[٣] ، وأبو بكر الرملي النابلسي المتوفى سنة ٣٦٣ هـ[٤] ، وابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ هـ[٥] ، وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ[٦] .

وفى القرن السادس للهجرة ظهرت مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر ، وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ[٧] ، والذى كان ، على ما يذكر الحافظ المنذرى ، أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين ، ثم قام عليها من بعده صوفى مصرى له مكانته فى عصره ، وهو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ[٨] ، والذى أخذ عنه كثيرون جداً من صوفية الصعيد فى ذلك العصر .

وكان القرن السابع الهجرى فى مصر عصر ازدهار لتصوف أصحاب الطرق ، فقد وفد إلى مصر من العراق الشيخ أبو الفتح الواسطى ، وأقام بالإسكندرية ، وبشر بها بالطريقة الرفاعية ، ووفد إليها كذلك من المغرب السيد أحمد البدوى سنة ٦٣٤ هـ ، وأقام بطندتا (طنطا حاليا) ، وهو مؤسس الطريقة الأحمدية ، وتوفى سنة ٦٧٥ هـ[٩] ، وظهر كذلك الشيخ إبراهيم الدسوقى القرشى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ بدسوق[١٠] ، وهو مؤسس الطريقة البرهامية . وكان قد وفد إلى مصر أيضاً من المغرب الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، حوالى سنة ٦٤٢ هـ ، ومعه جملة

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٢٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٥) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٦) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٧) أنظر فى ترجمته بالتفصيل : كمال الدين الأدفوى : الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأهل الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م ، ص ١٥٦ وما بعدها .

(٨) نفس المرجع ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ١٥٨ وما بعدها .

(١٠) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ١٤٣ وما بعدها .

من تلاميذه ومريديه ، واستوطنوا مدينة الإسكندرية ، وكونوا بها طريقة صوفية مشهورة هى الطريقة الشاذلية ، وكان من أبرز من قام على هذه الطريقة بعده تلميذه أبو العباس المرسى المتوفى ٦٨٦ هـ ، ثم خلف هذا الأخير تلميذه ابن عطاء الله السكندرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ .

وقد لاحظنا بعد استقراء طويل[1] لأقوال ومذاهب صوفية مصر الذين ذكرنا منذ القرن الثالث إلى القرن السابع الهجرى ، سواء منهم من كان مصرياً أو وافداً إلى مصر أن أولئك الصوفية كانوا معتدلين فى تصوفهم ، فلم يكن واحد منهم قائلا بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد ، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر الأجنبية البعيدة عن روح الاسلام ، وهذا راجع إلى أن مصر كانت بعيدة عن تيارات الأفكار والمعتقدات الأجنبية الفارسية والهندية ، وهذا على عكس تصوف أوائل الصوفية من الفرس الظاهرين بمراكز عدة كخراسان ومرو وبلخ ونيسابور ونهاوند والرى والجبال وأصفهان وشيراز وغيرها ، والذين يرجح تأثرهم بما كان سائداً فى بيئاتهم تلك من معتقدات وأديان قديمة ، فلا يخلو تصوفهم بذلك من عناصر أجنبية . هـذا إلى أن صوفية الطرق من المصريين يجمعهم جميعاً طابع خاص هو العناية بالجانب العملى الخلقى من التصوف أكثر من العناية بالخوض فى المسائل النظرية الصوفية ، وهـذا يفسر عدم ظهور صوفية خائضين فى المباحث النظرية الفلسفية بمصر كالحسين بن منصور الحلاج ، والسهروردى المقتول ، ومحيي الدين بن عربى ، وصدر الدين القونوى ، وعفيف الدين التلمسانى ، وابن سبعين ، ومن إليهم من الصوفية الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة .

والدليل على اتجاه صوفية مصر إلى الجانب العملى الخلقى من التصوف ، وعدم رضاهم عن تصوف أصحاب النظريات المسرفة الموهمة أن محيي الدين بن عربى وصدر الدين القونوى حينما جاءا إلى مصر لم يجدا لدعوة طريقتهما المعروفة بالأكبرية أى صدى أو قبول ، وكذلك الشأن بالنسبة لابن سبعين الذى أقام فى مصر فترة من حياته ، ولكن طريقته السبعينية لم تحظ بانتشار ما ، وعلى العكس من هذا لقى المبشرون بالطرق الصوفية الأخرى الذين كانت دعوتهم عملية خلقية كالواسطى

---

(١) أنظر كتابنا : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، ص ٥٣ — ٥٤

والبدوى والشاذلى والدسوقى لدعوتهم صدى وقبولا ، ثم شيوعا وانتشاراً بين أفراد الشعب المصرى منذ القرن السابع الهجرى إلى يومنا هذا .

٨ — وأول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية فى مصر يرجع تاريخه إلى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، يدلنا على ذلك أنه أنشأ للصوفية خانقاه [١] هى الخانقاه المعروفة بسعيدالسعداء [٢]، وكانت تعرف أيضا بدويرة الصوفية ، بالقاهرة ، وجعلها لإقامة الصوفية الوافدين إلى مصر ، ووقف عليها أوقافا فى سنة ٥٦٩ هـ ، فكانت أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر . ولقب شيخ هذه الخانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان له شبه تقدم على غيره من شيوخ الصوفية ، وكان سكانها من الصوفية يعرفون — كما يقول المقريزى — بالعلم والصلاح وترجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكابر والأعيان كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه مع ما كان لهم من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر ، ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وجماعة من الأعيان [٣] ، ونزل بها الأكابر من الصوفية .

٩ — وكان العصر المملوكى فى الحقيقة مبدأ لاتساع تنظيم الصوفية فى جماعات فى الخانقاوات ، وفى المدارس المنتشرة فى ذلك العصر ، فقد أنشأ سلاطين المماليك الكثير من الخانقاوات أبرزها خانقاه سرياقوس (الخانكة حاليا) ، التى أسسها الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٢٥ هـ [٤] ، وصار شيخ هذه الخانقاه معتبرا فى درجة

---

(١) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت ، ويرى المقريزى أن الخانقاوات حدثت فى الاسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى » الخطط ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، جـ ٤ ، ص ٢٧١

(٢) نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) ولى مشيخة هذه الخانقاه علماء كثيرون نذكر منهم : شمس الدين الأيكى فى القرن السابع الهجرى ، والشيخ برهان الدين بن أيوب الأبناسى الشافعى المتوفى سنة ٨٠٢ هـ ، وسراج الدين عمر بن حسن العبادى الشافعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، والشيخ جمال الدين الكورانى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ ، والشيخ زين الدين بن عبد الرحمن القناوى الشافعى الذى وليها بعد الكورانى والشيخ عبد القادر النقيب الذى وليها سنة ٩٠٣ هـ ، أنظر خطط المقريزى ، جـ ٤ ، ص ٣٠٤ ، وابن إياس : بدائع الزهور ، القاهرة ١٣١٢هـ ، جـ ١ ، ص ٨١ ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ ، ص ٢٦٠ ، ص ٣٣٢

(٤) خطط المقريزى ، جـ ٢٤ ، ص ٢٨٥ .

شيخ خانقاه سعيد السعداء . ومن مظاهر تنظيم الصوفية فى العصر المملوكى كيفية تقدم المريد للجماعة، واندماجه بينهم، ثم حسبانه منهم، ثم تدرجه فى رتب الطريق ، ثم وصوله إلى درجة النقابة فالخلافة ، ثم تحدثه على أتباعه ومريديه واتصاله بهم ، ثم اتصال الشيخ بالجميع حتى يسهل عليه بث ما يريده من تعاليم وتلقين ما يراه من أوامر ، وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ . ووجدت فى هذا العصر وما قبله اصطلاحات خاصة كالقطب (الذى هو رأس العارفين) ، والأوتاد والأبدال ، وهى أسماء ومراتب صوفية ، وما بعد ذلك من المراتب ، فنظامه كنظام الجند ، واصطلاحه يطابق اصطلاح العسكرية تماما .

وكان شيوخ الصوفية فى العصر المملوكى يعاونون السلاطين فى جهادهم للأعداء كما هو معروف عن الشاذلى[1] ، وذكر ابن إياس فى تاريخه أيضا مايفيد أن سلاطين المماليك كانوا يستدعون شيوخ الصوفية للخروج معهم فى غزواتهم[2] ، مما يدلنا على أن الحركة الصوفية لم تكن بمعزل عن مجريات الأمور فى المجتمعات الإسلامية .

٩ — وفى العصر العثمانى انتشرت الطرق الصوفية انتشارا واسعا بين جماهير الشعب المصرى[3] ، ولكن مصر كانت تعانى فى ذلك العصر اضمحلالا فكريا وحضاريا ، وأصبحت عناية أصحاب الطرق فيه منصرفة إلى الشكليات والرسوم أكثر من العناية بجوهر التصوف ذاته ، وسيطرت على جماهيرهم الأوهام والمبالغة فى التحدث بالمناقب والكرامات التى لم يكن يأبه لها المحققون من أوائل شيوخ التصوف، ولم يكونوا يعتبرونها دالة على كمال التصوف ، على أن هذا لم يمنع من ظهور بعض الشخصيات الصوفية البارزة المعروفة بالعلم والتقوى ، مثل مصطفى كمال الدين البكرى مؤسس الخلوتية بمصر ، والحفنى والدردير والشرقاوى[4] ، وكانت الروح الصوفية مسيطرة على الأزهر بوجه عام ، وكان معظم شيوخه الذين ترجم لهم الجبرتى فى

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٤٢ .

(٢) بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٢ .

(٣) للاستاذ الدكتور توفيق الطويل بحث قيم عن التصوف فى ذلك العصر عنوانه : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٤٦ .

(٤) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ١٦٥ ، ص ٢٨٩ ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ ، جـ ٤ ، ص ١٥٩ .

تاريخه منتمين إلى الطرق الصوفية ، وكان العالم الأزهرى يجاز أولا فى العلوم الشرعية ثم يجاز ثانيا بأجازة الطريق الصوفى . وكان يطلق على شيوخ الطرق الصوفية فى هذا العصر ، « مشايخ السجاجيد » أحيانا ، وهى تسمية نصادفها كثيرا فى تاريخ الجبرتى . ومعنى « شيخ سجادة » من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة ، وهو معرب « سه جادة » والمراد بها الطرق الثلاث السابق ذكرها [1] .

١٠ — ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م كان الذى يتولى شئون الصوفية فى مصر هو السيد خليل البكرى [2] الذى عين عضوا فى الديوان الذى أنشأه نابليون بونابرت ، والمتوفى سنة ١٢٢٣ هـ . ونحن لانعرف على وجه التحديد متى انتقلت رئاسة الصوفية فى مصر إلى الطريقة البكرية التى يرجع نسب شيوخها إلى أبى بكر الصديق ، وقد ذكر جرجى زيدان فى « تاريخ التمدن الإسلامى » أن رئاسة الصوفية قد توحدت بمصر فى القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى الذى كان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، والذى وصفه الشعرانى بأنه أعلم أهل زمانه ، ومنه انتقلت رئاسة الصوفية إلى ابنه السيد أبى السرور البكرى [3] ، واستمرت كذلك إلى العصر الحاضر ، ولا نعرف المصادر التى استند إليها جرجى زيدان فى كلامه هذا .

أما من الناحية التنظيمية ، فقد أصبح للطرق الصوفية منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، أو ماقبله بقليل ، مشيخة عامة لصاحبها التكلم على جميع الطرق ، وأصبح لكل طريقة شيخ ، ولكل شيخ خلفاء فى القرى ، ونواب فى المراكز والمديريات . ولكل خليفة مريدون ، والشيخ يدير أمر الخلفاء ، والخليفة أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وعرف رئيس الصوفية (من بيت البكرية) بشيخ مشايخ الطرق الصوفية والسجادة البكرية ، وكانت تضاف إليه ، فى بعض الأحيان ، نقابة الأشراف .

---

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة « السجادة » .

(٢) أنظر ترجمته فى عجائب الآثار للجبرتى ، جـ ٤ ، ص ٨٦ — ٨٨ .

(٣) أورده السيد محمد توفيق البكرى فى كتابه « بيت الصديق » ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٣٧٩— ٣٨٠ ؛ وأنظر أيضا تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ ١ ، ص ٢٦١ .

ولما ولى السيد محمد توفيق البكرى عام ١٨٩٢م مشيخة الطرق الصوفية استصدر لائحة رسمية للطرق الصوفية ، وذلك فى ٢ يونيو١٩٠٣م ، وهى اللائحة التى لا يزال معمولا بها إلى الآن ، والتى جعلت شيخ مشايخ الطرق الصوفية يدير شئون الصوفية بواسطة مجلس صوفى يختص بشئون الصوفية .

واستمرت مشيخة الطرق الصوفية فى بيت السادة البكرية ، وآخر من تولاها من هذا البيت السيد أحمد مراد البكرى الذى رفع من وظيفته فى سنة ١٩٤٦ م ، مع احتفاظه بوظيفة مشيخة السادة البكرية إلى الآن (١٩٦٨ م) ، وتولاها من بعده ، المرحوم الشيخ أحمد الصاوى (١٨٨١ م — ١٩٥٨ م) ، من كبار علماء الأزهر ، وذلك فى ٢٧ يناير ١٩٤٧ م ، ولمرضه وكبر سنه رفع من وظيفته عام ١٩٥٨ م ، وعين مكانه السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الحالى الذى اختير من بين أعضاء المجلس الصوفى لتولى هذا المنصب ، وعين فيه بقرار جمهورى، كما تقضى بذلك اللائحة، وهو يتولى إلى جانب هذا المنصب مشيخة الطريقة العلوانية .

١١ — وتشتمل لائحة الطرق الصوفية الصادرة فى سنة ١٩٠٣م على ستة عشر مادة .

وقد نصت اللائحة لأول مرة فى تاريخ الصوفية على تشكيل مجلس صوفى ، وقد أبانت عن تشكيل هذا المجلس فى المادة الثالثة ، وهو مؤلف من شيخ مشايخ الطرق رئيساً وأربعة أعضاء من مشايخ الطرق ينتخبهم الرئيس من بين ثمانية أشخاص من مشايخ الطرق ، وهؤلاء الثمانية تنتخبهم جمعية عمومية من مشايخ الطرق يحضرها خمسة وعشرون شخصاً على الأقل بأغلبية الآراء ، ويكون انتخاب الأعضاء الثمانية فى جلسة تعقد بمحافظة القاهرة برئاسة السيد المحافظ (حل محله مدير الأمن حالياً) ، ويتجدد الانتخاب كل ثلاث سنوات ، وإذا توفى عضو أو استعفى عضو آخر يجرى انتخاب غيره يحل محله .

وفى المادة الخامسة اشترط المشرع أن تكون إجراءات المجلس وأحكامه فى نطاق الشرع ، وكل قراراته نافذه على من يعنون بعنوان الصوفية .

وبينت المادة التاسعة أن سماع القضايا فى المجلس يكون كسماعها فى مجلس

القضاء ، وبحسب ترتيب ورودها ، ولا تقدم دعوى على أخرى إلا إذا تعذر إتمامها .

وفى المادة العاشرة ورد أنه بعد سماع القضايا واستيفائها تحصل المداولة بين أرباب المجلس ، وتصدر الأحكام بأغلبية الآراء بقرار مصدق عليه ، ويتولى الرئيس تنفيذه ، وعند الاقتضاء يصير توسط جهة الحكومة (وزارة الداخلية) فى أمر التنفيذ .

أما اختصاصات المجلس ، فقد نصت عليها اللائحة فى المواد الأولى والثانية والثالثة عشر ، فجعلت هذا المجلس مختصاً بتعيين مشايخ الطرق ، ورفعهم من من وظائفهم ، أو توقيفهم لمدة معينة ، والفصل فى منازعاتهم أو رفعهم ، ويختص المجلس بالنظر فى المخالفات المتعلقة بالصوفية والتى تكون بين رجال طرق مختلفة ، أما المخالفات المتعلقة برجال الطريقة الواحدة فيفصل فيها شيخ الطريقة ، وللمتخاصمين حق استئنافها أمام ذلك المجلس .

وتوجد إلى جانب هذه اللائحة الرسمية لائحة أخرى داخلية صادرة عن المجلس الصوفى بتاريخ ١٧ صفر ١٣٢٣ هـ = ٢٣ أبريل ١٩٠٥ م ، وهى منظمة لأعمال المجلس ، ويبدو ظاهراً أنها تهدف إلى إصلاح الطرق . فمن ذلك أنها تشترط ألا يعين أحد شيخاً لطريقة إلا إذا كان من أهل العرفان والكمال ، كما تجيز هذه اللائحة زيادة طرق جديدة متى كانت الطريقة الجديدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة فى إسمها أو اصطلاحها ، كما تجعل هذه اللائحة نظام الطرق الصوفية وراثياً فى أبناء الشيخ ، فاذا لم يوجد فى أبنائه من يستحق التعيين يبحث فى ذوى قرباه ، فاذا لم يوجد عين المجلس للطريقة من له أهلية .

وقد نصت اللائحة الداخلية أيضاً على ألا يعين الشيخ خلفاء له فى البلدان ، إلا إذا كانوا من أهل العرفان بارشاد الناس . وللشيخ أن يعين له نواباً فى البلدان الكبيرة كالمراكز ، كما يجب أن يتفقد الشيخ أحوال أتباعه سنوياً بالتفتيش على أعمالهم .

وتضمنت اللائحة الداخلية فى الباب الثالث أن يعين شيخ مشايخ الطرق وكلاء للمشيخة العامة لكل مركز من مراكز القطر ، وجعلت لهؤلاء الوكلاء اختصاصات معينة .

وجاء الباب الخامس من هذه اللائحة مؤكداً لضرورة إصلاح الطرق والنهوض بها ، فيبعد عن الطرق كل من اتصف بعقائد مخالفة للشرع الإسلامى ، كالقول بالحلول والاتحاد وسقوط التكاليف عن بعض أفراد الناس ونحو ذلك ، ويبعد كذلك عن الطرق الصوفية من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية من افتعال الخوارق ، والزار ، وبينت اللائحة فى هذا الباب الكيفية الشرعية للذكر فى المادة الثالثة حيث جاء ما نصه : « يكون الذكر الصوفى عبارة عن ذكر الله وتمجيده ، صريحاً ، قياماً وقعوداً ، أو قعوداً مع الخشوع والوقار بحضور أحد الخلفاء المجازين من شيوخهم » ، كما نصت المادة الرابعة من هذا الباب على أنه « يجب على كل شيخ طريقة ، وكل خليفة أن يجمع مريديه ليلة أو أكثر فى الأسبوع فى زاوية من الزوايا ، أو فى محل مخصوص ، وذلك لذكر الله وتمجيده ، ثم للتعليم والإرشاد بعد ذلك ، ويجوز للشيخ أو الخليفة أن يجعل مقرئاً للحلقة يتلو لهم شيئاً من القصائد والآداب للتفقه فيها » .

١٢ — وتقوم الطرق الصوفية حالياً فى الجمهورية العربية المتحدة بالدعوة إلى التصوف والتربية الدينية الروحية بطريقتها التقليدية الخاصة ، ولا تزال فى الجملة خاضعة لبعض النظم الموروثة من العصر العثمانى وما قبله ، فاذا قارنا مثلا بين ما يذكره المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى عن صوفية عصره ، وبين ما نشاهده بأعيننا عن صوفية العصر الحاضر لوجدنا أوجه شبه قوية للغاية بينهما . والمنهج المتبع الآن فى كل الطرق الصوفية هو أخذ العهود على المريدين بعد استتابتهم عن المعاصى ، وبعد أخذ العهد على المريد يمضى فترة فى الطريقة حتى يكمل ، فيجيزه شيخه المباشر الذى هو خليفة الطريقة ، فيطلب عندئذ من شيخ الطريقة إعطاء هذا المريد إجازة الطريق ، وهى شهادة مطبوعة تحتوى تاريخ الطريقة وأسانيدها ، وتشهد بأن هذا المريد أصبح قادراً على إرشاد غيره من المريدين وإعطائهم العهود . ومراتب الطريقة هى — فى العادة — كما يلى : المريد (يسمى أحياناً درويشاً) — الخليفة — خليفة الخلفاء (وهو يرأس جماعة من الخلفاء) — نائب البندر (ويرأس خلفاء البندر) — نائب المركز (ويرأس خلفاء قرى المركز) — نائب المحافظة (ويرأس جميع خلفاء المحافظة) — شيخ عموم الطريقة . ويسمى المنظمون الذين ينظمون المواكب ، ويرتبون مجالس الأذكار ، بالنقباء ، وهناك أيضاً نقباء النقباء . ويحافظ أصحاب

الطرق على نظام الوراثة فى الوظائف الصوفية طالما كان ابن المتوفى أهلا لوظيفة أبيه ، وحكمة ذلك عندهم ضمان استمرار الدعوة في البيوت الصوفية على مر العصور . ولشيخ مشايخ الطرق وكلاء عنه فى جميع مراكز ومحافظات الجمهورية يتولون تنفيذ قرارات المجلس الصوفى الأعلى .

ومن أمثلة تمسك رجال الصوفية فى العصر الحاضر بالكثير من موروثات العصور المتأخرة استعمال الزى الخاص والشارات المعينة ولباس الرأس الملون (مثال ذلك العمامة الحمراء للأحمدية والسوداء للرفاعية والخضراء للبرهامية ولغيرهم من المنتمين إلى بعض طرق أخرى) ، وتستخدم كل طريقة بيارق أو أعلام خاصة تحمل فى المواكب فى المناسبات الخاصة كالموالد وغيرها ، وهناك نظام دقيق يسمى نظام « العقب » فى المواكب الصوفية ، ويأتى فيه ترتيب الطريقة الأقدم فى الجهة التى يحتفل بها فى نهاية الموكب . وتعقد الطرق مجالس الأذكار بصورتها التقليدية المعروفة التى يصاحبها الإنشاد ، وذلك مرة كل أسبوع على الأقل ، ويطلق على مجلس الذكر اسم « الحضرة » ، ولا يزال هناك بين عوام المنتسبين إلى الطرق فى العصر الحاضر اعتقاد مفرط فى الأولياء وكراماتهم يخرج أحياناً عن حد المعقول ، وعلى وجه العموم يسير الصوفية المعاصرون وفق مبدأ معروف عندهم يتلخص فى قولهم : « القديم على قدمه » ، وهذا يفسر لنا تلك النزعة التقليدية المحافظة التى لا زالت تسيطر عليهم .

وعلى الرغم مما يشوب الطرق الصوفية الآن من بعض الشوائب ، منها ضعف المستوى العلمى والثقافى لبعض مشايخها ، وكثير من أتباعها ، إلا أنها لازالت تؤدى دوراً هاماً فى مجال الحفاظ على التراث الدينى والقيم الروحية على المستوى الشعبي خصوصاً فى قرى الريف . ولا ينبغى أن ينكر أنها حفظت فى القرون الماضية مع الأزهر الشريف الإسلام من الهجمات الاستعمارية الضارية ، كما كانت فى بعض البلدان الإفريقية والآسيوية ـ كما سلفت إليه الإشارة ـ الحائل الوحيد دون نفاذ الدعوات الاستعمارية المتسترة وراء التبشير إليها ، يضاف إلى ذلك أن الإسلام لم ينتشر فى كثير من البلدان الافريقية إلا عن طريق المنتمين إلى الطرق كالقادرية والشاذلية والتيجانية وغيرها .

وليس أدل على جدوى رسالة الطرق الصوفية فى العصر الحديث من أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يؤمن إيماناً راسخاً بفاعلية المنهج الصوفى فى التربية والإصلاح الدينى والاجتماعى ، فقد قال يوما للسيد رشيد رضا : إذا يئست من إصلاح الأزهر فانى أنتقى عشرة من طلبة العلم ، وأجعل لهم مكانا عندى فى عين شمس ، أربيهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم ، وكان اقترح على السيد جمال الدين الأفغانى هذا الاقتراح أيام كانا ينشئان « العروة الوثقى » فى باريس ، ويعقب السيد رشيد رضا على ذلك قائلا : « ولو تم للأستاذ الإمام هذا على الوجه الذى يريده لكان أعظم أعماله فائدة »[1] .

١٣ — ومنذ قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، يشعر القائمون على شئون الطرق الصوفية بضرورة إصلاح وتطوير هذه الطرق بما يتمشى مع مظاهر النهضة المعاصرة فى مختلف النواحى الاجتماعية والثقافية ، فشكلت لذلك اللجان ، وتحققت كثير من ضروب الإصلاح أبرزها تطوير الاحتفال بالموالد ، وهى المناسبات الرئيسية التى يظهر فيها نشاط الطرق كالمولد النبوى ، والمولد الأحمدى ، والمولد الدسوقى ، حيث أصبحت هذه الموالد الآن مجالا واسعاً للتوجيه القومى والإعلام ، كما أصبحت ميادين للثقافة والإرشاد الدينى على المستوى الجماهيرى ، واختلفت فى صورتها بذلك عما كانت عليه من قبل ، ويوجد بوزارة الأوقاف حاليا إدارة للموالد تتعاون مع مشيخة الطرق فى هذا الصدد .

وقد أحس شيخ مشايخ الطرق الصوفية حاليا وأعضاء المجلس الصوفى العالى ومشايخ الطرق بضرورة تطوير الطرق بحيث تضيف إلى جانب نشاطها الدينى نشاطا اجتماعيا وآخر ثقافيا ، واتخذ المجلس الصوفى لذلك عدة قرارات بانشاء لجان علمية وثقافية ، ولجان أخرى مهمتها استقبال كبار الزعماء الصوفيين الوافدين إلى مصر من أفريقيا وآسيا ، وتوثيق الصلات بينهم وبين إخوانهم فى الجمهورية العربية المتحدة . وتعقد مشيخة الطرق كثيراً من الندوات الثقافية والمحاضرات ،

---

(١) السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، القاهرة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ، ص ١٣٠

كما تصـدر كتبا فى التصوف وتراثه القديم ، وقد أصدرت مشيخة الطرق فى عام ١٩٥٨م مجلة ناطقة باسم الصوفية هى مجلة « الإسلام والتصوف » .

وقد شكلت منذ بضع سنوات لجنة لتعديل اللائحة المعمول بها حاليا ، وكان فيها ممثلون للأزهر الشريف ، ووزارة الأوقاف ، ودار الإفتاء ، ومجلس الدولة ، وانتهت إلى وضع مشروع لتطوير اللائحة هو موضع نظر الآن .

١٤ — ويبلغ عدد الطرق الصوفية فى الجمهورية العربية المتحـدة حاليا ، خمس وستون طريقة . وهى إما طرق مستقلة ، أو فروع لطرق قديمة . ومن الملاحظ أن عددها قد زاد كثيراً عما كان عليه عددها فى مستهل هذا القرن . ففى كتاب « بيت الصديق » للسيد محمد توفيق البكرى ، يوجد ثبت يشمل الطرق الصوفية الموجودة إلى سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥ م ، وعدد الطرق فيه اثنتان وثلاثون طريقة . ثم زاد عددها قبيل وفاة السيد محمد توفيق البكرى إلى أربعين طريقة [1] وفى عهد الشيخ الصاوى (١٩٤٧م — ١٩٥٨ م) كان عدد الطرق أربعا وأربعين طريقة [2]. والسبب فى زيادة الطرق على هذا النحو أن اللائحة الداخلية للطرق الصوفية تجيز استحداث طرق جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة فى إسمها أو اصطلاحها ، ولكن الحقيقة أن أكثر الطرق المستحدثة كانت فروعاً لأصول أقدم[3] .

وفيما يلى ثبت وضعناه للطرق الصوفية الموجودة حاليا (إلى سنة ١٩٦٨)[4] . ومنهجنا الذى اتبعناه فيه هو أن نذكر الطريقة التى هى أصل ، ثم الطرق المتفرعة عنها ، أما الطرق التى يبدو أنها ليست فروعاً لأصول فقد أثبتناها فيما بعد :

(١) الطريقة القادرية :

أسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، ويوجد لها بمصر فرعان هما : القادرية القاسمية ، والقادرية الفارضية .

---

(١) انظر الملحق الوارد بآخر هذا البحث ، ص ٧٤ ـ ٨٤ .

(٢) فتحى محمود شهدى : العارف بالله . . الخ ، ص ١٠٧ — ١١١

(٣) أنظر ص ٦٨ من هذا البحث

(٤) اعتمدنا فيه على الكتاب الصادر عن مشيخة الطرق الصوفية بعنوان : « التصوف الاسلامى رسالته ومبادئه » ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ثم على معلومات مستقاة من مشيخة الطرق ذاتها .

(ب) الطريقة الرفاعية :

أسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وليس لها فروع .

(ج) الطريقة الشاذلية :

أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، وتوجد لها الفروع الآتية :

القاسمية ، والمدنية ، والسلامية ، والحندوشية ، والقاوقجية ، والعفيفية الهاشمية ، والإدريسية ، والجوهرية ، والوفائية ، والعزمية ، والحامدية ، والمحمدية ، والفيضية ، والهاشمية المدنية .

(د) الطريقة الأحمدية :

أسسها السيد أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، وتفرعت عنها طرق كثيرة ، بعضها يكون ما يسمى بالبيت الكبير ، وهى : المرازقة ، والكناسية ، والإمبابية ، والمنايفة ، والسلامية ، وبعضها يكون ما يسمى بالبيت الصغير ، وهى : الحلبية والشعيبية والتسقيانية والحمودية والزاهدية . وهناك طرق أحمدية أخرى وهى : الفرغلية والشناوية والسطوحية والبيومية .

(هـ) الطريقة البرهامية :

أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، ويوجد لها إلى جانب الأصل ثلاثة فروع هى : الشهاوية ، والشرنوبية ، والسعيدية الشرنوبية .

(و) الطريقة الخلوتية :

تنسب إلى الشيخ محمد الخلوتى ، وترجع بالسند إلى الجنيد ، وهى طريقة تركية ازدهرت بمصر إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، وتنسب فى مصر إلى الشيخ مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ هـ ، ولها الفروع التالية : الدمرداشية ، والمغازية ، والضيفية ، والبهوتية ، والمصيلحية ، والسمانية ، والمسلمية ، والعلوانية ، والشبراوية ، والهراوية ، والبكرية ، والمروانية ، والغنيمية ، والحبيبية ، والجنيدية ، والجودية ، والقاياتية .

(ز) طرق أخرى :

النقشبندية ، والسعدية ، والعنانية ، والشيبانية التغلبية ، والميرغنية ، والخضيرية ، والصاوية ، والعزازية ، والرحيمية القنائية ، والخليلية ، والكتانية .

ملحق

كتاب الطرق الصوفية

بالديار المصرية(1)

أشار بوضعه وصنعه صاحب السماحة والسيادة
السيد محمد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ
الصوفية بالديار المصرية سابقا

وألفه : بعض الأفاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا أبى القاسم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، سيد الأنبياء والمرسلين ، وصفوة الخلائق أجمعين ، وعلى آله وصحابته ، وخاصته وعامته ، هداة الأنام ، ودعائم الإسلام ، ومصابيح الظلام .

أما بعد ، فهذه رسالة وضعتها فى بيان الطرق الصوفية بالديار المصرية ، وذكر مناقب أصحابها ، وتراجم أربابها ، الأئمة الأكرمين ، والأولياء الصالحين ، كنوز الأسرار ، ومعادن الأنوار ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

---

(١) حققنا نصه بالاعتماد على النسخة الخطية الوحيدة له ، والمحفوظة بدار الكتب المصرية ، ورقمها ٣٧٣٧ تاريخ ، وهى مخطوطة حديثا بقلم معتاد ، ومكتوبة من وجه واحد لكل ورقة ، ولم يذكر فى آخرها شىء عن تاريخ نسخها ولا اسم ناسخها .

٢ / الطرق الصوفية بالديار المصرية

١ ـ الطريقة القادرية :

نسبة إلى الإمام الكبير ، والعارف الجليل ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى أبى صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسنى الجيلى رضى الله عنه ، توفى سنة ٦٥١ من الهجرة ، وضريحه ببغداد مشهور .

وسند هذه الطريقة — كما هو المشهور عند أصحابها — هو :

أخذ سيدى عبد القادر الجيلى ، عن أبى سعيد المبارك المخرمى ، عن أبى الحسن محمد بن يوسف الهكارى ، عن أبى الفرج محمد الطرسوسى ، عن أبى الفضل عبد الواحد التميمى ، عن عبد العزيز التميمى ، عن أبى بكر دلف بن جحدر الشبلى ، عن شيخ الطريقة ، وإمام الحقيقة ، أبى القاسم الجنيد بن محمد البغدادى ، المتوفى سنة ٢٩٧ من الهجرة ، وإليه تنتهى معظم أسانيد الطرق الصوفية .

٣ / وأخذ أبو القاسم الجنيد عن خاله أبى الحسن السرى بن المغلس السقطى ، عن أبى محفوظ معروف بن فيروز الكرخى ، عن أبى سليمان داود بن نصير الطائى ، عن حبيب بن محمود العجمى ، عن أبى سعيد الحسن البصرى ، رضى الله عنه .

٢ ـ الطريقة الرفاعية :

تنسب إلى القطب الكبير ، والإمام الشهير ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى أبى العباس أحمد محيى الدين بن أبى الحسن على الرفاعى ، رضى الله عنه . ولد سنة ٥١٢ من الهجرة ، وتوفى ٥٧٨ هـ ، وضريحه ببلدة أم عبيدة بالعراق ، وزى هذه الطريقة الأسمر والأبيض .

وسلسلة رجال هذه الطريقة هى :

أخذ سيدى أحمد بن على الرفاعى عن الشيخ نور الدين على القارى الواسطى ، عن أبى الفضل بن كامخ ٤ / عن سيدى على بن تركان ، عن سيدى أبى على الروذبارى ، عن الشيخ على العجمى ، عن أبى بكر الشبلى ، عن سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد .

٣ ـ الطريقة البرهامية :

نسبة إلى الإمام العارف الجليل ، الولى الكبير ، صاحب الكرامات الفاخرة ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى ابراهيم بن أبى المجد الدسوقى القرشى ، رضى الله عنه ، توفى سنة ٦٧٦ من الهجرة ، وضريحه بمدينة دسوق بالغربية[١] من أعمال مصر ، وزى هذه الطريقة الأخضر .

٤ ـ الطريقة السعدية :

تنسب إلى الولى العارف ، سيدى سعد الدين بن يونس الشيبانى الجباوى الدمشقى ، أحد الأولياء المشهورين بالديار الشامية ، توفى سنة ٦٣٦ هجرية ، وضريحه ببلدة جبا من ضواحى دمشق ، ٥/ وزى هذه الطريقة الأخضر .

٥ ـ الطريقة الميرغنية :

نسبة إلى الإمام الشهير سيدى محمد عثمان الميرغنى الكبير ، ولد سنة ١٢١٨ هـ ، وتوفى سنة ١٢٦٨ من الهجرة ، ودفن بمكة المكرمة .

٦ ـ الطريقة المولوية :

نسبة إلى الإمام الولى العارف الشهير مولانا جلال الدين الرومى البكرى الصديق ، توفى سنة ٦٧٢ من الهجرة ، وضريحه بمدينة قونية من بلاد الترك .

٧ ـ الطريقة النقشبندية :

تنسب إلى الولى الجليل الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد الحسينى البخارى المعروف بنقشبند ، توفى سنة ٧٩١ من الهجرة ، وقد أخذ الطريق عن الشيخ كلال .

٨ ـ الطريقة الكلشنية :

نسبة إلى العارف الكبير ، ٦/ سيدى برهان الدين ابراهيم المعروف بالكلشنى ، ولد بأذربيجان من أعمال فارس ، وتوفى سنة ٩٢٦ من الهجرة ، وضريحه مشهور بالقاهرة بالقرب من باب زويلة .

---

(١) تتبع مدينة دسوق فى التقسيم الادارى الحالى محافظة كفر الشيخ .

فروع الطريقة الأحمدية

هذه الطرق تنسب إلى القطب العارف ، الفرد الجامع ، أحد الأقطاب الأربعة سيدى أحمد بن على بن ابراهيم الحسينى الشهير بالبدوى رضى الله عنه ، توفى سنة ٦٧٥ من الهجرة ، وضريحه بمدينة طندتا[1] بالغربية من أقاليم مصر ، وزى هذه الطرق الأحمر . وقد أقام الطريق بعده خلفاؤه .

وسند هذه الطرق هو :

كان السيد حسن بدر الدين أخو السيد أحمد البدوى فى مدينة فاس بالمغرب الأقصى سنة ٥٣٥ هـ ، ٧ / تـكان بها الولى الكبير شيخ شيوخ المغرب الشيخ عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن ، فأخذ عنه سيدى حسن بدر الدين الطريق ، وعنه أخذ سيدى القطب أبى العباس أحمد البدوى رضى الله عنه . فسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه أخذ عن الشيخ عبد الجليل بواسطة أخيه السيد حسن بدر الدين .

وأخذ الشيخ عبد الجليل عن الشيخ عبد المجيد ، عن الشيخ عبد الحميد أحد مشايخ الغرب ، عن الشيخ أبى الحسن على ، عن الشيخ أبى طاهر عبد الرازق الأندلسى ، عن الشيخ عبد القدوس ، عن الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف المغربى الفاسى ، عن الشيخ شهاب الدين أحمد التوريزى ، عن الشيخ حبيب العجمى ، عن سيدى أبى سعيد حسن البصرى ، عن سيدنا عمران بن حصين ، عن سيدنا أنس ٨/ بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفروع الطريقة الأحمدية المذكورة فى هذه الرسالة عدتها عشرة ، وهى :

٩ ـ طريقة المرازقة الأحمدية :

نسبة إلى الولى الجليل سيدى مرزوق الكبير ، وضريحه ومسجده بالجمالية بالقاهرة .

---

(١) هى مدينة طنطا حاليا .

١٠ ــ الطريقة الانبابية الأحمدية :

تنسب إلى العارف الجليل سيدى اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل الإنبابى ، وضريحه ببلدة إنبابة من أعمال الجيزة بمصر .

١١ ــ الطريقة الكناسية :

نسبة إلى الشيخ الولى سيدى محمد الكناس .

١٢/٩ ــ طريقة المنايفة الأحمدية :

تنسب إلى الولى الكبير سيدى عبد الله المنوفى المالكى ، مات سنة ٧٤٨ هـ ، ودفن بالقاهرة تجاه السلطان قايتباى .

١٣ ــ الطريقة الحلبية الأحمدية :

تنسب إلى الولى القدوة الشيخ أبى العباس أحمد الحلبى .

١٤ ــ الطريقة الشعيبية الأحمدية :

نسبة إلى سيدى شمس الدين بن شعيب .

١٥ ــ الطريقة الزاهدية الأحمدية :

تنسب إلى الولى الجليل الشيخ أحمد الزاهد ، مات سنة ٨١٩ من الهجرة ، ودفن بجامعه المعروف بجامع الزاهد بالقاهرة فى شارع سوق الزلط .

١٦ ــ الطريقة الشناوية الأحمدية :

نسبة إلى العارف الجليل ١٠/ الشيخ محمد بن عبد الله الشناوى ، دفين محلة روح بالغربية من أعمال مصر ، توفى سنة ٩٣٢ هجرية .

١٧ ــ الطريقة السطوحية الأحمدية :

نسبة إلى سيدى محمد بن محمد السطوحى ، ضريحه بمديرية المنوفية من أعمال مصر .

١٨ ــ الطريقة البيومية الأحمدية :

تنسب إلى العارف الولى الكبير سيدى على البيومى . ولد ببيوم ، وهى قرية من مركز منية غمر من مديرية الدقهلية بمصر ١١٠٨ هجرية ، وتوفى بالقاهرة ، وضريحه بالحسينية .

فروع الطريقة البرهامية

هذه الطرق تنسب إلى القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقى وعددها ٢ اثنتان ، وهما :

١٩/١١ — الطريقة الشهاوية :

وهى شعبة من البرهامية وتنسب إلى سيدى محمد الشهاوى ، وضريحه قرب المحلة الكبرى من الغربية بمصر .

٢٠ — الطريقة الشرنوبية :

هى شعبة من البرهامية ، وتنسب إلى سيدى أحمد بن عثمان الشرنوبى ، دفين شرنوب من مديرية الغربية بمصر .

فروع الطريقة الشاذلية

هذه الطرق تنسب إلى الإمام العارف الشهير سيدى أبى الحسن على بن عبد الله الشاذلى ، توفى سنة ٦٥٦ هـ ، قاصدا الحج ، ودفن بصحراء عيذاب بطريق القصير من أعمال صعيد مصر .

وسند هذه الطريقة هو :

١٢ / أخذ سيدى أبو الحسن الشاذلى عن الشريف سيدى عبد السلام بن مشيش ، عن أبى محمد بن عبد الرحمن المدنى ، عن الشيخ تقى الدين الفقير الصوفى ، عن الشيخ فخر الدين ، عن الشيخ نور الدين أبى الحسن على ، عن سيدى تاج الدين ، عن سيدى شمس الدين محمد ، عن سيدى الشيخ زين الدين محمد القزوينى [١] ، عن الشيخ أبى اسحق ابراهيم البصرى ، عن أبى القاسم محمد المروانى [عن أبى محمد سعيد][٢] ، عن الشيخ أبى محمد فتح السعود ، عن الشيخ سعيد ، عن سيدنا جابر ، عن سيدنا

(١) فى الأصل : القزنوى .

(٢) أضفنا هذا الاسم بعد مقارنة هذه السلسلة بالسلسلة الوارد ذكرها فى كتاب « منهل الأنوار المحمدية » بذيل « درة الأسرار » ، الاسكندرية ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ولعله سقط سهوا من الناسخ .

الحسن بن على رضى الله عنه ، عن والده سيدنا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وأخذ أيضا سيدى أبو الحسن الشاذلى عن الشيخ أبى محمد صالح بن نصار المالكى ، عن الإمام سيدى ١٣ / أبى مدين التلمسانى ، عن الشاشى ، عن أبى سعيد المغربى ، عن أبى يعقوب النهرجورى ، عن سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد البغدادى ، عن السرى السقطى ، عن أبى محفوظ معروف الكرخى ، عن السيد على الرضا ، عن أبيه السيد موسى الكاظم ، عن أبيه جعفر الصادق ، عن أبيه محمد الباقر ، عن أبيه على زين العابدين ، عن أبيه سيدنا ومولانا الحسين بن على رضى الله عنه ، عن والده أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وللطريقة الشاذلية أسانيد وطرق أخرى لا حاجة لذكرها .

وأخذ عن سيدى أبى الحسن الشاذلى جمهور كبير من ١٤ / أئمة الطريق وكبار القوم . ومن أجل من صحبه وأخذ منه سيدى أبو العباس المرسى دفين الإسكندرية بمصر ، وعنه أخذ سيدى ياقوت العرشى ، وعنه أخذ سيدى ابن عطاء الله السكندرى صاحب كتاب «الحكم» ، وعنه أخذ سيدى داود بن باخلا . وكذلك أخذ عن سيدى أبى الحسن الشاذلى جمع كبير من مشايخ الإسلام وأعيان الأنام غير هؤلاء .

وفروع الطريقة الشاذلية المذكورة فى هذه الرسالة عدتها ١٠ عشرة ، وهى :

٢١ — الطريقة العفيفية :

تنسب إلى الولى الجليل سيدى عبد الوهاب محمد بن أحمد العفيفى ١٥ / دفين القاهرة بالمجاورين .

٢٢ — الطريقة الأدريسية الشاذلية :

تنسب إلى العارف الجليل ، المرشد الشهير ، أحمد بن إدريس المغربى ، دفين صبيا باليمن . ومن فروع هذه الطريقة الطريقة السنوسية المشهورة ببلاد المغرب ، وقد أسسها سيدى محمد بن على السنوسى الكبير سنة ١٢٥٠ من الهجرة .

٢٣ ــ الطريقة المدنية الشاذلية :

نسبة إلى الولى العارف الجليل سيدى محمد بن ظافر بن حمزة المدنى الكبير ، دفين المدينة المنورة ، وقد تأسست هذه الطريقة فى نحو سنة ١٢٤٠ هجرية .

٢٤ ــ الطريقة الجوهرية الشاذلية :

١٦/ نسبة إلى الأستاذ الكبير الشيخ الجوهرى ، وضريحه بالقاهرة مشهور .

٢٥ ــ الطريقة الحامدية الشاذلية :

تنسب إلى السيد سلامة بن حسن أبى حامد الراضى ، وينتهى سندها إلى الولى الإمام الجليل سيدى شمس الدين الحنفى البكرى الصديقى ، ومنه إلى القطب سيدى أبى الحسن الشاذلى .

٢٦ ــ الطريقة العيسوية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى محمد بن عيسى ولد بمكناس فى القرن التاسع ، ودفن باقليم مراكش وقد أخذ[١] الطريقة الجزولية الشاذلية للشيخ الإمام الجزولى ، ثم أنشأ طريقته المنسوبة إليه .

٢٧/١٧ ــ الطريقة التهامية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى التهامى دفين المغرب الأقصى .

٢٨ ــ الطريقة الحندوشية الشاذلية :

تنسب إلى سيدى ابن حندوش دفين المغرب الأقصى .

٢٩ ــ الطريقة العروسية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى أبى العباس أحمد بن محمد بن عروس الشريف القرشى ، توفى بتونس سنة ٨٦٤ من الهجرة .

٣٠ ــ الطريقة السلامية الشاذلية :

نسبة إلى الولى العارف سيدى عبد السلام بن سليم الأسمر ، وهو من رجال القرن التاسع للهجرة ، وضريحه بطرابلس الغرب .

---

(١) بعد كلمة « أخذ » بياض بالأصل .

فروع الطريقة الخلوتية

هذه الطرق تنسب إلى الإمام ١٨/ العارف الكبير سيدى مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديق. ولد بدمشق، وتوفى سنة ١١٦٢ هجرية، ودفن بالمجاورين بالقاهرة. وضريحه مشهور.

وسند هذه الطريقة هو :

أخذ سيدى مصطفى بن كمال الدين البكرى عن الشيخ عبد اللطيف الخلوتى، عن سيدى مصطفى الأدرنوى، عن سيدى على قراباش أفندى، عن الشيخ اسماعيل، عن الشيخ عمر[١]، عن الشيخ محيي الدين شعبان القسطمونى، عن الشيخ خير التوقادى، عن الشيخ جلبي، عن الشيخ محمد بهاء الدين الأرزنجانى، عن الشيخ يحيى الباكوبى صاحب «ورد الستار»، عن الشيخ صدر الدين الخيالى، عن الشيخ عز الدين الخلوتى، ١٩/ عن الشيخ محمد بيرام الخلوتى، عن سيدى عمر الخلوتى، عن سيدى الولى الكبير محمد الخلوتى، وهو مؤسس الطريقة الخلوتية، عن سيدى ابراهيم الزاهد، عن الشيخ جمال الدين التبريزى، عن الشيخ شهاب الدين الشيرازى، عن الشيخ زكى الدين محمد [النجاشى]، عن الشيخ قطب الدين الأبهرى، عن الشيخ عمر البكرى[٢]، عن عمه الشيخ الإمام أبى النجيب السهروردى البكرى الصديقى، عن القاضى وجيه الدين، عن الشيخ محمد البكرى[٣]، عن الشيخ ممشاد الدينورى، عن أبى القاسم الجنيد، عن السرى السقطى، عن أبى محفوظ معروف الكرخى، عن داود الطائى، عن حبيب العجمى، عن الحسن البصرى، عن سيدنا الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

٢٠/ وقد أخذ هذه الطريقة الخلوتية عن سيدى مصطفى البكرى جمع عظيم من

---

(١) بمقارنة هذا السند بالسند الذى أورده الجبرتى فى «عجائب الآثار»، نلاحظ أن الشيخ اسماعيل أخذ مباشرة عن الشيخ شعبان القسطمونى، عجائب الآثار، جـ ١، ص ٢٦٧

(٢) يجعل الجبرتى أخذ قطب الدين الأبهرى عن السهروردى مباشرة، نفس المرجع، جـ ١، ص ٢٩٧

(٣) فى عجائب الآثار : الدينورى.

مشايخ الإسلام ، والعلماء الأعلام ، والأئمة الأعيان ، وأكابر الزمان ، ذكر بعضهم العلامة الشيخ الجبرتي في تاريخه . ونذكر نحن في هذا الباب طرفاً من هذا ، فنقول :

أخذ عنه الإمام العلامة الشيخ الحفني شيخ الجامع الأزهر ، وهو ملتقى معظم أسانيد الطرق الخلوتية بالديار المصرية .

وأخذ عن الشيخ الحفني الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ، وله شرح على « ورد سحر » لسيدي مصطفى البكري .

وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ الدردير شيخ المالكية بالجامع الأزهر .

وأخذ عن الشيخ الدردير الشيخ السباعي .

وأخذ عن الشيخ السباعي الشيخ الحداد ، وهو مؤسس الطريقة الحدادية

٢١ / وأخذ عن الشيخ الدردير أيضاً الشيخ السكري من سكان طهطا بالصعيد .

وأخذ عن الشيخ السكري الشيخ الخضيري من سكان طهطا أيضا .

وأخذ عن الشيخ الخضيري الشيخ أحمد شرقاوي .

وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ أحمد الصاوي من أجل علماء الأزهر .

وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ الشنتناوي .

وأخذ عن الشيخ الشنتناوي الشيخ المصيلحي .

وأخذ عن الشيخ المصيلحي الشيخ الهراوي .

وفروع الطريقة الخلوتية المذكورة في هذه الرسالة عدتها ١٠ عشرة ، وهي :

٣١ ــ الطريقة السمانية الخلوتية :

نسبة إلى الولي ٢٢ / الجليل سيدي محمد السمان ، دفين المدينة المنورة .

٣٢ ــ الطريقة الضيفية الخلوتية :

تنسب إلى سيدي اسماعيل ضيف ، دفين القاهرة .

٣٣ ــ الطريقة الغنيمية الخلوتية :

تنسب إلى العلامة الأستاذ الشيخ إسماعيل الغنيمي المـالكي .

٣٤ ــ الطريقة السباعية الخلوتية :

نسبة إلى سيدي محمد السباعي ، وقد أخذ عن الشيخ الدردير ، وضريحه بجوار الشيخ الدردير بالقاهرة .

٣٥ ـ الطريقة الحدادية الخلوتية :

تنسب إلى العلامة الكبير الشيخ محمد الحداد المالكى العدوى الخلوتى . توفى سنة ١٢٨١ هـ ، ودفن بالقاهرة بالقرافة الكبرى .

٣٦ ـ الطريقة الحبيبية الخلوتية :

نسبة إلى سيدى محمد أحمد الحبيبي ، وضريحه بزاويته بالقاهرة .

٢٣/٣٧ ـ الطريقة المروانية الخلوتية :

هذه الطريقة تنسب إلى الشيخ القدوة الجليل السيد عبد المتعال المروانى المتوفى سنة ١٢٩٩هـ ، وضريحه بكفر سيدى عامر بمركز بنها بمديرية القليوبية .

٣٨ ـ الطريقة المسلمية الخلوتية :

تنسب إلى الولى سيدى سليم أبى مسلم ، دفين ناحية الصوة من مركز بلبيس من مديرية الشرقية بمصر .

٣٩ ـ الطريقة الهراوية الخلوتية :

نسبة إلى الشيخ ابراهيم الهراوى وضريحه ببلدة هرية رزنة من مديرية الشرقية بمصر .

٤٠ ـ الطريقة المصيلحية الخلوتية :

تنسب إلى الأستاذ الشيخ المصيلحى ، دفين المصيلحة بالمنوفية من أعمال الديار المصرية .

فلسفة الشك واللا أدرية لدى المعرى والخيام

للدكتور عبد القادر محمود

مدرس الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة بالخرطوم

أسعدنى كثيراً وأنا أبحث وأنقب فى أفكار عصر المعرى والخيام أن أقرأ للدكتور طه حسين (١) قوله فى ذكرى أبى العلاء (وقد كان من الحق على أن أضع فصلا موجزاً أو مطولا للمقارنة بين أبى العلاء وعمر الخيام) .

ولاحظت أن الذين كتبوا عن المعرى لم يتعرضوا لهذه المقارنة حتى الآن وبخاصة فى مخطط الشك واللاأدرية والفلسفة العقلية واللاعقلية لدى المعرى والخيام . كما لاحظت أن المؤرخين والنقاد قد تحدثوا عن العصر المضطرب الذى عاشا فيه دون أن يصلوا أفكار هذا العصر بمخطط فلسفتهما ، ودون أن يدرسوا دراسة ما عن مدى استقاء فكرهما من هذا العصر ، وإنما كان الحديث فقط عن المعرى بالذات من نواحى إيمانه وزندقته ، وشكه ، وحيرته بين الشك واليقين ، وعن الخيام من نواحى صوفيته ، وثورته الفكرية والفلسفية على المذاهب والمعتقدات ؛ لكن دون أية دراسة منهجية مقارنة لفكرهما بالنسبة لهذا العصر الذى عاش فيه المعرى (٣٦٣ هـ — ٤٤٩ هـ) ، وعاش فيه الخيام (٤٢٧ هـ أو ٤٣٧ — ٥١٧ هـ) كما عاش فيه الامام الغزالى ٤٨٠ هـ — ٥٠٥ هـ) .

وقد قرأت المعرى فى كل فكرة ثم قرأت الخيام فى أهم تراثه وهو الرباعيات فوجدت فى بداية الأمر تشابها فى أصول المخطط الفكرى القائم على الشك العقلى ، أو التأرجح بين اليقين والشك إلى الحيرة ، إلى لا أدرية يغطيانها أحيانا بسحب استغفارات ، وسبحات ندم لا تستطيع أن تمحو هذه اللاأدرية العارمة :

---

(١) الدكتور طه حسين : ذكرى أبى العلاء : المقدمة (يد) ط ٢ — ١٩٢٢

ثم وجدت فى دراستى للعصر الذى عاش فيه فكر المعرى والخيام أن هذا العصر العجيب وهو الممتد ما بين القرون الثالثة والرابعة والخامسة من الهجرة هو الذى مد المعرى بهذا الزاد الضخم من فلسفة الشك واللاأدرية كما أنه هو العصر الذى ثار فيه الامام الغزالى على كل هذه التيارات الخبيثة بعد أن عبر مرحلة الشك فى تجربته الخالدة التى حدثنا عنها فى كتابه المنقذ من الضلال ، وبعد أن واجه كل هذه التيارات الخبيثة من الرافضة واللادينيين فى كل الجبهات المانوية والمجوسية والشيعية ، وذلك فى كتبه فضائح الباطنية ، وتهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة وغيرها من أمهات كتبه الخالدة .

وسأعرض كمقدمة لهذا البحث أولا الأساس الذى اعتمد عليه فكر المعري والخيام ، وهو تراث عصره ، ثم أعرض ثانيا فكر المعرى وفلسفته ، ثم أعرض ثالثا فكر الخيام وفلسفته ، ثم أعرض أخيراً دراسة مقارنة لفكر المعرى والخيام لنعرف فى النهاية مدى استقاء الخيام من المعرى ومدى تشابههما ، أو مدى استقائهما معا أصول فلسفتهما من عصرهما المحتشد بأعنف النظريات الفكرية والفلسفية خطرا فى ذاتها وفى موضوعها ومنهجها من روح الاسلام والأديان السماوية عامة .

(أولا) عصر المعرى والخيام : أهم ما يتميز به هذا العصر هو الصراع المذهبى والفكرى بين أنصار العقل المطلق ، وأنصار الجبرية ، وبين أهل السلف المتوقفين عند النصوص ، والأشاعرة الموفقين بين أنصار العقل ، وأنصار النص أو النقل ، وبين الشيعة الباطنية ومختلف المذاهب العقلية والسلفية والسنية ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين أهل الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية من الأديان السماوية ، والمجوسية والمانوية والزارادشتيه والمزدكية ، والبوذية وغيرها من الديانات الوثنية .

المهم أن الحركات الشعوبية كانت الرائد الأول وكانت الينبوع الخطير لكل التيارات الباطنية التى انبثقت عنها كل النظريات المنفصلة عن الروح الاسلامى . ويمكن القول بأن أقوى الآراء المتطرفة والمنحرفة تلك التى أثمرت ثمارها فى فكر المعرى والخيام ، قد باضت وأفرخت مع فكر ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) ، وابن الراوندى (ت ٢٥٠ هـ أو ٢٩٨ هـ) ومحمد بن زكريا الرازى (ت ٣١١ ، أو ٣

٣١٣ هـ) ، ذلك الفكر الذى بدأ نموه منذ بداية القرن الثانى الهجرى مع حركات مدرسة السبئية من الشيعة الغلاة ، والدعاة القرامطة وتلاميذهم من الباطنية بمختلف صورهم ونحلهم .

ويمكن أن نجد مدخل آراء المعرى والخيام فى مخططها الأساسى لدى أفكار ابن المقفع فى الدعوة إلى ابطال الديانات على أساس زعمه تناقضها ونسخها لبعضها البعض ، ولدى أفكار ابن الراوندى فى نبوة العقل الصادقة بالنسبة لأودام النبوات والديانات والشرائع ، تلك التى جاءت بنظم ينفر منها العقل ، ولا تدل على عقل ، ولدى الرازى فى دعواه بأن الأديان تتناقض مع العقل ، وكذلك معنى الاجماع ، وفى دعواه القرمطية بأن الوحى لم يغلق على محمد (صلى الله عليه وسلم) بل هو باب مفتوح لمن كان له عقل .

أما ابن المقفع [١] فقد تعرض للأديان عامة وشكك فى قيمتها ، نجد هذا الحكم سافراً فى حديثه على لسان « برزويه » فى كتابه « كليلة ودمنة » حيث يقول (كنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة) . . ولكن مهنة الطب لم ترضه ، وشك فى قدرته على تخفيف آلام المرضى ، مع ما ناله من هدايا ومكافآت من السلاطين والملوك ، ولهذا عاد يقول بعد أن غير نهجه (فعدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنها ، ولم أر فيما كلمونى به شيئا يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه) .

وقد اتخذ ابن المقفع اختلاف الأديان والمذاهب (كما سيتخذه المعرى والخيام) دليلا على فسادها وبطلانها ومن هنا كانت الدعوة إلى إبطالها واتخاذ العقل وحده نبيا ، وقد جهل أو تجاهل هولاء الدعاة جميعا أن اختلاف الأديان (كما زعموا) دليل على مبدإ التطور الدينى بالنسبة لكل عصر ، كما أن اختلاف المذاهب والفرق وبخاصة فى الاسلام ، أكبر دليل على حيوية هذا الدين وأقوى دليل على شموله لكل عصر وكل زمان وأعظم حجة على أنه دين الاكتمال ، لأن به كان تمام النعمة

---

(١) ابن المقفع : كليلة ودمنة ص ٧٥ القاهرة ١٩٣٦ وأنظر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده هامش ص ٢٣ — ٢٧ من ترجمة لكتاب دى بور تاريخ الفلسفة فى الاسلام ١٩٥٤

كما قال الله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا . آية ٣ من المائدة) ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، و الشهيد القائم على كل الأنبياء ،ورسالته هى الرسالة الجامعة بدليل قول الله سبحانه (جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . آية ٤١ من النساء) وليس فقط فى الدنيا بل فى الآخرة أيضاً بدليل القرآن (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء . » آية ٨٩ من النحل) .

أما ابن الراوندى [1] فقد ناقش فى رسائله المتعددة فكرة النبوة ،وحكم ببطلانها وأكد أن العقل هو أعظم نعم الله ، وهو الذى يعرف به الله ، وإذا كان الرسول (أى رسول) يأتى بوحيه أو رسالته أو نبوته مؤكداً بها أحكام التحسين والتقبيح والايجاب والحظر (فساقط عنا النظر فى حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غنينا بما فى العقل عنه ، وإن كان بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته [2]) .

وقد خصص ابن الراوندى فى هجومه على الاسلام أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أتى بما كان منافرا للعقول مثل الصلاة وغسل الجنابة ، ورمى الحجارة (فى الحج) والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجرين (الركن والمقام) لا ينفعان ولا يضران . وهذا كله لا يقتضيه عقل وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت) [3].

ولا شك أن هذا قد أمد الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) بفلسفته فى هدم أبدان الشعائر

---

(١) بول كراوس : مجلة الدراسات الشرقية R.S.O. مجلد ١٤-١٩٣٤ وقد ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه من تاريخ الالحاد ص ٧٥ وأنظر أساسا المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة المجالس المؤيدية وخاصة مناظراته ومساجلاته مع المعرى التى نقلها ورواها أصلا ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ص ١ - ١٦٢ - ٢١٦ وأنظر أيضا تعريف القدماء بأبى العلاء تحقيق الدكتور طه حسين وابراهيم الابيارى ١٩٦٥ - ١١٩ - ١٣٧ ، وأنظر ابن الجوزى مرآة الزمان - ٢٠

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصدر السابق .

والتكاليف الشرعية [1] كما أمد عبد الحق بن سبعين (ت ٦٦٧ هـ) [2] بنفس الرأى حين وصف الطائفين بالبيت الحرام بأنهم (حمر المدار) .

وسنرى أن هذا الرأى هو ما ردده المعرى فى قوله بصدد الهجوم على الأديان :

عجبت لكسرى وأتباعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقيصر لما سوى ساجدا لما صنعته أكف البشر
وعُجب اليهود برب يسر بسفك الدماء وشم القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلاد لحلق الرءوس ولثم الحجر

ومما تركه ابن الراوندى للمعرى والخيام قوله عن القرآن إذا كان القرآن حقا معجزة فى مواجهة القبائل العربية الفصيحة فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان العربى . وما حجته عليهم ؟ ولا شك أن فى هذا طعناً صريحا فى اعجاز القرآن . ثم أن ابن الراوندى قد ترك للمعرى والخيام فكرة أن هناك تناقضاً واختلافاً ونسخاً من الكتب المقدسة لبعضها البعض ، وهذا فى رأيه دليل باطلها الذى يوجب الدعوة إلى إبطالها وعدم الايمان بها . وهذه الفكرة « التى زعمها ابن الراوندى » أن القرآن نقض فى دعواه بعدم صحة صلب المسيح عليه السلام ما أقره اليهود والنصارى . كما ذهب ابن الراوندى إلى أن حكاية الوحى . أو الالهام ليست متوقفة على النبى ولا أى نبى كائناً من كان مما أيد دعوى عدم اغلاق باب الوحى من الباطنية والرافضة وغيرهم . وأما الرازى [4] فقد توسع فيما قدمه ابن المقفع وابن الراوندى وسائر هؤلاء الزنادقة حين أكد لعصر المعرى والخيام امتداداً لعصره وفكره أن الشر فى

---

(١) الدكتور عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الاسلام ١٩٦٦ الباب الرابع ٣٠١—٤٠٠

(٣) المصدر السابق .

(٣) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ص ١ / ١٤٣

(٤) كراوس رسائل فلسفية ١٩٣٩ وأهم كتب الرازى العلم الالهى مخاريق الأنبياء الطب الروحانى وأنظر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده تاريخ الفلسفة فى الاسلام دى بور ١١٩—١٢٠ — وقد أكد الباقلانى وابن حزم والبغدادى والطوسى والذهبى (أنظر الفصل فى الملل والنحل لا حزم ص ١ — ٦٩ وما بعدها) أن إنكار النبوات جاء عن البراهمة الذين يقولون بالتوحيد مع إنكار النبوات وأن حجتهم هى أنه لما صح أن الله أرسل الرسل إلى قوم لا يصدقون فلماذا أرسلهم ولماذا لم يرغم العقل على الايمان ؟ وقد ذكر الغزالى أيضا (الجواهر ٥٢) أن البرهمى كافر لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين (وانظر الشهرستانى الملل والنحل ٤٤٥

الوجود أكثر من الخير أو أساس الكون ، وأن وجود الانسان لهذا نقمة وشر عظيم كما أكد فى فلسفته قدم المادة فى الوقت الذى اعترف بالخالق على تأرجح بين هذا وذاك وعلى تناقض. لكنه لما كان قد هاجم فكرة التوحيد الاسلامى الذى ينكر أن يكون إلى جانب الله سبحانه شيء قديم فانه أقرب إلى الدهريين أو أقرب إلى القول بقدم المادة عن الله . ومما أكده الرازى امتداداً لمن سبقه أن النبوات لا داعى لها ويكفى العقل المشترك ، ثم إن النبوات (كما يزعم) – كما سيقول المعرى والخيام من بعده [1] –) أسباب العداوات ، وحجته فى هذا بأن وجود التناقض من الأنبياء مع ادعائهم جميعا بأنهم يأتون من وحى الله الواحد إنما يدل على أنهم غير صادقين وأن النبوة لهذا باطلة .

وسنرى بعد هذه المقدمة أن هذا المخطط العجيب هو الذى أثرى فكر المعرى والخيام ، كما كان السبب المباشر فى ثورة الامام الغزالى ، الذى وقف فى وجه كل هذه التيارات الخبيثة مفكرا وفيلسوفا ومتصوفا ورجل دين ، على علم ويقين .

(ثانيا) فكر المعرى وفلسفته :

بملاحظة تراث المعرى نجد أنه كتب ثلاثة دووابن : سقط الزند ، وقد نظم معظمه فى شبابه إلا قليلا ، الدرعيات وهو ديوان صغير ملحق لسقط الزند . اللزوميات وهو أخطر دووابنه ، وتمثل أدق ناحية فى فلسفته العقلية وقد وضعه ليكون كتاباً فلسفياً وهو يمثل المرحلة الأخيرة من فكره [2] .

والمعرى واضح تمام الوضوح فى توكيد النظريات الفلسفية فى الطبيعة والرياضة

---

(١) سنرى فى تفاصيلنا بعد قليل آراء المعرى والخيام التى هى اصداء امتدت لهذه الآراء ومنها قول المعرى .

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما ... دياناتكم مكر من القدماء .
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا ... وبادوا ودامت سنة اللؤماء
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين ... وآخر دين لا عقل له

وقول الخيام :

ليس فى الدير ولا فى المسجد ياصاح مكانى ... قد عدمت الدين والدنيا وآمال الجنان
است بالكافر اطلاقا ولا المسلم صدقا (حقا)

(٢) دكتور طه حسين : ذكرى ٢٣٤ .

والألوهية والأخلاق فهو يقول فى الرد على أصحاب الديانات فيما يبثون من تنزيه الله عند الزمان والمكان فى سخرية جارحة :

قلتم لنا خالق قديم قلنا صَدَقْتُم . . كذا نقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان . . . ألا فقولوا
هذا كلامٌ له خبيءٌ معناه ليست لنا عقول [1]
لحا الله قوما إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا كفر [2]
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له [3]

ويقول فى اثبات أن الأبعاد لا تتناهى وهى مسألة من مسائل العلم الطبيعى :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

ويقول مؤكداً قول أرسطو ، مستدلا على نفى البعث ، فى حديثه عن قدم العالم :

إن صح ما قال رسطا ليس من قدم وهب من مات . . لم يجمعهمو الفلك [4]

ويقول فى توكيده للجبرية :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أأنت على تغيير لونك قادر [5]
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تخيير [6]

هذا بالنسبة لتراثه الشعرى. أما تراث فكره النثرى فهو رسالة الغفران [7] ورسالة الملائكة ولا شك أنه كتبهما فى المرحلة الناضجة الأخيرة من عمره الفكرى مع اللزوميات . وإذا كان قد صور مأساته بالنسبة لمأساة الحياة اللاهية فى غير الغفران فانه قد صورها محتجا ساخرا إلى أقصى حدود السخرية فى الغفران .

وقد اتفق له كما اتفق لغيره أمثال الخيام والغزالى أن يقرأ الفلسفة اليونانية العملية والفلسفة الهندية المتراجعة السلبية ، والفلسفة الفارسية بأساطيرها وتياراتها الشيعية

(١ — ٣) اللزوميات للمعرى ج ٢ — ١٧٩ . ح ١ —٤٢٦ ج ٢ — ٢٠١ وما بعدها .
(٤) الدكتور طه حسين ذكرى أبى العلاء ٢٣٤
(٥) ، (٦) المعرى اللزوميات ح ٢ — ١٧٩ ، ح ١ — ٤٢٦ ح ٢ — ٢٠١ وما بعدها .
(٧) الدكتورة عائشة عبد الرحمن الغفران تحقيق ١٥٥ — ١٨٨ .

المغالية ، والفلسفة المشائية القديمة والحديثة ، والفلسفة الصوفية فى مدارس الحلاج وما قبله من مدارس الفلسفة العقلية الخالصة مع الفارابى . . لكنه لم ينج من آثار كل هذه الفلسفات كما نجا الغزالى بل كان الممثل الخلاق لأراء عصره وفلسفته تلك التى عاشها وتنفسها ثم صاغها كما صاغها صاحبه الخيام صياغات جديدة .

وقد اختلف المؤرخون والمفكرون من العلماء فى أمر عقيدته [1] فمعظم المسلمين من رجال الدين والعقيدة يحكمون بكفره أو زندقته أو إلحاده أو جحوده على أقل تقدير . أما الفرنج من العلماء والمستشرقين وبعض علماء الاسلام والاسلاميين يقولون على خلاف فى الأحكام بأنه سنى ، أو بأنه سوفسطائى ، أو بأنه معتزلى ، أو بأنه لا أدرى ، ولعله كل ذلك فى تكوينه الفكرى ، لكنه ليس واحدا من هؤلاء باخلاص وصدق فهو غير سنى لأنه لا يؤمن إلا بالعقل المجرد وحده ، وهو غير سوفسطائى صريح لأنه لا يقول دائما بنسبية الحقائق مثلهم بل يعتقد كثيراً فى أحكام العقل الثابتة كآرائه فى الديانات والمذاهب الآلهية والأخلاقية والطبيعية ، وهو غير معتزلى تماما لأن المعتزلة حين يقدمون العقل على كل شيء يتخذون الشرع أصلا لنظرهم ودليلا يعتزون به .

وقد حكى [2] البغدادى أنه رمى بالالحاد ، وأكد ابن الجوزى [3] أن إصابته بالعمى أدخلته فى زمرة المترددين كما روى القفطى [4] كثيراً من شعره الذى وسمه بالالحاد وأكد أنه المشهور عنه .

وأشهر ماروى عنه مما ذكره ابن الجوزى [5] قوله مخاطبا الله سبحانه وتعالى ومعتذرا له عن ضرورة زندقته اعتمادا على سوء تقسيم الحظوظ :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء ... رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

---

(١) المصدر السابق للدكتورة عائشة عبد الرحمن .
(٢) البغدادى تاريخ بغداد ٤ — ٢٤٠
(٣) ابن الجوزى المنتظم ٧ — ١٥٦ — ١٦٠
(٤) القفطى أبناء الرواه ١ — ٤١
(٥) المصدر السابق لابن الجوزى .

ومما رواه عنه ياقوت [1] فى حكمه على تأصل فكره الشر والنقيصة فى الخلقة البشرية .

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله وتزويج بنتيه لابنيه فى الدنا
علمنا بأن الخلق من أصل ريبة وأن جميع الناس من عنصر الزنا [2]

فاذا تتبعنا المعرى وجدنا خطوطا رئيسية ثلاثة تجمع كل فلسفته بصورة جد عريضة ، خرجت عنها كل التفاصيل والتفاسير لهذه الخطوط الثلاثة .

أما الخط الأول وهو خط الفطرة الذى يقول عنه :

العقل يسعى لنفسى فى مصالحها فا لطبع إلى الآفات جذاب

وأما الخط الثانى فهو خط العقل الذى لا نبى بعده ولا قبله :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

وأما الخط الثالث فهو خط اللاأدرية الذى فى ساحته يقول :

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم

أما المدرسة الثابتة التى كان المعرى يستقى منها زادا لفكره المتوقد فهى التى يحدثنا عنها هو فى قوله موكدا مجمعها السرى :

كم بلدة فارقتها ومعاشر يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتنى الخطوب فلن أرى لوداد (إخوان الصفاء) مضيعا
خاللت توديع الأصادق للنوى فمتى أودع خلى التوديعا [3]

وقد تنقل المعرى فى فلسفته بين إيمانه بالفطرة ، وبين إيمانه بالعقل ، ثم ثورته على العقل ، به ، فى لاأدرية ، وذلك كله فى تفاصيل مضطربة حائرة . لكن أساس فكرة إيمانه بالعقل مهما ثار عليه ، أما الفطرة فكان يلجأ اليها خوفا وفزعا من المصير

---

(١) ياقوت معجم الأدباء ١ – ١٦٢ – ٢١٦

(٢) هذه الأبيات لم ترو فى اللزوميات.ومن الذين دافعوا عن المعرى ابن العديم : الانصاف والتحرى فى دفع الظلم عن أبى العلاء المعرى. مخطوط بالمجمع العلمى بدمشق ٤١ رواية عن الدكتور طه حسين تعريف القدماء ٤٨٣

(٣) طه حسين ذكرى ١٧٧

المجهول أمامه وأمام العقل الحائر ، وكان يلجأ اليها أيضا تقية يستر من ورائها آراء. أحيانا ، لكن هذه الآراء كانت واضحة الاتجاهات والمعالم مهما ادرعت بستار التقية فقد كان يؤكدها ويشد عليها سفوره الواضح فى دعوته إلى إبطال الديانات واعتقاده الراسخ فى إنكار البعث ويقينه العقلى فى قدم المادة ، ثم جبريته العنيفة التى أبطل من وراء ايمانه بها التبعية والمسئولية والجزاء . وكان ايمانه بفناء الروح مع الجسد عاملا هاما ، وحجة كبرى فى توكيد تلك الآراء .والمعرى فى أساس فلسفته مقدس للعقل ثائر على أى امام غير العقل نبيا كان أو إماما :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ... ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل ... مشيرا فى صبحه والمساء[1]

وقد أرشده عقله إلى صدق فكرة قدم المادة ، فالعالم من مادة قديمة خالدة ، ومن صور تختلف عليها ، وكل حى له نسب يتصل بالعناصر الأربعة : الهواء والنار والماء والتراب .

نرد إلى الأصول وكل حى ... له فى الأربع القدم انتساب
آليت لا ينفك جسمى فى أذى ... حتى يعود إلى قديم العنصر[2]

وهو حين يثبت قدم العناصر يؤكد لنا أن الانسان غريب حتى بعد موته وصيروته فى حيوات مادية أخرى :

فلا يمس فخارا من الفخر عائد ... إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة ... فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخرى وما درى ... فواها له بعد البلى يتغرب[3]

كذلك الزمان قديم كالمادة ، ولا شك أنه هنا وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية فى مبدإ قدم العناصر وقدم الزمان والمكان وكونهما غير متناهيين :

نزول كما زال آباؤنا ... ويبقى الزمان على ما ترى
قالوا لنا خالق قديم ... قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا زمان ... ولا مكان . . ألا فقولوا

---

(١) اللزوميات ١ / ٢٥٢ / ٣٧٦ ، ٢ / ١٤٣ ، ١٧٩ / ٢٠١ / ٢٥٢
(٢ – ٣) المصدر السابق .

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول [١]

والله الخالق العظيم صاحب السلطان وإن لم يمكن إدراكه فهو لا مثيل له :

انفرد الله بسلطانه فما له فى كل حال كفاء [٢]
ما خفيت قدرته عنكمو وهل لها عند ذى رشاد خفاء

وهو ليس من معشر النفاة ، رغم عجزه عن إدراك ذاته :

أثبت لى خالقا حكيما ولست من معشر نفاة
أما الاله فانى لست مدركه فاحذر لجيلك فوق الأرض سخاطا [٣]

لكن المعرى يعود فى فكرته ، ويدور فيها على أساس يونانى فى صورة إسلامية ؛ فالشهب متنقلة فى أفلاكها بقدرة إله غير متنقل ولا متحرك حسب منطق أرسطو ، لكن المعرى يؤكد لنا أن هذا الإله غير متحرك بحركة مادية بدليل أنه أثبتها للكواكب ونفاها عن الله الذى لا مثيل له :

أما ترى الشهب فى أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل [٤]
انفرد الله بسلطانه فماله فى كل حال كفاء
والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صارا [٥]

هذا بالرغم من أنه يفتى بكلام يؤذى فكره التنزيه لله سبحانه ، فالله عنده ضمن الزمان والمكان. ولو فرضنا أن العالم أزلى كان الزمان هو امتداد الحركة ، والمكان وهو امتداد الأقطار أزليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر [٦]

وإذن فالله ضمن الزمان والمكان :

زعمتموه بلا زمان ولا مكان . . ألا فقولوا . . .
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول . . . [٧]

(٤ – ٧) المصادر السابقة وأنظر أيضا اللزوميات ١ /٢٨٦ – ٤٢٦ ، ص ٢ /٢٢/١٧٧/١٧٩

وعلى هذا الأساس فالجنس البشرى فى هذا العالم الأزلى الزمان والمكان والمادة. وليس هناك أى ضرورة عقلية تلزمنا بأنه بدأ بآدم المعروف أقدم كل شيء (أو أأدم (آدم) كل شيء) بل قد يرقى فى القدم إلى الأزل :

خالق لا يشك فيه قديم … وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدم هذا … قبله آدم على إثر آدم [1]

ولهذا لم يؤمن بأن آدم الذى نعرفه شخص حقيقى :

قال قوم ولا أدين بما قالوه … ان ابن آدم كابن عرس
جهل الناس ما أبوه على … الدهر ولكنه مسمى بحرس
فى حديث رواه قوم لقوم … رهن طرس مستنسخ بعد طرس [2]

وآراؤه فى الجبر واضحة سافرة ، بل إنه قد نص فى لزومياته أنه لم يخالفها إلا مجبرا بقضاء لا يعرف كنهه ، وقد ذكر الجبر أكثر من مائتى مرة يثبته ويدافع عنه ، ويبسط سلطانه على حياة وأنفاس الأفراد والجماعات :

المرء يقدم دنياه على خطر … بالكره منه وينأى على سخط
يخيط إثما إلى إثم فيلبسه … كأن مفرقه بالشيب لم يخط [3]
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى … ولا حياتى فهل بعد تخيير [4]

وعلى هذا فلا مسئولية ولا تبعية ولا جزاء على الاطلاق :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا … ولكن بأمر سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كنت سامعا … أأنت على تغيير لونك قادر [5]
إن كان من فعل الكبائر مجبرا … فعقابه ظلم على ما يفعل
والله إذا خلق المعادن عالم … أن الحداد البيض منها تجعل [6]

وهو يؤكد هذا كثيرا رغم نهى الورع له :

قالت معاشر . . كل عاجز ضرع … ما للخلائق لا بطء ولا سرع
مدبرون فلا عتب اذا خطئوا … على المسيء ولا حمداً اذ برعوا

---

(١) المصدر السابق .

(٢ – ٦) المصادر السابقة اللزوميات .

وقد وجدت لهذا القول فى زمنى   شواهداً ونهانى دونه الورع[1]
لا تمدحن ولا تذمن امرأ   فينا فغير مقصر كمقصر[2]

أما مذهبه فى الروح فقد سلك فيه مذهبين : مذهب أفلاطون الذى يرى أن الروح جوهر قد أهبط إلى البدن كسجن ابتلاء ، لكنه عائد بعد الموت إلى العالم العقلى فمعذب أو منعم بما بقى فيه من تذكار ما كان له فى الحياة من اساءة وإحسان :

يا روح كم تحملين الجسم لاهية   أبليته فاطرحيه طالما لبسا[3]
كاناتك الجسم الذى هو صورة   لك فى الحياة فحاذرى أن تخدعى
لا فضل للقدح الذى استودعته   ضربا ولكن فضله للمودع[4]

أما المذهب الثانى فهو مذهب الماديين القدماء ، القائل بأن الروح نار تخمد مع الجسد :

دولاتكم شمعات يستضاء بها   فبادروها الى أن تطفأ الشمع
والنفس تفنى بأنفاس مكررة   وساطع النور أخبى نوره اللمع[5]

ومن المؤكد[6] أن المعرى يرتبط مذهبه بالاتجاه الثانى وهو الاتجاه المادى القديم لأنه لو كان يدين بالمذهب الأفلاطونى لما شك فى بعث الأرواح ولسهل عليه أن يؤلف بين هذا البعث الفلسفى وبين البعث الذى يراه الدين . كما خالف اتجاه أفلاطون والفلسفة المسيحية والاسلامية أيضاً فى توكيده أن الشر أصله الروح وأن الخير هو الجسم :

أعائبة جسدى روحه ؟   وما زال يخدم حتى ونى
وقد كلفته أعاجيبها   فطورا فرادى وطورا ثنا
ينافى ابن آدم طبع الغصون   فهاتيك أجنت وهذا جنى

ومن الواضح أن أسند الجناية إلى الروح والأثمار إلى الأغصان التى لا روح فيها وهذه الجناية لهاجذورها الأولى . ولقد كانت أكبر الجنايات هى جناية الوجود

(١ — ٥) المصادر السابقة .
(٦) طه حسين : ذكرى ٣٥٦

ذاته – تلك الجناية التى عاشتها وارتكبتها ومارستها البشرية على رغمها والتى كان منها وجود المعرى الذى جنى عليه أبوه وهو لهذا لن يجنى على أحد :

هذا ما جناه أبي على وما جنيت على أحد

لكن رغم هذه الجبرية التى يؤمن بها المعرى كل الايمان فهل كانت ممارسته للموت أمراً لا صلة له بارادته ؟ وهل كان ما أراده لنفسه من حرمان اختيارا أم جبرا قضى عليه به ؟ الواقع أنه كانت للمعرى ارادة صارمة رغم أنه يرى أن ذلك كان قضاء أيضا ولا حيلة له فيه .

ماذا نريد أن نقول ؟ نريد أن نقول إن المعرى لم يهجر الحياة لأنه كان أعمى ، ولم يتزوج لأنه كان عاجزا عن الزواج ، ولوشاء لما حرم على نفسه طيبات ما أحل الله ، بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلوهم لفعل فما حال العمى والصمم أو الكساح بين أحد وما يشتهى وفقا لأقوى ما فى طبيعته ، من أهواء أومن عقل وضمير. لكنها ارادة المعرى[1] وهى مفتاح شخصيته بمزاجها السوداوى ، واعتداده بنفسه وعقله ، وبتخليقه وتحليله لما فى أفكار عصره من آراء .

ولا شك أنه قد اجتمعت أسباب كثيرة كانت باتحادها هى شخصية المعرى بكل ما فيها من ارادة صارمة وشك قاتل وحيرة عنيفة ولا أدريه متأرجحة . ولو كان للمعرى سبب واحد أو سببان لما كان كذلك . . فليس كل من تربى فى بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادف من اللذات والشهوات ، أو بعاكف على الصوامع والمجالس[2] .

وليس كل عربى تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب المجون فان امرأ القيس وطرفة بن العبد ، والأعشى . . كل أولئك عرب فى الصميم من العروبة ، ومجونهم كمجون غيرهم من الشعراء من أبناء الأمم الأخرى فى عهود الوثنيات وعهود الأديان السماوية وليس كل أعمى عازفاً عن مواطن ومواقع الشبهات فان بشارا قد ولد ضريرا وكان أسبق وأسرع وأشره إلى الشبهات والشهوات من المبصرين . وليس كل ضعيف البنية معرضا عن حظوظ الأقوياء والأشداء إذ ربما كان ضعف البنية سببا إلى الافراط فى التماس تلك الحظوظ .

---

(١) المازنى : الشاعر / ١٥٧ . العقاد : رجعة ٣٠ / ٣٨

وليس كل متكبر مترفعا عن الطرب أو السرور أو الخروج عن مواضعات الوقار التى عاشها المعرى . لكن إذا اجتمعت كل هذه الأسباب فى شخص واحد كالمعرى فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أثقالها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعا كما وفق أبو العلاء بالتزام العزلة والقناعة والهروب من الدنيا وممارسة الموت بها شيئا فشيئا بكل هذه السلبيات المتراجعة القاتلة . . وكان من الممكن أن يكون المعرى كالخيام يحاول أن يحل آثار سورة لا أرديته وقلقه العقلى فى معاقرة ومنادمة بنت الحان أوفى معايشتها فكرا وشعرا كما عايشها الخيام . نقول كان من الممكن أن يكون المعرى فى هذا كالخيام وبخاصة وعنده أساس مخطط الشك فى الأديان السماوية ، كل الأديان ، والشك فى صلاحية الناس لأى خير كان حتى المتدينين ومدعى الزهادة فهم جميعا منافقون :

ما فيهـمو برولا ناسـك إلا إلى نفـع له يجـذب
توهمت يا مغرور أنك دين على يمين الله مالك دين

والسبب أنه :

يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مسـاء

ثم انهم :

وما يحجـون من دين ولا نسك وإنما ذاك إفراط من الأشر

ثم إن المعرى عنده الاستعداد والوظيفة لأنه لم يعرض عن اللذات عن عجز وإنما لأن خيار هذه اللذات قد بعد عنه :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عـنى خنسنه

ثم ن عنده الشك فى عقبى النفس ، وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب أو كما يقول :

قد زعموا الأفلاك يدركها البلى فان كان حقا فالنجاسة كالطهر

ويرى العقاد[1] أن المعرى لا يستبعد أن يكون قد تذوق الخمر فى أيام عزلته

(١) العقاد : رجعة — ٣٤

درءا لسورة عقله ولعله شربها فى بعض الأديرة التى كان يغشاها للدرس ومراجعة المذاهب بدليل قوله :

فلا تشربنهـــا ما حييت وإن تمل   إلى الغى فاشربهـــا بغـــير نديم

ثم هو يتمنى فتوى جديدة بالغاء النهى عن شربها. وهنا نلمس صراعا فى نفس ووجدان أبى العلاء حول هذه الأمنية العزيزة :

تمنيت أن الخمر حلت لنشـــوة   تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال

أيأتى نبى يجعـــل الخمـــر طلقة   فتحمل شيئا من همومى وأحزانى

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها   بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى

وإذا لم يكن فى هذا الدليل الكافى على أن أبا العلاء قد ذاق وشرب الخمر أو عاد اليها بعد أن لزم المحبسين فان فيه الدلالة القوية على اشتهائها و مغالبة نفسه عليها مغالبة ليست بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهواجس ضميره .

ونقول إذا كان قد شرب وامتنع أو إذا كان لم يشرب مطلقا فلأنه كان لا يرضى لنفسه الهرب من عقله أو الفرار منه لأنه كان مؤمنا به أكثر من ايمانه بأى رائد أو مرشد أو امام أو نبى على الاطلاق بل كاد ايمانه بعقله يفقده ايمانه بربه أو كاد ايمانه بعقله يعادل ايمانه بربه ، ولا نقول يفوقه حتى لا نظلمه أو نخرجه بغير عقل .

فاذا ذكرنا أنه كان يعيش فى عصر فتن واضطرابات وجزع على الأنفس والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد ، وتندر فيها العصمة ويكثر فيها التهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق من حضارة الروم ، وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها فى هذا العصر حضارات أخذت تنحدر فى طريق الزوال ــ إذا ذكرنا هذا ، وذكرنا أن هذا العصر قد عاش فيه عمر الخيام فى موقف عقلى يشبه تماما موقف المعرى كان لنا أن نلاحظ أن الخيام قد استغرق فى شرب الخمر حين فشل فى علاج مشكلة معرفته بأسرار الوجود ، وقنع باللحظة السكرى التى هو فيها ، وعمد إلى الكأس يغرق فيها شكوكه ، وأسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

لكن إذا كان من الممكن أن يكون المعرى كالخيام فهل يجوز أن يكون المعرى كأبى نواس؟ لا. . . وبالخط العريض.لأن أبا نواس لم تكن عنده شكوك ومشاكل وعقد المعرى أو الخيام ولأنه كان شارب خمر يشتهيها لمجرد الاشتهاء ، ويتصدى لعقاب الآخرة فى سبيلها. وقد أكد أنها حتى ولو كانت محرمة على دين محمد (صلى الله عليه وسلم) فسيشربها على دين المسيح بن مريم (عليه السلام) ثم إن الآخرة عنده حقيقة ثابتة مفروغ منها ، وليست قضية معقدة كما هى عند المعرى والخيام تحتاج إلى حل وجلاء .

لكن لم لم يسلك المعرى طريق الخيام ، وقد عاش مشاكله ومشاكل عصره الفكرية على الاطلاق؟ هل لو كان المعرى مبصرا لسلك سلوكه ؟ ربما لو كان المعرى مبصرا لدرس فيما درس شئون الدنيا فشغلته رسالات أخرى لمناصب الفتيا والقضاء ، وبخاصة وقد عاش فى بيئة علمية دينية . لكن يظهر لنا أنه اضطر إلى الزهد عجزا ، على كراهية وجبر كما يقول :

وقال الفارسون حليف زهـــد ... وأخطـــأت الظنون بما فرسنه
ورضت صعاب آمالى فكانت ... خيولا فى مراتعهـــا شمســـنه
ولم أعـــرض عن اللذات إلا ... لأن خـــيارها عـــنى خنســـنه
ولم أر فى جلاس الناس خيرا ... فمن لى بالنـــوافر إن كنســـنه

وعلى هذا فليس أبو العلاء زاهدا، ولكنه عاجز عن تحقيق آماله.فلقد راض هذه الآمال فامتنعت عليه ، ولم تذعن له ، وأدركه اليأس من انقيادها فخلى بينها وبين إعراضها ، وهاجر بعيدا عن لذاته لا رغبة عنها بل قصوراً وعجزا . هى هى التى أفلتت منه فلم يستطع اللحاق بركبها فآثر على رغمه القعود على سعى لا غناء فيه ولا جدوى .

وهو حين آثر السجن والقعود لم يطق أن يرى أحدا من البشر ، لأنه كان يرى الشر فى مجالستهم وربما كان يحس السخرية منهم به ، بما لا يرضى له عقله وإباؤه ؛ نهم يطمحون إلى ما لا يطمح اليه ، وينالون ما لا يستطيع ، وما لم يستطع هو نواله ويسعون إلى غير مسعاه ، ثم هم يختصمون فيما لا يرى فيه موضعا لحرب أو خصام ؛

فليعرض إذن عنهم ، وليصدر حكما لا مرد له على نفسه بالسجن مدى الحياة وممارسة الموت مدى الحياة أيضا . أبو العلاء إذن ساخط ثائرعلى نفسه وعلى الدنيا لأنهما أعجزتاه، لا لأنه زهد فى مطالبهماوحاجاتهما، ومن هنا كان مفتاح ثورته العارمة وينبوع غضبه على حظه ، حتى إنه أكد أنه ليس فى الامكان أسوأ مما كان ، ووصف فوضى تقسيم الحظوظ بفوضى المصادفات وعشوائية الأقدار ، وربط هذا بأصل الشر فى الكون من أيام قابيل وهابيل وزواج ابنى آدم وحواء بابنتيهما . ومن هنا أعلن حكمه الثانى بأنه لن يكرر جناية آدم أو جناية آبائه فى ايجاده ، ثم ألحق بهما رأيه بأنه لا حل لدرء الشقاء وإيقاف ركبه العارم إلا بقطع النسل بعدم الزواج .

وهو حين طبق ما طبق على نفسه أراد أن يكون هذا مبدأ لكل الناس انتقاما من الناس فى نفسه ، وانتقاما عادلا من نفسه فى الناس، وقد حسب أنه بهذا حل مشكلة الوجود والحياة والأحياء . . ومن هنا لم يرد له عقله أو وقار عقله أن يذوب أو يخف فى جرعة خمر من كأس :

ومن يفتقد لبه ساعة	فقد بات فيها بخطب فدح
قبيح بمن عد بعض البحار	تغريقه نفسه فى قدح
وهيهات لوحلت لما كنت شاربا	مخففة فى الحلم كفة ميزانى

انه هنا رغم سلبيته يؤكد عرامة إرادته فى أنه أقوى مريد رغم ضعفه وإيمانه الصارم بالجبرية المطلقة :

مهجتى ضد يحاربنى	أنا منى كيف أحترس؟

وهو لهذا أصر على أن يواجه حقائقه الفلسفية فيمعن فى تشريحها وتحليلها والغوص فيما وراءها، حتى إذا رأى عنفا جارحا لعقيدة الجماهير سترها بستار التقية أحيانا أوسترها بستر الاستغفار وطلب العفو أحيانا أخرى، فى تناقض بينه وبين مخطط فلسفته العقلية الأساسية .

هو مؤمن بالله ، لكنه غير مؤمن بنظام كونه وغير مؤمن بأن هناك صلة تامة بين الله وكائناته، وإذن فهو فى حاجة إلى أن يفهم ويتعقل حكمة الله لأنه عاجز ، ولأن

عقله عاجز عن فهم هذه الحكمة . . إذن فهو غير مطمئن إلى الشرائع والنبوات لاختلافها فيما زعم وتناقضها فيما يتوهم واضطرابها فيما يظن . . وهو منكر للعلل الغائية ، مثبت أن العالم كما هو ، لم يخلق لأية غاية من الغايات التى نعرفها نحن ، ونرى أن الأشياء قد خلقت لتحقيقها . لكنه وهو ينكر العلل الغائية يعود فيقول إن هناك سرا مجهولا أو حكمة لا يفهمها العقل أو لم يحط بها علما ، ليصل من هذا إلى توكيد غرور الانسان فى ظنه أن كل شيء إنما خلق لأجله فكل كائن حى له فى رأى المعرى حق الحياة ، وليس للانسان كائنا من كان أى حق فى العدوان عليه فهو لم يخلق من أجله . وإنما خلق كل موجود وله الحق الذاتى فى الوجود ، لكن لا أهمية لأحد عند الله أو لا أهمية لبنى حواء كما يسخر أبو العلاء :

تورعــوا يا بنى حواء عن كذب ... فما لكم عند رب صاغكم خطر[1]

وقد حير المعرى نفسه كما حير الناس جميعا ، وكما حيره عقله . لكنه فى الواقع وإن تناقض فى بعض الأحيان، فان آراءه الجارحة الثائرة واضحة، فيها من صدق نفسه أكثر من آرائه المستغفرة المستسلمة ، تلك التى تتهافت افتعالا أو تضعف أداءاً من آرائه العاصفة .

وبالرغم من ثورته على العقل — كما سنرى — فانه لم يكفر به ولم يفقد ذرة من إيمانه به ، ولهذا أصر على الصحو والصحو القاتل ولم يغرقه فى جرعة كأس أو استغراقة صوفى ، قد كان حين يتأزم به الموقف يعلن لا أدريته لا كمذهب ثابت بل كوقفة مؤقتة، ريثما يعود إلى قوته العقلية المشتتة ليضرب ضربة جديدة يسترها أحيانا بالاستسلام لحكمة الله، استسلام المتمرد ، لا استسلام الموقن المطمئن. وقد حدث لهذا له أحيانا وبخاصة عند ما أحس بقرب نهايته وعندئذ أحس بالرهبة من قدومه على ساحة الجبار[2] .

---

(١) اللزوميات ١ / ٣١٩ ، انظر الدكتورة عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ، ٧٨ / ١٩٤٤ المعارف القاهرة .

(٢) المصدر السابق ، مقدمة الغفران (ع)

ولعل المعرى فى لحظة أو لحظات من ثورته الطاغية فكر فى الانتحار على طريقته الهادئة وذلك بالاضراب التام عن الشرب والطعام، كما تدلنا على ذلك الفصول والغايات فى قوله (لو أمنت التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب لكنما أرهب غوائل السبيل) ، وفى نص آخر لدى الغفران (قد كدت ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار)[1] .

ولا شك أن المعرى فى رسالة الغفران قد صور ما حرم منه فى حياته فى سخرية بالغة ، فقد صور فيها اللذائذ والمتع : اللحوم والخمر والنساء والشهوات المصورة المشخصة، والأحلام التى صنعتها العزلة والحرمان، كما صور جنة السجين المكبوت فى حركات الصيد والغناء والرقص والدعابة والصياح والعربدة وحركات الانفعال من تعجب وحنين واشفاق وحذر وإغراء وقسوة وذعر وغيظ وخصام وتنابز وتعريض وشماتة واعتراض[2] . ولا شك أن الرحمة التى دعا اليها هى السبب فى تصويره الجحيم بصورة بسيطة ويظهر ذلك فى إدخاله الجنة كثيرا من أهل الفترة كالنابغة الذبيانى ، وزهير ابن أبى سلمى ، وإدخاله النار بشار ابن برد . المهم أن سخريته لاذعة فى رسالة الغفران كسخريته فى اللزوميات بالنسبة للمعتقدات الدينية ، تلك السخرية التى تتضمنها إيماءات واعتراضات على الخالق سبحانه وتعالى . وقد أكد نيكلسون[2] أن السبب المباشر فى السمعة السيئة لرسالة الغفران أنه ليس من المستطاع إنكار أن المعرى صور جنة المؤمنين (صالونا فخما عامرا ببوهيميين خالدين ، ولكن غير أخلاقيين .

It Canntot be denied that Abu-l'Alà depicted The paradise of the faithful, as a glorified sfalon, haunted by immortal, but immoral Bohemians

وقد بدأ المعرى ثورته فى صورة إيجابية فلما لم يستطع ضرب المؤامرات والخيانات عزل نفسه بنفسه فى عصر كان الحكم فيه فى مصر غيره فى بغداد غيره فى الشام غيره فى الحجاز غيره فى المغرب حتى قال المعرى فى تاريخ هذه الحقبة الضالة :

---

(١) الدكتور عائشة عبد الرحمن الغفران تحقيق : ١٠٧ / ١٠٨ / ١٦٣

(٢) نيكلسون : Nicholson : A Literary Hist. of The Arabs p. 327 London 1932

إن العراق وإن الشام من زمن صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

إلى أين إذن ؟ ألى الحجاز ، ؟ ألى الشام ؟ ألى اليمن ؟

أما الحجاز فما يرجى المقام به لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشابه القوم شدت منهم الحجز
إن الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة إلا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويثرب الآن تثريب على الفهم

ثم ماذا ؟ لا خير على الاطلاق. فالأمراء يسوسون الأمور بغير عقل وقد ظلموا الرعايا واستجازوا كيدهم وعدوا مصالحهم ، وهم في واقع الأمر أجراؤهم .

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة ، وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة

ماذا يفعل المعرى إذن ؟ لا شيء غير أن يعتزل ليعكس في عزلته صورة عصره وليقول كلمته عن أصحاب المذاهب من الرؤساء والأئمة والفقهاء الأعلام :

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء .

ومن هؤلاء الرؤساء من :

طلب الحسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل في النفوس ذهولها

ثم ماذا ؟ ثم يحكم المعرى على عصره وغير عصره وعلى البشرية جمعاء بأنه لا يوجد أظلم من بني الدنيا اللئام ، أبناء أمنا اللئيمة :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

لقد أصدر عقل المعرى حكمه على كل شيء بالفساد الممتد جذوره إلى الماضي السحيق في الطينة البشرية الأولى ورأى بعقله أو رأى له عقله أن الحقائق الدينية

باطلة لتناقضها وتضاربها، وأن جميع الديانات لهذا لا معنى لها، إلاالاساءة إلى الناس، وبذر بذور الأحقاد والعداوات بينهم ، وشكك عقله له أمور ما بعد الموت من بعث وجزاء ، حتى قضى عقله بأن الارادة الكلية عمياء أو غير موجودة ، وأن العناية الآلهية مجرد وهم، وهي لوكانت موجودة كما يقول المعرى،لعنيت بالعدل والنظام فى هذا العالم، فلم يسيطر فيه الشر والبغى والظلم . فما هوهذا العقل الذى لاذ به المعرى ؟ لا شك أنه هو وعقله وحده بذاته وبتجربته المحددة ولو قد لاذ المعرى بالعقل الكلى لما قال ما قال ولما سلك ما سلك ، ولعبر منطقة الشك القاتل إلى جسر اليقين بالانتماء إلى جوهر الكون ، كما تقول الرواقية أو إلى الله كما تقول الديانات السماوية . لكن المعرى فى الواقع لجأ إلى عقل مقيد بما هو مادى محسوس . . لجأ إلى العقل التجريبى الذى يمكن أن يصلح مقياسا للحكم على المحسوسات والماديات ، هذا العقل الذى لم يميز بين ما هو مادى وبين ما هو فكرى أو الهى ، ومن هنا ظن أو اعتقد أن مالا نحسه يجوز إنكاره ، أو يجوز اليقين فى عدمه :

قد عشت عمرا طويلا ما علمت به ... حسا يحس لجنى ولا ملك [1]

ولما ظن أن عيسى جاء ليبطل دين موسى ، وأن محمدا نسخ شرعة عيسى ، أكد أن الاختلاف دليل الاضطراب والتناقض ، وحكم لهذا ببطلان الديانات ماكان منها أو ما يقال إنه سيجىء ، طبقا للنظرية الرافضة بعدم انقطاع الوحى :

أتى عيسى فأبطــل ديــن موسى ... وجــاء محمد بصــلاة خمــس
وقيل يجىء ديــن بعــد هــذا ... فضاع الناس بين غــد وأمــس
وقالوا لا نبى بعــد هــذا ... فضــاع الناس بين غــد وأمس
إذا قلت المحــال رفعت صــوتى ... وإن قلت اليقين أطلت همسى [2]
ولا تحســب مقال الرسل حقــا ... ولكــن قــول زور ســطروه[3]
وكان الناس فى عيش رغــيد ... فجــاءوا بالمحــال فكــدروه
تلوا باطــلا وجلوا صارمــا ... وقالــوا صــدقنا فقلنا نعــم [4]
لحــى الله قوما إذا جئتهم ... بصدق الأحــاديث قالوا كفر [5]

(١ — ٥) المصادر السابقة للزوميات وأنظر أيضا جـ ١ / ٣٧٦ / ٤٢٦ / ٢٥٢ / جـ ٢ / ١٧٧ — ١٨٠

دين كفر وأنباء تقال وفرقان ينص وتوراة وانجيل .
فى كل جيل أبا طيل يدان بها فهل تفرد يوما بالهدىجيل ؟ [1]
عقول تستخف بها سطور ولا يدرى الفتى لمن الثبور
كتاب محمد ، وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور [2]
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له [3]

ولما كان عقل المعرى هو نبيه، فقد نصح الناس جميعا ، بنبذ كل شىء , ماعدا العقل ، القسمة العادلة المشتركة بين الناس أجمعين لو أنصف الناس عقولهم :

أيها الغر إن خصصت بعقل فأسألنه فكل عقل نبى

لما كان العقل هو النبى الوحيد فلا داعى لاتباع أية شريعة ولا الاقتداء بأى نبى سوى العقل الذى أبطل ما أوجبته تلك الشرائع :

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شىء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه

وعلى هذا الأساس :

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
أفيقوا أفيقوا ياغواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء
إن الشرائع ألقت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض للعرب إلا بأحكام النبوات ؟

ثم ماذا ؟ كل الأديان فى الباطل سواء . . . ولهذا :

عجبت لكسرى وأتباعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام ويظلم حيا ولا ينتصر ؟
وقول اليهود إله يحب رشاش الدماء وريح القتر

(١ — ٣) المصادر السابقة

وقـــوم أتوا من أقاصى البـــلاد لرمى الجمـــار ولثم الحجـــر
فوا عجـــبا من مقـــالاتهم أيعمـــى عن الحـــق كل البشر ؟ [1]

ومن الملاحظ أنه يطعن فى صور العبادات وأركان الدين، وقد طعن فى النظام الاسلامى ركن الحج فى الطواف ورمى الجمار ولثم الحجر الأسود وتساءل كيف يجىء قوم من أقاصى الدنيا كل عام لهذه الخرافات ؟ :

وما حجـــى إلى أحجار بيـــت كئوس الخمر تشرب فى ذراها

وليس هذا فقط بالنسبة للاسلام بل أنه ليعيب على الاسلام فى نظام الميراث هذه القسمة الجائرة فيما يظن :

والأم بالسدس عادت وهى أرأف من بنت لها النصف أو عرس لها الربع [2]

وليس هذا فقط بل يقول عن نظام الدية :

يد بخمس مئين عسجدا وديـــت ما بالها قطعت فى ربـــع دينـــار
تناقض مالنا إلا الســـكوت لـــه وأن نعوذ بمولانـــا من النـــار [3]

وقد رد عليه فيمن رد ياقوت الحموى [4] فى هذه النقطة الأخيرة حين قال مكفرا له (كأن المعرى حمار لا يفقه شيئا ، وإلا فالمراد بهذا واضح لو كانت اليد لا تقطع إلا فى سرقة خمسمائة دينار ، لكثر سرقة ما دونها طمعا فى النجاة ، ولو كانت اليد تؤدى بربع دينار لكثر من يقطعها ويؤدى ربع دينار دية عنها . . نعوذ بالله من الضلال) واذا كان المعرى لم يتناقض ولم تنتكس أحكامه فى الجوانب الاجتماعية حين قال . . . . مثلا عن الوعاظ المنافقين الذين يأتون ما ينكرون ويقولون مالا يفعلون :

رويـــدك قد غررت وأنـــت حر بصـــاحب حيـــلة يعـــظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صـــبحـــا ويشربهـــا على عمـــد مســـاء

وحين قال عن القضاة الظالمين والفقهاء المموهين :

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا فلم يمض أحكاما كحكم ســـدوم

(١ — ٣) المصادر السابقة .

(٤) المصدر السابق وأنظر ياقوت معجم الأدباء .

وقالوا فقـــيه ، والفقـــيه ممـــوه وحـــلف جدال والكـــلام كلوم

وحين قال عن المنجمين الكاذبين فى كل حال :

سـألت منجمها عن الطفل الذى فى المهد كم هو عائش من دهـره
فأجابها مائة ليأخذ درهمـا وأتى الحمـام وليدهـا فى شهره

نقول إذا كان المعرى قد نجح فى هذا المجال فانه لم ينجح فى نقده العقلى لأصول الدين ، لأن أصول الدين ليس مجالها مجال الأمور الاجتماعية والأخلاقية التى يمكن أن يدخل نقدها فى اختصاص العقل والعقل وحده .

ومن هنا انزلق المعرى فحكم على الأديان بأنها ظواهر اجتماعية كما ستقول بعده بقرون مدرسة أوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) الوضعية وروادها الكبار أمثال دور كايم (١٨٥٨ — ١٩١٧ م . ولو قال المعرى كما قال شمعان السامرى (توفى بعد وفاة المسيح بقليل) : ان الأديان واحدة والأنبياء شخص واحد يمر عبر الزمن بأسماء مختلفات لأراح نفسه فى فلسفة موحدة ، ولو قال كما قال ابن عربى (٦٣٨ هـ) بعده بوحدة الأديان عن طريق وحدة الوجود لأراح قلقه ، لكن المعرى لم يتجاوز نظام المادة ولم ينفذ من الأغراض المتباينة إلى الجوهر الواحد ، لأنه خلط بين النظام المادى والنظام العقلى ولأنه اعتقد أساسا أن الروح مادة أو أنها نار تخمد مع الجسد . وما دامت الأرواح تفنى مع الجسد فلا بعث لأنه لا دليل إلا على الفناء فقط :

خذ المرآة واسـتخبر نجـوما تمر بمطعم الأرى المشـور
تـدل على الحمـام بلا ارتياب ولكن لا تـدل على النشـور(٤)
قلمت أظفارى تارات وماجسدى إلا كذاك متى ما فارق الروحا(٥)
لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا بانت عن الجسد(٦)

(١) الدكتور أحمد أمين مهرجان أبى العلاء ٥٢ — ٥٣
(٢) الدكتور محمود قاسم : مقدمة كتاب علم الاجتماع الدينى لباستيد ١ — ٨
(٣) دكتور . عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية — ٥
(٤ — ٦) المصادر السابقة .

ثم ماذا ؟ ثم يقول محاججا الله سبحانه مؤكدا أنه ليس فى الامكان أسوأ مما كان :

ريب الزمان مفـــرق الألفين فاحكم إلهى بين ذاك وبينى
أنهيت عن قتل النفوس تعمدا وبعثت أنت لقتلهـــا ملكين
وزعمت أن لهـــا معـــادا ثانيا ماكان أغناهـــا عن الحـــالين (١)

وما دام الجبر كلمة القضاء والقدر المنبثه فى كل أمر ومع كل نفس ونفس ، وبكل نبضة وخفقة ، فلا مسئولية ولا تبعية ولاجزاء حتى ولو كان هناك بعث :

تحطمنا الأيـــام حـــتى كأننـــا زجاج ولكن لا يعاد له ســـبك (٢)
وما فسدت أخلاقـــنا باختيـــارنا ولكن بأمر ســـببته المقـــادر (٣)
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تخيير ؟ (٤)

ثم ماذا ياأبها العلاء ؟ وإذا كان الأمر كذلك وإذا صح البعث بأية صورة فان محاسبة مرتكب الكبيرة أو معاقبته ظلم وأى ظلم ؟

إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقـــابه ظلم على ما يفعـــل
والله إذ خلق المعـــادن عـــالم أن الحـــداد البيض منها تجعل(٥)

وإذن فلا لوم على الانسان ،وإنما اللوم . . . كما يزعم على الخالق سبحانه :

جبلة بالفســـاد واشـــجة إن لامهـــا المرء لام جـــابلها(٦)

ويرى المعرى أنه قد جدف تجديفا ربما كان فى نظر عقله أمرا عاديا ، لكنه فى نظر الدين أمرا بالغا جد الخطورة — يرى المعرى هذا ، فيعلن لا أدريته من جديد .

أنا أعمى فكيف أهدى إلى المنهج والناس كلهم عميان(٧)
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادى أن ظن وأحدسا(٨)
وبصـــير الأقوام مثلى أعمـــى فهلموا فى حندس نتصـــادم(٩)

(١ — ٤) المصادر السابقة

(٥ — ٩) المصادر السابقة وأوظر أيضا ص ١ / ٣٩٢ / ٤٠٠

لكنه يدرك أنه سيرحل بلا دين ولا دنيا :

رحلت فلا دنيـــا ولا دين نلته   وما أوبتى إلا السفاهة والحمق[1]

ولهذا فانه حين يحس أن رجليه قد جنحت به إلى درجات القبر يقول مستغفرا :

خلنى يا أخى أستغفر الله فلم يبق إلا الذماء[2]

إذا كنت من فرط السفاه معطلا   فيا جاحد اشهد أننى غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجـــلا   وأزعم أن الأمر فى يد واحـــد
فانى رأيت الجاحدين تقـــودهم   ندامتهم عند الأكف اللواحد[3]

وحتى لو كانت هناك عقوبة فان ظنون المعرى بالله حسنة وهو راض بحكمه حتى لو أدخله النار ألف سنة . . فهل يسخر المعرى ؟ أم يفتعل ؟ أم يبتهل ويستسلم على عجز أيضا ؟

ليفعـــل الدهـــر ما يهم بـــه   إن ظنـــونى بخالقى حســـنة
لا تيأس النفـــس من تفضـــله   ولو أقامـــت فى النار ألف سنة[4]

وقد جمع المعرى بين فكرتين متناقضتين فى مذهبه العقلى المتأرجح بين اليقين الحائر واللاأدرية الحائرة ، فعلى الرغم من أنه يبدو جبريا ممعنا فى الجبرية ، وعلى الرغم من أنه يؤمن بأن أقوى ما فى الانسان بما هو إنسان أهواؤه الطبيعية ، لا ضميره الفطرى بدليل نزوعه إلى الشر فى جبلته الأود :

وجبلة الناس الفساد فضل   من يسمو بحكمته إلى تهذيبها
من وسخ صـــاغ الفتى ربـــه   فلا يقـــولن توســـخت . . .

ـــ رغم هذا فانه يؤمن بقوة الضمير الفطرية التى يمكنها أحيانا أن تتغلب على طبيعة الأهواء البشرية فيصبح الضمير أقوى ما فى الانسان لا أهواءه ، ومن هنا يكون السلوك الحسن نتيجة الصراع بين الأسمى والأدنى ،بين الأسمى بقيادة الضمير

(١ ـــ ٤) المصادر السابقة وأنظر أيضا ص ١ / ٣٩٢ / ٤٠٠

والأدنى بقيادة الأهواء ، فاذا تغلب الضمير كان الفعل الخير مجردا لذات الخير أما إذا تغلبت الأهواء كان فعل الخير للمنفعة الشخصية أو للمصلحة الذاتية .

وقد خرج المعرى من هذه النقطة برأى نجده فى فلسفة أرسطو قديما وكانط حديثا. هذا الرأى هو أن اللذة التى يجدها الانسان فى الخير ليست غاية الفعل ولا هى مبدأ من مبادئه لأنها تنقلب إلى ألم ، وقد تولد لذة لحظة شقاء عمر يملؤه المرض والندم والعار . والذين يدينون بالمذهب الطبيعى فى جانبه الغريزى الذى يرى أن أقوى ما فى الانسان غرائزه لا عقله أو فطرته — هؤلاء لا يعرفون لأنفسهم هناء لأن اللذة كما يقول المعرى متغيرة وهى لن تخلد صعلوكا ولا ملكا :

إن ترسل النفس فى اللذات صاحبها فما تخلدن صعلوكا ولا ملكا

وكما أن اللذة ليست غاية الفعل فكذلك المنفعة لأنها مشروطة وهنا مدخل فلسفة كانط، الذى نجده عند المعرى فى فكرته، التى جمعت بين رأى أرسطو وكانط فى فعل الخير والواجب . وصحيح أننا كما يقول المعرى قد نفعل الخير لأنه يجر علينا نفعا فنفعله لأن له ثمرة لذت فى المطعم وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت فى المنظر والمتوسم وجاوزت فى العظم . ونفعله لحسنه فى المسامع ، ونفعله لنكسب ثوابا عند الله) [1] لكن الخير والمنفعة أمران مختلفان ، وإننا لنجد المنفعة فى لذة الدنيا قد وفرت للأشرار أكثر مما وفرت لأولى الفضل الغرباء ، وكثيرا ما تولدت المنفعة من شر :

ولا لون للماء فيما يقال ولكن تلونه بالأوانى
وفى كل شر دعتة الخطوب شواسع منفعة أو دوانى
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير إلا نفعاً ولما ولد الشر إلا مضرة ، فالخير إذن ليس فى اللذة ، والخير إذن ليس فى المنفعة بل هو مستقل عنهما .

وإذن يجب أن يطلب الخير لذاته لا لنفعه ، والأخلاق فى نظره لا تفعل رغبة أو رهبة بل هى ذاتية مثالية ، والعقل فى العاقل إنما يفعل الخير لأنه خير ،

---

(١) المعرى الفصول والغايات ١٥ — ٢٠

ولأنه جميل ، ويبتعد عن الشر لأنه شر ولأنه قبيح ، والعاقل إذن هو الذى يفعل الواجب للواجب كما سيفلسف ذلك على عمق كانط . يقول المعرى :

فلتفعل النفس الجميـــل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

ويقول لنفسه ولنفس كل إنسان عاقل :

توخى جميلا واحداً فعليه لحسنه ولا تحكمى أن المليك به يجزى

ثم ماذا ؟

فنزه جميـــلا جئته من جزاية تؤمـل أو ربح كأنك تاجـــر

ويخرج المعرى من هذا ليؤكد أن الخير ليس خيراً حقيقياً إلا إذا كان خاضعا لحكم العقل وهو جالب الرحمة عند المسير والارساء :

فاذا ما أطعته جلب الرحمة عنـد المسـير والارساء

وعلى هذا الأساس لو اتبع الانسان عقله لما لقى فى دنياه إلا الخير . وهنا تسائل المعرى الذى اتبع عقله فجلب له الضر والشقاء وأكد له أن الحل الوحيد لمشكلة الوجود هو ممارسة الموت . . نسائل المعرى كيف يحل لنا هذا التناقض الواضح فنجد أن المعرى لا يعدم الجواب حين يؤكد لنا أن العقل يولد الحزن والألم وأن الجهل يولد الرضا والقناعة ، كما يؤكد أن الله وله علو المكان قد جعل الشر غريزة فى الحيوان ، فأبعدهم من الشرور أقل حظا من المعقول هذا يدل على أن ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ويزيد شعوره بالألم . ولا شك أن المعرى سابق لشوبنهاور (Schopenhauer)[1] (١٧٨٨ – ١٨٦٠) فى اعتقاده

---

(١) يرى شوبنهور كما رأى المعرى أن الحياة شر كلها بشهادة التجربة وأنه كلما عقل زكا الانسان اشتدت آلامه . والعجيب أن شوبنهاور حل أشكال الشعور بالألم بالتحرر من الارادة وذلك حين نستغرق فى التأمل الفنى فيزول الشعور بالفردية ويزول الألم أو حين يتملكنا الاعتقاد بزيف الفردية فتؤثر عليها الغيرية . والفن والأخلاق اذن هما الوسيلتان للتحرر من الشعور بالوجود وبالألم . والعجيب أن شوبنهور وصل فى نهاية مذهبه إلى توكيد أن الارادة الكلية المهيمنة على الكون كلها عمياء دون أن يفسر لنا كيف تخرج الأشياء المنظمة من الارادة العمياء وكيف يخرج العقل من اللاعقل ، وكيف يمكن أن نتحرر من الارادة الكلية وهو أمر يحتاج إلى ارادة تؤكدها ومن أين تأتى إذن ارادة انكار ارادة الحياة ؟؟؟ (انظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة (٢٨٠ – ٢٨١) وانظر لشوبنهور العالم ارادة وتصور ١٨١٩ الارادة فى الطبيعة ١٨٣٦ المشكلتان الرئيسيتان فى فلسفة الأخلاق ١٨٤١

أن للشعور بالألم درجات فالجماد لا يحس بالألم والنبات يكاد يكون عديم الحس . أما الحيوان فان درجات شعوره متفاوتة فكلما كان أرقى ، كان شعوره بالألم أشد ، وكلما كان أدنى شعوره بالألم أخف .

ومن هنا نجد أن المعرفة عند المعرى مدخل الشقاء ومن الجهل إذن أن يطلب الانسان العلم مادام العلم كذلك وإذن فالخسران المبين للعلماء أمثال أبى العلاء :

إذا علمى الأشياء جر مضرة ... إلى فان الجهل أن أطلب العلما
فهم الناس كالجهول وما يظفر ... إلا بالحسرة الفهماء
إذا كان علم الناس ليس بنافع ... ولا دافع فالخسر للعلماء

لكن ماذا فعل المعرى فى هذا الاشكال العقلى ؟ لقد حل شونهور نفس الاشكال بالتضحية حتى بالعقيدة[1] حين دعا إلى تحطيم الارادة الانسانية والتحرر من الارادة الكلية العمياء فماذا فعل المعرى ؟ الواقع أنه عاش يمارس الموت فى سجنه الذى أراده وحرمانه الذى ارتضاه وعاش يدعو إلى قطع النسل بادئا بنفسه مباركا دعوته للبشرية لتفعل فعله كحل نهائى حاسم لمشكلة الشر والألم والحياة . ويبدو واضحا أن المعرى قد قتل فى نفسه طبيعته الغريزية أقوى ما فى الانسان كما يقول أحيانا أو قتل بمعنى أدق إرادة الحياة فيه فشاركه إلى حد كبير « شوبنهور » على طريقته هو ، وإن لم يشاركه فى الدعوة إلى التحرر من الإرادة الكلية العمياء على وجه العموم .

لقد سار المعرى فى ركب أفلاطون أكثر مما سار فى ركب «شوبنهور» فأكد أنه لاخلاص للنفس من سجنها الجسدى المحتشد بالشرور إلا بممارسة الموت حتى تحين ساعة الخلاص الأكبر من قيد الجسد وفيه يكون التحرر الأكبر والسعادة الكبرى . لكن المعرى عاد يتساءل لماذا فعل الله هكذا بالنفس ؟ لماذا أهبطها إلى الجسم ، لماذا سجنها فى قفصه ، ولماذا كتب عليها الشقاء والألم والعذاب ؟

ويعود المعرى من رحله الأخيرة أشد ما يكون جراحاً وآلا ما لأنه لم يجد من عقله ما يطمئنه وإذن فليستسلم وليستعن بنور الله ؟ لكن ما الطريق إليه ؟ هل العقل مرة ثانية ، وثالثة وأخيرة وإلى الأبد : العقل العقل العقل ؟ ؟ ! ! !

---

(١) المرجع السابق .

لا حل إلا بممارسة المثل العليا من وراء ممارسة الموت . وقد وجد المعرى أن أقوى مبادئ المثل العليا مبدأ الرحمة ، وليس بالناس فقط بل بالنسبة لكل الكائنات ، وهنا يدخل المعرى فى المنهج الذى سلكه شوبنهاور وغيره فى دعوتهم إلى الغيرية كحل لإشكال الفردية .

والمعرى قد أعلن من قديم رفض هذه الفردية حتى إنه لو سمح له وحده بدخول الجنة من دون الناس لرفضها :

ولو أنى حبيت الخلد فـرداً لمـا أحببت فى الخلد انفراداً

لكنه قد اعتزل الناس فى الدنيا فكيف يكره الوحدة حتى فى الجنان ويرفض الجنان من أجل الوحدة ، لو أتيح له أن يكون فيها وحده ، ثم ينقض دعوته فى الدنيا بالعزل والسجن بعيداً عن الناس ؟ وعن الحياة ؟

الواقع أنه اعتزل الدنيا والناس لأنه وجد أن مذهبه لن يتحقق فى الدنيا وفى الناس ، وهو فى الوقت نفسه قد انتقم من نفسه فى الناس ومن الناس فى نفسه كصورة عاقلة متعقلة للحقيقة الغريبة ، ثم رسم خطته ومارسها على أساس مخطط الرحمة ، ذلك المخطط الذى يؤكد أن تحرير برغوث حقير تافه أفضل من درهم تعطيه لمحتاج بائس :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر . . . . من درهم تعطيه محتاجا

وقد بدأ مخططه الكبير بقوله الذى أكد فيه مذهبه :

بنى الدهر مهلا إن ذممت فعالكم فانى بنفسى لا محـالة أبدأ

ومن الواضح أن شعوره بالرحمة أقوى مظاهر تشاؤميته القاتلة لأنه حكم على الناس بأن جبلتهم فاسدة لكنها غير ملومة . ثم عاد فذمهم وذم نفسه فيهم ، ثم وجد أنه لاحل للاشكال إلا بالانتقام من نفسه بوأد طبيعتها ودعا الناس إلى ذلك ولما لم يجد صدى على الاطلاق لدعوته حكم على نفسه بسجن آخر غير سجنها الجسدى ، وأعلن رسالته من السجن بأنها الرحمة والرحمة لكل الكائنات ولو أنها جاءت عن طريق قتل هذه النفس بوأد طبيعتها وإرادتها .

هذا هو ما فعله المعرى فماذا فعل صاحبه الخيام من بعده ، وقد خاض غمار اللجج العارمة وعاش فكره مثله يهاجم المذاهب والأديان ويؤكد الجبرية ملغيا

من ورائها المسئولية والتبعية الاخلاقية ، منكرا من وراء ذلك مثله فكرة الجزاء والحساب متطلعا مثله إلى دين جديد من وراء العقل دين يسمو على المذاهب والأديان ويرتفع إلى مستوى المثل العليا الذى حلم به وتمناه . . ماذا فعل الخيام ؟

ثالثاً : فكر الخيام وفلسفته : ـ

ولد الخيام فى شيخوخة المعرى الذى كان صيته قد طبق الآفاق . فقد ولد عام ٤٢٧ هـ أو ٤٣٧ هـ وتوفى عام ٥١٧ هـ وإذن فالخيام قد ولد والمعرى فى سن الرابعة والسبعين وكان الخيام فى سن الثانية عشرة من عمره أو الثانية والعشرين عند ما توفى المعرى عام ٤٤٩ هـ . وأهم تراث الخيام رباعياته التى ترجمها الكثيرون من العلماء والشعراء فى الشرق والغرب[١] وقد كان الخيام عالماً رياضياً فلكياً على أساس علمى[٢] وهو الذى وضع التقييم النيروزى الذى جاء على أساسه مبدأ رأس السنة ٢١ مارس الذى يتساوى فيه الليل والنهار ، وذلك فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى . ولا يزال النيروز رأس السنة فى إيران وعيد الطبيعه .

وقد عاش عمر الخيام فى عصر المعرى عصر الاضطراب الفكرى والصراع المذهبى بين فرق الالحاد والزندقة واللادينية مع تيارات القرامطة والباطنية وغلاه الاسماعليه ، والمجوسية ، والبوذية ، والمانوية ، وتيارات أخوان الصفاء من جهة ومع ثورة الامام الغزالى (٤٨٠ هـ ـ ٥٠٥ هـ) ضد كل هذه الاتجاهات من جهة أخرى . ولم يكن الخيام كشيخه الكبير أبى العلاء صوفياً ، ولا كان له من الصوفية غير القناعة والعزوف عن زخارف الحياة .

وقد عاش الخيام آراء عصره كما عاشها المعرى ثم صاغها باسلوبه الرائع وخلق فيها بروحه الثائر العاصف ثورة فكرية عارمه إزاء الخلق والخالق ، ونظام الوجود الافضل ، وإزاء مسائل الجزاء والبعث والجنة والنار والعبادات . لكنه لما لم يجد فى ثورته العقلية الطاغية بصيصاً من نور الحقيقة يهديه الى بر الأمان أغرق حدة

---

(١) من الذين ترجموها فى الشرق : محمد السباعى ، وأحمد رامى ، وأحمد الصافى النجفى وعبد الحق فاضل وفى الغرب فيتز جرالد ، وروزن . وقد قدم لها بمقدمة مع نصها الفارسى كما صور حياة هارولدلام

(٢) للخيام كتاب فى الرياضة يدعى الجبر والمقابلة .

سورته ، ووعيه القلق وغير المطمئن فى جرعات الخمر حتى أوصى بعد معايشته لها بأن يدفن فى تراب كرمتها ليتصل النسب والمدد ، وليكون الميلاد المتجدد .

ولا شك أن دورالمرأه فى حياته مجهول والظاهر أنه لم يتزوج لأنه كان قد اشتهى فتاة كان يحبها ولما أراد الزواج منها رفض أبوها وكان هو صاحب المكتبة التى أمضى فيها عمر الخيام صباه وفجر شبابه مطلعا دارسا وقد رفضه أبوها لفقره وزوجها لأحد التجار الأغنياء فلما حدث للخيام هذا طلق فكرة الزواج . وإذا لم يصح هذا فان هناك رأيا يقول بأنه قد تزوج وفشل ولم يتزوج بعد ذلك على الاطلاق .

الذى يهمنا هو قوله فى النفور من الزواج والدعوة إلى البعد عنه سعيا للراحة والسعادة : —

انما الراحـة فى الدنيـا ولذات الصفـاء
خلقت للمطلق الضارب فى كل فضاء
فاذا أصبح فرد مستريح البـال زوجـا
فلقـد بدل من راحتـه كل الشقـاء

والظاهر أن فقر الخيام من المـال كان عاملا أساسيا فى عجزه عن اللجوء إلى نظام الرق والتسرى الذى كان سائداً فى زمانه ، وهذا هو السبب فى خلو حياته من الجوارى ثم أنه لما كانت الحياة الشرقية فى عصره محجبة غير سافرة ، فأغلب الظن أنه عاش محروما من المرأة .

وقد حدث للخيام حادث خطير غير مجرى حياته وفكره وهوانه لما حدثت فتنة حسن الصباح الشيعية المتطرفة ، وأطاحت بالوزير نظام الملك صديق الخيام وزميل طفولته وصباه — نقول لما حدثت هذه الفتنة الغادرة أطاحت فيما أطاحت بمرصد الخيام الذى كان قد نصبه له نظام الملك ، فاحترق المرصد بأجهزته ومستنداته وأوراقه كما ضاع معه كل ماسجله أو معظم ماسجله الخيام من حقائق علمية توصل إليها . وفى غمار هذه الفترة ودخانها هاجر الخيام فى رحلته الأخيرة التى توفى فيها فى بلد غريب عام ٥١٧ هـ وذلك بعد وفاة الامام الغزالى باثنى عشرة سنة (الغزالى ت ٥٠٥ هـ) وبعد وفاة المعرى بثمانية وستين عاما .

وخلاصة فكر الخيام الفلسفى ، هو خلاصة فكر المعرى وفلسفته على أساس أنه ليس فى الامكان أسوأ مما كان فى تشاؤمية صارخة خلطها الخيام بشعاعات باسمة على ضوء حبب الخمر ، ذلك الذى حرم منه المعرى أو ذلك الذى حرمه المعرى على نفسه كرها كما يقول . وميزة الخيام عن المعرى أن عقله رياضىّ أكثر من المعرى ، وبهذه العقلية الرياضية ناقش مسائل الدين فى الوقت الذى ناقش فيه المعرى هذه بمقياس العقل التجريبى .

يقول الخيام فى صورة رياضية وفى صيغة المجهول التى تؤكد الشك الساخر :

قيل فى الجنة حور قاصرات الطرف عين
وخمور جاريات فى نهور وعيون
أى ضير إن طلبنا الحور والخمر هنا
ان هذا هو عقبى الأمر فيما يذكرون[1]

فهو يأتيك بالفرضية أولا ، ثم يصل بك إلى البرهان الرياضى المنطقى . وها هو يعطينا معادلة ومعادلة ليصل بنا إلى الحكم :

أنت ياربى كريم أنت ذو لطف ومن
فلماذا تطرد العاصى عن جنة عدن
ليس جوداً منك أن تعطينى عن حسناتى
انما جودك أن تؤتينى عن سيئاتى

ثم هو يحاول أن يصل ما بين علم الله وارادته فى شربه الخمر قديماً ، ومجدداً رأيه فى الجبرية الشاملة كالمعرى :

يعلم الله بشربى هذه الصهباء قدما
فاذا لم أحسها لم يك علم الله علما

ولا شك أن هذا المبدأ هو الذى اعتمد عليه الحلاج على لسان ابليس فى قوله بأن عصيانه لله فى رفضه السجود لآدم هو الطاعة كل الطاعة ، ولو لم يكن الله يعلم هذا العصيان لما حدث ، ولما كان إبليس فى رفضه يقدس اله فهو غير عاص لنفس السبب وهو علم الله ومشيئته[2] .

---

(١) عبد الحق فاضل رباعيات الخيام ترجمة — ٦٢

(٢) دكتور عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الاسلام ٣٢٦ — ٣٥٠ القاهرة ١٩٦٦

وحين قرأ الخيام أن الانسان يبعث على آخر صورة من أعماله أكد أنه قد قرر مصيره بنفسه مع الكأس والخمر والحسان :

قال من صارت لهم فى العلم والتقوى إمامة
يحشر المرء على ما كان إذ لاقى حمامه
فلنلازم ويحك الحسناء دوما والمدامه
فعسانا هكذا نحشر فى يوم القيامة

وقد عاش الخيام شكوكه العقلية ـ كما سنرى ـ وخرج بها أحياناً كثيرة كالمعرى الى لا أدرية متأرجحة من وراء حياة المتناقضات :

كلما باعدت نفسى زدت من نفسى دنواً
وأرانى أتدلى كلما رحت علواً
يالها حان وجود أحتسيها بيد أنى
كلما ازددت بها سكراً آرانى ازددت صحواً

ويعود من صحوه فيرى أن الكل باطل ابتداء وانتهاء ، طيبا وخبثاً ، صلاحا وفساداً وما دام محصول الحياة وحصادها هو المنية فسيان الساعى والقاعد والصالح والطالح

ان من فكر فى الدنيا ابتداء وانتهاء
وجد الأفراح والأتراح فى الدنيا سواء
ومصير الطيب والخبث إذا كان الفناء
فلتكن إن شئت داء كلها أو فدواء

وهو لهذا يعلن ثورته واحتجاجه على مصائر البشر . . فلماذا أصيب بعض الناس (كالمعرى) مثلا بالعمى وهم فضلاء ؟ ولماذا يوارى هذا الجمال فى التراب ؟

أبدع الصانع تركيب طباع البشر
فلماذا شانها بالنقص أو بالوضر
ان تكن جاءت ملاحاً فلماذا خربها
أو تكن جاءت قباحا فعلى من عيبها ؟

ثم يعود الى اللاأدرية كالمعرى

حــار قــوم بين شك ويقين ياصــديق
وأطال الفكر فى المذهب والدين فريق
أنا أخشى أن ينادى ذات يوم أن أفيقوا
أيها الجهال لا هذا ولا ذاك الطريق

ويرجع الخيام من لا أدريته المؤقتة إلى شك جديد ينكر فيما ينكر البعث على أساس حجة المعرى القديمة بأنه لم يعد أحد يخبرنا عما وراء الموت :

يا فؤادى لم ير الجنة والنــار بشر
أم أتى من ذلك العالم آت بخبر
أن ما نخشى وما نرجو منوطان بشى
ليس يبدو منه إلا اسم ووصف للنظر

ويصل بنا الخيام إلى فكرة هامة نادى بها بعض العلماء والمفكرين ، تلك التى ترى أن الجنة والنار موجودتان مع الانسان منذ ولادته وإذن فلا حجة على أى حساب أو جزاء

كر بى الفكر إلى أول يوم فى الخليقة
ناشدا فى اللوح والجنة والنار الحقيقة
وإذا العقل ينادى قائلا ما أضيعك
ويك .. إن اللوح والجنة والنار معك

قلم المقدار أجروه بأمرى دون أمرى
فلماذا سا ألونى منه عن خير وشر
ذهب الأمس بدونى وأتى اليوم بدونى
فغداً بالله ماحجتهم إن حاسبونى

لكن ما الموقف إذا كان هناك بعث وجزاء ؟

لقد طلب المعرى كما عرفنا العفو والمغفرة وأكد حسن ظنه بالله حتى ولو أقام فى النار ألف سنة

فليفعل الدهر ما يهم به	إن ظنونى بخالقى حسنه
لا تيأس النفس من تفضله	ولو أقامت فى النار ألف سنة

لكن الخيام ناقش الموضوع الشائك بطريقته الرياضية ، فالله ليس عنده إلا الخير والرحمة ، وما دام الأمر كذلك فلا ييأس أيها العاصى المذنب ثم ما الداعى إلى اتخاذ مبادىء البيع والشراء والتجارة وهذه صفات لا تليق بساحة العزيز الكريم ، وإذا كان الله قد أعطى الجنة بالطاعة وقدم النار للمعصية فأين العطاء إذن ؟ إنه لو صح هذا لكانت المسألة مسألة تجارة ومساومة فى البيع والشراء دون عفو أو رحمة أو عطاء . وعلى هذا فسيرتكب الخيام المعاصى متحديا ليرى أن الله أوسع رحمة وعطاء مما زعمته الرسالات والديانات

قيل لى ثم حساب وعقاب يوم حشر
يوم يشتد الحبيب المرتجى فى كل أمر
ليس عندالخير المحض سوى الخير لعمرى
فاغتبط ويك فعقبى الأمر ليست غير خير
إننى يارب عبد مذنب .. أين رضاؤك؟
وفؤادى كالدياجى مظلم أين ضياؤك
وإذا أعطيتنا الجنـة بالطاعة منـا
كان هذا منك بيعاً .. أين يارب عطاؤك

يا إلهى أنا من قد برأتنى قدرتك
وترعرعت عزيزاً دللتنى نعمتك . .
سوف أمضى فى المعاصى جاهد أسبعين عاماً
لأرى معصيتى أوسع أم مغفرتك ؟

فاذا حددنا المخطط الذى عاش فيه فكر المعرى والخيام نجده قائما على المبادىء الآتيـة :

(١) الشر أصل الوجود ولا سبيل على الاطلاق إلى الخلاص منه ، ومن العبث إصلاح شىء فاسد بطبعه فليس فى الامكان أفسد أو أسوأ مما كان :

يقول المعرى :

ونحن فى عالم صيغت أوائله   على الفساد ففى قولنا فسدوا
فلا تأمل من الدنيـا صلاحا   فـذاك هو الذى لا يستطـاع

ويقول الخيام فى نفس الاتجاه :

ويلتى منذ جبلوا فى قالب الخلقة طينى
كم أثاروا الشر فى هذا التراب المستكين
ليس فى مقدرتى أن أغتدى أفضل منى
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغونى

(٢) الجبرية المطلقة فكل شىء مسير ولا مجال لأى اختيار أو إرادة يقول المعرى :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ... ولا حياتى فهل لى بعد تخيير

ويقول الخيام :

واضطراراً قد جئت هذى الديارا ... وسأضطر للرحيـل اضطرارا

(٣) سيطرة الزمان أو الدهر على كل المصائر وإذن فلا يجب أن ننظر لغير الحاضر . ومن الواضح أن المعرى أصر على ألا ينتفع بحاضره كما انتفع الخيـام لأن المعرى عاش حاضره وزمانه كله فى وعى مر ، بينما استغرق الخيام مع حاضره فى سكرة الكأس الحلوة المرة أيضاً على اختلاف فى طريق التذوق .

يقول المعرى :

خذ الآن فيما نحن فيـه وخليـا ... غدا فهو لم يقدم وأمس قد مر[٣]

ويقول الخيام :

غد بظهر الغيب واليـوم لى ... وكم يخيب الظن فى المقبـل
ولسـت بالغـافل حتى أرى ... جمـال دنياى ولا أجتـلى

(٤) الثورة على الأديان والمذاهب :

يقول المعرى :

وقد فتشت عن أصحاب دين ... لهم نسـك وليس لهم رياء
تسـتروا بأمـور فى ديانتهم ... وإنمـا دينهـم دين الزنادقة
ولا تحسب مقـال الرسل حقـا ... ولكن قـول زور سـطروه

ويقول الخيام :

أيها الزاهد ما مثلى من يجهل مثلك
فالتمس غيرى غريبا جاهلا يذكر فضلك
قلت لى إن تجن ذنبا تك فى النار فعهدك
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل أمرك

قيل إن الشارب الخمر إلى النار يصير
قالة لا يركن العقل إليها فهى زور
إن يكن منقلب الشارب والعاشق نارا
فغدا سوف ترى الجنة كالراح[1] قفارا

هذا هو المخطط الرئيسى . أما تفاصيله المشتركة ، فيمكن أن نلاحظها فى هذا التحليلى المقارن .

ويبد أن هناك سراً مشتركا بينهما يسترانه ، ويدعوان إلى عدم البوح به إلا من هو أهل لمعرفته ، إن كان :

يقول المعرى :

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة ... وبعد ذلك فاقعد كاذبا وقم
إذا قلت المحال رفعت صوتى ... وإن قلت اليقين أطلت همسى

ويقول الخيام :

فصلت أسرار دنياكم لدينا فى الدفاتر
قد طويناها ففى النشر وبال ومخاطر
لم نجد فى الناس من يعقل من أهل البصائر
فغدا يعجزنا إظهار ما تخفى الضمائر

وقد أفصح المعرى عما يريد الخيام حين قال (المعرى) :

أهوى الحياة وحسبى من معايبها ... أنى أعيش بتمويه وتدليس
اكتم حديثك لا يشعر به أحد ... من رهط جبريل أو من رهط إبليس

---

(١) راحة اليد .

ولعل الخيام يبدو لنا أوضح حين يتحدث عن سره وعمن هو جدير بمعرفة هذا السر حين يقول :

رب سر لست أستطيع له فى الخلق فضحا
فاستمع موجز قولى لا تسلنى عنه شرحا
آه من حال أرانى عاجزا عن وصفها
آه من سر طواه القلب لا يقبل بوحا

فاكتم الأسرار عمن سفلوا ، وابتذلوا وصن الحكمة عن كل عم لا يعقل
وتأمل فى مكان الناس ماذا تعمل ؟ وتوقع مثل هذا منهمو أن يفعلوا

وإذا كان المعرى قد ثار على تقسيم الحظوط وقال فى ثورة عارمة مبررا الزندقة لدى من ساء حظه بالنسبة لغيره من الدهماء والغوغاء .

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

فان الخيام . . بعد أن تعجب لمسخ الجمال بالنقص أو إهانته بالفناء والذبول تساءل : ولم كان النقص بعد الاكتمال، ولم كان التخريب والتشويه بعد الجمال والاكتمال ؟ ثم على من يقع عيب القبيح ؟ ولماذا كان تشويه المليح ؟ .

أبدع الصانع تركيب طباع البشر
فلماذا شابها بالنقص أو بالوضر
إن تكن جاءت ملاحا فلماذا خرمها
أو تكن جاءت قباحا فعلى من عيبها ؟

ثم يثور معترضا على هذا الوضع متمنيا لو كان الأمر بيده لغير كل شىء فى الكون ، وعدله حتى يدرك الأحرار فيه ما يشتهون دون عناء .

آه لو كنت على الأفلاك ربا فى سمائى
لمحوت الآن هذا الفلك الضخم البناء
ولأنشأت بنفسى من جديد فلكا
يدرك الأحرار فيه ما اشتهوا دون عناء

وقد اتفق المعرى والخيام على أن التراب الذى نمشى عليه إنما هو نحن على مر السنين ، من تراب الأجداد إلى الآباء إلى الأحفاد الأباء الأجداد ، فى دورة لا تنتهى. وإذن فيجب أن نمشى الهوينى فاننا نمشى على رفات العباد . كما يقول المعرى أو على أعين ساحرة الاحورار كما يقول الخيام :

يقول المعرى :

سر ان اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
خففت الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

ويقول الخيام :

فامش الهوينى إن هذا الثرى من أعين ساحرة الاحورار

والمسألة ليست قاصرة على التراب فقط فربما صرنا إناء فخار كما يقول المعرى أو ربما تحولنا إلى كأس خمر :

يقول المعرى :

فلا يمس فخارا من الفخر عائد إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء فيه يصنع مرة فيأكل منه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخرى ومادرى فواها له بعد البلى يتغرب

وهى هى نفس صورة المعرى لكن الخيام صاغها فى صورة شعرية حين سمع أوانى الخزاف فى معمل الخزف تئن عبر الطين المجبول المحترق :

أمس أبصرت جارنا الخزافا
يجبل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منه جزافا
وكأنى سمعت بين يديه
صوت مظلومة تشكى لديه
آه رفقا فأنت طين ومساء
أيها المرء لا تسمنى العذابا

لكن المعرى لم ينقص تصوره عن صاحبه الخيام الذى جاء بعده فالمعرى تحدث من النفع المادى من تراب الأجساد حين أكد فى حسرة أن أجسادا كانت جديرة بالصون قد صارت طلاء للجدران ، ولعلها كانت فيما مضى مفاصل بنّاء يحولها بناء جديدا إلى طلاء للسقيفة والجدار :

وكم من رجال جسومهم عفر . تبنى بهم أو عليهم الجـــدر

ثم ماذا ؟ ؟

لعـل مفاصل البنـاء تضحى طـلاء للسقيفـة والجـــدار

أما الخيام فلما كان يعايش الكأس والخمر فقد مضى فى حانه داعيا الأحياء إلى التبرك بالتراب لأن الخيام قد بارك التراب بما أنبت من كرم وخمر فرد إليه الجميل بأن أوجب على الساقى أن يريق جزءاً من شرابه قبل أن يشرب ليسقى النبع الخالد :

ما جـزافـا ما قـد أراق السـقـاة
لا ـ لعمـرى بل تلكمـو صـدقات
انمـا الـترب ياندیمـى رفـات
فليريقـوا فتـلكمـو القطـرات
لـكبـود تذيبهـا الحسـرات
ولـيريقـوا لعـلهـا مطفئـات
لـوعـة فى الثرى تـؤج التهـابـا

وقد دخل المعرى والخيام الحياة على زهادة من البداية حتى النهاية فمن البداية الساذجة حتى النهاية المفلسفة . . . فما هذه الدنيا التى جئنا ونتركها مضطرين إلا ميتة نحن فيها الكلاب النوابح كما يقول المعرى أو كالعصـافير فى حبالة الزمان كما يقول أبو العلاء والخيام :

يقول المعرى .

أصـاح هى الدنيـا تشـابه ميتة ونحن حواليها الكلاب النوابح
فمن ظل منهـا آكـلا فهو خاسر ومن عاد منهـا سـاغبـاً فهو رابح

ويقول :

حياة كالحبالة ذات مكر ونفس المرء صيداً أعلقته

ويقول الخيام فى نفس الطريق :

كالعصافير وقعنا فى أحابيل الزمان
مجهدى القلب حيارى بين أيدى الحدثان
حولنا دائرة لا باب أو سطح لها
لم نجىء فيها ولم نذهب وفاقا للأمانى

وإذن فما الداعى إلى الطمع فى دار الشتات ؟ وماذا نريد من دار لا نملك منها شيئاً نقيم فيها على ظعن . . قليلا ثم ننصرف :

يقول المعرى :

وما تريد بدار لست مالكها تقيم فيها قليلا ثم تنصرف

ويقول الخيام :

ان يكن حقاً مماتى فأجبنى ما حياتى
ولم الاطماع فى دار الرزايا والشتات
منزل لا يترك النازل فيه وادعاً . . .
لم يرضى فيه أن يبقى ويهتم لآت ؟

وعلى هذا فالسعيد الحق هو الخامل البعيد عن كل صور الطوائف والمذاهب ، والسعيد الحق هو من كان مجهول الزمان والمكان والسلطان . .

يقول المعرى :

إذا شئتمو دعة وخفضا فعيشوا فى البرية خاملينا

ويقول الخيام :

السعيد الحق من لم يك معروف المكان
لم يصر فى فوطة أو جبة أو طيلسان
فهو كالعنقاء قد طار عن الدارين طرا
لم يكن مثلى بوما بين أطلال الزمان

وإذن فلنرفض الزواج ولنقطع النسل حلا لمشكلة معايشة الألم والشقاء : يقول المعرى فى عشرات الأبيات داعياً إلى التحرر من قيد الحياة أو قيد الشر :

سعى آدم جد البريه فى أذى لذرية فى ظهره تشبه الذرا
تلا الناس فى النكراء نهج أبيهمو وغر بنوه فى الحياة كما غرا

ولقد كان الخير كل الخير — كما يقول المعرى — ألا يكون ، وبالتالى كان خيراً لنا ألا نكون وألا يكون الوجود والحياة .

خير لآدم والخلق الذى خرجوا من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا

ولهذا ينصح — عبثا — الناس جميعا بأن يسلكوا سلوكه :

بدأ فرح من معرس أفما درى بما اختار من سوء الفعال وما جرا
أيا سارحا فى الجو دنياك معدن يفور بشر فابغ فى غيرها وكرا
فان أنت لم تملك وشيك فراقها فعف ولا تنكح عوانا ولا بكرا
وألقاك فيها والدك فلا تضع بها ولداً يلقى الشدائد والنكرا

ثم ماذا يا أبا العلاء ؟

ثم يأتى إلى بيته الخطير فيؤكد جناية أبيه عليه حين يؤكد أنه لن يكررها إلى الأبد ، وحين يوصى أن يكون شاهد قبره :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

لكن ماذا قال الخيام ؟ إن الخيام دعا إلى رفض الزواج على أساس التحرر من نار القلق إلى رحابة راحة البال وتجنباً لآلام الحياة .

إنما الراحة فى الدنيا ولذات الصفاء
خلقت للمطلق الضارب فى كل فضاء
فاذا ما أصبح فرد مستريح البال زوجا
فلقد بدل من راحته كل الشقاء

ورأى المعرى والخيام ان الديانات والمذاهب على خلاف واختلاف ينقض بعضها بعضا فحكم الإثنان ببطلانها عامة :

يقول المعرى :

ولا تحسب مقال الرسل حقا   ولكن قول زور سطروه
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود زلت والمجوس مضللة

إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له .

أفيقوا أفيقوا ياغواه فانما   دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا   وبادروا ودامت سنة اللؤماء
إن الديانات ألقت بيننا إحنا   وعلمتنا أفانين العدوات

ويقول الخيام :

قيل ان الشارب الخمر إلى النار يصير
قالة لا يركن العقل إليها فهى زور
أيها الخيام من قال لنا ثم جحيم
من تولى فى جحيم أو تولى فى نعيم
كربى الفكر إلى أول يوم فى الخليقة
ناشدا فى اللوح والجنة والنار الحقيقة
وإذا العقل ينادى قائلا ما أضيعك
ويك إن اللوح والجنة والنار معك

وإذن فلا دين إلا دين العقل ولا نبوة إلا للعقل :

يقول المعرى :

إذا رجع الحصيف إلى حجاه   تهاون بالمذاهب وازدراها
وهت أديانهم من كل وجه   فهل عقل تشد به عراها ؟
أيها الغر ان خصصت بعقل   فاسألنه فكل عقل نبى
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

ويقول الخيام :

وإذا العقل ينادى قائلا ما أضيعك
ويك إن اللوح والجنة والنار معك

اكرع الراح فان صرت ترابا فى التراب
صار مثواك ترابا لكئوس وخوابى
دع حديث النار والجنة وافرغ منبعاً
لم يغتر بشىء مثل هذا ذو صواب ؟
اسمع العقل الذى يبحث فى سبل السعادة
إنه ينبيك ألفاً كل يوم وزيادة . .

لكن ماذا رأى المعرى والخيام فى رجال الدين والزهاد وأصحاب الفتاوى والأحكام ؟

يقول المعرى عن المذاهب وأصحابها وطرائقها وغاياتها :

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
وقد فتشت عن أصحاب دين لهم نسك وليس لهم رياء
تستروا بأمور فى دياناتهم وإنما دينهم دين الزناديق
وليس عندهمو دين ولا نسك فلا تغرنك أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا فى الخنا سبحا
لو تعقل الأرض ودت أنها صفرت منهم فلم ير فيها ناظر شبحا

ويقول الخيام :

وعجيب أنهم تحت ستار الزهد باعوا
دينهم بيعاً فهم أنكر من كل كفور

وإذا قال المعرى عن أصحاب الفتاوى والأحكام من المموهين والمنافقين :

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا فلم يمض أحكاما كحكم سدوم
وقالوا فقيه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم
طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة فيهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل فى النفوس ذهولها
رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكموا الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء

نقول إذا حلل لنا المعرى هـذه الأنماط فإن الخيام يقدمها لنا فى صورة حجاج ساخر :

سـيدى أنت فقيه لست تدرى ما الخبر ؟
ما الذى تنكـر بالله على أهل النظر ؟
هم أطالوا الفـكر فى الصانع أو صـنعته
وتفقهت بحيض ونجاسـات أخـر

سـيدى هل تـكرمت علينـا بمرام
أعفنا ناشدتك الديان من هذا الخصام
مستقيم سيرنا . . لـكن فى عينيك زيغا
فالتمس طبـا لعينيك ودعنا فى سلام

إننا أكـثر شغلا منك يا مفتى القضـاء
وبهـذا السكر أصحى منك عند العقلاء
كم شربتم دم قوم وشربنا دم كرم
فأجبنى أينا أنـكر شربا للدماء ؟

ثم ماذا ؟ ؟

أيهـا الزاهـد ما مثلى من يجهل مثلك
فالتمس غيرى غريبا جاهـلا يذكـر فضلك
قلت لى . . إن تجن ذنباً تَـكُ فى النار فهلك
أيهـا الزاهـد قل هـذا لمن يجهل فعلك
أننى أنخر بالحان فأهل الحان أهل
ولدى الانصـاف حتى سؤرها حلو وسهل
ان دور العـلم لم تنجب حكيما ذا اصـاله
فاهـدموا هـذى الزوايا إنهـا دور الجهـالة

وما دام الأمر قد وصل إلى هـذا الحد من تقييم المذاهب والعبادات والفتاوى والأحكام عند أصحابها من الفقهاء والقضاء والزهاد ، فليس المهم على الاطلاق

لدى المعرى والخيام بالنسبة لأشكال العبادات والمعاملات سوى حسن معاملة الناس، وعدم إيذائهم ، أما الصلاة وأما الحج وأما السنة وأما الفرض وما إلى ذلك فلا داعى له أو لا قيمة له .

يقول المعرى :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وما حجى إلى أحجار بيت كئوس الخمر تشرب فى ذراها

ويقول الخيام :

أهمل السنة والفرض ونص الشارع
وابذل اللقمة لا تبخل بها عن جائع
ثم لا تؤذى عباد الله أو تغتب جليسا
وأنا الضامن بالأخرى — فهات الخندريسا

ولما كان المعرى والخيام يؤمنان بأن كل شيء مسير مجبر مع كل نبضة وكل خفقة وكل نفس يتنفس ، فاذن لا مسئولية ولا جزاء لأنه لا اختيار ولا حرية .

يقول المعرى :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أأنت على تغيير لونك قادر ؟

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى
ولا حياتى فهل لى بعد تخيير

ويقول الخيام :

ويلتى منذ جبلوا فى قالب الخلقة طينى
كم أثاروا الشر فى هذا التراب المستكين
ليس فى مقدرتى أن أغتدى أفضل منى
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغونى

وعلى هذا الأساس فما معنى الجزاء والحساب وإذا كان هناك جزاء فما رأى المعرى

والخيام ؟ انهما يريان أن كل من فعل الكبائر مجبر وعلى هذا فعقابه ظلم ثم إن الله كان على علم بما سنفعل فلماذا إذن الحساب ؟

يقول المعرى :

إن كان من فعل الكبائر مجبرا   فعقابه ظلم على ما يفعل

ويقول الخيام :

قلم المقدار أجروه بأمرى دون أمرى
فلماذا سألونى منه عن خير وشر
ذهب الأمس بدونى وآتى اليوم بدونى
فغدا بالله ما حجتهم ان حاسبونى

* * *

عندما صورنا البارىء من هذا التراب

كان يدرى ما سنأتى من أثام وصواب

إننا لم نجن ذنبنا ليس من تقديره

فلم التعذيب فى النار إذن يوم الحساب ؟

وبينما يتلمس المعرى طريق النور طلبا للعفو ، يؤكد لنا أنه على ثقة عظمى برحمة الله حتى ولو أدخله النار ألف سنه :

فليفعل الدهر ما يهم به   ان ظنونى بخالقى حسنه
لاتيأس النفس من تفضله   ولو أقامت فى النار ألف سنه
إن أدخل النار فلى خالق   يحمل عنى مثقلات العذاب
يقدر أن يدخلنى جنة   فيها ترامى المياه العذاب

فماذا يقول الخيام ؟ ان الخيام يتدلل على الخالق بشكل عجيب حقا فهو يسائله فى حجاجه إذن مالفرق بينك وبينى إذا كنت أنا أصنع السوء فتجازينى بمثله ؟ وما ذنبى وأنت قد قدرت على ماصنعت وفعلت ، ثم أين عطاؤك أين بالنسبة للاشقياء ؟

رب قل لى من هو المعصوم من اثم وعيب
رب كيف اسطاع أن يحيا أمرؤ من غير ذنب
أنا عبد أصنع السوء فتجزينى بسوء
فاذن ما الفرق ما بينى وما بينك ربى ؟
أنت يارب كريم أنت ذو لطف و من
فلماذا تطرد العاصى عن جنات عدن
ليس جودا منك أن تعطينى عن حسناتى
انما جودك أن تعطينى عن سيئاتى

* * *

اننى يارب عبد مذنب أين رضاؤك
وفؤادى كالدياجى مظلم أين ضياؤك
وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا
كان هذا منك بيعا أين يارب عطاؤك ؟

لكن هل كان المعرى والخيام فى مجال هذا الحجاج مؤمنين بالجزاء ؟ أنهما أساسا ينكران الجزاء على أساس المنطق الجبرى لكنهما فرضا أن هناك حسابا على أساس منطق الأديان ، ومن هنا طلبا العفو . أما المعرى فقد ركن إلى حسن ظنه بالله ولو أدخله النار ألف سنة . وأما الخيام فقد ناقش الله فى حجاجه بأن رحمته وسعت كل شىء ولو ارتكب ملء الأرض ذنوبا فانه يتحدى رحمة الله التى هى أوسع من معصيته .

ويمكننا أن نلاحظ انكار البحث واضحا فى قول المعرى وهو من أعنف أقواله :

ريب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهى بين ذاك وبينى
أنهيت عن قتل النفوس تعمدا وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معادا ثانيا ما كان أغناها عن الحالين

ويقول الخيام :

اسمع العقل الذى يبحث فى كل سعاده
أنه ينبيك الفا كل يوم وزيادة
إن إبانك هذا العمر لا عمر سواه
لست بالكراث ينمو بعد إذ أنهوا حصاده

* * *

أيها الغافل الجاهل ما أنت نضار
فيواروه الثرى كى ينشروه بعد طى

* * *

هاكه سرا مصونا لا تذعه أبدا
أبدا لا تزهر الوردة من بعد الذبول
اشرب الخمر فقد قلنا وقلنا لك الفا
إن توليت فليست لك رجعة

لكن أليس لكل شيء أو لكل أمر نهاية ؟ اذن إلى أى حد انتهى المعرى والخيام من فلسفتهما العقلية . . ؟

لقد أحس كل منهما بعد رحلته الشاقة بين الشك واليقين أنه متهم بالزندقة والمروق رغم صدق الأحاديث . . فقال المعرى :

لحا الله قوما إذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا كفر

وقال الخيام :

كم تجنوا من حماريتهم واتهموا
كل من ليس حمارا مثلهم بالزندقه

لكنه حدد مكانه حين قال :

لست بالكافر إطلاقا ولا المسلم صدقا . .

ثم ماذا ؟ ؟ ثم استغرق كل منهما فى محيط اللا أدريه حقا أو تقية ، حيث

قال المعرى :

سألتمونى فأعيتنى اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا
جميعنا يخبط فى حندس قد استوى الناشىء والكهل
وما جدال القوم الا تعلة مصورة من باطل متوهم
وبصبر الا قوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم

ويقول الخيام :

لا أنا الدارى ولا أنت بأسرار الأزل
كلهم هز بكف العجز غصن الأمل
فافرض اليوم كأمس وغدا كالأزل

* * *

إنه بحر وجود جاء من طى الخفاء
درة للبحث لم تثقب بعلم أو ذكاء
كلهم جاءوا بقول من تظن وهراء
غير ان الحق لم يظهر عليه ابن فناء

* * *

ان من صاروا محيط العلم بين العالمين
وغدوا فى الفضل مصباح الهدى للمهتدين
لم يشقوا من دجى الشك طريقا لليقين
إنما قصوا أساطير وناموا بعد حين

* * *

إن قلبى أبدا لم يحرم العلم لعمرى
وقليل ما اختفى عنى من مكنون سر
بيد أنى اليوم فى السبعين إذ راجعت فكرى
صرت أدرى كيف أنى أبداً ما كنت أدرى

وصدق الخيام كما صدق المعرى فقد اشترك الاثنان فى أنهما يدريان ويدريان أخيرا أنهما لا يدريان[1] ، ولكنهما كانا يدريان أيضا أنهما على مقربة من درجات القبر فليكتب كل منهما وصيته ..

أما المعرى فقد طلب من قومه وعشيرته أن يتيمموا بترابه لعل فعلهم هذا يوافيه بأغراضه الطيبة وإذا تحول تراب جسده إلى آنية خزفية فلتكن أداة طهور أيضا مثوبة وعفوا ومغفرة . هذه هى وصية المعرى ، أما الخيام فقد مضى فى منهجه واتجاهه فأوصى بأن يشرب أحبابه من كأس ترابه حتى تتصل به الحياة السكرى دون فناء . .

يقول المعرى :

تيمموا بترابى عل فعلكموا بعد الهمود يوافينى بأغراضى
وإن جعلت بحكم الله فى خزف يقضى الطهور فانى شاكر راضى

ويقول الخيام :

عندما أهوى برأسى تحت رجل الأجل
يوم يستأصل عمرى من جذور الأمل
فاصنعوا بالله جاماً من ترابى فعسانى
فيه أحيا كلما أترع من بنت الدنان

ونعود فنقول : إن جوهر الموقف الفلسفى العقلى لدى المعرى والخيام واضح فى توكيدهما المبدأ القائل بأنه ليس فى الامكان أسوأ مما كان ، على أساس فساد طبيعة الكون والانسان ، وبمدد من روح تشاؤميه ممعنه فى التشاؤميه الموغله فى الايمان بالجبرية المطلقة ، الجبرية المنكره للحرية والمسئولية ، المنكره بالتبعية لكل جزاء أو حساب .

---

(١) ظهر لفظ اللاأدرية Agnosticism كمصطلح فلسفى عام ١٨٦٩ م من وضع هكسلى Huxley (١٨٢٥ – ١٨٩٥) عندما قال نحن لا نعرف شيئا وسوف لا نعرف شيئا . ومعناه انكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة الحقة واعتبار الميتافيزيقا لونا من العبث (أنظر يوسف كرم : المعجم الفلسفى ١٩٦٦) وقد وصل هكسلى فى فلسفته اللاأدرية إلى أن المادية والروحية على السواء فى خطأ لأنهما تفترضان أننا نعلم حقائق الأشياء ونحن لا نعلمها ولن نعلمها . ولا شك أن نواة اللاأدرية موجودة فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد مع الفيلسوف انتستين (٤٤٤ – ٣٦٨ ق . م) أستاذ السوفسطائى الشهير جورجياس .

وقد عرفنا أن كليها قد مضى فى مخططه يهاجم اضطراب الأديان وأشكال العبادات ويسخر من الفرق والمذاهب الدينية المتصارعة الداله فى الواقع على حيوية الفكر والفكر الاسلامى بالذات .

وقد لاحظنا أن الخيام لم يختلف عن المعرى إلا فى نقطة واحدة وهى طريقة لحل إشكال سوره الشك العارمة ، واشكال تأرجحه على أرجوحة اللاأدرية بين الشك واليقين .

أما المعرى فقد اصر على وعيه القاتل ، ولهذا تمنى الانتحار البطىء بالصوم المطلق عن الشراب والطعام ، ولكنه عاد فتراجع وسلك انتحاراً آخر بممارسة الموت فى حياة من الحرمان وعدم الزواج، ووأد طبيعته الغريزية ودعوته البشرية إلى رفض الزواج والتناسل. ولعله أراد أن ينتقم من الحياة بممارسة الموت فأكد ذاته على رغمه ولكن فى طريق متراجع موغل فى السلبية القاتلة . أما الخيام فكان طريق خلاصه أن يغرق وعيه العارم فى حَبَب الكأس ليعيش مع اللحظة غير الواعية إلا بالحاضر ، ولا شك أنه هرب كالمعرى . ولم يكن خلاصه خلاصاً فى الواقع . . بل كان هربا من سورة الشك القاتل واللاأدرية القاتلة .

ولا شك أن كليهما قد أدى رسالته الفكرية والفلسفية أكمل الأداء وأن كليهما قد عاش فكر عصره وخلق فيه تخليقاً كبيراً بعد أن أنست نفسه وآمن عقله بهذا الفكر . ولا شك أيضا أن عصرها وهو عصر البلبلة الفكرية ، والتيارات الشعوبية والمذاهب السرية الباطنية المنحرفة ـ لا شك أن هـذا العصر غير ملوم فى ذاته وموضوعه من المعرى والخيام ـ كما ذكرنا ـ فقد عاش فيه الغزالى وتفلسف بعد أن نجا من غوائل تياراته الخبيثة . أما المعرى وأما الخيام فلم ينجوا وإن كانا قد تفلسفا ولكن فى دوائر منفصلة عن الروح الاسلامى والمنهج الاسلامى .

أهم المصادر والمراجع

١ – ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ٥ – أجزاء القاهرة ١٣٤٧ هـ

٢ – أبو ريده : الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ابراهيم النظام ١٩٤٦

٣ – البغدادى : (عبد القاهر) الفرق بين الفرق ١٣٢٨ هـ القاهرة

٤ – البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة الهند ١٩٥٨ طبعة حديثة

٥ – البغدادى : (الخطيب) تاريخ بغداد ١٤ جزءا – القاهرة ١٣٤٩ هـ

٦ – الخياط : الانتصار تحقيق نيبرج ١٩٢٥ القاهرة

٧ – دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريده ١٩٥٤ القاهرة

٨ – رامى : أحمد رامى ترجمة رباعيات الخيام ١٩٦٣ القاهرة .

٩ – السباعى : محمد السباعى ترجمة رباعيات الخيام ١٩٣٥ القاهرة .

١٠ – الدكتور طه حسين : تعريف القدماء بأبى العلاء تحقيق مع الأستاذ ابراهيم الابيارى ١٩٦٥

١١ – الدكتور طه حسين : ذكرى أبى العلاء ط ٢ – ١٩٢٢ القاهرة .

١٢ – دكتور طه حسين : مع أبى العلاء فى سجنة – ١٩٥٦ القاهرة

١٣ – الدكتور الطويل : (الدكتور توفيق الطويل) الفلسفة الأخلاقية ١٩٥٩ القاهرة .

١٤ – الدكتورة عائشة عبد الرحمن : الغفران تحقيق ط ٢ – ١٩٦٠ القاهرة .

١٥ – الدكتورة عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ١٩٤٢ القاهرة .

١٦ – عباس محمود العقاد : رجعة أبى العلاء .

١٧ – عباس محمود العقاد : أبو نواس ١٩٣٣ القاهرة .

١٨ – الدكتور عبد الرحمن بدوى : شوبنهور ١٩٤٨ القاهرة .

١٩ – الدكتور عبد القادر محمود الفلسفة الصوفية فى الاسلام ١٩٦٦ القاهرة .

٢٠ – الغزالى (الامام) : المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١٩٦٢ القاهرة .

٢١ – فضائح الباطنية : تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ١٩٦٤ القاهرة .

٢٢ – فاضل : (عبد الحق) ترجمة رباعيات الخيام (ثورة الخيام) ١٩٤٨ القاهرة .

٢٣ – كراوس (بول) : رسائل فلسفية للرازى (محمد بن زكريا الرازى) ١٩٣٩ القاهرة .

٢٤ – كيلانى (كامل) : رسالة الغفران تحقيق ١٩٤٥ القاهرة .

٢٥ – الدكتور محمود قاسم : مقدمة كتاب علم الاجتماع الدينى لباستيد ١٩٤٨ القاهرة .

٢٦ – الدكتور محمود قاسم : فى النفس والعقل ١٩٤٥ القاهرة .

٢٧ – المعرى : اللزوميات .

٢٨ – المعرى : الفصول والغايات .

٢٩ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ١٩٥٧ القاهرة .

٣٠ – يوسف كرم : المعجم الفلسفى ١٩٦٥ القاهرة .

« مدخل إلى دراسة المناخ التفصيلي Microclimatology »

دكتور يوسف عبد المجيد فايد

مدرس الجغرافيا ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مقدمة :

من المعروف أن معظم الدراسات التى تطالعنا فى كتب المناخ تعتمد على إحصاءات مناخية مأخوذة من سجلات المراصد التى توضع أجهزتها فى أكشاك تعلو عن سطح الأرض بمسافة مترين . وهذا الارتفاع موحد عالميا ، لذلك فان هذه الأرصاد تتم بعيدا عن المستوى الذى يتأثر بالعوامل المحلية التفصيلية ، ولما كانت الأحوال الجوية والمناخية فى النطاق المحدود الذى يوجد من سطح التربة حتى ارتفاع المترين لها أهمية كبيرة من الناحيتين النظرية والعملية ، فان دراسة المناخ التفصيلى microclimatology تعتبر من أهم فروع علم المناخ . فسطح التربة هو الذى يمثل المصدر الذى يعطى الهواء حرارته ورطوبته حيث أن أشعة الشمس تخترق الهواء دون أن يمتص منها شيئا يذكر والغالبية تصل إلى سطح الأرض فتسخنه ويقوم هو بتسخين طبقات الهواء التى تعلوه مبتدئا بطبقة الهواء التى تلامس التربة مباشرة ، وهذه الطبقة من الهواء هى موضوع دراسة المناخ التفصيلي . كذلك يؤثر شكل سطح الأرض على حركة الهواء من حيث اتجاهه وسرعته .

أما من الناحية العملية فان طبقة الهواء القريبة من سطح الأرض هى التى تؤثر فى النباتات ، ذلك لأن معظم النباتات تنمو قريبة من سطح الأرض وتحت ارتفاع المترين ولذلك يهتم الزراع بأحوال المناخ على النطاق التفصيلى micro وليس على النطاق الإقليمى الواسع macro . كذلك يهتم هذا الفرع من علم المناخ إلى جانب هذا بدراسة مناخ المدن أو أجزاء منها والمزارع والغابات[1] .

---

(١) Sutton O. Y., « Understanding Weather, » 1960 pp. 179—206.

وللأسف نجد أن معظم الدراسات التى تتعلق بهذا الفرع قد عملت فى العروض المعتدلة خاصة فى ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية بعيدا عن العروض المدارية والقطبية التى ما زالت تنتظر الدراسة التفصيلية :

الحرارة : تعتبر الحرارة من أهم العوامل التى تؤثر فى نمو النباتات ، لذلك فانها تأتى فى مقدمة عناصر المناخ التى يهتم بها فى الدراسة التفصيلية . وإذا نظرنا إلى هذا العنصر نجد أولا أنه فى طبقات الهواء القريبة من سطح الأرض تنتقل الحرارة من أسفل إلى أعلى ببطء شديد إذا ما قورنت بانتقالها بين طبقات الهواء فى الارتفاعات التى فوق ذلك .

والسبب فى هذا هو أن المظاهر الطبوغرافية لا تتيح الحركة الحرة للهواء إلى أعلى . وعندما لا يتحرك الهواء نفسه من أسفل إلى أعلى . فان انتقال الحرارة يتم عن طريق التوصيل Conduction فقط . ومن المعروف أن انتقال الحرارة من طبقة من الهواء إلى طبقة أخرى بواسطة حركة الهواء إلى أعلى تعادل ١٠° من قوة انتقال الحرارة بين طبقات الهواء عن طريق التوصيل .

فاذا نظرنا إلى تناقص الحرارة بالارتفاع فى القدم أو القدمين من الهواء اللذان يعلوان سطح الأرض مباشرة نجدها نتيجة لذلك تنخفض بسرعة كبيرة فى هذا الحيز .

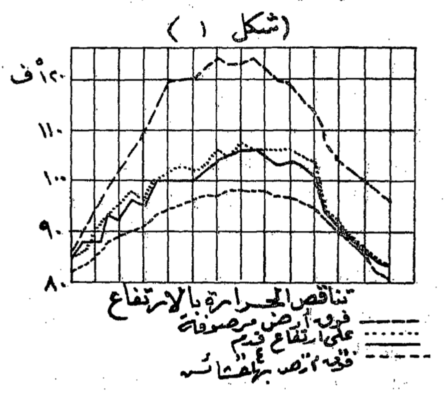
وقد أجريت تجربة فى مدينة رڤرسايد Riverside بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية على طريق أسفلت بعد ظهر أحد الأيام فوجد أن حرارة الأسفلت نفسه مرتفعة بمقدار ١٨° ف عن درجة حرارة الهواء على ارتفاع قدم واحد من سطح الأسفلت (أنظر شكل ١) . ومن الممكن أن توجد مثل هذه الحالة فى أى مكان آخر ولكن بمعدل تناقص للحرارة Lapse rate أقل من هذا ، وذلك عندما يكون سطح الأرض مكونا من تربة بها بعض الرطوبة ذلك لأن جزءا من أشعة الشمس التى تصل إلى سطح التربة يستنفذ فى تبخير الماء الموجود فى التربة .

كذلك تعتمد حرارة الجزء الأسفل من الغلاف الغازى القريب من سطح الأرض على مدى قدرة التربة على توصيل الحرارة إلى الهواء وهو ما يعبر عنه باصطلاح Heat conductivity[1] ، فاذا كانت هذه القدرة قليلة فان سطح التربة يصبح شديد

(1) Blair A. Thomas, « Weather Elements, » N. J. 1959, p. 96.
Willett, Hurd C., «Descriptive meteorology,» New York, 1959, p. 38.

الحرارة لانه يحتفظ بأشعة الشمس المرسلة إلية أو بمعظمها والعكس صحيح . وفى حالة انخفاض قدرة التربة على توصيل الحرارة إلى طبقة الهواء التى تعلوها ، فان جزءاً كبيراً من حرارة التربة يتجه إلى أسفل متغلغلا إلى باطن التربة فيقوم بتسخين التربة السفلى Subsoil . أما فى حالة سطح الماء فان حرارة السطح لا ترتفع كثيراً لأن نفاذ الحرارة إلى الطبقات السفلى يتم بدرجة أسرع ولأن جزءاً من الحرارة يستنفذ فى عملية تبخير الماء .

(شكل ١)



وقد أجرى الأستاذ جيجر دراسة لمكان قريب من مدينة ميونيخ بألمانيا لحصر عدد الأيام التى تزيد حرارتها عن ٧٧° ف (٢٥° م) على ارتفاعات مختلفة من سطح الأرض وتوصل إلى النتائج التالية فى الجدول :

الارتفاع عن سطح الأرض	عدد الأيام التى تزيد حرارتها عن ٧٧° ف					
	مايو	يونية	يولية	أغسطس	سبتمبر	المجموع
١٥٠ سنتيمتر	٥	٨	١٩	١٤	٩	٥٥
١٠٠ »	٦	٩	١٩	١٥	١٠	٥٩
٥٠ »	٧	١٠	٢٠	١٧	١٠	٦٤
٥ »	١٢	١٨	٢٥	٢٢	١٤	١٩

أما أثناء الليل فان أقل درجات حرارة تحدث أيضا عند سطح الأرض مباشرة حيث أن فقدان الحرارة بالاشعاع يبلغ أقصاه من سطح الأرض ومن المعروف أن سطح الأرض يفقد حرارته بالاشعاع أسرع من فقدان الهواء لها ، لذلك نجد هناك انقلابا فى التوزيع العمودى للحرارة Temperature inversion فى طبقات الهواء القريبة من سطح الأرض خاصة فى الليالى التى لا توجد بها سحب والتى تتميز بعدم حركة الهواء لأن ذلك يساعد على سرعة فقدان الحرارة من سطح الأرض[1]. وحيث أن قدرة الهواء على توصيل الحرارة أقل من قدرة التربة فان التربة المسامية أقل قدرة على توصيل الحرارة من التربة الصماء أو ضيقة المسام ، كما أن الأرض المحروثة أقل قدرة على توصيل الحرارة من الأرض غير المحروثة ، كذلك الأرض المغطاة بالقش أو الحشائش الجافة أقل قدرة على توصيل الحرارة من الأرض العارية وذلك بسبب وجود الهواء بين عيدان القش وبعضها أو بينها وبين التربة . لذلك يحدث الصقيع فى أغلب الأحيان فى المناطق المغطاة بالقش ولذلك يجب التخلص من الحشائش الجافة التى تغطى التربة فى المناطق المعرضة لحدوث الصقيع .

الرطوبة : كما هو الحال بالنسبة للحرارة فاننا نجد رطوبة الهواء تبدى تغيراً سريعا فى الاتجاه العمودى من سطح الأرض وخلال الطبقة المحدودة من الهواء القريبة من السطح . ولكى نتفهم توزيع الرطوبة فى الجزء الأسفل من الغلاف الغازى لابد أن نناقش أولا الرطوبة المطلقة absolute humidity ذلك لأن دراسة هذا العنصر تتيح التعرف على الضوابط الطبيعية التى تؤثر على توزيع الرطوبة فى الهواء . ولما كان مصدر رطوبة الهواء هو سطح الأرض فان أعلى نسبة للرطوبة تكون عند سطح الأرض مباشرة والاستثناء لهذا يوجد فى حالتين ، الأولى عندما تكون هناك عملية تصعيد قوية للهواء المحمل ببخار الماء إلى الطبقات العليا والثانية عندما يحدث تكاثف فى طبقة من الهواء تعلو بعض الشىء عن سطح الأرض .

أما التغير اليومى للرطوبة المطلقة فانه يحكم بواسطة الضوابط الطبيعية السابق ذكرها فالحد الأدنى للرطوبة المطلقة عند سطح الأرض يحدث فى الساعات المبكرة من النهار

---

(١) Trewartha, Glenn T., «An Introduction to Climate, New York, 1954, p. 30.

عندما تكون الحرارة منخفضة ، وكلما ارتفعت درجات الحرارة ترتفع كمية الرطوبة فى الهواء بسرعة حتى تصل إلى نهايتها العظمى قبل الظهر ثم تبدأ الرطوبة المطلقة فى القلة مرة أخرى لسببين أولها أن سطح الأرض يصير جافا نسبيا بعد أن استمر التبخر منه لساعات طويلة من شروق الشمس حتى الظهر وثانيهما أن انتقال بخار الماء من طبقة الهواء القريبة من سطح الأرض إلى الطبقات العليا تتم بسرعة كبيرة فى ساعة الظهيرة ولذلك تقل كمية بخار الماء فى الهواء القريب من سطح الأرض فى الوقت الذى ترتفع فيه الحرارة إلى حدها الأقصى ، ويبدو هذا الحد الأدنى للرطوبة المطلقة أكثر وضوحا فى المناطق الصحراوية الجافة . أما فى ساعات المساء فتبدأ الرطوبة المطلقة فى الارتفاع مرة أخرى .

أما عن الرطوبة النسبية Relative humidity فإنها تقل كلما ارتفعنا عن سطح الأرض رغم أن درجة الرطوبة النسبية لا تتوقف على كمية بخار الماء فى الهواء فقط ، وإنما تتوقف فى المقام الأول على درجات الحرارة . وقد لوحظ اختلاف يصل إلى ٤٠٪ فى درجة الرطوبة النسبية بين الهواء على ارتفاع ٥ سم من سطح الأرض والهواء على ارتفاع ٢٠٠سم من سطح الأرض . ويمكن القول بصفة عامة أن معدل تناقص الرطوبة النسبية بالارتفاع أكثر وضوحاً أثناء الليل عنه أثناء النهار ، ففى أثناء الليل تنخفض حرارة الهواء الملامس لسطح الأرض عن حرارة الهواء الذى يعلوه بدرجة واضحة كذلك تقل كمية بخار الماء فى الهواء كلما ارتفعنا لذلك تنخفض الرطوبة النسبية بالارتفاع . أما خلال النهار فان الحرارة تكون مرتفعة بالقرب من سطح الأرض وتقل بسرعة بالارتفاع — كما ذكرنا من قبل — لذلك فان الرطوبة النسبية بالقرب من سطح الأرض لا تعلو كثيراً عنها فى طبقات الهواء الأكثر ارتفاعاً . ومهما كانت كمية بخار الماء كبيرة فى الهواء القريب من سطح الأرض فان ارتفاع الحرارة ارتفاعاً شديداً يجعل الرطوبة النسبية منخفضة[1] .

<u>الرياح</u> : تتغير الرياح أيضاً فى اتجاهاتها وسرعتها بالقرب من سطح الأرض

(1) Landsberg, H. : «Physical Climatology», p. 216 1954, Poc.

فتختلف بذلك عن الرياح فى طبقات الهواء الأعلى . فبالقرب من سطح الأرض تكون الرياح بطيئة للغاية وذلك بسبب تأثير عوائق السطح Surface friction ، ثم تزداد سرعة الرياح كلما ارتفعنا لأن عوائق السطح تقل أو ينعـدم تأثيرها على الرياح[١] .

ومن الجدول التالى يتضح أن عدد المرات التى سجلت فيها حالات ركود فى الهواء تزيد فى النطاق القريب من سطح إذا قورن بالنطاقات التى تعلوه :

الارتفاع بالسنتيمتر	ســـاعات النهار							
	٠ — ٣	٣—٦	٦—٩	٩ - ١٢	١٢—١٥	١٥—١٨	١٨—٢١	٢١—٢٤
٥	٤١	٣٦	٢٥	٦	٥	١٦	٤٦	٤٣
٢٥	٣١	٢٦	١٠	١	٠	٧	٣٣	٢٤
٥٠	٢٢	١٨	٤	١	٠	٢	٢٢	٢٥
١٠٠	١٨	١٣	٢	١	٠	٢	١٦	١٩
١٠٠	١٣	١٢	٠	٠	٠	١	١٢	١٥

ونلاحظ أن حالات ركود الهواء تزداد بصفة خاصة فى الساعات المتأخرة من المساء ، ويقل عدد حالات الركود كلما ارتفعنا إلا فى حالات نادرة . ومن الملاحظ أيضاً أن سرعة الرياح تزداد أثناء النهار عنها أثناء الليل .

وبعد مناقشة أهم عناصر المناخ فى الحيز الصغير من الغلاف الغازى القريب من سطح الأرض نفرد جزءاً لتوضيح أهم عناصر البيئة الطبيعية التى تؤثر على الأحوال المناخية التفصيلية .

تأثير مظاهر السطح على المناخ التفصيلى : من المعروف أن مظاهر السطح تؤثر فى الأحوال المناخية العامة على المقياس الكبير ، كذلك نلاحظ أن مظاهر السطح

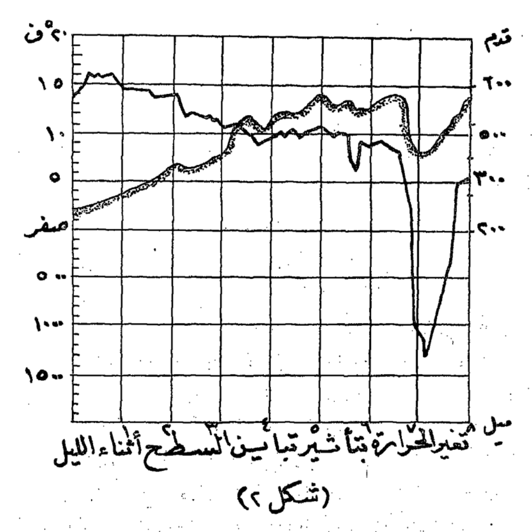
(١) Taylor, F. George, «Elementary Meteorology», 1959. pp. 133—134.

تؤثر على الأحوال الجوية والمناخية فى الحيز الصغير من الغلاف الغازى الذى نحن بصدده .

ومن أهم مظاهر تأثير التضاريس على المناخ التفصيلى ظاهرة انحدار الهواء البارد إلى الأجزاء المنخفضة من سطح الأرض أثناء الليل ، ويحدث هذا حتى بالنسبة للحفر الصغيرة . وقد قام الأستاذان مدلتون وميلار [1] بقياس درجات الحرارة فى أحد الشوارع الرئيسية فى مدينة تورنتو Toronto فى كندا وهو شارع يونج Yonge الذى يشق المدينة من بحيرة أنتاريو Ontario حتى الطرف الشمالى للمدينة وذلك فى يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٦ ، وقد أجريت التجربة بواسطة ترمومتر ثبت فى سيارة على ارتفاع ٢٧ بوصة من سطح الأرض . وقد بدىء فى قياس درجات الحرارة على طول الطريق بعد منتصف الليل بست دقائق واستغرق القياس أربعين دقيقة فى الاتجاهين من وإلى البحيرة ، وكان الطريق مموجا أى به ارتفاعات وانخفاضات . وقد تميز ذلك المساء الذى أجريت فيه التجربة بخلو السماء من السحب . وقد اتضح من القياس (شكل ٢) أن درجات الحرارة تنخفض انخفاضا واضحا فى الأجزاء المنخفضة من الطريق وبدرجة أقل من الأجزاء المنخفضة القريبة من البحيرة بسبب تأثير نسيم البحيرة على رفع درجات الحرارة بعض الشيء . وأهم ما يلاحظ هو الانخفاض الكبير لدرجات الحرارة عند الميل السابع من الطريق . وهذا التباين الواضح فى درجات الحرارة بين قيعان الأودية والأجزاء المرتفعة يحدث بوجه خاص فى الليالى الصحوة الهادئة الهواء ، ففى مثل تلك الليالى يبرد سطح الأرض بسرعة بفعل الإشعاع وتنخفض درجة حرارة الهواء القريب من سطح الأرض فيبدأ هذا الهواء البارد الثقيل فى الانزلاق إلى بطون الاودية والأجزاء المنخفضة من سطح الأرض حيث يتجمع فيها . ويشبه انحدار الهواء إلى أسفل انحدار الماء من أعلى الجبل إلى أسفل الوادى ولكن مع الفارق . وقد يقال أن انحدار الهواء من أعلى إلى أسفل يؤدى إلى تدفئته عن طريق الضغط بالهبوط adiabetic heating فان هذا وإن صح فى حالة المناخ الإقليمى على المقياس الكبير إلا أنه غير صحيح فى حالة المناخ التفصيلى ذلك لأن الارتفاعات صغيرة والمسافة التى ينحدرها الهواء لا تسمح

(1) Haurwitz, Bernhard, and James M. Austin, «Climatology», N. Y. 1944, p. 164.

بتدفئته أثناء هبوطه . والذى يحدث عادة أن الهواء البارد عندما ينزلق إلى الاجزاء المنخفضة فانه يطرد الهواء الدافىء الموجود فى بطن الوداى إلى أعلى فيصعد هذا الهواء الدافىء نسبيا ويحتل جوانب الانحدار التى تصبح نتيجة لذلك أكثر دفئا من بطن الوادى ، ويتخذ الهواء الدافىء المتصاعد شكل دوامات على جانبي الوادى . وهذا الهواء الدافىء نفسه يبرد بعد ذلك ثم ينحدر مرة أخرى إلى بطن الوادى وهكذا[1] .



(شكل ٢)

وقد قام الأستاذ جيجر Geiger بدراسة مماثلة إذ أنه سجل النهايات الصغرى للحرارة خلال سنة كاملة فى بقعة قطعت غاباتها ومنسوب الانحدار فيها ١ : ٢٠٠ بالقرب من مدينة ميونيخ فى جنوب ألمانيا . وقد وجد جيجر أنه حتى فى الأجزاء

(١) Blair A. Thomas, «Climatology, General and Regional, N. Y. 1942, pp. 78—82.

ذات السطح المستوى فان انزلاق الهواء قد يعوقه حاجز بسيط مثل جذوع الاشجار الملقاة على سطح الأرض .

وفى الجدول التالى نجد النهايات الصغرى للحرارة خلال شهرى مايو ويونية عندما يكون فصل الصقيع قد قارب الانتهاء وخلال شهر أكتوبر أى فى بداية فصل الصقيع . وقد أخذت القياسات فى ثلاث نقط على طول المنحدر كل منها على ارتفاع ٥ سنتيمترات عن سطح الأرض ، وكانت النقطة الأولى عند حضيض المنحدر والثانية على بعد ٤٨ متراً من النقطة الأولى وعلى ارتفاع يزيد عن النقطة الأولى بـ ٢٤ سنتيمتراً والثالثة على بعد ٨٠ متراً من النقطة الأولى وتزيد فى ارتفاعها ٤٠ سنتيمتراً عن النقطة الأولى . وقد وجد جيجر أن المتوسط الشهرى للنهايات الصغرى أقل بكثير عند حضيض المنحدر عنها عند أعلى المنحدر ، وبالتالى فان التعرض للصقيع أكثر خطورة فى الأجزاء المنخفضة عنه فى الأجزاء المرتفعة :

الشهور	الارتفاع عن سطح الأرض (نسبياً)		
	صفر	٢٤سنتيمتر	٤٠ سنتيمتر
متوسط النهاية الصغرى			
مايو	٢٩٫٣°ف	٣٠٫٩	٣١٫٥
يونية	٣١٫٦	٣٢٫٧	٣٢٫٧
أكتوبر	٢٩٫٣	٢٩٫٣	٣١٫٨
عدد مرات الصقيع			
مايو	٢٢	٢٠	١٧
	١٥	١٣	١٢

ورغم أن الفروق فى درجات النهايات الصغرى للحرارة قليلة إلا أن هذه الفروق ذات أهمية كبيرة خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الارتفاعات محدودة أولا وأن الفرق

بينها قليل جداً . كذلك نلاحظ أن مستوى هذه الارتفاعات جميعاً أقل من المستوى الذى توضع فيه أجهزة المراصد وهو مترين .

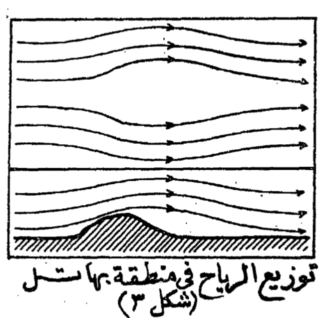
أما عن سرعة الهواء الذى ينحدر من أعلى إلى أسفل فهى سرعة محدودة لا تزيد فى العادة عن متر واحد فى الثانية ، ومن أهم العوامل التى تؤثر فى حركة انحدار الهواء شكل الانحدار واتجاهه[1] . ولكى نتعرف على تأثير شكل الانحدار واتجاهه نضرب مثالا بتل قبابى سيمترى الشكل غير شديد الانحدار ، وبذلك تكون كمية الإشعاع الشمسى التى يستقبلها أى جزء من التل متوقفة على عوامل أخرى خلاف انحدار التل واتجاهه . والمفروض فى هذه الحالة أن الجانب الشرقى يستقبل كمية من الأشعة مساوية للجانب الغربى من التل وأن أشعة الشمس توزع على الجانبين بالتساوى فهى تسخن الجانب الشرقى من شروق الشمس حتى الظهر وتسخن الجانب الغربى من الظهر حتى الغروب (على شرط أن تتساوى جميع الأشياء الأخرى مثل كمية السحب وحركة الهواء) .

غير أن التجارب الواقعية دلت على أن درجات الحرارة على الجانب الغربى من التل تكون أعلى من درجات الحرارة على الجانب الشرقى والسبب فى ذلك أنه خلال النصف الأول من النهار وعندما تكون أشعة الشمس مسلطة على الجانب الشرقى من التل فان الهواء يسخن أيضا ويقوم هذا الهواء بتسخين الجانب الغربى من التل بعض الشىء وعندما تصل أشعة الشمس إلى الجانب الغربى فى النصف الثانى من النهار فانها لا تبدأ التسخين من الصفر ، فى حين أن تسخين الجانب الشرقى فى الصباح يبدأ من الصفر بعد ساعات الليل الباردة . لذلك فان السفوح الغربية للمرتفعات تكون أكثر حرارة من السفوح الشرقية إذا تساوت جميع الظروف الأخرى . ولما كانت أشعة الشمس تصيب السفوح الجنوبية فى نصف الكرة الشمالى أكثر من غيرها فانه يمكننا أن نضيف أن السفوح الجنوبية هى أكثر السفوح حظوة بأشعة الشمس . وهذه القاعدة صحيحة إذا كانت المرتفعات ذات شكل منتظم وهو مالا يتوفر فى الطبيعة دائما ، فقد يحدث أن يكون اتجاه التل بحيث تسلط أشعة الشمس على

---

(1) Sverre Petterssen, «Introduction to Meteorology» 1958, N. Y. pp. 164—169.

سفحه الشرقى معظم ساعات النهار وحينذاك تكون درجات الحرارة على السفح الشرقى أعلى منها على أى جانب آخر . وهناك عامل آخر يتدخل لتغيير هذا الوضع المثالى وهو كمية السحب ، فلو حدث أن زادت كمية السحب بعد الظهر فان هذا يقلل من كمية أشعة الشمس التى تصل إلى الجانب الغربى . وهذه الحالة شائعة فى العروض المدارية القريبة من خط الإستواء حيث تتجمع سحبها فى ساعات ما بعد الظهر .



توزيع الرياح فى منطقة بها تـــل
(شكل ٣)

أما عن التبخر فانه يتدخل لصالح رفع درجات الحرارة على الجانب الغربى من التلال ، ذلك لأن جزءا كبيراً من المياه التى توجد فى التربة على الجانب الغربى يتبخر فى النصف الأول من النهار ، لذلك فان ما يضيع من الحرارة فى التبخير عندما تصل أشعة الشمس إلى الجانب الغربى يكون محدودا ، فى حين أن جانبا كبيراً من أشعة الشمس المرسلة إلى الجانب الشرقى يضيع فى تبخير الميـــاه الموجودة فى التربة على ذلك الجانب .

وإلى جانب الحرارة التى تنال الاهتمام الأكبر فى دراسة العلاقة بين مظاهر السطح والمناخ فان الرياح والمطر يظهران تأثرا ملحوظا بالسطح أيضا . فعلى المقياس الإقليمى الكبير نجد أن السفوح المواجهة للرياح تنال كمية أكبر من الأمطار إذا قورنت بالسفوح التى توجد فى منصرف الرياح . أما على المقياس التفصيلى فان الارتفاعات محدودة لدرجة أنها لا تؤثر على تبريد الهواء وحدوث التكاثف ، ولذلك فان العامل الأساسى الذى يؤثر فى كمية المطر هو سرعة الرياح . وفى استعراض

توزيع الرياح وأثر مظاهر السطح نعود مرة أخرى إلى المثال السابق الخاص بالتل القبابى السيمترى الشكل . وقد أجرى الأستاذ جيجر عدة تجارب أثبت بها أن سرعة الرياح تزداد على الجانب المواجه للرياح وخاصة عند قمة التل ، كذلك تشتد السرعة على جانبى التل ذلك لأن الرياح تعبر فوق التل وتدور حوله أيضاً لأن ارتفاعه ليس كبيراً وامتداده ليس واسعا . أما على الجانب الآخر للتل Lee side فان سرعة الرياح تقل . ويتفق توزيع المطر مع توزيع الرياح فحيثما تشتد سرعة الرياح يقل المطر لذلك فان كمية المطر تزداد على الجانب غير المواجه للرياح وهذا عكس ما يحدث على النطاق الإقليمى ، والأدلة على ذلك كثيرة فالثلج الساقط يزداد على جوانب الكتل الصخرية والأشجار والمبانى غير المواجهة للرياح ، وبناء حواجز الثلج يراعى فيها أن تكون على الجوانب غير المواجهة للرياح .

أثر النباتات على أحوال المناخ التفصيلى : يختص هـذا الجزء بمناقشة تأثير النباتات على الأحوال المناخية التفصيلية ، وتأثير النباتات هنا له أهمية واضحة ذلك لأن معظم النباتات تنمو قريباً من سطح الأرض ، ووجود غطاء نباتى يعطى خصائص معينة لسطح الأرض كما أنه يغير من شكل سطح الأرض[1] .

أما فيما يتعلق باعطاء التربة خصائص معينة فاننا نجد أن الأرض التى بها نباتات تمتص قدراً أكبر من الحرارة إذا قورنت بالتربة العارية من النباتات ، أما كمية الإشعاع الأرضى الذى يتم على هيئة موجات طويلة فهى أقل فى حالة التربة ذات الغطاء النباتى عن التربة العارية ، ومعنى هذا أن هناك توازن حرارى للسطوح التى تغطيها النباتات عن تلك التى لا تغطيها نباتات . كذلك نجد أن النباتات توجد بها عدة سطوح لاستقبال الأشعة أو فقدانها ممثلة فى الفروع والأوراق ، لذلك فان الفروع والأوراق العليا تحمى الفروع والأوراق السـفلى من اكتساب قدر زائد أو فقدان قدر زائد من الحرارة وهكذا لا توجد تطرفات حرارية .

وهناك عامل آخر يؤثر على حرارة السطوح المغطاة بالنباتات وهو تكون الندى الذى يعوق خروج الإشعاع الأرضى بنسبة تصل أحياناً إلى ٣٠٪ . والعامل الوحيد

---

(١) Hawruitz, Reinhard, and Austin, James M. «Climatology», p. 165.

الذى يقلل من حرارة المناطق المغطاة بالنباتات هو عامل التبخر الذى يزداد حيثما توجد نباتات ولكن تأثيره لا يعادل العوامل الأخرى التى تساعد على زيادة الحرارة المكتسبة فى المناطق التى بها غطاءات نباتية .

ووجود غطاء نباتى يؤثر أيضاً على سرعة الرياح إذ هو يحد منها ، ويزداد سمك طبقة الهواء التى تتأثر بهذا العامل كلما زاد ارتفاع النبات عن سطح الأرض كما هو الحال بالنسبة للأشجار العالية ، كما يتضح من الجدول التالى :

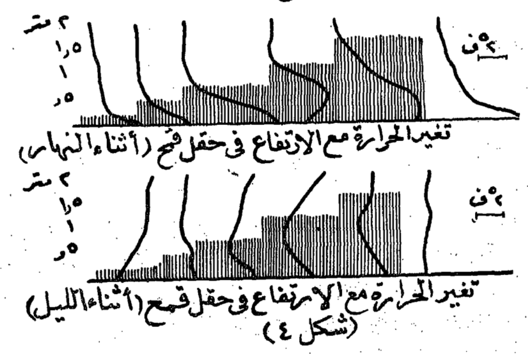
الغطاء النباتى	الارتفاع بالسنتيمتر	سرعة الرياح (متر فى الثانية)
بين جذوع الأشجار	١٠	١
عند تيجان الأشجار	٥٠	٣,٧
فوق الأشجار	١٨٠	٩٣

ويتضح من هذا الجدول أن سرعة الرياح قليلة بين جذوع الأشجار ثم تزداد السرعة قليلا عند قمم الأشجار ولكنها تقفز مرة واحدة إذا ارتفعنا إلى ما فوق الأشجار .

أما عن تأثير النباتات على الحرارة والرطوبة فيمكن الرجوع إلى شكل ٤ حيث يظهر الجزء العلوى منه توزيع الحرارة فى حقل قمح خلال فترات نموه المختلفة، ويبدو ارتفاع عيدان القمح بالخطوط الرأسية المظللة . وفى جميع الحالات يبدو تأثير امتصاص النبات لأشعة الشمس ، فنلاحظ أن درجات الحرارة تتغير بسرعة كلما ارتفعنا خلال عيدان القمح بينما التغير قليل مع الارتفاع بعد أن نصعد فوق قمة النبات ، ويرجع ذلك إلى أن حركة الحرارة إلى أعلى بطيئة بسبب تأثير النبات ، وكلما كبر النبات وارتفع كلما قلت كمية أشعة الشمس التى تصل إلى سطح التربة ، لذلك فان أعلى درجة حرارة لا تكون عند التربة مباشرة وإنما على ارتفاع منها[١] .

(١) Sutton, O. G., «The Challenge of the Atmosphere», New York, 1961, pp. 159—179.

ويظهر من الرسم أن القمح قد حصد فى ٢٦ يولية لذلك فان الخط البيانى الأخير وهو خاص بالفترة من ٢٦ يولية إلى ١٢ أغسطس يوضح تناقص الحرارة بالارتفاع على تربة عارية Lapse Rate . أما تناقص الحرارة بالارتفاع أثناء الليل فهو موضح فى الجزء الثانى من شكل ٤ ومنه يتضح أن الأحوال عكس ما يوجد أثناء النهار ، فعندما يكون النبات قصيراً أو معدوما فان أقل درجات حرارة أثناء الليل تسجل عند سطح التربة مباشرة . وعندما يكبر النبات فان أقل درجات حرارة تسجل على ارتفاع يقع بين سطح التربة وقمة النبات وذلك لسببين الأول أن الحرارة المفقودة لا تأتى من قمة النبات فقط ولكن من الأجزاء السفلى منه أيضا لأن قمم النبات لا تمثل سطحا مستويا متصلا ، والسبب الثانى هو أن الهواء الذى يوجد عند قمم النبات عندما يبرد فانه يهبط من مكانه قليلا ولكنه لا يصل إلى سطح التربة كما أن سطح التربة نفسه لا يمثل السطح الأساسى للاشعاع الأرضى لأنه مغطى بالنبات . لكل هذا فان أقل درجات حرارة أثناء الليل فى حقل القمح توجد فى منتصف المسافة تقريبا بين سطح التربة وقمة عيدان القمح[1] .



(شكل ٤)

ويختلف توزيع الحرارة فى المزارع المختلفة إذا كانت النباتات من نوع آخر غير القمح ، فقد سجلت أعلى درجات حرارة فى حديقة زهور عند قمم النباتات تماما

(١) United States Department of Agriculture, «Climate and Man», 1941, «S. C. Salmon : Climate and Small Grains», pp. 321—342.

إذ أن أوراق الزهور تكون مسطحاً متصلا يقوم مقام سطح التربة ويختلف عن سطح عيدان القمح ، لذلك فان سطح الزهور هو الذى يستقبل معظم أشعة الشمس الواردة وهو الذى يشع هذه الأشعة بدوره على هيئة موجات طويلة إلى الفضاء .

كذلك الحال بالنسبة للغابات حيث أن تيجان الأشجار تقوم بدور سطح الأرض فى استقبال أشعة الشمس وإشعاعها . وأعلى درجات حرارة خلال النهار فى مناطق الأشجار توجد عند قمم الأشجار ثم تقل الحرارة نحو سطح الأرض الذى يوجد فى الظل ، أما فوق قمم الأشجار فان الحرارة تقل بالمعدل العادى ، وفى أثناء الليل يكون الهواء فى الغابة أدفأ من الهواء فى العراء ذلك لأن الهواء داخل الغابة يكون محمياً بواسطة جذوع الأشجار ، وأثناء النهار يكون الهواء داخل الغابة أبرد من الهواء فى العراء وذلك بسبب الظل الذى توفره الأشجار وبسبب ضياع جزء من الحرارة فى عملية التبخر . لذلك فان الغابات تنشىء فى المناطق التى توجد بها نظاما شبيها بنسيم البحر والبر حيث تقوم الغابة فى هذه الحالة بدور البحر . أما من ناحية الرطوبة فانها تكون أعلى فى مناطق النباتات عنها فى المناطق الخالية وذلك بسبب ارتفاع كمية التبخر فى مناطق النباتات .

خاتمة : وهكذا نجد كيف أن الأحوال الجوية والمناخية فى النطاق المحدود القريب من سطح الأرض بما فيه من تفاصيل طبوغرافية ونباتات ذات أهمية كبيرة كما أن بها الكثير من الدقائق التى تخفيها الدراسة المناخية الإقليمية . ولا شك أن دراسة المناخ التفصيلى تحتاج إلى التجارب الخاصة التى تجرى فى منطقة البحث لأن القياسات التى تحتاجها لا تأتى عن طريق المراصد الجوية العادية . ولابد لكى يتقدم علم المناخ والدراسات المناخية من الاهتمام بالمناخ التفصيلى ، إذ علاوة على أهميته من الناحية الأكاديمية فان له أهمية لاتنكر من الناحية التطبيقية .

تم طبع هذه المجلة بالهيئة العامة للكتب والأجهزة العلميـــة ـــ مطبعـــة جامعة القـــاهرة ـــ فى يوم الخميس الموافق ٣٠ من مايو سنة ١٩٦٨ .

مدير المطبعة
احمد سلامة

(مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٧/٧٢١/٤٥٠)

18. II, 33.

19. Auf diese syntaktischen Eigentuemlichkeiten weist Baumann hin : 1, S. 312, 2, S. 427.

20. III, 809.

21. s. «Skizze der Erkenntnis des Dichters», III, 781-785 ; dieselbe Scheidung in zwei Bereiche erfolgt auch im Abschnitt V des Essays «Ansaetze zu neuer Aesthetik» (III, 672-674).

22. U. Karthaus hat einige Schritte dieser Entwicklung nachgezeichnet (a.a.O. S. 73-117).

23. II, 18 und II, 137.

24. II, 723.

25. Baumann 2, S. 423, Karthaus S. 82.

26. II, 81.

27. E. Wilkins und E. Kaiser schreiben, dass Musil das Symbol der Bruecke haeufig verwendet (R. Musil, Leben, Werk, Wirkung, Hamburg 1960, S. 168.)

28. II, 69-73.

29. H. Brosthaus : Musils «wahre Antithese» in : Wirkendes Wort 14, 1964, S. 127.

30. Baumann 1, S. 303, Baumann 2, S. 433.

31. II, 71.

32. Ebda.

33. z. B. II, 17 und II, 20 f.

34. z. B II, 33, II, 86, II, 118 f.

35. II, 143 f.

36. Was P. Nusser in seiner Dissertation «Musils Romantheorie», Goettingen 1963, unterlassen hat.

ausserdem von diesem Erstling auf das spaetere Hauptwerk (36), so erweist sich erst recht die grossartige Geschlossenheit von Mussils Oeuvre, moegen auch entscheidende Modifikationen (wie das Prinzip des Essayismus, die satirischen und ironischen Momente) noch fehlen. Der «Toerless» schildert ein Loch im Denken als Darstellung eines individuellen Sonderfalles, waehrend Ulrich, der Mann ohne Eigenschaften, sein Leben aufGrund der Einsicht in die universale Doppelheit einzurichten versucht. Im «Mann ohne Eigenschaften» wird—um ein letztes Mal das Bild zu beanspruchen—die Konstruktion einer Bruecke ins Imaginaer—Utopische unternommen.

Anmerkungen

Die Werke Musils werden nach der Ausgabe von A. Frisé zitiert als : Prosa, Dramen, Spaete Briefe, Hamburg 1957=II, Tagebuecher, Aphorismen, Essays und Reden, Hamburg 1955 = III.

1. R. Minder : Kadettenhaus, Gruppendynamik und Stilwandel von Wildenbruch bis Rilke und Musil, in : R. M. Kultur und Literatur in Deutschland und Frankreich, Frankfurt 1962.
2. III, 285, vgl. auch III, 776.
3. III, 803.
4. So insbesondere die Rezensionen nach dem Erscheinen ; vgl. III, 807 und II, 723.
5. W. Berghahn : R. Musil in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten, Hamburg 1963, S. 27-34.
6. R. Minder und W. Berghahn a.a.o.
7. Einzig G. Baumann hat in seinen beiden Aufsaetzen : R. Musil, eine Vorstudie, GRM, N. F. III, 1953, S. 292-316 (im folgenden als Baumann 1 zitiert) und : R. Musil, Die Struktur des Geistes und der Geist der Struktur, GRM, NF, X, 1960, S. 420-442 (=Baumann 2) wichtige Anregungen zu einer werkimmanenten Interpretation des «Toerless» gegeben.
8. Rahmen wird hier nicht im streng literaturwissenschaftlichen, sondern im alltaeglichen Sinne verwendet. Der «Toerless» ist keine Rahmenerzaehlung, da beide Teile auf derselben erzaehlerischen Ebene sich abspielen.
9. III, 809.
10. Baumann 1, S. 294.
11. III, 783.
12. Baumann 1, S. 302 sowie B. Pike : R. Musil, Ithaka 1961, S. 47.
13. II, 786.
14. U. Karthaus : Der andere Zustand, Berlin 1965 (Philolog. Studien und Quellen, Heft 25).
15. a.a.O. S. 79-87.
16. a.a.O. S. 79
17. II, 26 ff., 32 ff., 40 ff.

Aehnliches :» ... Situationen, wo der Zusammenhang versagt, der sonst unser Leben lueckenlos in unserem Verstand sich abspielen laesst, als liefen sie parallel und mit grosser Geschwindigkeit nebeneinander her » (32). In einer Zwischenbemerkung deutet Musil analysierend dieses Phaenomen, wie er ueberhaupt nie die Tatsache, dass ein Erzaehler am Werke ist, zu verschleiern sucht : oefters treffen wir Reflexionen des Autors (33) sowie Vorgriffe (34) auf spaeteres Geschehen, welche die Position des allwissenden Autors markieren. Schliesslich rueckt das Erlebnis des Doppelsinnes der Wirklichkeit die Toerless umgebenden Gegenstaende in eine unheimliche Entfernung, in der sie ein bedrohliches, weil jeder Kommunikation entzogenes Dasein fuehren. Einzig der Schlag des eigenen Herzens verbuergt Kontinuitaet und Verlaesslichkeit. In dieser Entfremdung ist die Rueckkehr zum alltaeglichen Umgang mit der Wirklichkeit vorbereitet, mag diese nun auch geheimnisvoller und respektgebietender geworden sein. Toerless hat durch diese seine schmerzliche Erfahrung einen weiteren Schritt zu der Erkenntnis gemacht, die er am Schluss zu formulieren vermag : «Ich weiss, die Dinge sind die Dinge, und werden es wohl immer bleiben ; und ich werde sie wohl immer bald so, bald so ansehen. Bald mit den Augen des Verstandes, bald mit den anderen ... Und ich werde nicht mehr versuchen, dies miteinander zu vergleichen ...» (35) So setzt denn die folgende Szene wieder mit einer alltaeglichen Erfahrung ein, die einen neuen «mutierten» Augenblick vorbereitet und dadurch den Erkenntnisprozess weitertreibt.

So uebt das Gesetz des Romans seine Kraft auch in der einzelnen Szene aus, indem es ihn immer wieder vom Bereich des bloss Faktischen befreit und ihn in jenes Reich des Moeglichen weist, das den einzig der Poesie angemessenen Spielraum darstellt. Beispiele zu liefern aus dem nichtratioiden Gebiet, wo die Ausnahme ueber die Regel herrscht, wo alles unendlich variabel ist und neue Konstellationen sich bilden : diesen Anspruch, den Musil an die Dichtung stellt, vermag er mit seiner neuen Form des Romans zu bewaeltigen. Zwar dringt traditionelle Erzaehlweise immer wieder durch, im Rahmen staerker als im Hauptteil, was zur Rubrizierung unter die Erziehungsromane ebenso verleiten mochte wie die oberflaechliche Betrachtung der Darstellung von inneren Zustaenden unter die des psychologischen Romans. Die Einheitlichkeit des Werkes, seinen Kunstcharakter, negieren beide Betrachtungsweisen, weil sie sich der asketischen Erfuellung eines Kunstgesetzes verschliessen. Blickt man

Dass dies auch auf die einzelne Episode zutrifft, sei an einem—allerdings zentralen—Beispiel (28) erlaeutert. Die Schilderung fuehrt als Ausgangspunkt in bewaehrter Weise Umwelt (Park im Spaetherbst) und Stimmung des Helden (Unruhe) vor. Toerless hat sich von seinen Kameraden abgesondert (H. Brosthaus hat darauf aufmerksam gemacht, dass schon in «Monsieur le vivisecteur» die Einsamkeit das «Abenteuer der Introspektion» (29) foerdert) und legt sich ins Gras, um sich seinen Meditationen zu ueberlassen. Damit ist der Absprung vorbereitet und die Motivation fuer den Umschlag in den «anderen Zustand» geliefert. Dieser setzt mit einem ploetzlichen Erschrecken ueber einen bisher unproblematischen, selbstverstaendlichen Tatbestand ein : die Unendlichkeit des Himmels ueber ihm reisst ihn aus seinen Gedanken heraus und entzieht ihm den festen Grund. Hier tauchen die erwaehnten syntaktischen Mittel der drei Punkte sowie des gehaeuften Und-Einsatzes auf, welche die gleitenden Uebergaenge im simultanen Kontinuum markieren sollen. Toerless fuehlt sich ausgeliefert, weil er der Sphaere rationaler Deutbarkeit entrueckt ist. Zwar versucht er sich dem Sog des Unheimlichen durch rationale Konstruktion zu entziehen, die er sich einzureden versucht, um das Loch im Denken, das sich ihm so jaeh aufgetan hat, zu ueberdecken Aber Denken wie Sprache versagen angesichts seiner Erfahrung (Baumann hat mit Recht auf die Naehe zum Chandosbrief des jungen Hofmannsthal aufmerksam gemacht) (30). Ein ueber alle Erfahrung und Vernunft Hinausreichendes beherrscht ihn so sehr, dass er jeden Zusammenhang mit der Umgebung zu verlieren droht. Dem drohenden Verlust der Persoenlichkeit stellt Toerless Erinnerungen entgegen, die ihm seine Identitaet zu garantieren vermoegen. Allerdings korrespondieren diese Erinnerungen darin miteinander, als sie die Wirklichkeit als bruechige ueberliefern. Sie bestaerken dadurch in gewisser Weise noch die Verwirrungen. Die Erkenntnis der Doppelheit von Wirklichkeit, so klaeren sie den Verwirrten auf, war seit seiner Kindheit in ihm angelegt und bricht sich nun unter diesen bestimmten Umstaenden Bahn. Die Leere des unendlichen Himmels, der Diebstahl Basinis und die imaginaeren Zahlen erweisen sich als Phaenomene derselben verwirrenden Ordnung, die ihn sogar in die Gefahr bringt, die beiden Erscheinungsweisen nicht mehr miteinander in Beziehung setzen zu koennen : «Es kam wie eine Tollheit ueber Toerless, Dinge, Vorgaenge und Menschen als etwas Doppelsinniges zu empfinden. Als etwas, das durch die Kraft irgendwelcher Erfinder an ein harmloses, erklaerendes Wort gefesselt ward, und als etwas ganz Fremdes, das jeden Augenblick sich davon loszureissen drohte.» (31). Dass ihm aber die Welt doch nicht schizophren auseinanderbricht (wie im «Mann ohne Eigenschaften «der Clarisse), deutet der folgende Abschnitt an, wo Toerless seiner Vernunft wieder maechtig ist, obgleich er deren Inkonsequenz, ja Unzulaenglichkeit aufs schmerzlichste empfindet. Er spinnt sich ganz in Erinnerungen ein, zurueckgezogen in seine Einsamkeit, und findet dort abermals

die Selbstverstaendlichkeit der verlaesslichen Wirklichkeit und macht einer ungesicherten, fremden, drohenden und dennoch merkwuerdig verlockenden Welt Platz. Die beiden Erscheinungsweisen der Welt miteinander in Beziehung zu bringen, den Zusammenhang zwischen Aussen-und Innenwelt anzuerkennen, ist die Aufgabe, an der Toerless zu scheitern droht. Die Spaltung umfasst die Totalitaet der ihm entgegentretenden Erscheinungen. Am ausfuehrlichsten werden die an den Diebstahl Basinis sich anschliessenden sexuellen Verwirrungen dargestellt, wobei aber die homoerotische Komponente eine akzidentielle, und nicht die primaere Absicht des Verfassers darstellt: Musil betont mit Recht, dass an Stelle Basinis ebenso eine Frau, an Stelle der Knabenliebe eine andere geschlechtliche Verirrung haette stehen koennen (24). Das Entscheidende liegt in der Verwandlung : die harmlos-normale Alltagswelt der Schule erweist sich als Reservoir perverser Triebe, anstaendige Kameraden entpuppen sich als Diebe und Sadisten, und Toerless selbst muss zu seiner Verwunderung feststellen, dass auch seine moralischen Grundlagen nicht so gefestigt sind, dass er sich aus allem herauszuhalten vermoechte. Selbst vor mathematischen und philosophischen Wahrheiten macht diese Gespaltenheit nicht Halt, auch sie enthuellen ein Doppelgesicht. Besonders klar vermag Toerless das Problem angesichts seiner Spekulationen ueber die imaginaeren Zahlen zu formulieren, ein Passus, der von vielen Autoren (25) mit Recht als eine Kernstelle Musilscher Dichtung zitiert wird : diese an sich nicht existierenden Faktoren vermoegen eine Rechnung, in der die wirklichen Zahlen nicht mehr weiterfuehren, zu loesen. Aus dieser Paradoxie vermag den verwirrten Toerless der um Rat angegangene Lehrer nicht zu befreien, der sich mitangelesenen Kant-Floskeln aus der Affaere zu ziehen versucht. Toerless bannt den Sachverhalt in ein praegnantes Bild: «In solch einer Rechnung sind am Anfang ganz solide Zahlen, die Meter, oder Gewichte oder irgend etwas anderes Greifbares darstellen koennen und wenigstens wirkliche Zahlen sind. Am Ende der Rechnung stehen ebensolche. Aber diese beiden haengen miteinander durch etwas zusammen, das es gar nicht gibt. Ist das nicht wie eine Bruecke, von der nur der Anfangs-und Endpfeiler vorhanden sind und die man dennoch so sicher ueberschreitet, als ob sie ganz dastuende ?» (26) Dieses Bild benennt zugleich die Struktur des Romans und verdeutlicht unsere Scheidung in Rahmen und Hauptteil : wie die Bruecke sich vom festen Ufer aus ueber den leeren Raum schwingt, so bewegt sich der Roman ueber den Abgrund des Moeglichen, der alles Wirkliche erst konstituiert. Doch nicht nur die Grossform, auch die Kleinstruktur wird durch dieses Ueberspringen der Wirklichkeit gekennzeichnet. Die einzelnen Episoden fuehren immer wieder in jenen «anderen Zustand», wo die Verlaesslichkeit des Wirklichen sich aufloest und erst nach seiner Infragestellung rehabilitiert wird. In solcher Analogie laesst sich das Bild der Bruecke (27) auf die Struktur des Romans uebertragen: sein Gesetz liegt in der Verbindung von Festem und Ungesichertem, in der Bewegung von Ausbruch und Rueckkehr.

untersucht und sich die ersten Mittel zu dessen Verwirklichung verschafft (22). Die Universalisierung des Moeglichkeitsprinzipes (mit seinen notwendigen Korrelaten des Essayismus und der Ironie) vollzieht er erst im Hauptwerk. Dennoch darf nicht uebersehen werden, dass in der Abkehr des Psychologischen als eines bloss differenzierteren Mittels der Realitaetsabbildung sowie in dem Versuch einer mehr auf das Flaechenhaft-Simultane von Zustaenden zugeschnittenen Erzaehlweise uns das Musilsche Kunstprinzip in statu nascendi entgegentritt. Musil gestaltet im «Toerless» einzelne Augenblicke, welche als verwirrende Erfahrungen einen Pubertierenden heimsuchen, die dieser aber ueberwinden wird (zweimal, am Anfang und am Ende, wird dafuer das Bild des Baumes (23) gebraucht, womit ein Zusammenhang des Rahmens im Sinn von Aufgabe und Erfuellung gestiftet wird). Die Beschraenkung auf einen individuellen Fall wird Musil in seinem Hauptwerk sprengen, wo die Verwirrungen zur Signatur einer Epoche ausgeweitet werden.

So ergibt eine Inhalts-wie eine Zeitanalyse denselben Sachverhalt einer Scheidung in zwei Bereiche, wie sie Rahmen und Hauptteil konstituieren. Dort wird in traditioneller Weise Faktisches am Faden der fortlaufenden Realzeit erzaehlt, hier werden die Bedingungen des Tatsaechlichen in der mehrschichtig-simultanen Erzaehlweise von einzelnen aus der Realzeit ausbrechenden Augenblicken analysiert. So wird nicht bloss der Aufbau, sondern ebenso das Erzaehlen durch das Gesetz der Scheidung in Rahmen und offenes Experimentierfeld bestimmt. Die Bewegung des Romans vollzieht sich nach demselben Gesetz : ausgehend von einer faktischen, raum-zeitlichen Realitaet erfolgt der Abstoss in den Bereich des Vorfaktischen, des Vielfaeltig-Moeglichen, dem notwendig ein Rueckfall in die Wirklichkeit folgt. Dabei wird den Uebergaengen grosse Bedeutung zugemessen. Die Bewegung vom Wirklichen zum Moeglichen und von diesem zurueck in eine nun reichere Wirklichkeit gilt aber nicht nur fuer die Grossform, sondern ebenso fuer die Feinstruktur. Bevor wir das an einer Stelle ausfuehrlicher nachweisen, muss noch auf eine weitere Besonderheit von Musils «Toerless» aufmerksam gemacht werden.

Die Scheidung in zwei Bereiche, das Zusammen und Gegeneinander von Wirklichkeit und Moeglichkeit wird im Roman selbst thematisiert. Der «Toerless» erfuellt sich als genaue Entsprechung zu seinem eigenen Problem. In staendig neuen Ueberlegungen, Diskussionen und Formulierungsversuchen (Toerless beginnt sogar eine eigene Abhandlung zu schreiben) wird um diese Scheidung gerungen. Was im Roman selbst vorgetragen wird, bestimmt dessen Struktur bis in den Aufbau der einzelnen Szenen und die syntaktische Struktur. Die Verwirrungen des Internatszoeglings bestehen darin, dass die Realitaet ihre Konstanz verliert. In den von ihm erlebten Augenblicken verschwindet

dem Internat in der zeitlichen Reihenfolge der Ereignisse erzaehlt (wobei besonders am Anfang einige Rueckgriffe den Expositionscharakter verstaerken). Der Anfangsteil stellt einen halben Tag, der Schlussteil ca. zehn Tage dar. Im Hauptteil aber laesst sich die Zeitdauer nicht mehr bestimmen : er mag Tage, Wochen oder gar Monate dauern : das Entscheidende geschieht ausserhalb der kalendarischen Zeit. Bewusst verschleiert Musil die Spuren einer zeitlichen Fixierung, indem er die meisten neuen Einsaetze mit einer indifferenten oder bloss relativen Bestimmung einleitet wie «am naechsten Tag », «so kam es, dass...», «es kamen zwei Feiertage ..», «spaeter» etc. Diese vagen Anhaltspunkte bereiten nur jenes Abstossen von der aeusseren Wirklichkeit vor und werden sogleich bedeutungslos im Vergleich zu den ausserhalb der Realzeit sich abspielenden Vorgaengen. Der Faden, an dem eine Erzaehlung sich abzuwickeln pflegt, wird so aufgedroeselt, die praegnanten Augenblicke,auf deren Darstellung sich der Hauptteil beschraenkt, sind gerade durch das Ausbrechen aus der ueblichen Zeiterfahrung gekennzeichnet. Ihrer Verschraenkung von Vergangenheit, Gegenwart und Zukunft, von Erinnerung, Stimmung und Ahnung sucht Musil durch ein Erzaehlen gerecht zu werden, das sich nicht mehr eindimensional, sondern simultan-flaechenhaft ausbreitet : die mutierten Augenblicke werden in ihre Verfaserungen, in die feinsten Veraestelungen hinein verfolgt. Freilich muss, was Sprache nicht anders leisten kann, Simultanes neben-und nacheinander entfaltet werden, sodass solche (in der Realzeit vielleicht nur Sekunden dauernde) Zustaende nun mit groesserer Intensitaet und Praezision geschildert werden als Handlungsablaeufe, die sich ueber Stunden hinziehen. Musils Vorliebe fuer die langgezogenen «Gedankenstriche» und jenes Ausstroemen der Saetze in drei Punkte,die fuer den «Toerless» eben so charakteristisch sind wie die haeufigen Und-Einsaetze werden von deher varstaendlich. Nur im Nacheinander vermag Sprache einen Zustand zu artikulieren, der in all seinen Manifestationen sich gleichzeitig ereignet. Hier waere vielleicht an den Ausspruch Musils zu erinnern, der dartut, wie streng dieser sich an das Kunstgesetz zu halten wusste : «...selbst die Interpunktion gliederte den Inhalt nicht fuer den Leser, sondern fuer das gewaehlte Gesetz» (20). Dieser erste Versuch einer flaechenhaften Erzaehlweise wird freilich noch nicht zu einem grossen Gewebe ausgebreitet wie im «Mann ohneEigenschaften»,sondern bleibt in den Rahmen der fixierten Raum- und Zeitverhaeltnisse als stets neues Ausbrechen daraus eingespannt. Doch vermag allein solches Ausbrechen jene Zusammenhaenge von psychischen und geistigen Mechanismen sichtbar zu machen, welche die eigentliche Aufgabe des Romanciers darstellen. Vom festen, durch seine Unveraenderlichkeit uninteressanten Bereich des Faktisch-Wirklichen springt der Kuenstler in das Gebiet des Moeglichen, wo jene Kraefte walten, die das Handeln erst motivieren (21). Dieses Kunstprinzip hat Musil im «Toerless» erstmals auf seine Tragfaehigkeit hin

Mit vollem Recht, denn seine Intention geht auf Darstellung von geistigen Faktoren innerhalb des «nichtratioiden» (11) Gebietes aus, das allein er der Dichtung zumisst. Parallel zu der Zurueckdraengung des Faktischen laeuft ein Verzicht auf Anschaulichkeit, sodass etwa die aeussere Gestalt von Toerless(12) ausserhalb der Absicht von Musil liegt; die Physiognomie ist gegenueber der seelischen Strukturierung bedeutungslos. So wird Beschreibung ueberall dort als ueberfluessig ausgespart, wo sie nicht geistig Relevantes zu foerdern vermag. Auch darin erweist sich Toerless als juengerer Bruder des Mannes ohne Eigenschaften.

In solchen Versuchen, hinter die Wirklichkeit von Figur und Handlung vorzustossen, manifestiert sich ein Abruecken vom traditionellen Roman, im Bestreben, innere Zustaende darzustellen und geistige Gesetzlichkeiten aufzuweisen, wird der Ansatz Musils zu einer neuen Form des Romans fassbar, der eine hoehere Aufgabe zu erfuellen hat : der Roman soll nicht mehr unterhalten, sondern Beitraege liefern zur geistigen Bewaeltigung der Welt (13). In dem Ungenuegen an der ueberlieferten Romanform treffen sich Musils Bemuehungen mit jenen Ausbruchsversuchen Rilkes, R. Walsers, Benns und Kafkas aus denselben Jahren. Freilich hat Musil erst in seinem Hauptwerk, dem «Mann ohne Eigenschaften», die Konsequenzen aus seiner Kunsttheorie gezogen, doch zeugt insbesondere der Mittelteil des Toerlessromans von seinem Willen zur Erneuerung.

Die analytische Aufloesung des Handlungszusammenhanges, die Sprengung des Erzaehlgefueges, die Teilung in Rahmen und Hauptteil lassen sich praezisieren durch eine Analyse der Zeitverhaeltnisse. U. Karthaus hat in seiner Arbeit «Der andere Zustand» (14) Zeitstrukturen im Werk Musils untersucht und ist dabei auch kurz auf den «Toerless» eingegangen (15). Er hat festgestellt, dass das lineare Zeitkontinuum aufgehoben wird zugunsten einer «mutierten » (16) Zeit. Die den herkoemmlichen Roman strukturierende Zeitfolge wird in einzelnen praegnanten Augenblicken dissoziiert, welche Vergangenheit und Zukunft vereinen. Die Analyse solcher ausserhalb des normalen Bewusstseins liegender Augenblicke, deren Entstehung an bestimmte Dispositionen, Stimmungen, Erinnerungen, Umwelteinfluesse etc. gebunden ist, stellt Musil im Hauptteil dar. Die Aufloesung des Zeitkontinuums entspricht damit genau dem Zurueckdraengen des Faktischen und ist im Hauptteil besonders weit vorangetrieben. Eine Zeitanalyse laesst sich hier kaum mehr durchfuehren, wohl aber im Rahmen, wenngleich auch da schon Dissoziierungen auftauchen. So erlebt Toerless etwa in der Konditorei und bei Bozena Augenblicke, die ueber die gewohnte Zeiterfahrung hinaus den Zusammenhang der Realitaet in Frage stellen (17). Zu einer eigentlichen Aufloesung des Zusammenhanges kommt es indessen noch nicht, sondern diese Erfahrungen bleiben «vorlaeufig» und «erste Andeutungen» (18). So werden der Abschied von den Eltern wie der Austritt aus

Funktion ungefaehr dem Gedankenstrich. Mit diesem sozusagen typographischen Befund stimmt nun der innere Aufbau des Romans keineswegs ueberein. Dieser gliedert sich deutlich in drei Teile : der erste (II, 15-44) schildert als Exposition den Nachmittag und Abend der Abfahrt von Toerless' Eltern, die ihren Sohn besucht hatten und berichtet vom Aufenthalt der beiden Freunde Toerless und Beineberg in der Konditorei sowie deren Besuch bei der Dirne Bozena. Der mittlere Teil (II,44-129) stellt die eigentlichen Verwirrungen des jungen Toerless anhand der Geschichte vom Diebstahl und der Bestrafung Basinis dar, waehrend der Schlussteil (II 129-146) das Fazit zieht und den Austritt Toerless'aus der Anstalt bringt. Doch versammelt Musil alles Interesse auf den Hauptteil (85 Seiten gegenueber 29 bzw. 17 Seiten), in welchem die Handlung weit staerker zuruecktritt als im Rahmen (8). Hier bemueht er sich, das Geschehen auf seine geistigen Komponenten hin zu untersuchen, seinen Bedingungen nachzuspueren, waehrend im Rahmen der chronikale Erzaehlton des traditionellen Romans vorherrscht. Schon aus diesem Befund ergibt sich ein Uebergewicht der geistigen Analyse ueber das Aeusserlich-Handlungsmaessige, hier bereits wird Musils Weg sichtbar, der vom Realismus des Romans wegstrebt («vom Realismus zur Wahrheit» (9) fordert er selbst einmal), um diesem neue, geistigere Bereiche zu erschliessen. Er nimmt im Mittelteil innere Zustaende, Gedanken und Gefuehle in ihren merkwuerdigen Verbindungen unter die Lupe im Hinblick auf ihre Gesetzmaessigkeiten. Der Aufbau des «Toerless» erfolgt also bereits nach der von Baumann getroffenen Bestimmung : «Handlungen sind ja bloss die eindeutig erkennbaren Gipfelungen, waehrend das flaechenhaft Zustaendliche noch das vieldeutig Moegliche birgt» (10).

Welche Konsequenzen ergeben sich nun aus dieser Auffassung von Dichtung? Das auf Darstellung von Handlung ausgerichtete traditionelle Erzaehlen musste erweitert, die Romanform modifiziert werden. Musil droeselt den Faden der kontinuierlichen Zeitfolge auf, die Zug um Zug der Handlung berichtet, indem er die geistig-seelischen Konstellationen, die das Handeln erst bedingen, aufzuzeigen versucht. Es werden, insbesondere im Mittelteil, nur noch einzelne, praegnante Momente ausgewaehlt, welche die Analyse des inneren Zustandes ermoeglichen und begruenden, so dass die Episoden zu blossen Stuetzen des Autors herabgewuerdigt werden, zu einem Vorwand, der sie ihrer Eigenstaendigkeit beraubt. Die ganze Diebstahlgeschichte wird nur in jenen Momenten vorgetragen, in denen sie relevant ist fuer den Zustand von Toerless. Das Nachzeichnen von inneren Zustaenden, mit denen verglichen die ausgeloesten Handlungen bedeutungslos erscheinen, geschieht freilich in anderer Weise als im psychologischen Roman, wo die Erlaeuterungen des Autors die Wahrscheinlichkeit der Handlungsweise des Helden einsichtiger machen. Doch hat sich Musil immer entschieden dagegen verwahrt, dem Psychologismus zugerechnet zu werden.

LOECHER IM DENKEN

Zur Struktur von R. Musils Roman «Toerless»

CHRISTOPH SIEGRIST

Der erste Blick truegt : was man bequem als psychologische Pubertaetsstudie in die Umgebung von Wildenbruch, Wedekind, Th. Mann und Rilke einweisen zu koennen glaubte (1), wird vom Autor ausdruecklich verworfen : «Die reale Erklaerung des realen Geschehens interessiert mich nicht. Mein Gedaechtnis ist schlecht. Die Tatsachen sind ueberdies immer vertauschbar. Mich interessiert das geistig Typische, ich moechte geradezu sagen : das Gespenstische des Geschehens. (2)». Wie weit ist diese spaetere Bemerkung Musils schon fuer seinen Erstling relevant, inwiefern hat er diese These im Roman verwirklicht ? Wie verhaelt es sich mit der von ihm postulierten Bedeutungslosigkeit des Stoffes : «Kurz ehe ich die Verwirrungen des Zoeglings Toerless zu schreiben begann ..., habe ich diesen «Stoff verschenkt», d. h. alles, was in der Geschichte an «Milieu», an «Realitaet» und «Realismus» vorkam ... Als ich ein Jahr spaeter selbst nach dem Stoff griff, geschah es buchstaeblich aus Langeweile ... bis zum heutigen Tag kommt das, was ich erzaehle, fuer mich erst in zweiter Linie ... Die Wahrheit war, dass ich auf den vorgelegten «Stoff» selbst gar keinen Wert legte»(3). Haben sich aber—wenn Dekor und Handlung tatsaechlich jene Zufaelligkeit aufweisen —die bisherigen Wuerdigungen (es sind nur wenige), die auf psychologische Deutung (4), auf Erhellung aus der Biographie (5) und auf motivgeschichtliche bzw. soziologische Zusammenhaenge (6) aus sind, nicht auf einen der Intention des Verfassers gerade entgegengesetzt laufenden Pfad begeben, der an der Absicht des Autors vorbeifuehrt ? (7) Es sei im folgenden versucht, die von Musil angelegte Faehrte zu verfolgen und dem Roman staerker als bisher von seinem Aufbaugesetz her beizukommen. Ohne vorgepraegte Muster vorschnell als Masstaebe anzulegen, moechten wir dem Gesetz des Romans aus dessen eigenen Voraussetzungen her nachspueren.

Der «Toerless» weist keine Einteilung in Kapitel auf, sondern gleitet in einem Zuge fort, unterbrochen durch Absaetze, die einen etwas groesseren Abstand aufweisen als gewoehnlich. Die haeufig auftretenden Striche ueber die ganze Seite hin trennen nicht einzelne Kapitel, sondern entsprechen in ihrer

97. PAUQUEVILLE : op. cit, p. 549 — — — DEPPING : op. cit., I, p. 19 — — HEYD : op. cit., II, p. 485.

98. DARRAG (A) : Djem-Sultan et la diplomatie internationale (en arabe), dans Bull. Soc. Egypte des Etudes Historiques, VIII, 1959, pp. 234-335.

99. Philippe de Peretz, Barcelonais d'arigine, fut nommé cette même année (1498) consul de Catalans à Alexandrie. Il occupa ce poste jusqu'à sa mort en 1525. Voir :

— CAPMANY : Memorias historicas sobre la marine commercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona, Madrid 1779—1792, T. II, pp. 307—308, Charte No. CCXII.

— SALLES : Le origines des premiers consulats de la nation française, dans RHD, T. X, p. 16.

— HEYD : op. cit., II, p. 539.

100. HEYD : op. cit., II, p. 496 (D'après le consul vénitien à Alexandrie en 1498).

— — — Arnold von Harff, celui-ci de passage à Alexandrie (1496—1499) signale la même obsérvation (Voir : The pilgrimage of Arnold von Harff (1496—1499), ed. Malcolm Letts, p. 95).

101. IBN IYĀS : Bada'i al-zuhur fi waqa'i al-duhūr, éd. KAHLE et Mustafa, Istambul, T. IV, p. 146.

— WIET (G) : L'Egypte rabe, p. 622.

102. Le voyage d'Outre-mer de JEAN THENAUD, éd. Ch. Schefer, Paris 1884, p. LV-LVI.

103. IBN IYĀS : Bada'i al-Zuhur, T. IV, p. 185, 191-192, 195, 196, 199.

— Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LVI-LVII.

— VAN BERCHEM: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Syrie du Sud, Jérusalem «ville», I, p. 400.

— WIET : op. cit., p. 621.

104. Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LVIII-LIX.

105. IBID : pp. LX-LXII — — — HEYD : op. cit., II, pp. 539-540.

106. Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LXIV-LXV.

107. IBN IYĀS : Bada'i al-Zuhur, IV, p. 255, 257, 268.

— Le voyage d'Outremer, pp. LXVII-LXVIII.

— VAN BERCHEM : op. cit., I, pp. 400-401.

— WIET : op. cit., pp. 625-627.

— HEYD : op. cit., II, p. 540.

108. L'ambassadeur vénitien arriva au Caire le 23 safar 918/15 mai 1512. Sur sa mission Voir:

— IBN IYĀS : op. cit., IV, p. 259, 268-269.

— Le Voyage d'Outremer, pp. LXXVII-LXXXIII, 180 et suiv.

— VAN BERCHEM : op. cit., I, p. 401.

— WIET : op. cit., pp. 627-628.

109. FAMEN (C.) : Histoire de la rivalité et du protectorat des églises chrétiennes en Orient, Paris 1853, p. 189.

— SALLES : Les origines des premièrs consulats , RHD, T. X, p. 121.

77. Un des temoins dèpose que J. Cœur, possédait 7 galères qui devaient porter à chaque voyage de 16,000 à 20,000 ducats. Un autre dit que dans un voyage qu'il fit en 1445 sur la galere St. Denis on transporta 25,000 a 30,000 ducats. A Rhaodes l'argent fut fondu et mis en plaquette, poinçonnées d'une fleur de lys, mais il fruda sur le poids et les «Sarrazins» d'Alexandrie, auxquels fut délivreé cette mannaie de mauvaise aloi furent «mal contens et disaient qu'ils n'avaient point accoustumé voir telles tromperies». Sur ce point J. Cœur pretend qu'il n'a transporté dans le Levant que des monnaies étrangères et une très pétite quantité de la monnaie françasie. (Voir DE BEAUCOURT : op. cit., p. 24, 26).

78. A propos de la restitution de cet esclave , J. Cœur allegua les empêchements qui sans cela séracent survenus pour la libre circulation de ses galères. Il n'avait agi, disait. il, que sur les plaintes des marchands et sur les observations du Grand Maître de Rhodes, et il ignorait que l'esclave était chrétien. (Voir Ibid : p. 22, 27).

79. Voir DE BEAUCOURT : Le procès de J. Cœur, p. 24, 26. — — — Histoire de Charles VII, vol. III, p. 222, note 8, p. 226.
— — — CLEMENT : J. Coeur et Charles VII, vol. I, p. 12, note 3.
— — — GUIRAUD : op. cit., p. 40.

80. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 440. — — — HEYD : Histoire du commerce, II, p. 485.

81. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 355.

82. CLEMENT : op. cit., p. 37.

83. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 355.

84. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 420 — — — HEYD : op. cit., II, p. 485 — — — PIGEONNEAU : op. cit., I, p. 366, 379.

85. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 356—357.

86. SPONT (A) : La bourgeoisie financière au début du XVI siècle, Paris 1895, p. 4.
— — — BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 357.
— — — HEYD : op. cit., II, p. 484.

87. HEYD : op. cit., II, p. 485.

88. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, pp. 365—367.

89. IBN IYĀS : Histoire des mamlouks circassiens, T. II, (872—906. H.), traduite par G. WIET, Le Caire, 1945, p. 128-129.

90. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 367.

91. IBN IYĀS : op. cit., p. 134.

92. BARATIER et REYNAUD : Ibid.—Voir plus loin.

93. IBID : pp. 367—368.

94. IBID : p. 369, note 2.

95. HEYD : op. cit., II, p. 484, 485, 486.

96. SOTTAS : Les Messageries maritimes de Venise au XIVè et XVe siècles, Paris 1938, pp. 213-214.—(Felix Faber et Breydenbach tronvèrent la même année le fondouk des Catalans à Alexandrie a peu pres vide mais le consul catalan etait a son poste—Voir HEYD : op. cit., II, p. 486).

62. GUIRAUD : op. cit., pp. 55-56.

THOMAS : op. cit., p. 112 (ce droit lui donne la franchise dans les ports chrétiens du Levant.)

63. GUIRAUD : op. cit., p. 5.

64. Chronique de Mathieu d'Escouchey, éd., DE BEAUCOURT, I., pp. 121-124.

— GUIRAUD : op. cit., p. 53.

— HEYD : op cit, II, p. 484. (Le consulat français n'était pas une création absolumen-nouvelle mais il semble que le poste serait resté longtemps sans titulaire).

65. IRISSOU (L) : Les épiciers apothicaires et les poivriers de Montpellier dans le cadre communal au Moyen-Age, dans Bull. de Sciences pharmacologiques, 1931, p. 117. 120. (1 Il'y avait à Montpellier trois corporations d'épices: les especiages «'épiciers apothicaires», les perbiers sobeyrans «poivriers en gros»., et les perbiers de merca. et candeliers de cera «poivriers detaillant et chandeliers de cire).»

66. SALVADOR : op. cit., p. 101.

— THOMAS : op. cit, p. 115.

— IRISSOU : op. cit., p. 521.

67. PILOTI (E) : L'Egypte au commencenent du XVe siècle, éd. P. H. Dopp, Le Caire, 1950 pp. 57-75. (Nous ne savons pas exactement à quelle année piloti quita l'Egypte, mais il était là pendant la con quête de chypre et jusqu'a la mort de Barsbay (1438). Il partit de l'Egypte plein de haine et presente son ouvrage au Pape Gregoire IV à Florence en 1439).

68. Voir SALVADOR : op. cit., p. 157.

69. Pour le souk des draps au Caire Voir :

— Wiet : op. cit., p. 496.

70. L'étain et le cuivre d'Angleterre et d'Irlande arrivaient par la garonne jusqu'à Toulouse et de la on les transportait à dos de bête jusqu'aux ports de la Mediterranée où on les embarquait sur des vaisseaux Français pour Alexandrie. Ce circuil est ancien ; il est siqualé pour Narbonne par Abul-Feda (Voir : DEVIC (M) : Les villes de la France méridionale au Moyen-Age, Paris 1882. pp. 10-11).

71. PIGEONNEAU : op. cit. I, p. 373.

72. CLÉMENT : op. cit., I, p. 12.

DE BEAUCOURT : op. cit., III, p. 487.

PIGEONNEAU : on. cit., I., p. 371.

MOLLAT : op. cit., I, p. 170.

73. Voir plus haut et plus loin.

74. LAVISSE : Histoire de France, T. IV., 2e partie, p. 163. (sur la traite des esclaves).

75. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, pp. 380. 394

76. Jacques Cœur invoque l'autorisation du roi et deux brefs des papes Eugene IV et Nicolas V portant congé à propos de la vente d'armes. (Voir DE BEAUCOURT : Le procès de J. Cœur, p. 22, 26 et note 8).

44. IBID : pp. 342—343.

45. IBID : p. 344.

46. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 8.

47. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II., p. 283., 345--346.

48. DE LA BROCQUIÈRE (B.) : op. cit., p. 32., note 1 — PORT : op. cit., p. 133.
— HEYD : op. cit., II, p. 461.

49. GUIRAUD : op. cit., pp. 5-6, 38-39.

50. DE LA BROCQUIÈRE (B) : op. cit., p. 32. — GUIRAUD : op. cit., p. 6.

51. THOMAS : op. cit., p. 7.

52. PIGEONNEAU : op. cit., I, P. 369, note 2

53. Dans les Sources Arabes ne figurent aucun fait rélatif à l'activité commerciale des Français en Egypte pendant les règnes de Barsbay et de Gaqmaq.

54. DE BEAUCOURT : Histoire de charles VII, Paris 1881-1889, vol. III, p. 487.

55. GUIRAUD : op. cit., p. 101.

56. UBICINI : op. cit., p. 16 — CLÉMENT : op. cit., I, p. 44 — BIGEONNEAU : op. cit. I, p. 369.

57. THOMAS : op. cit., p. 110 — MOLLAT : Les Affaires de Jacques Cœur, Journal du procureur Dauvet I, Paris 1952. & p. 6.

58. C'est la Ire date précise que les documents nous fournissent en ce qui concerne son activité commerciale en Egypte. Voir :

— HEYD : Histoire du commerce, II, p. 491., note 4

—CLÉMENT : op. cit., I, p. 140.

— PIGEONNEAU : op. cit., I, p. 373.

Sur les rélations entre Vénise et l'Egypte en 1441-1442 Voir :

— JORGA (N) : Notes et extraits pour servir à l'histoire des croisades au XV siècle, Paris, 1899-1902, T. III, pp. 68-69,72-85,89,94 105.

59. DARRAG (A) : L'Egypte sous le règne de Barsbay, éd. Inst. Fr. de Damas, Damas 1961, p. 278.

60. CLÉMENT : op. cit., I., pp. 142-143.

—PERIGOT : Histoire du commerce français, Paris 1884, p. 121.

— PIGEONNEAU : op. cit., I, p. 273.

— WIET : op. cit., p. 583.

— Le 8 février 1446 le Grand Maître enjoigait par une bulle à deux de ses receveurs en Province de payer à J. Cœur les frais qui lui étaient dus pour ce voyage et pour le trausport des prisonniers.

61. GUIRAUD : op. cit., p. 108.

DE BEAUCOURT : Le procés de Jacques Cœur, Paris, 1890, p. 22, 27.

18. THOMAS : op. cit., p. 92.

19. WIET (G.) : L'Egypte arabe, p. 488.

20. THOMAS : op. cit., p. 97 — — — IRRISSOU : op. cit., p. 512.

21. GUIRAUD : op. cit., p. 17. — — — THOMAS : op. ;cit., p. 103.

22. GERMAIN : op. cit., T. II, p. 22 et note 1. (Malik Manṣūr occupa le trône mamlouk du 20 mars 1361 jusqu'au 20 mai 1363).

23. GERMAIN : op. cit., T. II, p. 19 et note 2, p. 265. — — — GUIRAUD : op. cit., p. 20. — — — CLÉMENT : Jacques Coeur et Charles VII, Paris 1863, T. I, p. 41.

24. BERNE (A.) : Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen-Âge, Montpellier 1904, p. 109, 169—172.

25. GUIRAUD : op. cit., pp. 39—40.

26. Ibid : p. 48.

27. Ibid : p. 107.

28. NOËL (O) : Histoire du commerce du monde, T. I, Paris 1891, p. 280.,

29. MAS-LATRIE (R. De) : Histoire de l'île de Chypre, Paris 1852, T. II, p. 536, note 2.

30. GUIRAUD : op. cit., pp. 5—6, 38—40.

31. UBICINI (M. A.) : Jacques Cœur en Orient, Extrait de la Revue de l'Orient, Paris 1860 p. 13. — — — JULLIANY : Essai sur le commerce de Marseille, Marseille 1834, T. I, p. 20 — HEYD : Histoire du commerce, T. I, p. 92.

32. HEYD, : op. cit., I, p. 420, 421 — — — PERNOUD : op. cit. p. 42.

33. JULLIANY : op. cit., I, pp. 34—35 — — — SALVADOR (E) : Histoire des echelles du Levant, Paris 1857, p. 62 — — — UBICINI : op. cit., p. 16.

34. PARDESSUS : op. cit., III, p. CXI — — — BARATIER et REYNAUD : Histoire du commerce de Marseille, II, (de 1291 à 1480), Paris 1951, pp. 319-322.

35. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 358.

36. DEPPING : op. cit., II, 49 — — — PERNOUD : op. cit. p. 46.

37. PARDESSUS : op. cit., III, p. CXI.

38. HEYD : op. cit., II, p. 461.

39. THENAUD (J) : Le voyage d'outre-mer de Jean Thenaud, éd. ch. Schefer, Paris 1884, Intrud. pp. XV—XVII.

40. BARATIER et REYNAUD : op cit, II, p. 339., note 1. (le 20 octobre 1402 Jean Audibert était nonniné consul à Alexandrie).

41. DE LANNOY : Œuvres, p. 108.

42. PARDESSUS : op. cit. III, p. CXI—DE VIRIVILLE : op cit., p. 8—BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 362.

43. BARATIER et REYNAUD: op. cit., II, p. 340., note 1., (deux voyages en Orient, l'annee 1425 et 1428).

Anmerkungen

1. PAUQUEVILLE : Histoire du commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, T. X, p. 543.

   DEPPING (G. R.) : Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe, Paris 1830, T. II, pp. 108—109.

   — — — : Il faut noter que les sources arabes ne font pas dans les conditions de la paix établies entre St. Louis et le dernier sultan Ayyoubide Touran-Chah, puis le prémier sultan Mamlouk Aibak, aucune allusion à ce fait. Voir : NESSIM (G) : Louis IX au Moyen-Orient (en arabe), Le Caire 1959, p. 123, 153, 156-159, 160-161. —

   — — — ZIADA (M. M.): La croisade de Louis IX en Egypte et sa défaite à la bataille de Mansourah (en arabe), Le Caire 1961, p. 200 et suiv, 230 et suiv, 246 et suiv, 312.

2. DI PIETRO : Histoire d'Aigues-Mortes, Paris 1849, pp. 152-153.

   PORT : Essai sur l'histoire du commerce de Montpellier, Paris 1854, p. 340.

   GUIRAUD (L) : Jacques Cœur, dans Mém. Soc. Arch. de Montpellier, 2e série, T. II, 1900, p. 17.

3. DE VIRIVILLIE : Jacques Cœur, Paris 1864, p. 8.
4. DE LA BROCQUIÈRE (B) : Voyage d'outre-mer, éd. Ch. Schefer, Paris 1892, p. 32.
5. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 8 — — DI PIETRO : op. cit., pp. 152-153 —
   THOMAS (L. J.) : Montpellier, ville marchande, Montpellier, 1930, p. 103.
6. PIGEONNEAU (H) : Histoire du commerce de la France, Paris 1885, T. I, p. 366.
7. PERNOUD (R.) : Les villes marchandes aux XIVe et XVe siècles, Paris 1948, p. 46.
8. PARDESSUS (J. M) : Collection de lois maritimes, Paris 1828-1845, T. III, Introd. p. CVIII.
9. Sur Frescobaldi en 1384 voir PARDESSUS : op. cit., T. III, Introd., P. CXII ; DEPPING : op. cit., T II, p. 301 — — — A propos du Signeur d'Anglure voir son voyage : Le saint voyage de Jhérusalem, éd. Bonardot et Longnon, Paris 1878, p 56.
10. HEYD (W) : Les consulats établis en Terre-Sainte au Moyen-Age, dans ROL II, p. 363.
    — — — SALLES (G) : L'institution des consulats, dans RHD, XI, 1897, p. 423
11. DE LANNOY : Œuvres de Ghilebert de Lannoy, voyageur, diplomate et moraliste, éd. Potvin, Louvain 1878, p. 109
12. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 8.
13. GERMAIN (A) : Histoire du commerce de Montpellier, Montpellier 1861, T. I, p. 4.
14. HEYD (W) : Histoire du commerce du Levant au Moyen - Age, trad. Fr., 2e éd., Leipzig 1923, T. I p. 368.
15. IRISSOU (L.) : Les épiciers apothicaires et les poivriers de Montpellier dans le cadre commercial au Moyen-Age, dans Bulletin des Sciences Pharmacologiques, 1931, p. 512. — — — GERMAIN : op. cit., T. II, p. 8 et note.
16. GERMAIN : op. cit., T. I, p. 253 — — — SALLES : op. cit., p. 171.
17. PIGEONNEAU : op. cit., T. I p. 327 et note 1.
    — — — SALLES : op. cit., p. 177
    — — - GERMAIN : op. cit., T. II, p. 87.

privilège commercial (107). C 'est l'ambassadeur de Venise qui obtint du succes dans cette affaire (108).

Toutefois, il faut noter qu'après la chute de l'Etat Mamlouk, le sultan Ottoman Selim 1er accorda pendant son séjour au Caire en 1517 au consul des Catalans et des Français par interim, Philippe de Peretz, la première capitulation confirmant les anciennes concessions faites à la France en Egypte (109).

* * *

Enfin le commerce français avec l'Etat Mamlouk après J. Cœur ne connut pas la profonde detresse qui l'avait caracterisé avant lui, mais la France malgré les efforts de ses rois perdit peu à peu sa place commerciale en Egypte.

Les rélations commerciales entre les deux pays n'étaient pas assez florissantes pour permettre le retabilssement à Alexandrie d'un fondouk et d'un comptoir pour les Français, et ceux-ci n'y faisaient la négoce qu'en passant.

Leur consul Philippe de Peretz que nous voyons à Alexandrie depuis 1498 est un Barcelonais d'origine. Il y representait les interêts de ses compatriotes d'abord, puis ceux des Français par interim.

Cependant on peut justement dire que le consulat de Philippe de Peretz n'était que l'ombre du consulat établi en 1447 par les efforts de J. Cœur.

Les Vénitiens mirent un grand empressement à faire croire au sultan que les actes, dont il avait si justement à se plaindre, avaient été commis par les Français leurs énnemis et que, pour leur part, ils les deploriaient vivement. Ils dirent au sultan que Louis XII, roi de France, avait pour vassal le Grand Maître de Rhodes Aimery d'Amboise, et que le frère de celui-ci, George, avait été son ministre ; le Grand Maître n'oserait donc pas repousser l'invitation qui lui serait faite de rendre les prisonniers Maghrebiens et les vaisseaux égyptiens capturés dans le golfe d'Ayas.

Le sultan prit la résolution de s'adresser d'abord directement à Aimery d'Amboise. L'embargo avait été mis à Alexandrie sur cinq navires ragusais ; l'un d'eux fut désigné pour conduire à Rhodes deus réligieux franciscains chargés de faire connaître au Grand Maître les reclamations du sultan. Ceux-ci échouèrent completement dans leur mission ; le Grand Maître leur declara qu'il ne consentirait jamais à restituer les navires égyptiens et qu'il ne relâcherait pas sans rançon les prisonniers maghrebiens (104).

C'est alors qu'en 1511 un marchand ragusais fut envoyé en France porteur d'une lettre pour louis XII et d'un acte confirmant pour les Français la liberté du commerce dans les ports de l'Egypte et de la Syrie et accordant au pélérins l'autorisation de se rendre en palestine et d'en visiter les sanctuaires. L'arrivée de cet envoyé produisit en France une impression favorable et le roi decida d'envoyer un de ses secretaires André le Roy, comme an ambassadeur auprès le sultan Ghoury (105).

A la nouvelle de cette ambassade française Vénise choisit Domenico Trevisan et le chargea d'aller négocier auCaire le rétablissement des rélations de commerce et d'amitié, la réinstallation des réligieux latins dans les couvents et les sanctuaires en Palestine, et la sécurité des pélerins qui se rendraient aux Lieux-Saints (106).

Arrivé au Caire le 11 muḥarram 918 / 29 mars 1512 l'ambassadeur français fut bien reçu par le sultan. Puis, il attendait de Rhodes une reponse au sujet des réclamations du sultan et des concessions qu'il esperait dévoir êtres faites par le Grand Maître. Cette démarche n'eut aucun resultat et l'ambassadeur dut se rendre lui-même à Rhodes en laissant au Caire son fils comme otage. Cependant il échoua dans sa mission à Rhodes et n'obtint par suite aucun

détrouit de Bab al-Mandab, puis penetra en Mer Rouge et menaça les Lieux-Saints musulmans. Et dans le bassin oriental de la Mediterranée les Chévaliers de Rhodes doublèrent leurs raids contre les côtes égyptiennes.

C'ets ainsi que leurs corsaires attaquèrent en 1509 le puissant fortin qui avait été construit l'année précedente à Tineh, sur le littoral méditerranéen à l'est de l'isthme de Suez (101).

L'année après cinq barques françaises étaient arrivées à Alexandrie. Après avoir vendu leurs cargaisons, elles avaient pris à bord, comme passagers, des Maghrebiens et leurs familles qui se proposaient de retourner dans leurs pays. Ces barques furent capturées pres de Castel-Rouge et conduites à Rhodes par des galères des Chivaliers. Le Grand Maître les relâcha immediatement, mais il retint prisonniers les Maghrebiens dont il confisqua les merchandises evaluées à 40,000 ducats.

On insinua au sultan, en lui donnant cette nouvelle, que les patrons des barques françaises avaient commis un acte de trahison en prévenant le Grand Maître de leur départ et qu'ils étaient de connivence avec lui pour partager le butin fait sur les Maghrebiens. Le sultan Ghoury, dans un transport de fureur, ordonna d'arrêter Philippe de Peretz consul des Catalans et des Françа is par interim à Alexandrie, ainsi que tous les Français résidents à cette ville et leurs marchandises furent mises sous séquestre (102).

Quelques mois après (août 1510) eût lieu en rade d'Ayas l'attaque de la flotte égyptienne par les galères des Chevaliers de Rhodes. Dix-huit navires chargés de bois de construction, d'armes et de munitions furent emmenés à Rhodes.

La nouvelle de ce désastre exaspera le sultan ; par ses ordres tous les navires francs furent saisis dans les ports de l'Egypte et de la Syrie ; tous les marchands étrangers établis dans ses Etats furent arrètés, chargés de chaines et conduits au Caire et toutes leurs marchandises furent confisquées. Les religieux latins furent expulsés des sanctuaires ; le gardien du mont de Sion fut mis à la question et contraint de livrer 4.000 ducats cachés dans la sacristie ainsi que des ornements sacerdotaux et des pièces d'argenterie d'une valeur de 5.000 ducats (103).

atteste cet état des choses; celui-ci, de passage à Alexandrie en 1483, signale que le fondouk de Marseille existait encore mais qu'il était vide (96).

Cependant les Vénitiens et les Florentins prenaient la première place dans les marchés français. Doriole, l'intendant des finances de Charles VIII, dans son rapport de 1488, faisait remarquer au roi cet état des choses et que la France avait assez de vaisseaux pour faire elle-même son commerce. Charles VIII défendit alors l'entrée en France de toute marchandise du Lévant qui ne serait pas transportée par des vaisseaux français. En même temps il envoya au Caire, le général de Langue doc Guillaume Briçonnet en mission auprès du sultan Qaitbay.

Le roi voulait recommander les marchands français à la protection du souverain mamlouk et de lui prier la permission de nommer un nouveau consul de France à Alexandrie. En plus, son émissaire fut chargé de traiter avec le sultan des marchandises saisies par l'autorité d'Alexandrie en 1475 (97).

A ce moment Qaitbay-essayait de toutes ses forces pour disposer de la personne du prince ottoman Djem, prisonnier en France. Sa présence, à la tête des troupes egyptiennes, en guerre contre les troupes ottomanes en Asie-Mineure, serait sans doute d'un effet moral considerable. C'est pourquoi Qaitbay donna bon acceuil à Guillaume Briçonnet, mais il demanda, en echange, que Djem lui fut remis. Mais les négociations entammées depuis 1487 entre Charles VIII et le pape Innocent VIII et rélatives au transport de Djem en Italie étaient en bonne voie, et le roi se trouvait finalement obligé de refuser la demande de Qaitbay (98).

Plus tard, et précisement en 1498, le consulat français à Alexandrie fut rétablie. Cependant le roi Louis XII dut recourir au consul des Catalans Philippe de Peretz pour défendre les intérêts des Français à Alexandrie (99). En effet les marchands français, jusqu'à cette date, ne faisaient la négoce à Alexandrie qu'en passant et la colonie européenne d'Alexandrie ne se composait plus que de Vénitiens, de Genois et de Catalans (100).

Dès le début du XVI° siècle les évenements désastreux assaillèrent l'Egypte. C'est en 1506 que la flotte portugaise put facilement organiser le blocus du

L'année 1475, une cinquième galée, la Sainte-Marie—la—Blanche, faisait le voyage entre Marseille et Alexandrie. A Alexandrie, un marseillais qui faisait la négoce sur cette galée mourut et ses marchandises furent rassemblées et furent confiées à Marioto Scarsalopi, consul des Florentins et des Français par interim. Ce qui compliqua l'affaire c'est que le capitaine de la galée s'était saisi de quelques négociants alexandrins (88), parmi ceux-ci-se trouvaient des agents commerciaux du sultan « Tuggar al-Sultan ». Puis le capitaine quitta la ville sur l'heure et fit voile avec ses prisonniers vers son pays (ramadan 880/ décembre 1475-janvier 1476). Des représailles furent exercées par les gens du sultan et les marchandises provenant de la galée française saisies (89).

Il fallut l'intervention du Grand-Maître de Rhodes pour arranger la chose; celui-ci fit rendre les négocients capturés et en échange obtint la restitution des marchandises saisies par l'autorité d'Alexandrie, au du moins de leur valeur(90). En muharram 881/ avril—mai 1476 les négociants prisonniers arriverent à Alexandrie après avoir versé une forte rançon pour obtenir leur libératoin (91). Mais l'affaire des marchandises saisies ne fut pas reglé qu'en 1489 (92).

C'est vers la même époque que la compagnie des galées de France dut suspendre ses opérations. Et comme Louix XI ne,pouvait admettre que le commerce méditerranean fut abandonné aux marins étrangers, il chargea Michel Gaillard, général des finances, de sauver l'affaire en son nom. Michel Gaillard racheta en 1476 les trois galées qui restaient encore à flot et s'etablir à Marseille pour diriger l'entreprise.

Marseille retrouva donc une importance accrue en voyant son rôle de tête de ligne des galées de France. D'autre part , Louis XI chargea cette même année Michel Gaillard d'une mission auprès du sultan Qaitbay (93).

En effet le temps n'était pas favourable pour faire cette démarche, et par conséquence cette mission ne realise aucun succes. Les rélations commerciales de France avec l'Egypte furent interrompués dépuis 1475 et les marchands français n'ont plus envoyés de commande à Alexandrie (94). En plus, le consulat français était resté dépuis cette même année sans titulaire, et les marchands français n'avaient plus à Alexandrie de comptoirs, et si on les voyait à Alexandrie c'était uniquement en passant (95). L'observation du dominiçain Felix Faber

Les intérêts de la chrétiente,les sentiments de probité et d'humanité semblent compter bien peu pour eux et l'exportation des armes, des monnaies et des esclaves en Egypte était un signe de temps et chose courante. Pourtant, nous ne pouvons, négliger l'oeuvre de J. Cœur qui fut un des agents essentiels de la renaissance commerciale de la France.

* * *

Dès 1452 les services des galères de France au Lévaut furent presque arrêtés. Et sous la pression des événements Charles VII essaya de continuer à developper le commerce du Levant auquel l'arrestation de J. Cœur avait porté un grave préjudice (80).

D'autre part J. Cœur eut des imitateurs comme Etienne Sollelet et Bernard de Vaux, négaciants de Montpellier et proprietaires après lui de quatre de ses galères (81). Jean de Village, le meilleur facteur de J. Cœur et son neveu par alliance fut accordé en février 1456, des lettres de grâce et le roi Charles VII lui rendit ensuite son titre de capitaine des galées de France (82). Cependant J. de Village ne retourna jamais en France et reprit à Marseille, ou il fonda vers 1460 un grand comptoir commercial, les éfforts de son maître (83).

Le roi devait intervenir officiellement pour proteger les hauts intêrets de la France. C'est ainsi vers 1455 au 1456 qu'il envoya au sultan mamlouk Inal une lettre lui recommandant les marchands français (84). Mais, encore une fois, la guerre entre Charles VII et le roi René d'une part, et Alphonse V d'Aragon d'autre part troubla la regularité des départs des galées de France vers le Lévant des 1458 jusqu'à 1463 (85).

A ce moment le trafic franco-provençal du Lévant était à peu près inexistant ; tous les échanges avec l'autre extrémité du bassin méditerranéen se faisait par l'intermédiaire des navires vénitiens ou florentins. Louis XI, qui monta sur le trône en 1463, n'admit pas cet état des choses. Le 1er novembre de cette année il interdit l'entrée des épices en France autrement que par les ports du Languedoc et du Roussillon et Lyon. L'année après deux galées furent mises en chantier à Beaucaire et leur premier départ vers le Levant fut annoncé pour le 15 mars 1465 d'Aigues-Mortes. En 1466 deux autres galées furent baties et le commandement de cette flotte marchande fut confié à Jean de Village (86). L'année 1470, on signale le retour d'Alexandrie de 3 galées et en 1472 de 2 galées, et une artre au début de 1474 (87).

qu'erait à appliquer à lui seul par vertu, ce en quoi les diverses nations du monde labeurent ensemble par divers regards » (68).

De Montpellier et de Marseille sa flotte partait chargée de draps de Beauvais, de Narbonne, de Toulouse, de Carcassonne, de Béziers (69) de toiles blanches de Narbonne, de bois de toute espèce, de métaux : fer, plomb, étain, cuivre (70) d'objets de menu quincaillerie, d'or et d'argent monnayés ou en lingots malgré les prohibitions royales et pontificales. Ce qu'il ne produisait pas lui-même, il allait le demander directement aux producteurs se passant le plus souvent d'intérmédiaires, utilisant ses nombreux comptoirs.

Ses navires abordaient dans les terres égyptiennes, mais on les voyait, en outre, faire la navette entre Alexandrie, les ports de Syrie, Chypre et Rhodes en transportant les marchandises de ces différents pays (71). Au rétour ils rapportaient les étoffes du Levant, draps d'or et de soie de Damas, velours d'Alexandrie, satins et taffetas du Caire, les tapis de la Perse, le baume et l'encens de l'Arabie, les épices de l'Inde, les porcelaines de Chine (72). A l'occasion ils transportaient aussi les passagers chrétiens et musulmans (73), et faisaient même la traite de esclaves (74). Au rétour ils déchargaient leur cargaisons à Montpellier ou à Marseille. Parfois ils remontaient le Rhone et concurrencant les Catalans et les Italiens et ravitaillaient Barcelone. (75).

* * *

Mais, le 31 juillet 1451, Charles VII, paussé par les détracteurs de J. Cœur, jaloux de sa richesse et de son luxe, le fit arrêter. Parmi les accusations qu'on lui porta, trois nous interessent. On l'accuse d'avoir envoyé aux musulmans des harnais de guerre (76), une grande quantité d'or et d'argent monnayé (77), de leur avoir renvoyé un jeune esclave (78).

Après un long procès, il fut condamné le 29 mai 1453 à la confiscation de ses biens, au bannissement perpétuel et à de fortes amendes (79).

La defense de J. Cœur en ce qui concerne ces trois points, certainement fondés, fut très faible. Certes, ce qui comptait pour lui, comme pour les Vénitiens et les Génois, c'était d'obtenir les bonnes grâces des sultans mamlouks qui monopalisaient le commerce d'Orient.

Également, cette année -la, l'Eglise etendait sa protection à son commerce avec le Levant. Il obtint du Pape Eugéne IV, par l'intermédiaire de l'evêque d'Agde, une bulle portant privilège de commerce avec les musulmans pendant 5 ans, et un peu plus tard Nicolas V, lui accorda l'extension de cette concession à sa vie entière avec, en plus, le droit de transporter les pèlerins à Jérusalem (62).

En 1447 il profita des bonnes grâces dont il jouissait auprès de Charles VII pour donner à ses rélations commerciales avec l'Egypte un caractère officiel Il envoya son neveu Jean de Village muni d'une lettre de roi auprès du Pape Nicolas V pour obtenir son autorisation de porter des présents au suttan Gaqmaq Le Pape permit d'envoyer seulement «deux harnais complets», mais Jacques Cœur depassa le chiffre fixe et les fabriquait somptueusement (63). Au nom du roi deux de ses fidèles servitéurs se presentêrent au sultan et solitcitèrent sa protection, la franchise du commerce français et l'installation d'un consulat français à Alexandrie. Gaqmaq échangea de cadeaux avec Charles VII et Jacques Cœur, et dans une lettre adressée au roi, il accorda les privelèges sollicités (64).

Pendant toute cette période c'est Montpellier qui était le centre de l'activité de Jacques Cœur. Son crédit officiel lui permettait d'imposer ses volontés à la bourgeoisie du Midi. «Perbier Sobeyran, possedait pour le commerce avec le levant sept grandes galères et un personnel de 300 facteurs, patrons de galères pilotes et commis. Pour consolider son commerce avec le levant, il fonda un comptoir à Marseille en 1449, puis quittant finalement Montpellier il fit de Marseille le centre principal de ses opérations. En 1451, l'année de son arrestation il avait une douzaine de galères, des nombreux comptoirs en France et sur les rives de la Méditerranée (66).

Il est bon de s'arrêter ici pour endiquer les marchandises qui furent l'objet de son commerce avec l'Etat Mamlouk. Il nous parait interessant de savoir que Piloti énumirant les marchandises importées en Egypte par les nations europeén-nes ne parle pas de celles de la France (67). Cependant Georges Chastellain, chroniqueur contemporain de J. Cœr nous parle en ces termes, «tout le Levant J. Cœur visita, il n'y avait en la mer d'Orient mât revesu sinon des fleurs de lys. Alexandrie et al-Kaire lui étaient «Colchidies portes» et ne volaient ses yeux qu'en la circulation du monde pour tout seul l'estraindre,

registres de compte qui furent cachés par Jean de Village durant son procès (52) D'autre part les auteurs egyptiens s'intéressent peu aux rélations de leur pays avec les autres puissances européennes (53).

Les historiens contemporains émettent des hypothèses differentes : certains ne signalent ses comptoirs à Montpellier qu'en 1438 ou (54) 1440 (55), d'autres soutiennent plus justment, nous semble t-il, que ses rapports avec l'Egypte suivirent de près son voyage de 1432 (56). On insiste sur le fait qu'il ne cessa jamais d'être marchand bien qu'il occupât les postes royaux de Maître des Monnaies a Bourges en 1435 et d'Argentier du roi charles VII en 1439 qui le mirent hors de pair parni les commerçants français (57). Enfin, disons que la fin du règne de Barsbay vit le développement du commerce français et le début du règne de Gaqmaq son brillant essor.

Avec une habilité mercantile jacques Cœur sut s'introduire dans les bonnes grâces de Gaqmaq. En 1442 le sultan aurait expulsé les vénitiens de ses possessions et confisqué leurs biens si les facteurs de Jacques Cœur n'étaient entervenus pour faire rapporter cette décision (58). Pour bien mesurer ce fait, sigualons que vingt ans auparavant, en 1422, l'ambassade florentine au Caire auprès de Barsbay pour retablir le commerce entre Florence et l'Egypte, n'avait pas pu obtenir du sultan la libération des consuls de Gênes et de Venise à Jérusalem, des moines franciscains du monastère de Sion et de 13 pèlerins latins qui étaient retenus en captivité (59).

Après l'échec des trois expéditions dirigés par l'Egypte contre Rhodes en 1440., 1442 et 1444, le traité de paix signé en 1445 entre le sultan et le Grand Maître de l'Ordre le fut grâce aux démarches des agents de Jacques Cœur. Sur un de ses navires, cette année la un délégué de l'Ordre fut transporté à Alexandrie et en 1446 ses bateaux ramenaient à Rhodes un grand nombre d'esclaves et de captifs chrétiens qui avaient été arrêtés par les troupes égyptiennes pendant le siège de l'île (60).

Et pour conserver les faveurs de Gaqmaq il accabla de sa colère Michel Teinturier qui avait transporté en 1446 à Montpellier sur une de ses galères un esclave chrétien et ordonna son retour à Alexandries (61).

C'est Jacques Cœur qui affranchit la France commercialement de l'onéreau entermediaire de Italiens et des catalans, qui lui rendit son prestige en Orient, et qui reveilla sur les côts méditerraniennes des France une grande activité économique. Cependant, avant de commencer à etudier son œuvre et sans vouloir diminuer son génie commercial, il est bon de remarquer, d'une part qu'avec la fin de la guerre de Cent Ans se manifeste spontanement une veritable renaissance commerciale, d'autre part que les liens commerciaux avec l'Egypte s'ils étaient très relachés, n'etaient pas rompus définitivement :

Les ports meridionaux de la France unissaient leurs efforts pour conserver quelque activité malgré les sombres années qu'ils traversaient. Les Français se risquaient à envoyer la seule galère qu'ils possedaient ; celle de Narbonne, dans ses tournées annuelles vers l'Egypte et la Syrie (48). Elle appartienait à jean Vidal de Narbonne, mais elle navageait pour tous des bourgeois de la ville et pour de nombreux Montpellierains reduits à trafiquer sur le bâteau d'une autre cité. Nous possedons la liste des societés de premier degré (parmi eux Jacques Cœur) et de deuxième degré (36 associés : hommes, femmes, veuves et filles de commerçants) qui participèrent aux frais du voyage (49).

Après avoir touché Beyrouth, la nef fit la navette deux fois entre ce port et Alexandrie et elle se chargea de précieuses marchandises[50]. Mais, au retour, sur la côte de Corse où elle demanda du secours après une avanie, elle fut victime des corsaires de l'île. Les marchands rentrèrent «nus jusquà la chemise». Apres la répartition des quotités aux associés, Jacques cœur reçut une indemnité de 27 livres tournois (10 ducats) et la même somme d'estimation des vêtements et de l'argent qu'on lui avait derobés (51).

Ce voyage de 1432 est donc un malheureux échec à une epoque où la France est plongée dans une effroyable misière. Mais si Jacques Cœur rivient denué de tout, il est maintenant renseigné sur les conditions dificilles du commerce en Mediterranée et prêt à tirer parti de son expèrience.

Sa grande prospérité se situe entre 1442 et 1451. Comment en une dizaine d'années a-t-il pu edifier une aussi grande fortune ? Pour répondre à cette question manquent les documents français de l'epooque, en particulier ses

Dès le début du XIVe siècle nous trouvons que les Marseillais possedaient un fondouk à Alexandrie (36). En 1332 le voyageur Mandeville s'etait embarqué sur une galère de Marseille pour aller visiter l'Egypte (37). L'année 1380 deux galères marseillais furent attaquées et pillées à leur retour de Beyrouth par l'amiral vénitien Carlo Zeno (38). De plus le Seigneur d'An glure qui passa à Alexandrie en 1395, consacre dans sa rélation quelques lignes à cette ville ; et nous dit qu'il y remarqua les fondouks des Vénitiens, des Génois, des Catalans des Chypriotes, des Napolitains, des Anconitains, des Marseillais, des Candiotes et des Narbonnais (39).

Aux premières années du XVe siecle, ses rélations savec l'Etat Mamlouk étaient encore assez importantes pour justifier l'existence à Alexandrie d'un consul representant les interêts des Marseillais (40).

Cependant quelques années plus tard De Lannoy (1421—1423) nous parle de «couchier de Marseille» à Alexandrie, mais à son dire «à present n'y a nul marchand » (41) En effet la cause de la décadence du commerce de Marseille dans la 1er moitie du XVe siécle fut essentiellement la guerre qu'elle soutint contre le roi d'Aragon qui. vitorieux, s'empora de la ville en 1423 (42).

Marseille renonça à peu près à son trafic traditionnel avec le levant jusqu'en 1431. Il faut noter cépendant les efforts désespérés de quelques uns de ses négociants pour lutter contre la décadence malgré la guerre et l'insecurité des mers (43). Mais la trêve qui suspendit les hostilités entre les Princes d'Anjou fut le signal d'un renouveau du commerce (1431—1435). Une ou deux galères, proprietés de marchands ou d'armateurs marseillais, portaient en Syrie et en Egypte les produits régionaux.(44). Les bonnes conditions faites au commerce attiraient les étrangers: les Avignonnais vinrent y acheter du poivre et y vendre de l'huile et du drap (45).

A cette époque Marseille se trouvait en pleine décadence et presque ruinée(46) Elle ne trafiquait avec l'Orient que grâce aux navires étrangers qui parfois y faisaient escale et on peut dire que le commerce avec l'Etat Mamlouk de Narbonne, de Montpellier et de Marseille était presque unifié (47).

* * *

Si nous abordons le XVe siècle nous trouvons encore les marchands de Montpellier sur place à Alexandrie. En 1404 les autorités égyptiennes les maltraitaient et finalement les conduisaient en captivité au Caire et confisquaient leurs biens évalués à 60.000 frs (26). L'un de ses riches bourgeois, Uzun Teiuturier, faisait la négace à son compte avec l'Egypte à la même époque et l'année 1410 se chiffra pour lui en lourdes pertes (27). Notons, aussi que charles VI, dans une missive adressée aux Montpellierains le 5 avril 1410 reconnaissait leurs louables efforts et il facilitait leurs transactions commerciales avec Alexandrie, Damas et Beyraouth (28). Par la chronique de la Mairie on constate que Montpellier était en communication normale avec l'Orient, puisque la ville connut rapidement la nouvelle de la victoire rémportée par les Mamlouks sur les Chypriotes le 6 Juillet 1426 (29).

Cépendant, malgré l'opiniatrété et les efforts désésperés de ses marchands. Montpellier était en 1430 en pleine décadence. Elle, qui en 1376 possedait six navires, en était reduite en 1432 à trafiquer sur la galère de Narbonne, la fameuse «Notre Dame et St. Paul» (30).

* * *

Les rélations commerciales de Marseille avec l'Egypte remontait à l'epoque de Charlemagne. Les commerçants de Lyon et Marseille allaient faire la négoce avec Alrxandrie deus foi par un (31).

C'est aux XIII^e^ siècle que le commerce de Marseille avec le Levant atteint sa grande prospérité. Rappelons l'incident des corsaires marseilleais en 1272 au temps du sultan Baibars I (32).

Cépendant certaines circonstances furent fatales au commerce de cette ville : la perte de l'independance politique, puisque Marseille tomba aux mains de Charles d'Anjou comte de Provence en 1257, et la chute de St. Jean d'Acre en 1291 (33). En plus, ses rélations avec l'Orient furent reduites à bien peu de chose du fait de la guerre qui opposait les princes d'Anjou et d'Aragon (34).

Mais son effacement ne fut jamais complet car elle jouissait d'une rade facilement accessible. De plus, tandis qu'en France, des droits très lourds frappaient les marchandises importées, on n'y levait que des taxes moderées(35). C'est pourquoi ses rélations avec l'Etat Mamlouk, si elles étaient fort affaiblies, n'etaient pas completement rompues.

accordèrent la charte communale (15). Jayme 1er d'Aragon decreta le 27 décembre 1264, une remission en faveur de certains marchands, puis autorisa les consuls catalans en Egypte et en Syrie à proteger ses citoyens de Montpellier(16). Le 2 Janvier 1267, le même roi émancipa les Montpellierains d'Alexandrie de la tutelle du consul catalan et il y envoya deux bourgeois : Bernard des Moulins et Bernard du Pilan, investis de l'autorité royale et chargés de choisir un consul parmi la colonie montpellieraine à Alexandrie (17).

Et pour faciliter son commerce, Montpellier frappa des monnaies du type en usage dans les pays musulmans jusqu'à ce que le Pape Clement IV adressa unblâme sévère à son évèque. (18) De sa part le gouvernement mamlouk comblait les négaciants de Montpellier de sa grâce. L'example suivant en donne la preuve : d'après les démarches faites en 1332 par l'un d'eux , Guillaume Bonnemains, auprès du sultan Nāṣir Moḥ. b. Qalaoun, une église du Vieux Caire fut rendue aux chrétiens (19).

Mais en 1349 Montpellier sous l'obediance des rois de France, voit commencer sa décadence malgré les avantages commerciaux qui lui furent concédès(20). Les troubles déjà citées, en sont la cause principale. Ajoutons les rigueurs de la fiscalité royale et la concurrence d'autres villes marchandes comme Beaucaire sur la voie commerciale du Rhône et Aigues-Mortes sur la côte mediterranien(21).

Pourtant la ville ne cessa jamais de trafiquer avec l'Egypte comme l'attestent certains faits. On a trauvé sur la plage de Maguelonne un dirhem frappèsous le régne de Malik Manṣūr Mohammed(22). En 1367 Montpellier obtint du Pape Urbain V, le privilège d'expedier chaque année a Alexandrie deux navires, puis en 1382 six, à condition qu'ils ne portèraient pas en Egypte de marchandises prohibées (23).

C'est ainsi que les négoçaiants de Montpellier regagnièrent leur activité aux marchés d'Egypte. Et cela exigeait la presence de leur consul à Alexandrie. Dans trois pièces justificatives on nous presente les lettres de provisions de deux consuls de Montpellier dans cette ville en 1386, 1392 et 1400 (24). En plus on signale deux autres documents concernant le commerce avec l'Egypte : le 1er est un acte de commandite d'un négaciant sur le navire Notre Dame et ST. Jean le 7 août. 1387 ; le 2e est un engagement d'un commis marchand sur la Sainte-Catherine le 26 Octobre 1389 (25).

à 1349, la 2[e] de 1257 à 1481, c'est Aigues-Mortes qui doublait l'effort de Narbonne au nom de la France. Dans ce but les rois St. Louis d'abord, puis Philippe III le Hardi, Jean le Bon, Charles V, Charles VI, et Charles VII leur avaient octrayés certains privilèges en ce qui concerne le commerce du Levant (5). De ces deux ports partaient pour l'Egypte et la Syrie les deux navires designés sous le nom de «Galères de France» (6).

Il nous semble que leurs rapports, particulierement avec l'Egypte, furent relachés dans la 2e moitié du XIVe siècle pour les raisons déja indiquées. A cet égard l'histoire du fondouk de Narbonne à Alexandrie est très significative.

Au début de ce siècle, les Narbonnais possedaient à cette ville un fondouk(7). En 1377 on les voit obtenir du sultan al-Manṣūr 'Alā' al-Din 'Alī quelques privilèges commerciaux (8). Cependant, d'après Frescobaldi et le Seigneur d'Anglure qui séjournèrent à Alexandrie en 1384 et 1395 on sait que le gouvernement mamlouk accorda à leur consul dans cette ville de loger les pèlerins latins dans leur fondouk en éxigeant d'eux le droit du sultan «Muǧib al-Sultan» (9). Ce privilège acquis n'avait aucune signification religieuse ou politique et ne donnait à la France aucun droit de protectorat sur les pèlerins de l'Occident. En effet les négaciants avaient la priorité sur les pélerins et les voyageurs pour obtenir des chambres dans les fondouks. Et cela indique que le trafic entre les deux pays était faible, qu'il arrivait très peu de marchands et qu'il y avait en conséquence des places dans le fondouk de Narbonne pour héberger les pélerins (10). Mais Lannoy, en 1421, omet de signaler ce fondouk (11) et cela prouve l'absence de la colonie narbonnaise à Alexandrie. Cette observation coïncide d'ailleurs avec l'histoire de Narbonne qui'était en pleine décadence et presque ruinée ; en 1430 elle renferme à peine 3000 âmes (12).

* * *

Les Montpellierains viennent commercer en Egypte dépuis l'epoque des croisades (13). Benjamin de Tolède les signalent à Alexandrie ainsi que des Egyptiens à Montpellier (14).

Grâce au patronage des rois d'Aragon, le trafic de Montpellier atteignit son point culmimant tout au cours du XIII[e] siècle. La ville passa sous leur souveraineté par le marriage diplomatique du roi d'Aragon avec l'unique héritiere des Guilhems le 12 Juin 1204. Deux mois après, les deux époux lui

LES RÉLATIONS COMMERCIALES ENTRE L'ETAT MAMLOUK ET LA FRANCE

Par

AHMAD DARRAG

La malheureuse fin de la septième croisade donna une chance à la France d'entretenir des rapports commerciaux avec l'Egypte, car c'est pendant sa captivité en Egypte que St. Louis obtint le droit d'établir un consulat à Alexandrie (1).

Depuis cette époque, les commerçants des ports meridionaux de la France : Narbonne, Aigues-Mortes, Montpellier et Marseille frequentaient Alexandrie et les ports Syriens. Mais durant le XIV[e] siècle et le commencement du XV[e] siècle, ces trois premiers ports voient la décadence de leur commerce ; décadence causée d'une part par l'ensablement progressif de la côte à cause de la rupture des barrages de l'Aude en 1320, la peste noire en 1348, le pillage du Prince Noire et de ses bandes en 1355 et finalement les ravages des grandes compagnies (2). Marseille entrainé par les princes de la Maison d'Anjou dans une lutte vaine contre les Aroganais connait le même déclin (3).

Le voyage que fit au Levaut en 1432 la galère de Narbonne (Notre Dame et Saint Paul), la seule que possedaient les Français, marque bien l'état lamentable de ce commerce (4). Mais à partir de cette date et avec Jacques Cœur, la France regagne son prestige parmi les autres nations commerçantes avec l'Etat Mamlouk, prestige qu'elle ne reussit pas à conserver. C'est notre but, dans cet article, d'esquisser le tableau de ces rélations commerciales.

Narbonne était, au début du Moyen-Age une grande cité qui, étendait son activité dans toute la Mediterranée et ceci depuis la domination romaine. Montpellier et Marseille ayant échappé à la suzeraineté française, la 1[er] de 1204

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ; in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Library Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the

Dean of the Faculty of Arts,

Giza, U. A. R.

Back numbers of this Bulletin are available

at 30 P. T. for each Part

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXV—PART II

DECEMBER 1963

THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIV. PRESS
1968

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXV—PART II

DECEMBER 1963

THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIV. PRESS


Bibliotheca Alexandrina
0531339